اللامبالون

ألبرتو مورافيا

19.7.2017

ترجمتها عن الإيطالية

أ.د. سهيمة سليم

رواية

اللامبالون

رواية

ألبرتو مورافيا

ترجمتها عن الإيطالية

أ. د. سهيمة سليم

دار شرقيات

اللامبالون

دار شرقيات

هذه هي الترجمة الكاملة لرواية:
Gli indifferenti
Alberto Moravia
© Garzanti Editore
اللامبالون: رواية
ألبرتومورافيا ؛ ترجمتها عن الإيطالية: أ. د. سهيمة سليم
الطبعة الأولى ٢٠١٠
© حقوق نشر الطبعة العربية محفوظة لدار شرقيات ٢٠١٠

دار شرقيات
٥ ش محمد صدقي، هدى شعراوي.
الرقم البريدي ١١١١١
باب اللوق، القاهرة
ت: ٢٣٩٠٢٩١٣، ٢٣٩٣١٥٤٨
sharqiyat2010@yahoo.com
غلاف: أحمد كامل

تم نشر هذا الكتاب بالتعاون مع وزارة الخارجية الإيطالية، ومؤسسة بنك صقلية، ووزارة الأنشطة الثقافية

Questo libro e` stato pubblicato con il contributo del
Ministero degli Affari Esteri Italiano
Fondazione Banco di Sicilia
Ministero per i Beni e le Attivita` Culturali

مورافيا، ألبرتو
اللامبالون : رواية / ألبرتو مورافيا ؛ ترجمتها عن الإيطالية: سهيمة سليم – ط ١. – القاهرة: دار شرقيات للنشر والتوزيع، ٢٠١٠.
٣١٢ ص ؛ ٢٠X١٤ سم.

رقم الإيداع ١٩٨٦٢ / ٢٠١٠ تدمك ISBN 978-977-283-347-0

رواية – العنوان
ديوى ٨١٣

ألبرتو مورافيا

ألبرتو مورافيا، كاتب إيطالى ولد فى روما سنة ١٩٠٧ م وتــوفى فى ٢٦ سبتمبر سنة ١٩٩٠ فى مدينة روما التى عاش فيها جل حياتـــه. يعتبر من أشهر كتاب إيطاليا فى القرن العشرين، وهو يكتب بالإيطاليـــة ويتكلم اللغتين الإنجليزية والفرنسية. ولد فى عائلة ثريّـــة مـــن الطّبقـــة الوسطى. أبوه اليهوديّ "كارلو" كان رساما ومهندسا، وأمـــه الكاثوليكيّـــة كانت تدعى تيريزا ليجيانا. لم ينه ألبيرتو دراسته لأنّه أصيب بالسل الذي أقعده فى الفراش لخمس سنوات ممّا جعله يحب المطالعـــة. فـــى ســـنة ١٩٢٩ كتب مورافيا أوّل مؤلفاته Gli Indifferenti "اللامبالون" ، ثـــمّ بدأ حياته المهنيّة ككاتب فى "مجلّة ٩٠٠ " حيـــث نشـــر أوّل قصصـــه القصيرة.

سنة ١٩٦٧ سافر ألبيرتو مورافيا إلى الصـــين واليابـــان وكوريـــا الجنوبية، وفى سنة ١٩٧٢ زار إفريقيا حيـــث كتـــب: A quale tribù appartieni "إلى أي قبيلة تنتمى؟" ، التى نشرت فى نفس السّنة. ثم فى سنة ١٩٨٢ زار هيروشيما في اليابان.

تميزت أعماله الأدبية بالبراعة والواقعية لنفاذه إلى أعمـــاق الـــنفس البشرية، فقد هاجم مورافيا الفساد الأخلاقى فى إيطاليـــا، ويتســـم أدبـــه بتبسطه فى سرد مشاعر الجنس لدى أبطال رواياتـــه والتـــداخلات فـــى الأحداث التى تنشأ عبر تلبية تلك المشاعر والرغبات، حيث إنـــه يهـــتم بالتركيز على التحليل النفسى لنوع العلاقة بين الجنسين أوالزوجين وهذا واضح في روايته "الاحتقار".

ترجمت معظم أعماله إلى عدة لغات عالمية، كما تم تحويل العديــد من رواياته إلى أفلام سينمائية.

سنة ١٩٩٠ وُجد مورافيا ميتاً فى حمام بيته فى روما. فــى نفــس السنة نشرت سيرته الذاتية Vita di Moravia "حياة مورافيا".

الفصل الأول

دخلت كارلا ترتدي قميصاً من الصوف البني الخفيف وجونلة قصيرة بقدر يكفى لتلك الحركة التي أتت بها لتغلق الباب، أن ترفعها ما يقرب من شبر فوق الثنايا الخفيفة التي علمها الجورب حول ساقيها.

ولكنها لم تنتبه إلى ذلك، وتقدمت بحذر وهي تحدق أمامها في غموض، وكانت طليقة الحركة متحيرة، وكان ضوء المصباح الوحيد ينير ركبتي ليو الجالس فوق الأريكة بينما كان باقى الصالون غارقاً في ظلام كئيب.

وقالت وهى تقترب: "إن أمى تستبدل ثيابها الآن... وسوف تهبط بعد قليل".

قال الرجل وهو ينحني إلى الأمام "سوف ننتظرها معاً... تعالى واجلسى هنا يا كارلا". ولكن كارلا لم تقبل هذا العرض وظلت واقفة بجانب منضدة صغيرة فوقها مصباح وراحت تحدق فى دائرة الضوء الناجمة عن حاجز النور حيث ظهرت جالية بعض التحف وأشياء أخري بألوانها وصلابتها،على عكس رفاقها الأموات الرخوة المتناثرة فى ظلمة الصالون. راحت تحرك بطرف إصبعها رأساً متحركة لقطعة من الخزف الصيني: على شكل حمار يحمل أثقالا ويجلس فوقه، بين سلتين بوذى ريفى، فلاح بدين ملتف في كيمونو مطبوع بالزهور، وكان الحمار يهز رأسه ويحركها من أعلى إلى أسفل. وكانت كارلا تبدو منهمكة تماماً في عملها هذا وهي مطرقة العينين، مضيئة الوجنتين، رقيقة الشفتين.

وأخيراً قالت من غير أن ترفع رأسها: "هل تتناول العشاء معنا؟" أجاب ليو وهو يشعل سيجارة: "بالتأكيد... ربما لا ترغبين في وجودي". كان يتأمل الفتاة فى اهتمام ولهفة وهو جالس فوق الأريكة منحنى الظهر يحدق في ساقيها وبطنها المنبسطة وينظر إلي ذلك الوادي الصغير من الظلال الذي بين نهديها الكبيرين ويتأمل ذراعيها وكتفيها الواهنتين

ورأسها المستديرة شديدة الثقل على عنقها النحيف. وقال محدثاً نفسه: "يا لها من طفلة جميلة... يا لها من طفلة جميلة!" واستيقظت شهوته من جديد بعد أن هدأت تلك الظهيرة... وارتفع الدم إلي صدغيه، وكان يريد أن يصرخ ليعبر عن شدة رغبته. وضربت كارلا رأس الحمار بيدها مرة ثانية وقالت: "هل لاحظت كم كانت أمي شديدة الانفعال اليوم أثناء تناول الشاى؟ كان الجميع ينظر إلينا". قال ليو: "هذا شأنها"، ومال إلي الأمام وبدون أن يظهرِ عليه أى شيء، قام برفع طرف الجونله، وأدار نحوها وجها غبياً ثائرا دون أن يفلح فى أن يرسم عليه ابتسامة زائفة مرحة وقال: "هل تعلمين أن لك ساقين جميلتين يا كارلا؟"، ولم يحمر وجه كارلا خجلاً وخفضت جونلتها بحركة جافه من غير أن تنطق، ثم قالتٍ وهي تنظر إليه: "إن أمى تغار عليك وبسبب ذلك جعلت حياتنا جحيماً" وأتى ليو بحركة كأنة يقول " وماذا في وسعى أن أفعل؟" ثم اضطجع إلى الخلف فوق الأريكة، وعقد ساقيه وقال فى برود شديد "افعلي مثلي... عندما أرى العاصفة وشيكة الهبوب، أتوقف عن الكلام... فتمر عندئذ وينتهي كل شيء". قالتِ في صوت خافت، كما لو أن كلمات الرجل قد أيقظت فيها غضباً قديماً أعمي "ينتهي كل شيء بالنسبة لك أنت... أما بالنسبة لنا... بالنسبة لي..." وارتعشت شفتاها واتسعت عيناها لفرط الغضب وصوبت أصبعها إلي صدرها وقالت في حدة "بالنسبة لي، أنا التي أعيش معها هنا لا ينتهي الأمر أبداً..." وسادت لحظة صمت ثم أردفت تقول فى صوت خافت صبغ الانفعال كلماته وأضفى عليها نبرة غريبة "لو تدرين كم هو شيء كريه وشقى ومنفر، وكم هي حياة بغيضة أعيشها كل يوم... كل يوم..." وتحركت موجة الحقد الميتة آتية من ناحية الظلمة التى تملأ النصف الأخر من الصالون لتستقر في قلب كارلا وتختفي. وبقيت متسعة العينين لا تتنفس، صامتة تحت وطأة موجة الحقد التي مرت بها وتبادلا النظارات، ثم قال ليو يحدث نفسه مندهشا بعض الشيء إزاء هذا العنف: "يا للشيطان!... إن الأمر جاد" وانحنى وبسط لها علبة سجائره وقال لها في لطف: "سيجارة؟"، وقبلتها كارلا وأشعلتها وتقدمت خطوة نحوه بين سحابة من الدخان وسألها وهو يتأملها من أخمص قدميها حتى أعلى رأسها "إذن إنك لم تعودي تحتملي هذه الحياة؟" ورآها تذعن، وبدا عليها قليل من الارتباك بسبب اللهجة الحميمة التي

اكتسبها الحوار. وأضاف قائلاً: "حسناً... هل تعلمين ماذا يفعل المرء عندما لا يحتمل معيشته؟ إنه يغير حياته". قالت بكلمات زائفة، كمن تشعر بأنها تلعب دورا زائفا ومضحكا: "هذا ما سوف ينتهي بى الأمر إلي عمله" هذا هو إذن الرجل الذى يسوقها إليه مسار غضبها وضغينتها دون إن تدرى؟ ونظرت إليه وقالت لنفسها "إنه ليس بأفضل ولا بأسوأ من الآخرين، بل إنه أفضل بلا شك، ويميزه عنهم قدره الذى جعله ينتظرها تنمو وتنضج طوال عشر سنوات، وها هو الليلة وفي هذه الغرفة المظلمة ينصب شراكه. وقال لها مرة أخرى "غيري حياتك... تعالي وعيشي معي"، وهزت رأسها قائلة "أنت مجنون...!" "نعم" وأمسكها من جونلتها وقال "سننهي خدمة أمك ونبعث بها إلي الشيطان، وأنت ستحصلين على كل ما تريدين، يا كارلا..." وراح يشد الجونلة، وعيناه المتوقدتان تنتقلان من وجهها المذعور المرتاب إلى ساقها العارية التي تظهر فوق الجورب. وأخذ يفكر "اصطحبها إلي بيتى... وامتلكها"، ثم قال وكاد يفقد أنفاسه "كل ما تبتغيه... ملابس... أكداس من الملابس... ورحلات... سنسافر معاً... ، إنها لخسارة حقيقية أن تضحي صغيرة جميلة مثلك بنفسها هكذا... تعالي لتقيمي معي يا كارلا..." .

قالت وهي تحاول دون جدوى أن تخلص ثوبها من يده: " ولكن هذا محال... هناك أمي... هذا محال". عاد ليو يقول وهو يطوقها هذه المرة من خصرها: "سوف ننهى خدمتها... سنبعث بها إلى آخر الدنيا. فقد حان الوقت لينتهي كل هذا... وأنت ستأتين للإقامة معى، أليس كذلك؟ سوف تأتين لتبقى معى فأنا صديقك المخلص الوحيد، الوحيد الذي يفهمك والذي يعرف ما تريدين". وضمها إليه أكثر بالرغم من حركتها المرتاعة وقال لنفسه: "في بيتي... إذن سألبى لها كل ما تريد". كانت تمر هذه الأفكار فى رأسه سريعة كالبرق اللامع فى عاصفة شهواته. ونظر إلى وجهها الشارد، وأدرك أنه يريد أن ينطق بكلمة حنان، حتى يهدئ من روعها فقال "كارلا، حبيبتي...". وأتت مرة أخرى بحركة عبثية لتدفعه عنها، ولكنها كانت أكثر وهنا عن ذى قبل، كانت تسيطر عليها رغبة راضخة، لماذا تصد ليو؟ إن هذه الفضيلة ستلقى بها في أحضان السأم ومقت العادات القديمة. وكان يبدو لها بالإضافة إلى ذلك، وفي شيء من

القدرية، أن هذه المغامرة التى تكاد تكون مألوفة، هي النهاية الوحيدة التي تستحقها حياتها، وبعدها كل شيء سيكون جديداً ؛ الحياة وهى نفسها، ونظرت إلى وجه الرجل الذى مال نحو وجهها وقالت تحدث نفسها: "فلينته كل شيء... فليدمر كل شيء"، وشعرت بدوار شأنها شأن من يستعد ليلقي بنفسه فى هوة.

ولكنها على العكس، قالت متوسلة: «دعنى»، وحاولت من جديد أن تتخلص من قبضته، وفكرت بشكل غامض فى أن تصد ليو فى بادئ الأمر ثم تستسلم له بعد ذلك، ولم تكن تعرف لماذا، ربما ليتسنى لها أن تتأمل أبعاد المخاطر التى تواجهها، وربما لما تبقى لديها من دلال، وراحت تقاوم عبثاً فى صوت ضعيف قلق يائس وهى تكرر عبثاً الرجاء «لنبق صديقين حميمين يا ليو، صديقين حميمين كذى قبل» وارتفع ثوبها وكشف عن ساقيها وكان فى مسلكها المقاوم ومحاولاتها ستر ساقيها ودفاعها عن نفسها وفى تلك الأصوات التى كانت قبضات الرجل الماجنة تمزقها، كان فى كل ذلك شىء من الخزى والاضطراب لا يمحوه الإفلات من عناق ليو.

وقال ليو فى شىء من الفرح: «صديقان... صديقان بالفعل يا كارلا... ». وراح يلوى بيده ثوبها المصنوع من الصوف... وشد على أسنانه وتحركت كل مشاعره بملامسة هذا الجسد الذى يشتهيه: «إنك لى... أخيراً»، قال لنفسه وهو يتكوم فى الأريكة ليفسح للفتاة مكاناً، وكاد بالفعل أن يحنى رأسها تحت المصباح عندما سمعا طنطنة الباب الزجاجى يفتح فى آخر الغرفة المظلمة ليخطرهما أن شخصاً قد دخل.

كانت الأم. وأحدث قدومها تغييراً فجائياً فى وضع ليو، فقد اضطجع على ظهر الأريكة على الفور وعقد ساقيه ونظر إلى الفتاة فى غير اكتراث، بل إنه تظاهر بجدارة وهو يقول فى شىء من الاهتمام كما لو كان ينهى حواراً لم يستهل بعد «صدقينى يا كارلا، ليس هناك شىء آخر يمكن عمله».

واقتربت الأم، ولم تكن قد استبدلت ثيابها، ولكنها مشطت شعرها واكتحلت وأفرطت فى زينتها، وتقدمت بخطوات مترددة.

وفى دياجير الظلام بدا وجهها بسكونه وملامحه الحائرة وألوانه الحيوية كقناع من الغباء يبعث على الشفقة.

وسألتهما «هل انتظرتما كثيراً... فيما كنتما تتحدثان؟»

أشار ليو بحركة كبيرة إلى كارلا التى كانت واقفة فى وسط الغرفة وقال «كنت أقول لإبنتك إنه ليس هناك ما يمكن عمله هذا المساء إلا البقاء بالمنزل».

وصدقت الأم على كلامه باعتزاز وقوة وهى تجلس فى مقعد أمام عشيقها وقالت «هذا صحيح، لا شيء نفعله، فقد ذهبنا اليوم إلى السينما وكل ما يعرض على المسرح شاهدناه... كان يروق لى أن أذهب لأشاهد مسرحية "ست شخصيات تبحث عن مؤلف" لفرقة بيرنديللو لكن بصراحة كيف يكون ذلك... إنها أمسية شعبية».

قال ليو«وأؤكد لكي أنك لن تخسري شيئاً» واحتجت الأم فى فتور وقالت: «آه هذا ليس صحيحاً... فإن لبيرنديللو أعمالاً جيدة... ما اسم تلك المسرحية التى شاهدناها منذ قليل؟... انتظر... آه نعم "القناع والوجه" لقد استمتعت بها كثيراً».

قال ليو مشككاً فى كلامها وهو يضطجع فى مقعده إلى الخلف: «وليكن... ولكنني كنت أشعر دائماً بملل كبير» وأدخل إبهاميه في جيبي صديره الصغيرين ثم راح ينظر إلى الأم أولاً ثم إلى كارلا.

وتلقت الفتاة وهى واقفة خلف مقعد أمها، تلك النظرة غير المعبرة الثقيلة كالصدمة التى حطمت ذهولها كما يتحطم الزجاج إلى قطع، ولأول مرة أدركت أن المشهد الذى يدور أمام عينيها مشهد قديم عادى ومؤلم، مشهد أمها وعشيقها يجلسان كل منهما أمام الآخر يتبادلان الحديث...، هذا الظل وهذا المصباح وهذه الوجوه الساكنة والغبية، وهى، كارلا مضطجعة فوق الأريكة تسمع وتتكلم.

وقالت تحدث نفسها «إن الحياة لا تتغير... لا تريد أن تتغير». كانت تود لو صرخت وخفضت يديها وراحت تلويهما عند بطنها بقوة حتى آلمت رسغيها.

واستطردت الأم تقول «إننا من الممكن أن نلزم البيت... خاصة وأن لدينا التزامات على مدار الأسبوع، فهناك غداً حفل الشاى الراقص لصالح الطفولة المهملة،... وبعد غد الحفل التنكرى فى فندق "جراند اوتيل" وفى الأيام التالية، نحن مدعوون هنا وهناك... أوه يا كارلا... رأيت اليوم السيدة رينتشى... لقد تقدمت بها السن بصورة غريبة... وقد تأملتها فى اهتمام... إن بها تجعيدتين عميقتين تبدآن من عينيها حتى فمها... أما شعرها فلم يستطع أحد أن يتبين لونه... أن منظرها بشع».

ثم لوت فمها وحركت يديها فى الهواء.

وقالت كارلا وهى تتقدم لتجلس بجوار ليو: «ولكنها ليست بشعة إلى هذا الحد» وتملكها قليل من نفاد الصبر الذى راح ينخسها ويؤلمها وتراءى لها أن الأم سينتهى بها الأمر بأساليبها الملتوية، كعادتها، إلى إثارة المشاحنات بسبب غيرتها على عشيقها، ولكنها لا تدرى متى أو كيف، غير أنها كانت واثقة تماماً أن ذلك سوف يحدث وتوقها فى شروق الشمس فى اليوم التالى وفى الليل الذى يعقبها، وسبب لها هذا التوقع إحساساً بالخوف، ولا يوجد علاج لذلك، ولا يمكن التخلص منه فقد سيطر عليه قدر حقير.

واستطردت الأم تقول: «حدثتني كثيراً، قالت لي أنهم باعوا سيارتهم القديمة واشتروا أخرى جديدة... من طراز فيات... وقالت لى: أتعلمين أن زوجي أصبح الآن الذراع اليمنى لباليونى فى البنك الأهلى؟... إن باليوني لا يستطيع الاستغناء عنه، ويعتبره شريكه المرجح، باليونى هنا، باليونى هناك... شىء حقير!...».

وسألها ليو وهو يتأملها بعينيه شبه المغلقتين: «ولماذا حقير؟... وما الشىء الحقير فى هذا؟» وقالت الأم وهى تحدق فيه بنظرة حادة كما لو كانت تدعوه إلى أن يزن كلماته جيدا: «أنت تعلم أن باليونى عشيقها؟».

قال ليو وقد استقرت عيناه الفاترتان على كارلا الحالمة الراضخة: «الجميع يعرف ذلك».

وعادت ماريا جراتسيا تقول فى وضوح: «ولعلك تعلم أيضاً أنه قبل أن تتعرف آل ريتشى على باليونى كانت لا تملك فلساً واحداً... والآن أصبح لديهم سيارة؟»

أدار ليو رأسه وقال فى تعجب «آه، ألهذا؟» «وأى ضررٍ فى هذا؟... إنهم أناس فقراء يدبرون أمورهم». وبدا كأنه قد أشعل فتيلاً أعِد بعناية، فقد اتسعت عينا الأم دهشة مشوبة بالسخرية وقالت: «آه... إذن أنت تبرر سلوك هذه المرأة الوقحة؟... إنها ليست جميلة وإنما هي كتلة من العظام، تستغل صديقها بدون أى وازع من ضمير... فتجعله يدفع لها ثمن السيارات والملابس، ولديها من الأساليب التى تدفع بها زوجها إلى الأمام... ولا تدرى إن كان زوجها هذا أكثر غباءً منها أم أكثر دهاءً... هذه هى مبادئك إذن؟ أوه، حسناً جداً... بالفعل حسناً جداً... لم يعد لدى ما أقول... كل شيء قد انجلى... ومن الواضح أن مثل هذا النوع من النساء يطيب لك.»

قالت كارلا لنفسها "ها هى قد بدأت!" وسرت رجفة خفيفة من الضجر فى جسدها وأغلقت عينيها وألقت برأسها في الظلمة بعيداً عن ذلك الضوء وتلك المحادثات.

وقال ليو ضاحكاً «كلا، ليست هذه النساء اللائى يرقن لى صراحة». وألقى نظرة سريعة جشعة إلى الفتاة الواقفة بجواره... إلى صدرها الغض ووجنتيها المتوردتين، إلى الجسد الشاب. وود أن يصرخ فى وجه عشيقته ويقول «هذا هو نوع النساء الذى يروق لى».

ولكن الأم راحت تقول فى إصرار: «إنك تقول ذلك الآن... تقوله الآن... من يستهن يفسد... ففى اليوم الماضى على سبيل المثال وأنت معها، عند آل سيدولى، أسرفت في مجاملاتها، ورويت لها كماً من التفاهات... آه اغرب عنى... إنني أعرفك جيداً... هل تعرف ماذا تكون؟... إنك كذاب».

وعادت كارلا تحدث نفسها «ها هى قد بدأت!» ورأت أن الحوار سيطول وأدركت أن حياتها اليومية المعتادة التى لا يمكن إصلاحها ستبقى كما هى لا تتغير، وكان فى هذا ما يكفى فنهضت وقالت «سأذهب لكى

أرتدى بلوفر ثم أعود.» وخرجت دون أن تلتفت إلى الوراء، لأنها أحست بنظرات ليو ملتصقة بظهرها كعلقتين... وخرجت.

والتقت بميكيلى فى الطرقة وسألها «هل ليو موجود؟»، نظرت كارلا إلى أخيها وأجابت «نعم موجود» فقال الفتى فى هدوء «جئت تواً من عند مدير أعمال ليو... وقد عرفت منه أشياء كثيرة وعجيبة... أهمها أننا أصابنا الخراب».

وسألته الفتاة فى دهشة «ماذا تريد أن تقول؟»

قال ميكيلى موضحاً «أريد أن أقول أنه يجب أن نتنازل عن الفيلا لصالح ليو، سداداً لتلك الرهنية، وأن نرحل من هنا دون فلس واحد ونمضى إلى مكان آخر.»

نظر كل منهما للآخر، وارتسمت على شفتى الفتى ابتسامة متكلفة ممتقعة فسألته كارلا «لماذا تبتسم... أيبدو لك أن هذا الأمر باعث على الابتسام؟».

عاد وقال: «لماذا أبتسم... لأن كل هذا لا يعنيني... بل إنه لأمر يسرني.»

«ليس صحيحا»

قال مصراً «بل إنه صحيح تماماً»، ودون أن يضيف كلمة واحدة، دخل إلى غرفة الاستقبال تاركاً كارلا ذاهلة وفزعة بشكل غريب.

كانت أمه وليو لايزالان يتنازعان، وأدرك ميكيلى أنهما يتحدثان في غير كلفة تحولت إلى صيغة احترام عند دخوله، فابتسم الفتى فى شفقة منفرة، وقال لها دون أن يحيي الرجل أو ينظر إليه «أعتقد أنه حان وقت تناول العشاء»، ولكن هذا السلوك البارد لم يقلق ليو وصاح يقول فى بشاشته المعتادة «أوه... من أرى؟ عزيزنا ميكيلى... تعالى هنا يا ميكيلى... لقد مضى وقت طويل لم نتقابل فيه» قال وهو ينظر إليه محدقاً «لم يمر سوى يومين»، وحاول جاهداً أن يبدو بارداً ومختلجاً إلا أنه لم يشعر سوى بالامبالاة، وكان يود أن يقول له: «كلما التقينا أقل كان ذلك

أفضل» أو شيئا من هذا القبيل، ولكنه لم يكن سريع البديهة ولا صادقا مع نفسه.

وصاح ليو «وهل يبدو لك أن يومين شيء قليل... إن في مقدور المرء عمل الكثير فى يومين» وأحنى رأسه الكبير المنتصر وسط ضوء المصباح وقال: «يا لها من بذلة جميلة... . من الذى حاكها لك؟».

كانت بذله مصنوعة من قماش جيد النوع لونها أزرق قاتم ولكنها مستهلكة جداً وكان ليو قد رآها عليه على الأقل مائة مرة، ولكن ميكيلى، وقد مس هذا الهجوم المباشر غروره، نسى على الفور كل نواياه من الكراهية والجفاء وقال وهو لا يفلح فى إخفاء نصف ابتسامة راضية: «إنها بذلة قديمة... ارتديها منذ زمن طويل، وتيتو هو الذى حاكها لى».

وبحركة عفوية استدار ليشاهد الرجل ظهره وجذب طرفي السترة بيديه لكى يلتحما بخصره، ورأى نفسه فى مرآة ڤينسيا المعلقة أمامه على الحائط، لم يكن هناك شك فى أن البذلة جيدة التفصيل، ولكن بدا له أن فى سلوكه هذا بلاهة مثيرة للضحك وراسخة، أشبه ببلاهة الدمى التى ترتدى ملابس جميلة ومعروضة فى واجهة المحلات والأسعار ملصقة على صدرها، وخامره إحساس خفيف من القلق.

وانحنى ليو إلى الأمام وراح يجس القماش ثم اعتدل وهو يقول: «إنه جيد... من نوع جيد» ثم أردف يقول وهو يربت على ذراع الشاب: «إن عزيزنا ميكيلى عظيم الشأن دائماً... لا هم له إلا اللهو وليس لديه انشغال من أى نوع»، وعندئذ أدرك ميكيلى من لهجة ليو وكلماته ومن ابتسامته المصاحبة لها أنه غرر به بطريقة ماكرة وقد استخف به الرجل، أين إذن السخط والضغينة اللذان تصور أنه يشعر بهما نحو عدوه؟... تلاشيا مع اضطراب نواياه... وتملكته حيرة من موقفه العبثى هذا وراح ينظر إلى أمه.

وقالت له هذه الأخيرة «خسارة أنك لم تكن معنا اليوم، فقد شاهدنا فيلماً رائعاً» قال الفتى «آه... حقاً» ثم استدار نحو الرجل وقال بلهجة قاسية وحادة بقدر ما استطاع «إننى ذهبت إلى مدير أعمالك يا ليو...»

ولكن الرجل أتى بحركة من يده قاطعه بها وقال: «ليس الآن... لقد فهمت... سنتحدث فى هذا الأمر فيما بعد... بعد العشاء... كل شىء فى حينه».

أجاب ميكيلى في هدوء غريزي «كما تشاء» ولكنه لم يلبث أن أدرك أن الرجل تغلب عليه للمرة الثانية، وقال يحدث نفسه «كان يجب أن أتكلم في الحال، أي شخص في مكاني كان سيفعل هكذا... فى الحال... يناقش وحبذا يهين.» وتملكه الغضب وود لو أنه صرخ، فإن ليو على مدار دقائق قليلة، نجح فى أن يوقعه فى هوتين بائستين، الحماقة وعدم الاكتراث. ونهضتِ أمه وعشيقها، وقال ليو وهو يزّرر السترة «إننى جائع... .جائع جداً» وضحكت المرأة، وتبعها ميكيلى بشكل لا إرادي وقال في نفسه وهو يحاول دون جدوى أن يضفي حدة على أفكاره التي تكاد تكون شاردة «بعد العشاء... لن أجعل الأمر يمر بسهولة هكذا».

وتوقف الثلاثةِ عند الباب وقال ليو للأم «تفضلي» وخرجت، وبقى الرجل والفتى وجهاً لوجه ينظر كل منهما للآخر. وقال ليو فى لهجة مجاملة للغاية وهو يضع يده على كتفه «تفضل... تفضل... فأنت رب البيت» وبحركة أبوية وابتسامة وديّة بدا خلالها ساخراً، دفع الصبى فى رفق... وقال هذا الأخير يحدث نفسه فى غير غضب «رب البيت! إنها واحدة من الأشياء الجميلة المضحكة... رب البيت هو أنت». ولكنه لم ينطق وخرج خلف أمه إلى الطرقة.

الفصل الثانى

تحت المصباح ذى الأذرع الثلاثة كانت المائدة البيضاء تومض بثلاث فِلَق دقيقة من النور، الأطباق والدوارق والأكواب المتلألئة، فبدت المائدة كَقطعة من الرخام خدشها أزميل النحات، كان هناك بعض البقع، فقد كان النبيذ أحمر اللون والخبز بني والدخان يتصاعد من قاع أطباق الحساء الأخضر، ولكن بددها هذا البريق اللامع النقي الذي يتلألأ بين أربعة جدران تجمع عليها أثاث ولوحات اختلطت جميعها، على العكس، في ظل واحد أسود اللون، وكانت كارلا قابعة في مكانها، وعيناها ذاهلتان مركزتان على بخار الطعام، تنتظر بفارغ الصبر.

كانت الأم أول من دخل، وأدارت رأسها نحو ليو الذي كان يتبعها، وقالت في لهجة ساخرة مستفزة «إن المرء لا يعيش لكي يأكل وإنما يأكل لكي يعيش... أما أنت فتفعل النقيض... كم أنت سعيد بهذا».

أجابها ليو وهو يدخل خلفها لامساً جهاز التدفئة المركزية الفاتر بحركة غير مطمئنة لمجرد الفضول «كلا، كلا... إنك أسأت فهمى، فإننى قلت: عندما يفعل المرء شيئاً لا ينبغي أن يفكر في شيء آخر...، فأنا مثلاً عندما أعمل لا أفكر إلا في عملي... وعندما آكل لا أفكر إلا في الأكل... وهكذا يكون كل شيء على ما يرام».

كان ميكيلي الذي كان يسير من خلفه يود لو سأله: «وعندما تسرق؟» ولكنه لم يكن بمقدوره أن يكره ذلك الرجل الذي كان يغبطه رغماً عنه. وقال يحدث نفسه وهو في طريقه ليأخذ مكانه «في الواقع إنه على حق... أنني أفكر أكثر من اللازم». وعادت الأم تقول متهكمة «طوبى لك... أما أنا فإن الأمور تجرى معي على أسوأ ما يكون» وجلست، واكتسبت وقاراً حزيناً وأرخت عينيها وراحت تقلب الحساء بملعقتها كي يبرد. وسألها ليو وهو يهم بدوره بالجلوس «ولماذا تجرى الأمور معك على أسوأ ما يكون؟ لو أنني مكانك لكنت سعيداً، فإن لك

ابنة فاتنة... وابناً ذكياً كله آمال جميلة... وبيتاً جميلاً... ماذا ترغبين أكثر من ذلك؟»

قالت الأم وهي تتنهد نصف تنهيدة: «أوه... إنك تفهمني بالإشارة».

وكان الحساء قد نفد فألقى ليو ملعقته وأردف يقول «أنا كلا... وحتى لا أكون شخصاً جاهلاً... اعترف بأنني لا أفهم شيئاً... ثم إنكم جميعاً ساخطون... لا تحسبي أنك وحدك يا سيدتي... هل تريدين مثالاً؟... أنت مثلاً يا كارلا، هل أنت سعيدة؟... أجيبي بصراحة!»

رفعت الفتاة عينيها، هذه الروح البشوشة والطيبة الزائفة أثارت أعصابها ونفاد صبرها، كان يدور على المائدة المعتادة التي تجلس إليها نفس الحديث كل ليلة ونفس الأشياء، فهي أقوى من الزمن، وخاصة نفس النور الذي لا وهم فيه ولا أمل والمعتاد بصفة خاصة، المستهلك كقماش الثوب والذي لا يفارق وجوههم، بحيث أنه إذا أنير فجأة فوق المائدة الشاغرة، يسيطر عليها إحساس أكيد بأنها ترى وجوههم الأربع، وجوه أمها وأخيها وليو ووجهها هي نفسها... معلقة في هذه الهالة الواهنة، كل ما كان حولها يصيبها بالملل، وبالرغم من هذا جاء ليو لينخزها في نفسها المتألمة، ولكنها تمالكت وقالت موافقة «في الحقيقة من الممكن أن تسير الأمور خيراً من هذا» وعادت وأطرقت برأسها.

فصاح ليو منتصراً «ها هو... لقد قلت لكم هذا... كذلك كارلا ولكن هذا لا يكفي... إنني على يقين بأن ميكيلي هو الآخر... أليس صحيحا يا ميكيلي أن الأمور لا تسير على ما يرام بالنسبة لك أيضاً؟»

ونظر الفتى إليه قبل أن يجيبه وقال لنفسه: «ها هو ذا... الآن ينبغي أن أرد عليه بنفس النبرة، أن أهينه، افتعل مشكلة كبيرة، وفي النهاية أفرغ منه إلى الأبد»، ولكنه كان غير صادق في هذا، وتمالكه هدوء مميت وسخرية وعدم اكتراث وقال في هدوء «ألا تفرغ من الحديث في هذه الأمور، أنت تعرف كيف تسير الأمور خيرا مني».

صاح ليو «آه يا لك من ماكر... أيها الماكر... إنك تراوغ ولا تريد أن تجيب... وتظهر عدم اهتمام... ولكن من الواضح أنك تعيس أنت أيضاً، وإلا ما بدا وجهك مضجرا هكذا.»

وأخذ نصيبه من الطبق الذي قدمته له الخادمة، ثم عاد يقول «أما أنا سيداتي، سادتي، فإنني على العكس أؤكد لكم أن الأمور بالنسبة لي تسير على ما يرام، بل على خير ما يرام وأنني سعيد للغاية وراض جداً وإذا كان لا بد أن أولد من جديد لوددت أن أولد كما أنا الآن وباسمي: ليو ميروميتشي».

وقال ميكيلي متهكماً «يا لك من رجل سعيد! ولكن اخبرنا على الأقل ماذا تفعل؟»

وراح الآخر يقول وفمه مملوء بالطعام: «ماذا أفعل؟... هكذا...»

ثم أضاف يقول وهو يصب الماء ليشرب «ولكن هل تريدون أن تعرفوا أنتم الثلاثة لماذا لا تشبهونني؟»

ــ «نعم لماذا؟»

أجاب «لأنكم تغضبون لأشياء تافهة»، وأمسك عن الكلام وشرب، وسادت لحظة صمت وأحس الثلاثة ميكيلي وكارلا وأمهما بأنهم أهينوا في كبريائهم، ورأى الفتى نفسه كما كان دائماً، يائساً غير مكترث ومخذولا وقال يحدث نفسه: «آه كم أتمنى أن أراك مكاني»

وراحت كارلا تفكر في حياتها التي لا تتغير، وفي مكائد ذلك الرجل، وكانت تريد لو تصرخ وتقول: «لدى أسباب وجيهة تجعلني تعيسة» ولكن الأم تكلمت عن الجميع باندفاعها وثرثرتها.

فقد حزّ فيّ نفسها وأحزنها أن توضع في مستوى واحد مع أولادها في ذلك الميل العام للسخط بسبب تمسكها بهذا المفهوم العظيم، وقد جرحها هذا الأمر شأنه شأن الخيانة، فإن عشيقها لم يهجرها فقط بل يسخر منها أيضاً وأخيراً قالت بعد صمت في صوت ساخر حاقد كمن يود التشاجر «حسناً... ولكن يا عزيزي عندي أسباب قوية تجعلني غير سعيدة».

قال ليو في هدوء «أنا لا أشك في ذلك».

وقال ميكيلي مكرراً «نحن لا نشك في ذلك».

واستطردت الأم تقول في نبرة تأثر وانفعال: «لم أعد طفلة مثل كارلا، إنني امرأة حنكتها التجارب وعرفت الآلام... آه، نعم، عرفت آلاما كثيرة» وأضافت وقد تأثرت بكلماتها «امرأة اجتازت كثيرا من الملل والصعاب، وعلى الرغم من كل ذلك عرفت دائماً كيف تحتفظ بكرامتها دون مساس وأن تبقى دائماً أسمى من الجميع، نعم، ياعزيزي ميروميتشى» ثم قالت محتدة فى مرارة وتهكم: «من الجميع... . حتى أنت...»، بدأ ليو يقول: «لم يخطر لي أبدا...» حينئذ أدرك الجميع أن غيرة الأم قد وجدت طريقاً وأنها ستسير فيه حتى النهاية، وكان الجميع يترقب في ملل ونفور العاصفة الحقيرة التي راحت تتجمع تحت ضوء العشاء الهادئ.

واستطردت ماريا جراتسيا تقول وهى تحدق في عشيقها بعينيها الشاردتين «وأنت يا عزيزي لقد تحدثت منذ قليل بشيء من عدم التروي... فأنا لست واحدة من صديقاتك الأنيقات اللائي لا يعرفن معنى للضمير ولا يفكرن إلا في اللهو والمرح ويعشن حياتهن، اليوم مع شخص وغداً مع آخر... لا، إنك أخطأت لأنني اختلف بل اختلف تماما عن هؤلاء السيدات...»

ــ ولكنني لم أقصد هذا...

واستطردت الأم تقول في غضب بالغ: «إنني امرأة تستطيع أن تعلمك كيف تعيش أنت وكثير من أمثالك ولكنني بتعقلي النادر أو بحماقتي أتوارى ولا أتحدث عن نفسي، الأمر الذي يجعل الجميع دائماً ما يجحدون حقي ويسيئون فهمي... ولكن ليس هذا سبباً...» وارتفع صوتها إلى أعلى درجات الحدة وهى تقول: «ليس لأنني طيبة القلب معتدلة جداً وسخية للغاية، وأعود فأقول إن هذا ليس سببا ليكون لي حق أقل من الأخريات في طلب عدم توجيه الإهانات لي في كل وقت ومن أي شخص كان...»

وألقت نظرة أخيرة صاعقة على عشيقها ثم خفضت عينيها وراحت تبدل في حركة آلية أماكن الأشياء التي أمامها.

وارتسم الوجوم الشديد على وجوه الجميع، وقال ليو في هدوء «ولكنني لم أفكر قط في أن أهينك يا سيدتي... أنا لم أقل سوى أنني الوحيد بينكم الذي لا يشعر بالسخط».

أجابت الأم في تلميح واضح: «مفهوم... مفهوم جداً أنك لا تشكو أبدا» وتدخلت كارلا قائلة: «ولكنه لم يقل شيئاً فيه أية إهانة يا أمي» وبعد هذا المشهـــد شعرت الفتاة بيأس مخيف وأخذت تحدث نفسهـــا وتقول وهى تنظر إلى أمها التي بدت ساذجة وناضجة وكأنها تجتر غيرتها وهى مطرقة الرأس: «لا بد أن ينتهي كل هذا... لا بد من أن أنتهى من كل هذا وأن أغير حياتي بأي ثمن» ومرت برأسها قرارات عبثية، أن تترك البيت وأن تختفي وتزول من الحياة وتذوب في الهواء. وتذكرت كلمات ليو الجديرة بالاهتمام: «أنت في حاجة إلى رجل مثلى.» هذه هي النهاية... وقالت لنفسها «هو... أو غيره» أخر صبرها، وانتقلت عيناها الحزينتان من النظر إلى وجه أمها لترتكزا على وجه ليو: ها هي أوجه حياتها، صلبة ولدنة ولا يمكن فهمها، وعندئذ عادت وخفضت أنظارها في طبقها وقد أصبح الطعام بارداً وتجمد في المرق.

وقالت الأم عندئذ تأمرها: «أما أنت فلا تنطقي... إنك لا يمكن أن تفهمي»

واحتج ليو قائلاً: «ولكنني يا عزيزتي لا افهم أنا الآخر شيئاً»

قالت الأم وهى تضغط على كل كلمة من كلماتها وترفع حاجبيها: «بل فهمتني تماماً».

وقال ليو وهو يهز كتفيه مبدياً عدم اهتمامه: «ربما».

وقاطعته المرأة قائلة في ضيق شديد: «اسكت... اسكت من الأفضل ألا تتكلم... لو أنني مكانك لحاولت أن أنسى نفسي وأن أتوارى».

وساد صمت، ودخلت الخادمة ورفعت الأطباق وقال ميكيلى يحدث نفسه وهو يرى وجه أمه الغاضب وقد بدأت تنبسط أساريره شيئاً فشيئاً «لقد مرت العاصفة»، وعاد الآن للجو صفاءه ثم رفع رأسه وقال دون أدنى ابتهاج: «هل أقول إن الأمر قد انتهى؟» أجاب ليو فى يقين: «انتهى

تماماً... لقد تصالحنا أنا وأمك» واستدار نحو مارياجراتسيا وقال: «أليس كذلك يا سيدتي... أننا تصالحنا».

ارتسمت ابتسامة حزينة مترددة على وجه المرأة المصبوغ فقد عرفت هذا الصوت وتلك النبرة المغرضة التي طالما سمعتها في أسعد الأوقات، عندما كانت لا تزال شابة وعندما كان عشيقها مخلصاً لها.

وراحت تفحص يديها في لطف وتقول: «هل تظن يا ميروميتشى أنه من السهل أن نصفح؟»

وأصبح الموقف عاطفياً واستشاطت كارلا غيظاً وغضت بصرها، وابتسم ميكيلى في ازدراء وقال يحدث نفسه: «اتفقنا... تعانقا ولِيَنته الأمر». قال ليو في هرج شديد «إن التسامح واجب كل إنسان طيب.» ولكنه كان يحدث نفسه ويقول في ذات الوقت: («فلتذهب إلى الجحيم لحسن الحظ أن هناك الابنة لكي تعوضني عن الأم»). وأخذ ينظر إلى الفتاة بطرف عينيه دون أن يحرك رأسه... أنها شبقة أكثر من أمها، شفتاها ورديتا اللون ومكتنزتان وهما على استعداد للاستسلام بالتأكيد، لا بد أن يحاول بعد العشاء، سيطرق الحديد وهو ساخن ولن يؤجل الأمر إلى الغد وقالت الأم وقد اطمأنت تماماً «نحن مسيحيون... إذن فلنتسامح» وانبسطت الابتسامة التي كانت حتى وقت سابق مقموعة، مؤثرة ولامعة وكشفت عن صفين من أسنان ذات بياض مريب، وخفق جسدها غير المنسق كله. وأردفت تقول في حب أمومة مباغت «وبهذه المناسبة لا تنس أن غداً عيد ميلاد ابنتنا العزيزة كارلا»، وقالت الفتاة وهي ترفع رأسها «ولكن لم يعد هناك من يحتفل بأعياد الميلاد يا أمي». أجابت الأم في عظمة: «أما نحن سنحتفل به، وأنت يا ميروميتشى، اعتبر نفسك مدعوا صباح الغد».

انحنى ليو انحناءة فوق المائدة وقال: «بكل امتنان» ثم اتجه نحو كارلا يسألها: «كم عمرك؟»

وتبادلا النظرات، ورفعت الأم أصبعين وكانت تجلس أمام الفتاة، وأشارت بفمها كأنها تقول "عشرون"، ورأتها كارلا، وفهمت ولكنها ترددت، واجتاح روحها شيء من القسوة المفاجئة وقالت لنفسها: «إنها

تريد أن أخفض من سنوات عمري حتى لا تبدو هي مسنة» ولكنها لم تطع أمها وأجابت دون خجل: «أربع وعشرون سنة» وارتسمت علامات خيبة الأمل على وجه الأم، بينما صاح ليو في دهشة هزلية «عجوز إلى هذا الحد؟» وكررت كارلا وهى تقر «نعم عجوز إلى هذا الحد» وعاتبتها أمها قائلة«ما كان يجب أن تطلعيه على سنك» وضاعف طعم البرتقالة اللاذع التي كانت تأكلها من حدة تعبيرها وهى تقول «إن عمر الإنسان يقاسِ بمظهره... وأنت مظهرك يدل على أنك لا تزيدين عن تسعة عشر عاماً.» والتهمت الفص الأخير وبذلك انتهت البرتقالة، وأخرج ليو علبة سجائره وقدم منها للجميع، وتصاعد الدخان الأزرق الدقيق فوق المائدة في غير انتظام.

وبقى الجميع لحظة لا يتحركون يتبادلون النظرات وهم مذهولون ثم نهضت الأم وقالت: «لنذهب إلى الصالون» وخرج الأربعة الواحد تلو الآخر، من غرفة الطعام.

الفصل الثالث

خطت كارلا خطوات قليلة فى الممر ولكنها مشحونة بالقلق وراحت تنظر إلى الأرض فى حيرة وهى تفكر فى أن سيرها يوميا فى الممر قد استهلك نسيج البساط القديم الذى يغطى البلاط، وكذلك المرايا البيضاوية المعلقة على الجدران لا بد وأنها احتفظت بأثر وجوههم وأشخاصهم التى تعكسها مراراً وتكرارا منذ أعوام... آه... مجرد لحظة تكفيها هى وأمها لتتحقق من أن مساحيق التجميل على ما يرام وليفحص ميكيلى عقدة رباط عنقه، وكان السأم والرتابة يتربصان فى هذا الممر ويبعثان بالحزن فى نفس كل من يمر به، كما لو كانت الجدران نفسها تثير الأرواح الشريرة، كل شيء ثابت لا يتغير، البساط والنور والمرايا وباب البهو الزجاجى على اليسار وردهة الدرج المظلمة على اليمين، كل شيء كان يتكرر: ميكيلى الذى يتوقف برهة ليشعل سيجارته وينفخ فى عود الثقاب، والأم التى تسأل عشيقها فى رقة «إن علامات التعب تعلو وجهى الليلة... أليس كذلك؟» وكان ليو يرد عليها فى غير اكتراث وسيجارته فى فمه لا يتركها: «لا... أبداً... على العكس، لم أرك أبداً متألقة هكذا» وهى نفسها التى تعانى من الحياة التى لا تتغير.

ودخل الجميع غرفة الصالون وهى غرفة باردة مظلمة ومستطيلة يشطرها قوس إلى جزئين غير متساويين، وأخذوا أماكنهم في الركن المواجه للباب، وكانت هناك ستائر من المخمل الداكن تخفى النافذة المغلقة، ولم تكن بالغرفة ثريا وإنما بضعة مصابيح فقط على شكل شمعدان، مثبتة على الجدران على مسافات متساوية بين مصباح وآخر. ثلاثة منها مضاءة ترسل ضوءاً ضعيفاً فى النصف الأصغر من الغرفة، أما النصف الآخر فقد بقى قابعاً فى دياجير الظلام يكاد يميز فيه المرء انعكاس المرايا وشكل المعزف الطويل.

التزم الجميع الصمت لحظة، كان ليو يدخن فى شيء من التواضع المزيف، والأم تتأمل فى عزة نفس حزينة يديها ذات الأظافر المطلية،

وكارلا تحاول وهى تجلس القرفصاء تقريباً أن تضىء المصباح فى ركن الغرفة وميكيلى يتطلع إلى ليو، ثم أضىء المصباح وجلست كارلا وتحدث ميكيلى قائلاً: «ذهبت إلى وكيل أعمال ليو وقد قال الكثير فى حديثه معى... وهذا هو فحوى القول: يبدو أنه في خلال أسبوع سينتهى أجل رهن الفيلا لذلك علينا أن نرحل من هنا ونبيعها لنسدد ديننا لميروميتشى...».

اتسعت عينا الأم وقالت «ذلك الرجل لا يدرى ما يقول... لقد تصرف من رأسه... طالما قلت إنه يضمر لنا شراً.»

ساد صمت، ثم قال ليو أخيراً دون أن يرفع عينيه «إن هذا الرجل يقول الحقيقة» ونظر الجميع إليه وقالت الأم متوسلة وهى تضم يديها: «ولكنك لن تلقى بنا خارج الفيلا بالتأكيد... امنحنا مهلة أخرى...».

قال ليو «لقد منحتكم مهلتين من قبل... كفاك، خاصة وأن مهلة جديدة لن تفيد فى منع البيع» وسألته الأم: «كيف ذلك؟» ورفع ليو عينيه أخيراً ونظر إليها وقال: «أوضح لك أكثر: بما أنك لن تفلحى فى توفير ثمانمائة ألف ليرة، فإننى لا أدرى كيف يمكنك تسديد الدين من غير أن تبيعى الفيلا...» أدركت الأم ما يقول، وظهر أمام عينيها خوف كبير كالهاوية، وشحب لونها، ونظرت إلى عشيقها، ولكن ليو كان غارقاً فى تأمل سيجاره فلم يحاول طمأنتها. وقالت كارلا «هذا يعنى أنه يجب أن نترك هذه الفيلا وأن نسكن في شقة صغيرة بها عدد قليل من الغرف؟» أجاب ميكيلى: «بالتأكيد... هو ذلك».

وساد السكوت، وأصبح خوف الأم هائلاً، إنها لم ترغب أبداً أن تعرف شيئاً عن الفقراء ولا أن تعرفهم بأسمائهم، وطالما رفضت الاعتراف بوجود أشخاص يمتهنون مهناً شاقة وحياتهم تعسة... كانت تقول دائماً: «انهم يعيشون أفضل منا، إننا أكثر منهم شعورا وأشد ذكاء ولذلك فإننا نعانى أكثر منهم...»، وفجأة... ها هى الآن مضطرة إلى الاختلاط بهم وأن تزيد من زمرة البؤساء، إنه نفس الشعور بالتقزز والإذلال والخوف الذى أحست به عندما مرت ذات يوم فى سيارة منخفضة وسط حشد متوعد وقذر من المضربين عن العمل، هذا

الإحساس عاد ليجتاحها ولم يكن يثير فزعها الضنك والحرمان اللذين تسير نحوهما، إنما الهوان والتفكير فى كيفية التعامل معها وماذا سيقول معارفها، فهم أناس أثرياء ذوو قدر واعتبار ويتسمون بالأناقة، ورأت نفسها... فقيرة ووحيدة مع ولديها وبدون أصدقاء لأن الجميع سيتخلون عنها. لن يكون هناك انبساط ولا حفلات راقصة ولا أضواء ولا احتفالات ولا مجالس سمر: ظلام تام... . ظلام عارٍ.

وازداد شحوبها وراحت تفكر وقالت وفكرة الإغواء في رأسها «يجب أن أتحدث إليه على حدة فى غياب ميكيلى وكارلا... حينئذ سوف يفهم».

ونظرت إلى عشيقها واقترحت عليه فى شىء من الغموض «امنحنا مهلة أخرى يا ميروميتشى وسوف ندبر المال بطريقة ما». وسألها الرجل وهو يبتسم نصف ابتسامة ساخرة «وكيف ذلك؟» قالت الأم مخاطرة: «البنوك...».

وضحك ليو قائلاً «أوه البنوك» وانحنى وهو يحدق فى وجه عشيقته قائلاً وهو يتهجى الكلمة «البنوك تقرض الأموال مقابل ضمانات مؤكدة... والآن ومع ندرةِ النقود هذه الأيام فان البنوك لا تقدم قروضاً لأحد، وإذا افترضنا جدلاً بأنها ستوافق على إقراضك... فما هى أنواع الضمانات التى يمكنك تقديمها يا سيدتي العزيزة؟»

قال ميكيلى معلقاً: «حجة لا يمكن دحضها» وود لو أنه تحمس لهذه المسألة الحيوية واحتج وقال يحدث نفسه: «إن الأمر يتعلق بوجودنا... بين لحظة وأخرى قد لا نجد مادياً ما نعيش عليه»، ولكن على الرغم مما بذل من جهد إلا أنه لم يحفل بذلك الدمار ولم يهتم كمن يرى شخصاً يغرق، وهو ينظر دون أن يحرك ساكناً.

أما الأم فقد اختلف الأمر معها وقالت في إباء وهى تنهض وتفصل بين كلماتها «امنحنا مهلة، ويمكنك أن تطمئن على أنك ستحصل على نقودك يوم الاستحقاق... إلى آخر مليم... فلا شك فى ذلك».

وضحك ليو بعذوبة وهو يميل برأسه وقال «إننى متأكد من ذلك... ولكن لماذا المهلة إذن؟... لماذا لا تستخدمين الآن الوسائل التي تريدين

استخدامها خلال عام للحصول على الأموال... وتسددين دينك على الفور؟»

كان وجهه المائل هادئاً وحاذقاً بحيث جعل الأم تشعر بالخوف، وحولت عينيها الحائرتين من ليو إلى ميكيلى ثم إلى كارلا، وهاهما ولداها الضعيفان اللذان سيعرفان الفقر، فقالت وقد غلبها حبها الأمومى المتأجج «اسمع يا ميروميتشى» وبدأت تتحدث بصوت مقنع «إنك صديق الأسرة، وأستطيع أن أفضى لك بكل شيء... إن الامر لا يتعلق بى شخصياً، ولا أطلب هذه المهلة من أجلى، فإننى مستعدة أن أذهب وأقيم فوق سطح بيت صغير...».

ورفعت عينيها إلى السماء وقالت «يعلم الله أنني لا أفكر في نفسي... وإنما في كارلا فإنها في سن الزواج... وأنت تعرف الناس... ففى نفس اليوم الذى سأترك فيه الڤيلا للإقامة في إحدى الشقق الصغيرة، سوف يدير الجميع لنا ظهورهم... هكذا هى الدنيا... وبعد ذلك... هل بإمكانك أن تنقذ زواج ابنتى؟»

قال ليو وهو يتصنع الجد «إن ابنتك على قدر كبير من الجمال ولن تفتقر إلى طالبى الزواج» ونظر إلى كارلا ووجه إليها إيماءة. ولكن الفتاة تملكها غضب شديد وعميق وودت لو أن تصرخ فى وجه أمها «من ذا الذى تريدينه زوجاً لى... طالما هذا الرجل يعيش بيننا وأنت في هذا الحال؟»

أحست بالمذلة والهوان من تلك الوقاحة التى تتحدث بها أمها فهى فى العادة لم تكن تحفل بها ولكن هاهي الآن قد جعلت منها حجة مناسبة لتحقيق أغراضها، ولا بد لها من أن تنهي هذا الوضع، سوف تستسلم لليو، ولن يفكر أحد عندئذ فى أن يتقدم للزواج منها. ونظرت فى عين أمها وقالت فى ثبات «لا تشغلى بالك بى يا أمي، إنني لا دخل لى فى هذه المسألة ولا أريد أن يكون لى دخل في كل هذا».

وصدرت فى هذه اللحظة ضحكة حادة وزائفة من الركن الذى يجلس فيه ميكيلى كشفت عن أسنانه، واستدارت الأم إليه وقال لها وهو يحاول

أن يُكسب صوته اللامبالى نبرة ساخرة «هل تعلمين من أول من سيدير لنا ظهره إذا ما تركنا الفيلا؟ خمّنى...»

قالت الأم «لا أعلم».

صاح وهو يشير بأصبعه إلى الرجل: «إنه ليو... صديقنا العزيز ليو».

أتى ليو بإشارة اعتراض، ورددت الأم قائلة: «آه ميروميتشى؟»

قالتها مترددة متأثرة وهى تنظِر إلى عشيقها كما لو كانت تريد أن تقرأ فى وجهه إذا ما كان قادراً على مثل هذه الخيانة، ثم قالت فجأة وعيناها وابتسامتها متوهجة بتهكم حزين «هذا صحيح... وأكيد... وأنا بغبائي لم يخطر ببالى... بالتأكيد يا كارلا...» ثم أضافت وهى تتجه نحو ابنتها «ميكيلى على حق... أول من سيتنكر لنا ويتظاهر بأنه لا يعرفنا، بالطبع بعد أن يحصل على الأموال سيكون ميروميتشى... لا تحتج.» واستمرت فى حديثها بابتسامة غاضبة، «فالذنب ليس ذنبه، فإن كل الرجال سواء... وإنني أقسم على ذلك، سوف يمر بى وبرفقته إحدى صديقاته الظريفات جداً... الأنيقات جدا وبمجرد أن يرانى سوف يدير رأسه الناحية الأخرى بالتأكيد... يا عزيزى... أعلم علم اليقين أن هذا ما سوف يحدث». ولزمت الصمت لحظة ثم أنهت حديثها بمرارة واستسلام قائلة «كذلك المسيح قد غدربه أعز أصدقائه».

ألقى ليو سيجاره وقد فزعته تلك الاتهامات المتدفقة وقال مخاطباً ميكيلى «إنك صبى، ولهذا لن أعيرك أي اهتمام... ولكن أنت يا سيدتي» وأضاف وهو يلتفت إلى الأم «هل يمكنك أن تظنى أن مجرد بيع بيت كهذا يكون سبباً لكى أدير ظهري إلى أعز أصدقائى فهذا ما لم أكن انتظره منك... لا... لم أكن انتظره منك».

وهز رأسه وأخذ سيجاره.

وقال ميكيلى لنفسه وهو منشرح مسرور «ياله من كاذب». وفجأة تذكر أنه الرجل الذى تمت سرقته والاستهزاء به وإهانة ثروته وكرامته وأسيء إلى أمه وراح يقول لنفسه «لا بد أن أسبه... أهينه». ولكنه لم

يلبث أن أدرك أنه أضاع فى هذه الليلة فرصاً عديدة مناسبة لم يغتنمها ليتشاجر معه، على سبيل المثال عندما رفض ليو أن يمنحهم المهلة، ولكن فات الأوان.

وقال وهو يضطجع فى مقعده إلى الخلف عاقدا ساقيه «لم تكن تتوقع هذا؟... أليس كذلك؟»

وتردد قليلاً ثم قال دون أن يتحرك «يا لك من وغد»، والتفت إليه الجميع،واندهشت الأم، وقال الرجل وهو يسحب سيجاره فى بطء من فمه: «ماذا قلت؟»

قال ميكيلي موضحاً وهو يقبض بيديه على مسندى مقعده دون أن يجد فى عدم اكتراثه الأسباب التى دفعته إلى هذه الاهانة العنيفة «أعنى... أن ليو قد دمرنا... ويتظاهر الآن بأنه صديقنا... فى حين أنه غير ذلك».

وساد صمت واستهجان وقال ليو وهو يرمى الصبى بنظرات خارقة «اسمع يا ميكيلى... لقد أدركت منذ بضع دقائق أنك تريد أن تثير شجاراً هذه الليلة، من يعلم لماذا... إننى آسف لهذا... ولكننى أقول لك فوراً أنه ليست هناك أية جدوى للشجار... لو أنك كنت رجلا لعرفت كيف أرد عليك، ولكنك لست سوى صبى طائش، ولذلك أفضل شيء هو أن تأوى إلى فراشك وتنام».

وامسك عن الكلام وعاد وأخذ سيجاره ثم أضاف فجأة «وتقول لى هذا فى نفس اللحظة التى كنت انوى أن اعرض عليكم فيها الاقتراحات المناسبة».

وساد صمت آخر قطعته الأم قائلة «إن ميروميتشى على حق يا ميكيلي، إنه لم يدمرنا... لقد كان صديقاً دائماً... فلماذا تهينه بهذه الطريقة؟»

قال ميكيلي يحدث نفسه وقد غلبه غضب شديد من نفسه ومن الآخرين «آه... الأن تدافعين عنه». وكان يود أن يصرخ فيهم قائلاً: «لو تعلمون كم أننى لا أكترث بكل ذلك». وبدت الأم متأثرة ومتعجبة وليو

منافقاً وكارلا تنظر إليه في اندهاش... وبدا له في تلك اللحظة أنهم مثيرون للسخرية والحسد أيضاً... نعم لأنهم ينتمون إلى ذلك الواقع ويعتبرون كلمة "وغـد" إهانة بحق، في حين أن الحركات والكلمات والمشاعر لم تكن بالنسبة له سوى عبث من الأوهام لا فائدة منه.

ولكنه يريد أن يواصل حتى نهاية الطريق الذى بدأه، ونطق يقول في غير اقتناع «ما قلته هي الحقيقة الخالصة». ورفع ليو كتفيه في اشمئزاز وحزن وقاطعه وهو ينفض بعنف رماد سيجاره وقال «أرجوك... إننى أرفض ما تقول...» وهمت الأم بمساندة عشيقها بأن تقول «ولكنك مخطيء يا ميكيلي... أيها الفاسد».

وعندما فتح نصف الباب هناك عند الركن الذى يجلسون فيه وانبعث منه ضوء خافت وأطلت منه رأس امرأة شقراء قالت صاحبتها «هل يمكن أن أدخل؟»، والتفت الجميع إليها وصاحت الأم «أوه، ليزا... ادخلى، ادخلى طبعاً» وانفتح الباب على مصرعيه ودخلت ليزا، وكان يلف جسدها البدين معطف أزرق فيروزى يتدلى حتى قدميها النحيفتين، وتضع على رأسها قبعة صغيرة اسطوانية الشكل زرقاء وفضية بدت رأسها تحتها أصغر مما هى فوق كتفين مملؤين زادتهما ملابس الشتاء بدانة. كان المعطف فضفاضاً ومع ذلك فقد أظهر صدرها وخاصرتيها الفاتنتين فى انحناءات وانتفاخات كثيرة.

وعلى العكس من ذلك فقد كانت أطراف هذا الجسد تثير الدهشة بضآلتها، وكان يظهر أسفل ذيل المعطف الفضفاض كاحلان نحيفان بشكل يثير الدهشة. وقالت ليزا وهى تقترب منهم «ألا أزعجكم؟ إنني أعرف أن الوقت متأخر... ولكننى كنت أتناول العشاء بالقرب من هنا، وأنا أمرّ بشارعكم لم أستطع أن أقاوم الإغراء لزيارتكم... وأتيت...» وقالت الأم «كيف هذا» ثم نهضت واتجهت نحو صديقتها وقالت «ألا تخلعين معطفك؟» فقالت «لا سأبقى قليلاً ثم أنصرف... ولكننى سأفتحه قليلاً حتى لا أشعر بالحر» وفكت الحزام فكشفت عن ثوب من الحرير الأسود لافت للأنتباه، لامع، تزينه زهور كبيرة يميل لونها إلى الزرقة، ثم حيّت كارلا قائلة «مساء الخير يا كارلا... ليو: آه ميروميتشى هنا

أيضاً... محال أن لا نجده هنا... ميكيلي... كيف حالك يا ميكيلي؟» وجلست بجوار الأم فوق الأريكة.

وقالت الأم وهى تفتح المعطف: «يا له من ثوب جميل... حسناً ماذا لديك من أخبار تحكيها لنا».

أجابت ليزا وهى تنظر حولها: «لا شيء... ولكن... مالى أرى وجوهكم واجمة هكذا؟... كما لو كنتم تتناقشون وقطعت عليكم المناقشة بحضورى». أجاب ليو وهو ينظر إلى ليزا نظرة مخادعة من خلال دخان سيجاره «لا... إنها السعادة الغامرة التى سادت حتى الآن» قالت الأم «كنا نتحدث فى أمور كثيرة... هذا كل ما فى الأمر» وأخذت علبة سجائر وناولت صديقتها قائلة «هل تدخنين؟»

وتدخل ميكيلي عندئذ بطريقة غير لائقة كعادته وقال «إنها الحقيقة الخالصة» ثم أضاف وهو ينحني وينظر بتأمل إلى ليزا «كنا نتشاجر وقد قطعت أنت مناقشاتنا» قالت ليزا دون أن تتحرك وهى تضحك ضحكة متكلفة وخبيثة «أوه... إذن لا بد أن أنصرف... لا أريد أن أعكر مجلساً عائلياً ولا بكنوز الدنيا».

احتجت الأم قائلة: «إطلاقاً» ورمت ميكيلي بنظرة لوم قائلة «إنك غبي!»

فقال الصبي مكرراً: «غبيّ أنا؟» وفكر "حسناً... غبيّ... نعم...، غبيّ إذ أريد على كره أن أحفل بشئونك".

وانتابه شعور شديد بالتفاهة والسأم وأدار عينيه من حوله فى ظلام الغرفة المبغض ثم نظر إلى تلك الوجوه، وكان ليو ينظر إليه وارتسمت على شفتيه الممتلئتين ابتسامة بسيطة تنطق بالإهانة ما كان ليتغاضى عنها ويحتج لو كان رجلا قوياً... رجلا طبيعيا ولكن ميكيلي لم يكن يبالى بأى شيء وتملكه شعور بشيء من التفوق المهين... وازدراء وشفقة مزرية... ولكنه للمرة الثانية رأى أن يمضي ضد إحساسه الصادق: وحدث نفسه قائلاً «أعترض وأوجه إليه إهانة أخرى» ونظر إلى ليو وقال فى صوت تافه لا معنى له: «ليس هناك ما يضحك».

وشرع ليو يقول متظاهراً بالدهشة الشديدة: «أنا... أقسم...»

ولكن ميكيلي قاطعه رافعاً صوته وهو يبذل جهداً كبيراً «أقول لك...».

كانت هذه هى الطريقة المثلى للمشاجرة، فقد تذكر أنه شاهد مشاجرة فى إحدى عربات الترام، بين رجلين بدينين يبدو على كل منهما أن له شأن.وبعد أن استشهد كل منهما بالحاضرين راح يتكلم عن نفسه وعن شرفه ومهنته وعن الجراح التى أصيب بها في الحرب، وعن كل العناصر التى من شأنها أن تحرك مشاعر الحضور، وانتهى به الأمر بأن غطى صوته على صوت غريمه وبأن صرخ بحيث بلغ درجة معينة من الغضب الحقيقي... وما عليه الآن سوى أن يحذو حذوه فقال «لا تظن أن وجود ليزا يجعلنى غير قادر على أن أكرر ما قلته لك من قبل... بل على العكس... انظر... إنني أكرر وأقول لك أنك وغد!»

نظر الجميع إليه وصاحت الأم تقول فى استياء «ولكن... كفى...» ونظرت ليزا إلى ميكيلي فى فضول وقالت تسأل «لماذا... ماذا حدث؟» أما ليو فلم يتحرك، وبدا أن الإهانة لم يكن لها أى تأثير عليه واكتفى بابتسامة عريضة زائفة وساخرة وقال: «آه... هذا جميل جدا... جميل جداً لم يعد لنا الأن الحق فى أن نبتسم» ثم صاح يقول فى حدة وهو ينهض من مقعده ويهوى بقبضته على المائدة «لقد طال المزاح... ولكن يكفى الأن. إما أن يعتذر ميكيلي وإما أن أنصرف».

أدرك الجميع أن الأمر أصبح جديا، وأن هذه الضحكة لم تكن سوى البرق الخاطف الذى يسبق الرعد.

قالت الأم «إن ميروميتشى على حق بالفعل» وكان وجهها صارماً وصوتها حاسماً وشعرت بغضب شديد نحو ابنها لأنها خشيت ان يغتنم عشيقها هذه الفرصة ويقطع ما بينهما من علاقة، ثم قالت: «إن سلوكك شائن... وإنى آمرك بأن تعتذر له».

وقالت ليزا برغبتها الواضحة في تعقيد الأمور «ولكننى لا أفهم... لماذا ميروميتشى وغد؟» أما كارلا فكانت الوحيدة التى لم تحرك ساكناً والتزمت الصمت.

كان يقهرها ضجر بائس وباعث على السأم... وتملكها شعور بأن هذه الموجه الموجعة لأحداث هذا اليوم الحقيرة أوشك معها أن يفيض كيلها وأن ينفد صبرها، وأطبقت عينيها وراحت تراقب فى ألم بين أهدابها الوجوه الحمقاء الغاضبة للأربعة الآخرين.

وقال ميكيلي فى سخرية وهو ثابت لا يتحرك «أوه... أوه أنت تأمرينني؟... وإذا عصيت أمرك؟» أجابت مارياجراتسيا في عزة نفس زائفة باعثة على الشفقة «ستسبب حزناً لأمك»، فنظر إليها لحظة قبل أن يتكلم وقال يحدث نفسه مكرراً كلماتها «ستسبب حزناً لأمك» وبدت له العبارة فى حينها مثيرة للضحك ومقززة. وفكر فى اشمئزاز عميق «ها هو... إن الأمر يتعلق بليو... عشيقها... وهى لن تتردد فى أن تقوم بدورها كأم».

ولكن عبارتها هذه "ستسبب حزناً لأمك"، عبارة مقززة لا مجال للجدال فيها، فحول عينيه عن ذلك الوجه العاطفى، ونسى فجأة عزمه على الصدق والغضب وقال لنفسه " فى نهاية ا لأمر... أنا لا أكترث بكل هذا... لماذا لا أعتذر وأوفر عليها هذا الحزن الشديد؟ " ورفع رأسه، كان يريد أن يقول الحقيقة، ويبين لا مبالاته الكريهة وبدأ يقول «هل تحسبون أننى لست قادراً على الاعتذار لليو؟... لو تعرفون إلى أي حد لم أعد أبالى بكل هذا» وقاطعته الأم قائلة «إنه شيء جميل...» فاستطرد ميكيلي في حديثه مفتخراً «لا يمكنكم أن تتخيلوا... كيف أن كل هذا لا يعنيني... لهذا لا تخشي شيئاً يا أمى... لو تريدين فإننى لن اعتذر فقط لليو بل سأقبل قدميه أيضاً».

كانت ليزا تتابع ما يحدث فى اهتمام كبير وقالت عندئذ «كلا لاتعتذر».

تحول الجميع إليها، وقالت الأم وقد شعرت بالإهانة «لك جزيل الشكر يا ليزا... إننى أشكرك بالفعل لأنك تحرضين ابنى علىّ».

فأجابتها ليزا في هدوء «اننى لا أحرض ابنك عليك... ولكن يبدو لى أن الأمر لا يستحق كل هذا...».

نظر ليو إليها فى استياء وقال فى صوت صارم «لا يروق لى أن يعاملنى صبى بهذا الأسلوب... إننى طلبت أن يعتذر... وسوف يعتذر».

قالت كارلا وقد برز وجهها وكان بين شاحب وصاف «أليس من الأفضل أن ننسى كل هذا وأن نتصالح؟» وردت عليها أمها: «كلا... إن ميروميتشى على حق، وعلى ميكيلى أن يعتذر له».

ووقف ميكيلى وقال «سأعتذر له... لا شك فى ذلك...» ثم قال وهو يلتفت نحو الرجل «ليو... أعتذر عن أساءتى لك» وأمسك برهة، فقد خرجت هذه الكلمات المهينة بيسر!، وأنهى حديثه قائلاً وفى صوت هادىء وبدون مبالاة كطفل فى السادسة من عمره «وأعدك بأننى لن أعود إلى ذلك أبداً».

قال ليو دون أن يلتفت إليه «حسناً، حسناً»، ود ميكيلى أن يصرخ فيه ويقول «أيها الغبى!» عندما رآه شديد الثقة بنفسه ومنتصراً عليه.

وكانت الأم الواهمة هى أكثر الحضور سعادة، فقالت وهى تنظر إلى ابنها فى حنان مفاجىء «إن ابنى ميكيلى مطيع... لقد أطاع أمه».

أما لهيب الخجل والذل الذى لم يحرق وجنات ميكيلى عندما اعتذر لليو، فقد لفحه فجأة أمام ذلك الموقف المبهم. ثم قال فى حِدة «والآن وقد أجبتكم إلى ما طلبتم اسمحوا لى أن أذهب لكى أنام فإننى مرهق.» ودار على عقبيه كالدمية وخرج دون أن يحيي أحداً.

وأثناء مروره بالبهو، أحس بشخص يتبعه، فالتفت وإذا به ليزا. وقالت وهى تلهث وتنظر إليه نظرة غريبة متقدة «إننى جئت عن عمد لكى أقول لك أنني أستطيع أن أقدمك إلى قريبى الذى حدثتك عنه وقت ما تريد وباستطاعته أن يقدم لك وظيفة... فى شركته أو فى أى مكان آخر...».

قال ميكيلى وهو يركز نظره عليها «إنني أشكرك كثيراً».

«ولكن يجب أن تحضر إلى منزلى... لكى تلتقى به».

«حسناً» وكلما ازداد ارتباك ليزا كلما ازداد هدوء واهتمام الفتى. وسألها «متى؟» فأجابت ليزا «غداً... عليك أن تأتى غدا فى الصباح

الباكر... سيأتى هو نحو منتصف النهار... ولكن هذا لا يهم... سنتجاذب أطراف الحديث قليلاً... أليس كذلك؟» وصمت الاثنان وتطلع كل منهما فى الآخر... ثم تجرأت المرأة فجأة وقالت: «لماذا كل هذه الاعتذارات لليو؟... ما كان يجب أن تعتذر له».

سألها: «ولماذا؟» ثم قال لنفسه: "آه، هذا ما كنت تريدين الوصول اليه".

قالت ليزا وقد صارت فجأة غامضة للغاية «السببِ سوف يطول شرحه الآن... وقد يظن الآخرون بنا.. لكن لو جئت غداً سوف أطلعك عليه.»

«حسناً، إذن... إلى اللقاء غداً» وصافحها ومضى نحو السّلّم.

وعادت ليزا إلى غرفة الصالون... وكان الثلاثة الآخرون جالسين هناك، فى إحدى الأركان حول المصباح،... وظهرت الأم بألوانها تحت الأضواء وكانت تتحدث عن ميكيلى وتشرح لعشيقها الذى كان يستمع إليها جالساً فوق مقعده وعلى وجهه استياء غير متأثر بحديثها «من الواضح أن تلك الأعتذارات كلفته الكثير... فإنه ليس من الذين يخضعون بسهولة... فهو شديد الاعتزاز بنفسه...» وأردفت تقول في تحد " إنه معتز بنفسه ومستقيم مثلى أنا... ".

قال ليو وهو يرفع عينيه ليلقى نظرة طويلة على كارلا «ليس لدى شك فى ذلك... ولكنه خضع هذه المرة وقد أصاب». وصمت الجميع فقد انتهت الحادثة، واقتربت ليزا فى خطوات صامتة دون أن تنشغل بمن حولها. وسألت ليو «هل معك سيارتك يا ميروميتشى؟» والتفت الثلاثة، وقال الرجل وهو يهز رأسه «سيارتى... بالطبع معى السيارة».

قالت ليزا: «إذن ستصحبنى... إذا لم أزعجك».

«على الأطلاق... هذا يسعدنى» ونهض ليو وزرر سترته وقال وقد تملكه الغيظ ليس فقط لأن الأمور مع كارلا لم تنجح ولكن لأنه الأن عليه أن يصحب ليزا «لا بد من الانصراف».

ولكن غيرة الأم العمياء أنقذته... فمنذ سنوات مضت كانت هناك علاقة بين ليو وليزا... علاقة حب، بل كانا على وشك الزواج ولكن جاءت مارياجراتسيا وقد غدتٍ أرملة وخطفت من أعز صديقاتها خطيبها، وكانت هذه حكاية قديمة جداً، ولكن... من يدرى... ربما يدور الآن في ذهن كل منهما فكرة استعادة تلك العلاقة؟ والتفتت إلى ليزا وقالت «لا... لا تتصرفي الآن... فأنا لدى ما أحدثك به...».

نظرت إليها ليزا وقالت وهى تتظاهر بالارتباك «حسناً... ولكننى لن أجد ميروميتشى ليصطحبني إلى المنزل». قال ليو وقد كانت السعادة الغامرة هذه المرة من نصيبه «أوه، لا تقلقى سأنتظرك فى البهو أو هنا... تحدثى مع السيدة كما يحلو لكما... سأنتظرك» ثم استطرد يقول وهو ينظر إلى الفتاة «كارلا.. ستكون بصحبتى» نهضت كارلا فى تكاسل واقتربت وهى تهز رأسها الضخم وتقول لنفسها "هاهى اللحظة... إذا ما ذهبت معه الآن فسوف ينتهي كل شيء... ".

وكان ليو ينظر إليها كما لاح لها بنظرات خبث... وبدا لها هذا التواطؤ المسبق بغيضاً، ولكن ما الجدوى من المقاومة؟ وتملكها شعورٍ بنفاد صبر أليم، "ليته كل هذا" كانت تقولها فى نفسها مراراً وتكراراً وهى تشاهد غرفة الصالون المظلمة حيث صارت رمادا بعد أن كانت لأيام عديدة لهيبا، وذلك الجمع المهيب المثير للضحك حول المصباح «ليته كل هذا» وأحست بأنها تتهاوى فى استسلام مريب، كريشة تسقط فى بئر السلم.

لهذا لم تبد أى اعتراض ولم تنطق بكلمة.

واعترضت الأم قائلة «ولكنك لا تعرف كم من الوقت ستبقى ليزا... اذهب... اذهب أنت وسوف نستدعى لها سيارة أجرة» قالتها فى صوت مغرض... صوت الغيرة. وكان ليو لطيفاً وعنيداً فى نفس الوقت وقال «سوف انتظر... لا شيء يهم... دقيقة أكثر أو أقل... سأنتظر طواعية.»

أدركت الأم أنها خسرت الجولة وأصبح من المستحيل التفريق بين الاثنين ليو وليزا، وأخذت تفكر وهى تنظر إليهما «من الواضح أنه يريد أن ينتظرها ليذهبا معاً إلى بيتها» وبدت لها هذه الفكرة بشعة وازداد

شحوبها وومضت الغيرة واضحة فى عينيها وفى النهاية قالت «حسناً... اذهب... اذهب وانتظرها في الخارج... سأعيدها إليك فى الحال... ليزا حبيبتك، لا تخف... فى الحال» وأتت بإشارة من يدها، متوعدة، وارتجفت ضحكة مريرة وقبيحة على شفتيها الحمراوين... ونظر إليها ليو محدقاً ثم هز كتفيه وانصرف دون أن يتكلم وتبعته كارلا.

وفى الممر، ومن غير أن يبدو عليه ما يفعل، طوق خصر الفتاة بذراعه، وأدركت هي ذلك ولكنها قاومت فكرة الإغراء بالتحرر منه، وقالت لنفسها "إنها النهاية، نهاية حياتى القديمة" وعكست المرآة التى تتلألأ في الظلام صورتيهما المتلاصقتين أثناء مرورهما.

وقالت بصوت عال «أرأيت... إن أمي تغار من ليزا.» لم ينطق بكلمة ولكنه جذبها إليه بذراعه حتى التصق خصرها بخصر الرجل الصلب... ودخلا البهو متلاصقان بهذا الشكل... كانت جدرانه عالية، بيضاء اللون، وهى غرفة صغيرة مكعبة الشكل أرضيتها من الحجارة الصغيرة متوازية الأضلاع، ثم أضافت وهى تشعر بتفاهة مهينة "ومن يدرى؟... لعلها على حق فى غيرتها» توقف الرجل هذه المرة وبدون أن يتركها نظر إليها وقال وهو يبتسم ابتسامة سخيفة حمقاء ومثيرة «على العكس... أتعرفين من يجب أن تغار منها؟... منك أنت... نعم منك أنت...» قالت فى نفسها «ها نحن قد وصلنا إلى النقطة الحاسمة»، ثم قالت فى صوت واضح: «مني أنا... ولماذا؟».

وتلاقت عيناهما، وقال ليو فى لهجة أبوية تقريباً «هل ستأتين إلى بيتى؟» ورأها تميل رأسها دون أن تنطق بنعم أو لا، وفكر «إنها اللحظة الحاسمة»، وبالفعل جذبها إليه وهمّ بأن ينحنى ويقبلها عندما ارتفع ضجيج من الأصوات، هناك فى الممر، عرف منه أن الأم مقبلة، وكاد أن يختنق من الغضب، فقد كانت هذه المرة الثانية فى هذا اليوم التى تأتى فيه عشيقته لتفسد عليه كل شيء فى اللحظة الحرجة وفكر «فلتذهب إلى الجحيم». وكان يسمع صوت المرأة وهى تتحدث مع ليزا فى الممر، وبالرغم من أنها لم تومئ بالظهور، إلا أن القلق قد استبد بكارلا فأتت بحركة كى تتخلص من ليو وهى تقول «دعنى... ها هى أمى قادمة».

ونظر ليو إلى الباب فى غضب، ثم نظر حوله دون العزم على ترك هذا الخصر اللين، ووقعت عيناه على ستارة كانت على يمين البهو تخفى من ورائها باباً، فمد ذراعه، وأطفأ النور وهمهم بقول فى الظلام محاولا جر كارلا إلى ذلك المخبأ «تعالى... تعالى هنا خلف الستار... سندبر مزحة لأمك» ولكنها لم تفهمه وقاومته وكانت عيناها تلمعان فى الظلام وقالت «لماذا؟... ولكن لماذا؟» ولكنها استسلمت فى النهاية ودخلا خلف الستارة فى تجويف الباب.

ولف ليو ذراعه حول خصر الفتاة وهمس قائلاً «الآن سوف ترين»، ولكن كارلا لم تر شيئاً بل وقفت معتدلة صارمة واغلقت عينيها فى تلك الليلة التى تموج فيها رائحة الغبار، وتركت يد ليو تتحسس وجنتيها وعنقها وهو يهمس قائلاً «الآن سوف ترين». واهتزت الستارة من أعلى إلى أسفل وشعرت بشفاه الرجل تستقر على صدرها وتنزلق بحماقة حتى تصل إلى ذقنها وانتهى بها الأمر إلى فمها، قبلة عميقة دامت برهة. واقتربت الأصوات فاعتدل ليو وقال هامساً فى الظلام «ها هي» وضم إليه كارلا بذراعه فى قوة ودودة وحميمة فى ثقة كان قد افتقدها من قبل.

وانفتح الباب الزجاجى، وازاحت كارلا الستارة قليلاً ونظرت من خلالها ورأت أمها فى إطار الباب المفتوح المضىء، يعلو وجهها ظلال ونتوء وعلامات الدهشة واللافهم. وسمعتها تقول بصوتها المعتاد «ولكنهما ليسا هنا» وعلا صوت ليزا غير ظاهرة من الممر يسأل: «وأين ذهبا؟» سؤال لم يجد جوابا، ومدت الأم رأسها تنظر كما لو كانت تريد أن تستكشف البهو، وكان الظل يحفر قسماتها على وجهها، ويجعل من ذلك الوجه الرخو المصبوغ قناعاً متحجراً فى تعبير حائر مثير للشفقة، وكانت كل تجعيدة من تجاعيد وجهها وفمها شبه المفتوح الأسود من مساحيق الزينة، وعيناها المندهشتان وكل وجهها، كان كل ذلك يبدو وكأنه يصرخ ويقول «ليو ليس هنا... لقد هجرنى... إنه قد انصرف». ونظرت إليها كارلا فى فضول وشفقة، وأدركت الخوف الذي كان يرتجف خلف هذا القناع، وخامرها شعور بأنها ترى مسبقاً وجها للأيام المقبلة... عندما تعلم أمها بخيانة عشيقها وابنتها، واستمر هذا المشهد

برهة، ثم انسحبت الرأس وقال الصوت «إنه شيء غريب... معطف ميروميتشي ما زال هنا... وهما لا».

أجابتها ليزا «لعلهما في الباحة»،وابتعدت المرأتان بين الافتراضات والدهشة. وقال ليو هامساً «هل رأيت»، وانحنى من جديد وضم الفتاة إلى صدره، وفكرت مرة أخرى «هذه هي النهاية» وبسطت فمها، وكان هذا الظلام يطيب لها لأنه منعها من رؤية الرجل وترك لها كل الأوهام، كما كان يروق لها هذا التواطوء، وافترقا، وقالت وهي تزيح بيديها الستار «فلنخرج الآن... فلنخرج يا ليو، وإلا انكشف أمرنا» ورضخ على كره، وخرج كل منهما وراء الآخرمن مخبئهما كلصين، وسطع الضوء ونظر كل منهما إلى الآخر وسألته كارلا «هل تشوش شعري؟» وهز رأسه نفيا ثم أضافت «والآن ماذا سنقول لأمي؟»

أضاءت نظرة خبيثة فظة وجه الرجل الأحمر الهائج، وضرب بيده على فخذه وهو يضحك ثم قال «آه... كان شيئاً جميلاً... غاية في الجمال... ماذا سنقول لهما؟... سنقول كنا هنا بالطبع... كنا هنا كل الوقت...» قالت كارلا بلهجة الشك وهي تنظر إليه وتعقد يديها فوق بطنها «كلا يا ليو... حقاً؟» فرد مكررا «حقاً... آه، ها هي» وانفتح الباب، وظهرت الأم من جديد وقالت وهي تستدير نحو ليزا «ها هما... إنهما هنا... ونحن بحثنا عنهما في كل المنزل... أين كنتما؟» أتى ليو بحركة تدل على الدهشة وقال «إننا كنا هنا... ولم نتحرك» ونظرت الأم إليه كمن ينظر إلى مجنون مسكين وقالت «لا تقل سخفاً... لقد أتيت منذ قليل... ولم يكن أحد هنا... وكان الظلام حالكاً» قال الرجل في هدوء وهو يتناول معطفه من فوق المشجب «إذن... هذا يعني أنك تعانين من الوهم... إننا لم نخرج من هنا» ثم أضاف وهو يلتفت نحو الفتاة «أليس كذلك يا كارلا؟»

وأجابت هذه بعد لحظة تردد: «هذا صحيح جداً».

وساد صمت كله وعيد وأحست الأم بأن الجميع يهزأون بها، ولكنها لم تدرك السبب، وساورتها الشكوك في أن الأمر يتعلق بغايات خفية

وأساليب انتهازية مبهمة. وراحت تنظر فى حيرة وغضب إلى ليو وكارلا وليزا.

وأخيراً قالت «إنك مجنون... لم يكن أحد هنا منذ خمس دقائق» وأضافت وهى تشير إلى صديقتها «تشهد على ذلك ليزا التى كانت معى» وقالت ليزا فى هدوء «حقاً... لم يكن أحد هنا» وساد الصمت من جديد وقال ليو وهو يغمز للفتاة بعينيه غمزة لها مغزاها «وكارلا تشهد بأننا كنا هنا... إنها الحقيقة... أليس كذلك يا كارلا؟» فأجابت في ارتباك «نعم» وشعرت ولأول مرةٍ بأن هذا الأمر مقلق، فهو أمر لا يقبل الجدال، فعندما جاءت أمها كانا معاً فى البهو.

وقالت الأم فى مرارة «حسناً... إنكما على حق... أنا مجنونة... وليزا كذلك» وصمتت لبرهة ثم تحولت إلى كارلا وانفجرت قائلة «إذا كان ليو يسمح لنفسه بمثل هذه الدعابات... فهذا شأنه... ولكن أنت تهزئين بي؟ يجب أن تخجلى من نفسك... أهذا هو احترامك لأمك؟» أحتجّت كارلا قائلة «ولكنها الحقيقة يا أمى». وآلمتها الدعابة وأحست أنها شوكة انغرزت فى كيانها القلق. وددت أن تضيف «نعم كنا فى البهو... كنا خلف الستارة أنا وليو... متعانقين» وتخيلت المشهد الذى كان سينفجر نتيجة لهذه الكلمات، ولكنه سيكون الأخير، ثم ينتهى كل شىء.

عندئذ قالت ليزا فى ملل «هل ننصرف يا ميروميتشى؟» وهمّ الرجل بالانصراف وبسط يده للأم وهو لا يملك إلا أن يقول مبتسماً «فكرى فى هذا الأمر... فكرى فيه طوال الليل» ورفعت الأم كتفيها وقالت: «إنني أنام الليل» ثم عانقت ليزا وهمست فى أذنها وقالت «تذكرى ما قلت لك» وفتحت الابنه الباب، ودخلت رياح من الهواء البارد إلى البهو، وخرجا الاثنان واختفيا فى ظلام الليل.

الفصل الرابع

صعدت الأم وابنتها إلي الطابق العلوي، وفي الطرقة لم تنطق الأم بكلمة فقد ساءتها المزحة التي تعرضت لها في البهو، وسألت ابنتها عما تنوي أن تفعل في اليوم التالي، فأجابتها كارلا "سألعب التنس" وبعدها ذهبت كل منهما إلي غرفتها دون أن تتبادلا العناق.

وفي حجرة كارلا، كان المصباح مضاء، فقد نسيت أن تطفئه، وبدت قطع الأثاث والأشياء الأخرى في ضوء النور الأبيض كأنها تنتظر عودتها. وما أن دخلت حتى اتجهت بطريقة آلية لتقف أمام مرآة الدولاب الكبيرة: لم يظهر على وجهها أي شيء غير معهود فيما عدا عينيها المتعبتين والمتألقتين بشكل غريب، وتحيط بهما هالة زرقاء سوداء، وأقلقها نظراتهما التي تملؤها الآمال والأوهام كما لو كانت لشخص آخر.

وبقيت هكذا لحظة وقد اتكأت بيديها على المرآة، ثم أطلقتهما ومضت تجلس فوق فراشها، ثم نظرت حولها. كانت الغرفة تبدو كما لو كانت غرفة طفلة في الثالثة أو الرابعة من عمرها، فقد كان الأثاث أبيض اللون منخفضا وصحيا، والجدران بيضاء مزينة باللون الأزرق وصف من الدمى ذات الرؤوس المعوجة والعيون المضطربة، بائسة مهملة ملقاة علي الأريكة الصغيرة أسفل النافذة، كان الأثاث هو نفس أثاثها وهي طفلة، فإن الأم لضيق ذات اليد، لم تتمكن من استبداله بغيره مما يتناسب مع عمرها، فقد قالت لها فيما حاجتها لأثاث جديد؟ إنها ستتزوج وستغادر المنزل. وهكذا كبرت كارلا وترعرعت في نطاق ضيق لسنوات عمرها البعيدة، ولكن لم تعد الغرفة كما كانت في الماضي، جرداء تحمل سمات الطفولة. فإن كل سنة في عمرها تركت فيها آثارها من لعب وقطع بالية، فالآن يملأ الغرفة المرح والألفة ألفة غريبة، أحيانا تري فيها خصوصيات المرأة (مثل قطع الأثاث الخاصة بالزينة ذات الشرائط الشاحبة، مليئة بالعطور والكحل والمساحيق وأدوات الزينة، إلي جانب زوج من مشد الجوارب وردى اللون معلق بجوار المرآة بيضاوية

الشكل، وأحيانا أخرى ترى فيها خصوصيات طفلة تتمثل في فوضي خفيفة تتسم بالأنوثة قوامها ملابس ملقاة فوق المقاعد وقوارير مفتوحة وأحذية مقلوبة، مما يصعب ذلك الأمر الغريب. كانت كارلا تنظر إلي هذه الأشياء في دهشة هادئة، دون أن يخطر بذهنها أي خاطر وأثناء تأملاتها هذه، كانت جالسة فوق فراشها، في غرفتها، المصباح مضاء، وكل شيء كما هو في مكانه مثل كل ليلة، وهذا كل شيء... .

وشرعت كارلا تخلع ثيابها، فخلعت حذاءيها وثوبها وجواربها، ومع هذه الأفعال المعتادة كانت تختلس النظر حولها ، فتارة تنظر لرأس دمية شعرها متلبد وأخرى إلي المشجب المشحون بالثياب وتارة إلي قطعة أثاث الزينة وأخرى إلي المصباح... وهذا النور... هذا النور الفريد الهادئ المألوف الذي يبدو من تكرار إضاءة أثاث الغرفة كأنه جزء لا يتجزأ منها... كان يوحى بإحساس طيب بالأمان والحزن بعض الشيء بين النافذة محكمة الغلق وأنصاف الستائر المسدلة شديدة البياض.

نعم ليس هناك من شك... إنها في غرفتها... في منزلها... ربما كان الليل مخيماً خارج هذه الجدران، ولكنها كانت معزولة عنه بذلك الضوء وبتلك الأشياء بحيث كان في مقدورها أن تتجاهله... وأن تفكر أنها وحيدة... نعم وحيدة تماماً... بعيدة كل البعد عن هذا العالم.

فرغت من خلع ملابسها، ونهضت وهي عارية تماماً، ومضت وهي تهز رأسها الضخم وشعرها المتفرق إلي الدولاب لكي تأخذ بيجامة جديدة، قطعت هذه الخطوات في رشاقة وعلي أطراف أصابعها، وفتحت الدرج ولاحظت وهي تنحني أن نهديها الكبيرين يتحركان لحالهما تحت عينيها وعندما اعتدلت رأت نفسها في المرآة، آلمتها هذه الهيئة الرديئة المخجلة لهذا الجسد العاري وعدم تناسق رأسها الكبير مع كتفيها النحيفتين، ربما بسبب شعرها، وأخذت مرآة من فوق الدولاب ووضعتها خلف قفاها... نعم، إن شعرها طويل "يجب أن أذهب إلي مصفف الشعر".

ونظرت إلي نفسها مرة أخرى... ها هى... إن ساقيها معوجتان قليلاً... آوه... ولكنه اعوجاج بسيط من تحت ركبتيها، وصدرها؟... إن

صدرها منخفض أكثر مما يجب، فرفعته قليلاً بيديها وهى تقول "يجب أن يكون هكذا" وأدارت رأسها محاولة أن ترمق ظهرها، ولكن عندما كانت نظرات عينيها تحاول من فوق كتفيها أن تحتضن تماماً هذه الصورة الأخرى من نفسها، هاجمها إحساس بالتناقض بين تفاهة هذه الحركات والأحداث الجسام التي وقعت في هذا اليوم، تذكرت أن ليو قبّلها منذ دقائق، ثم وضعت المرأة وعادت إلي فراشها.

جلست، وبقيت لحظة ثابتة تحدق بعينيها في الأرض ثم فكرت أخيراً وقالت "إنها بداية لحياة جديدة بالفعل"، ورفعت رأسها وبدا لها فجأة أن هذه الغرفة الهادئة الطاهرة البعيدة عن الظن وهذه العادات الحمقاء التافهة كانت كلها شيئا واحدا حيا... شخصا واحدا محدد المعالم تعد له في الخفاء خيانة لم يسمع بها من قبل. وقالت في فرحة مريرة وتوتر "إنها لحظات قليلة... ثم وداعاً لكل هذا إلي الأبد... "وحيت من فوق فراشها الأشياء التي تحيط بها، كما لو كانت فوق سفينة توشك علي الإبحار. ودار بمخيلتها تصورات مجنونة كبيرة وحزينة، وبدا لها أن الأحداث تترابط ترابطاً محتوماً وتساءلت "أليست صدفة غريبة... أنني سأستسلم غداً لليو وتبدأ حياة جديدة... وأن غداً أيضا هو نفس اليوم الذي ولدت فيه؟"

وتذكرت أمها وأخذت تفكر وتقول: "سأرحل مع عشيقك... نعم عشيقك يا أماه"، وراقت لها أيضا هذه المصادفة الوضيعة وهذه المنافسة مع أمها، كل شيء ينبغي أن يكون نجسا قذرا وضيعا، لا مكان فيه لحب أو لود، فقط إحساس كئيب بالدمار. وفكرت "اختلق موقفاً فاضحاً يملؤه الخزي والخجل... سوف أدمر نفسي تماماً" ومالت برأسها إلي أسفل، وعندما رفعت عينيها رأت نفسها في مرآه الدولاب وبدا جسدها يرتجف كله دون أن تدري لماذا... ودت لو أن تبكي وتصلي. وبدا لها أن هذه الأفكار الكئيبة قد أضاعتها. وراحت تكرر قائلة وهي تحملق في الأرض "إلي أين تمضى حياتي؟... إلي أين تمضي؟".

وأخيراً لم يعد لهذه الكلمات المؤلمة أي معني، وأدركت أنها لم تعد تفكر في شيء وأنها عارية وجالسة علي حافة الفراش. كان المصباح مضاء وكل شيء حوله في مكانه المعتاد، ولم يبق من فوران غضبها

غير مرارة فارغة وأحست أنها قد اقتربت بعد جهد من أساس مشكلتها ثم فقدته دون أن تعرف كيف. وفكرت قائلة "فليحدث ما يحدث" ثم أخذت بيجامتها وارتدتها في تكاسل واندست تحت الغطاء وأطفأت النور وأغمضت عينيها.

الفصل الخامس

لم يكن أحد من الخدم ينام فى بيت ليزا، فلم تكن تريد ذلك، أما شئون البيت التي لابد منها، مثل الطهي والتنظيف فكانت تعهد بها إلي زوجة البواب، فهي امرأة سريعة الحركة ونشيطة ولم يكن هذاالنظام بالتأكيد مريحا ولكن ليزا وهي التي تعيش حياة حرة للغاية بعيدة عن الانضباط كانت تفضلها هكذا.

واستيقظت في ذلك الصباح في وقت متأخر فمنذ أيام كثيرة كانت تعود إلي بيتها بعد منتصف الليل وتنام بغير ارتياح وتستيقظ متعبه وأكثر عصبية من اليوم السابق. وقد أفاقت ذلك اليوم بصعوبة كبيرة وراحت تنظر من حولها دون أن تتحرك من مكانها أو ترفع رأسها. كان الظلام غير حالك يتخلله الغبار وبدا وكأن به ثقوب كالغربال يخترقه آلاف من خيوط النور تملأ الغرفه، وكانت قطع الأثاث القديمة البكماء والميتة تكاد تظهر في تلك الظلال وكذلك المرآة الصامتة والثياب المعلقة علي تلك البقعة المظلمة. الباب.

كان الهواء ثقيلا يختلط فيه رائحة النعاس برائحة الأثاث، وكانت النافذة مغلقة.

نزلت ليزا من فراشها وهي ترتب شعرها الذى تهدل فوق وجهها المبتل، ومضت إلى النافذة وجذبت مصراعها وغمر نور الصباح المشرق الغرفه، وأزاحت الستائر، كان زجاج النافذة تكسوه حبات من البخار كالدرر وكان الجو ينبىء بالبرودة وكانت تظهرعبر قطرات الندى ألوان ساحرة واهنة نقية بيضاء وخضراء مذابة في بحيرة من الماء، فتحت بيدها هذا الستار السائل ورأت علي الفور جزءا من سطح يميل لونه إلى الحمرة وأدركت من شكله ونوره الضعيف الفاتر المعتم ودون أن ترفع عينيها إلى أعلى، أن السماء ملبدة بالغيوم. وابتعدت عن النافذة، وتقدمت بطريقة آلية بضع خطوات في الغرفة المزدحمة وكان فراشها الكبير المصنوع من خشب الجوز القاتم يشغل مساحة كبيرة من الغرفة

وعليه أغطية بيضاء غير مرتبة وكان قريباً من النافذة المستطيلة حيث كان يروق لها في ليالى الشتاء وهى مستلقاة تحت الغطاء الدافىء، أن ترى على بعد متر مياه المطر وهى تهطل فى الليل العاصف وترتطم بزجاج النافذة المربع وبالأضافة إلى الفراش كان هناك دولابان كبيران مصنوعان من نفس نوع الخشب مزودان بمرآتين كبيرتين صفراوين. كانت الغرفة متوسطة الحجم ولكن فى وجود ذلك الأثاث بدت ضيقة لا تتسع ليتحرك المرء فيها.

واتجهت إلى المشجب وهى لاترتدى غير قميص شفافٍ جعل مفاتن جسدها تبدو أقصر مما هى، كانت ساقاها مكشوفتين تماماً حتى الثنية العميقة التى تفصل استدارة ردفيها عن فخذيها البيضاوين الأملسين، وكان نهداها ذواتا العضلات القوية قد انخفضتا قليلا عما كانتا عليهما عندما كانت فى العشرين من عمرها. ورأت نفسها فى المرآة شبه عارية تنحنى إلى الأمام كما لو كانت تريد إخفاء بقعة داكنة فوق جسدها تحت هذا القميص القصير ولاحظت نقص وزنها ثم ارتدت ثوب الحمام ومضت إلى دورة المياه.

وكان الحمام صغيراً، رمادى اللون مجرداً بارداً، لم يكن فيه سوى مرآة واحدة يعلوها الصدأ ويملأ أركانه ظل رطب، أضاءت ليزا النور وتذكرت أنها لم تغتسل منذ ثلاثة أيام ولا بد من الاستحمام الأن، ثم ترددت قليلا وفكرت هل هو من الضرورى؟... نظرت إلى قدميها: كانت أظافرها بيضاء تبدو نظيفة... إذن فلا داعى... وقررت أن تتوجه نحو الحوض، ثم فتحت صنبور المياه وانتظرت حتى امتلأ ثم خلعت ثوب الحمام وأنزلت القميص حتى خصرها. بدأت بغسل وجهها وهى تعطس وتتنفس وأتت بحركة كأنها تريد أن تمنع تسرب المياه من فوق صدرها وكتفيها إلى الجزء الأسفل من جسدها الذى ما زال عليه دفء الليلة السابقة، ثم غسلت رقبتها وإبطها، وأحست في كل مرة كانت تنحنى فيها بأن القميص يرتفع فوق ظهرها وشعرت ببرد شديد مبعثه بلاط الحمام وفى نهاية الأمر لم تجد المنشفة ففرت طابقة عينيها عارية لتأخذ واحدة آخرى من غرفة النوم. جففت نفسها وجلست أمام طاولة الزينة وفى فترة وجيزة رتبت شعرها، فهى لا تستخدم مساحيق التجميل أو الأصباغ

فاكتفت بوضع قليل من الكحل والعطر ومشطت شعرها: وفي النهاية أدارت كتفيها للمرآة وانحنت لكي تلبس جوربيها وعندئذ طافت فكرتان برأسها، الأولى تناول الفطور والثانية ميكيلى. كانت تحب تناول الطعام الشهى مع القهوة فى الصباح: المربى الشهية والفطائر والزبد والكعك، وكانت نهمة لا تغادر المائدة إلا بعد أن يتخمها الطعام ولكنها خشيت هذا اليوم أن تبقى من غير طعام وفكرت: " فقد يحضر ميكيلى بعد قليل... ومن الأفضل ألا يأتي وأنا أتناول الطعام... صبراً... سأعوض ذلك مرة آخرى..." ونهضت وارتدت قميصاً داخلياً وردى اللون ثم لباساً آخر نصفه العلوى ضيق للغايه كما لو كان مشداً يشد صدرها. وراح خيالها.

ينسج صورة لميكيلي عاشقاً شديد الولع، شاباً لا تجارب له تبذل له نفسها وهى ترتجف فرحا... أخيراً حب نقى... وقالت لنفسها فى اقتناع: «بعد تلك الحياة التى قضيتها... فإن قليلاً من الطهارة شيء جميل».

سهر الليالى وملذات مرهقة وشهوات مجردة من المتعة... سوف تنقشع هذه السحابة القبيحة وسيأتيها ميكيلى بنور الشمس بالسماء الزرقاء بالصدق بالحمية... سيجعلها كما لو كانت معبوداً ويضع رأسه على ركبتيها. كانت تشعر برغبة عارمة وتتوق إلى أن تنهل من شبابه المتدفق وأن تعود إلى هذا الحب الجديد المتلجلج العفيف الذى نسيته منذ عشرين عاماً، إن ميكيلى هو النقاء ذاته وستبذل نفسها لهذا الفتى دون شهوة أو توهج، ستمضى إليه بخطوات راقصة وتقول له: «أنا ملك لك» سيكون هذا حباً فريداً من نوعه... حباً منقطع النظير لا مثيل له اليوم.

وكانت قد انتهت من ارتداء ملابسها، فخرجت من غرفتها وعبرت ممرا مظلماً ودخلت حجرة تسطع بالنور، حجرة بيضاء وردية، الأثاث فيها أبيض وكذلك السقف أما السجادة والفرش والأريكة فكانت كلها وردية اللون يتخللها ضوء هادئ عبر ثلاث نوافذ كبيرة تنسدل الستائر عليها فى رشاقة.

كان كل شيء يبدو للوهلة الأولى نقياً طاهراً، أشياء كثيرة رقيقة... فهذه سلة للتطريز وهذه مكتبة صغيرة بها كتب متعددة الألوان وهذه زهور رقيقة فوق أرفف مزخرفة، ولوحات مائية على الجدران، خلاصة

القول أنها مجموعة من الأشياء تجعل المرء يفكر للوهلة الأولى ويقول: «ياله من مكان صاف وهادىء تعيش فيه فتاة جميلة» ولكن إذا ما أمعن النظر تغير رأيه وأدرك أن الحجرة ليست جديدة ولكن مثلها كباقى الشقة، فإن طلاء الأثاث قد تقشر وعلاه الاصفرار والفرش حال لونه وبلى نسيجه فى مواضع كثيرة وعلى الأريكة قطعة من القماش باليه رثة ووسادات يعلوها الدرن.

ونظرة أخرى ويتبدد كل شيء، فالستائر ممزقة وزجاج اللوحات المائية محطم، والكتب يعلوها الغبار والسقف به شقوق كبيرة. وفى النهاية إذا ما كان كل هذا فى وجود صاحبة المنزل، فلا حاجة للبحث بعيداً، فإن وجه المرأة يفسر كل ما فى الحجرة من انحراف وفساد.

وجلست ليزا أمام مكتبها وانتظرت، وعادت إليها فكرة تناول فطورها، كانت بها رغبة شديدة فى ذلك، لكن ماذا تفعل؟ وحدثت نفسها على مضض وهى تنظر إلى ساعتها: «لو أعرف على الأقل متى سيأتى» ولكنها فى النهاية تمكنت من السيطرة على نفسها، وأقصت عنها هذه الفكرة وعادت إلى خيالها الرقيق القاسي الثائر. وفجأة حدثت نفسها وقالت: «سأجلسه على الأريكة واستلقى خلفه... نتحدث قليلاً... أغويه... ثم أنظر إليه... وسيفهم إن لم يكن أحمق» وأخذت تراقب الأريكة كأداة تريد أن تقدر جودتها وفاعليتها، وإذا ما سارت الأمور كما ينبغى سوف تجعل الفتى ينتظر لتراه وهو يتلهف عليها، وأخيراً، وبعد عدة أيام، ستدعوه على العشاء ليبقى معها طول الليل، ياله من عشاء طيب مكون من طعام شهى، وقبل كل شيء النبيذ... وسترتدى هذا الثوب الأزرق الذى يظهر جمالها، وتتزين بقليل من المصاغ الذى استطاعت أن تخلصه من يد زوجها السابق الجشع، ستعد المائدة هنا فى البهو لأن حجرة الطعام أقل ألفة، ستعد مائدة لفردين، تملؤها أنواع طيبة من الأسماك وفطائر اللحم والخضروات والحلوى، مائدة صغيرة غنية ومتألقة لاثنين... لاثنين فقط، لا مكان فيها لثالث، ولا رغبة حتى فى وجوده... ستجلس أمام فتاها الغالى وعيناها تلمعان من الفرح والحنان، لن تكف عن النظر إليه حتى وهى تأكل ستصب له النبيذ، كثير من النبيذ، وتتحدث إليه بنبرة فيها دعابة وفضول وتلميح وأمومة، وستستعلم منه

عن علاقته الغرامية مما يجعل وجهه يحمر خجلاً، ومن وقت لآخر ستغمز له بعينيها برقة، وستتلامس أقدامهما أسفل المائدة، وبعد العشاء سيرفعان معاً ما على المائدة وهما يضحكان يتلامسان يصطدمان من شدة الرغبة فى أن يحتوى كل منهما الآخر، ثم ستتجرد من ملابسها، وترتدى ثوب الحمام، وستجعل ميكيلى يرتدى إحدى بيچامات زوجها التى ستكون ملائمة له بشكل رائع فقامتهما واحدة بالرغم من أن الفتى أكثر نحافة، وسيعرفان معنى السعادة وهما جالسان فوق الأريكة، السعادة الثائرة الضنينة فى أول ليلة لهما... وأخيراً سيدخلان معاً إلى غرفة النوم.

وظلت جالسة بجانب المكتب تثيرها هذه التأملات واتجهت برأسها إلى أسفل ومن وقت لآخر كانت تسوى شعرها كأنها تريد أن تقصى عنها تلك الأفكار أو كانت تبدل قدميها دون أن تكف عن التفكير، وتنظر إلى حذائها عندما سمعت صوت رنين الجرس فتسارعت دقات قلبها وابتسمت ونظرت إلى المرآة وخرجت إلى البهو. وأضاءت النور قبل أن تفتح الباب، ودخل ميكيلى وقال وهو يعلق معطفه وقبعته على المشجب «ربما بكرت فى الحضور؟» فأجابته «إطلاقا» ودخلا إلى الغرفة وجلسا فوق الأريكة وسألته ليزا «كيف حالك؟»، وأخذت علبة السجائر وقدمتها إلى الفتى، ولكنه رفض وبدا عليه القلق ووضع يديه فوق ركبتيه.

وأخيراً أجاب «أنني على ما يرام» وساد الصمت.

ثم قالت ليزا «إذا سمحت لى سوف استلقى على الأريكة... أما أنت... فكن على راحتك.» ورفعت ساقيها وتمددت فوق الوسائد، وشاهد ميكيلى فخذين بيضاوين فابتسم فى داخله وراح يحدث نفسه قائلاً: «إنها تحاول إثارتى بكل تأكيد» ولكن ليزا لم تكن تروق له على الإطلاق، ولم يكترث لكل هذا.

ونظرت إلى الفتى وهى تفكر فيما تقول له، وبسبب قلقها هذا فرت منها تلك الذرائع التى بدت لها منذ دقائق قليلة عفوية، كانت رأسها فارغة وقلبها مضطرب، وعاد إلى ذهنها دون أن تدرى لماذا، مشهد الشجار الذى وقع الليلة السابقة بين ليو وميكيلى وأثار اهتمامها فى حينه، وترددت فى الخوض فى هذا الموضوع وخطر ببالها فكرة الانتقام من

عشيقها السابق بأن تكشف لميكيلى عن علاقة أمه غير المشروعة بليو، إذا كان لم يعلم بها، ثم تصل بطرق غير مباشرة إلى حديثها المثير.

وقالت وهى تنظر إليه «أراهن أنك تتوق شوقاً لكى تعرف لماذا طلبت منك بالأمس أن لا تعتذر لليو».

تحول إليها وهم بأن يقول: «بل أنتِ التى تتوقين إلى الحديث عن ذلك»، ولكنه تماسك وقال: «أتوق شوقاً لا... ولكن أخبرينى» وبدأت تقول «أظن أنه من حقى أكثر من أى شخص آخر أن أفتح عينيك».

«لا شك عندى فى ذلك» «إننى صمت كثيراً، وتظاهرت بأننى لا أرى شيئاً... ولكن طفح الكيل، وما رأيته مساء أمس قد أثارنى» فقال ميكيلى: «وما الذى أثارك بالتحديد؟» «أن تعتذر لليو» وحدقت نظرها فيه ثم استأنفت تقول: «خاصة وأن أمك هى نفسها، التى طلبت منك هذه المهانة» وقال ميكيلى يحدث نفسه وقد ارتسمت على وجهه علامات السخرية: «آه... فهمت الآن، إنها تريد أن تتبأنى بهذا الخبر العظيم وهو أن لأمى عشيقاً». وشعر بتقزز شديد من نفسه ومن ليزا وأضاف يقول «ربما لم يكن فى ذلك أية مهانة».

«إنها مهانة على كل حال... وستجدها مهانة كبيرة عندما تسمع ما سوف أقوله لك...» وراح ينظر إليها ويقول لنفسه: «إذا ما هجمت عليك الآن أو قبضت عليك قبضاً مؤلماً ستتخلين فى الحال عن هذه الصورة الغامضة المبجلة وستخبطين خبط عشواء» وقال لها وهو يظن أنه حقاً صادقاً فيما يقول: «أنبهك بأنني لا يهمني أن أعرف شيئاً» فأجابته ليزا دون ارتباك» حسناً... أنت على حق... ولكن اصغ إلى لا بد أن أتكلم... سوف تشكرنى فيما بعد... لتعلم أن أمك قد ارتكبت خطأ عظيماً...».

«خطأ واحدا؟».

ما بين أن تغضب أو أن تضحك اختارت ليزا الضحك وقالت وهى تبتسم وتقترب من الفتى «ارتكبت آلاف الأخطاء... ولكن هذا الخطأ هو بالتأكيد الأعظم»، وقاطعها ميكيلى قائلاً: «لحظة واحدة... لا أدرى ما سوف تقولين... ولكن إذا كان الأمر يبدو خطيراً، فإننى أريد أن أعرف لماذا تبوحين لى به».

وتبادلا النظر وقالت ليزا بصوت هادئ وهى تخفض عينيها: «لماذا؟ لأن أمرك يهمنى جداً ولأننى أحبك، ولأن هناك كما سبق أن قلت لك بعض الظلم يثير غيظى».

كان يعلم بعلاقة ليو بأمه وقال يحدث نفسه «أو بالاحرى يغضبك أن ليو قد سلب منك» ولكنه هز رأسه وقال «أنت على حق، لا يوجد شيء أسوأ من الظلم... إذن أخبريني في أي شيء يتمثل هذا الخطأ؟»

«ها هو... لقد تعرفت أمك منذ عشرِ سنوات على ليو ميروميتشى...» وقاطعها ميكيلى فى ذعر زائف قائلاً: « لعلك لا تريدين أن تقولى لى أن ليو عشيق أمى!» وتبادلا النظرات، وقالت ليزا فى بساطة مؤلمة «يؤسفنى ذلك... ولكن هذه هى الحقيقة» وساد الصمت، ونظر ميكيلي إلى أسفل وأراد أن يضحك، فقد تحول تقززه إلى مهازل مُرّة. ثم استأنفت ليزا تقول: «والآن لعلك تفهم كم كان غضبى عندما رأيت أمك تطلب منك تلك المهانة أمام هذا الرجل».

لم يتحرك ولم ينطق بكلمة ورأى بعين الخيال أمه وليو وهونفسه يطلب العفو، وجُوه حمقاء هزيلة ضائعة بغير أمل فى الحياة الواسعة... ولكنِ هذا الخيال لم يذله ولم يثر فى نفسه أى إحساس وود لو أنه كان شخصاً آخر، يشعر بالسخط والحقد والكره المشتعل ولكن آلمه ألما شديدا عدم اكتراثه إلى هذا الحد.

ورأى ليزا تنهض لتجلس إلى جواره وقالت وهى تلقى يدها على رأسه فى حركة حمقاء مواسيه: «هيا... تشجع... أعرف أن هذا الأمر يثير شجنك... فالمرء منا يعيش على ثقة بأن هناك شخصا جديرا بحبنا واحترامنا، ثم... لا يلبث أنِ ينهار كل شيء من حولنا فى لحظة... ولكن لا يهم... فإن في هذا درساً لك..».

وهز رأسه وهو يجز على شفتيه لكى لا يضحك، واعتقدت ليزا على العكس بأن الاحزان قد غلبته وقالت فى صوت مؤثر معسول، دون أن تكف عن مداعبة شعْرِ الفتى: «رُبّ ضارة نافعة... هذا سوف يقرب ما بيننا... هل تريد أن أكون لك كما كانت لك أمك من قبل... أخبرنى؟ هل تريد أن أكون صديقة لك... صديقة حميمة...؟» كانت صادقة فى قولها

ولكن صوتها كان شجياً زائفاً بحيث أن ميكيلى ود لو أن يطبق فمها بيده، ولكنه لم يفعل ووقف منحنى الرأس فى عناد، ورأى نفسه جالساً بجوار المرأة على حافة الأريكة وبدت قسمات وجهه بين الندم والغباء وبدا له المنظر هزليا للغاية ولم يجد أمامه غير وسيلة واحدة لكى لا يضحك وهى الصمت.

وازدادت ليزا حماساً وقالت: «ستأتى لزيارتى... وسنتبادل أطراف الحديث... وسنحاول أن نصلح ما مضى... وأن نقيم حياة جديدة».

نظر إليها من طرف عينه وبدا لون وجهها الأحمر تحت زينة شعرها الأشقر وقد اصطبغ بالرغبة وفكر: «إذن فهذه هى البداية» ثم تذكر ذلك القريب الذى كان يجب أن يأتى هذا الصباح... لماذا لا يأخذ الأمر بعين الاهتمام ويستفيد من هذه المغامرة ولماذا لا يستمر على تظاهره؟

ورفع رأسه وقال كمن أفلح فى التغلب على أحزانه الكبيرة «الأمر قاس... ولكنك على حق... يجب أن أبدأ حياة جديدة...».

راحت ليزا تؤكد قوله فى حماس «بالتأكيد» ثم خيم صمت عميق، وأخذ كل منهما يتظاهر بطريقته بالشرود الملهم الحالم وبقيا ثابتين متجاورين وأطرقا برأسيهما إلى الأرض.

وسمع صوت خفيف فقد انزلق ذراع ميكيلى خلف ظهر المرأة وطوق خصرها فقالت «لا» وفى صوت واضح، دون أن تأتى بحركة أو تدير وجهها، كما لو كانت ترد على سؤال فى داخلها «لا»، وابتسم ميكيلى على كره منه، وأحس بشىء من الاضطراب يقتحمه، وجذبها إليه أكثر وعادت تقول: «لا... لا...» فى نبره ضعيفة ولكنها استسلمت وألقت برأسها الضائعة على كتف الشاب، وبعد لحظة من الجمود العاطفى أمسك بذقنها، وقبلها فى فمها على الرغم من احتجاج عينيها الصامت الزائف.

ثم افترقا عن بعضهما وقالت ليزا بابتسامه راضية مثيرة «إنك شرير... شرير وقاسي» ورفع ميكيلى عينيه ونظر إليها ببرود، وعبرت ابتسامة وجه ميكيلى النحيف الجاد ومد يده وقرص المرأة بشدة أسفل

ذراعيها، وصرخت ليزا فجأة وضحكت وفتحت فمها على مصراعيه وهى تهتز «أوه... أوه...» وحركت ذراعيها وساقيها وسقطت فى النهاية من فوق الأريكة وارتفع ملبسها فوق بطنها فى حركة رعشة لكل جسدها وظهر فخذاها الضخمان بلونهما الأبيض تظلله عضلاتها وحينئذ ابتعد ميكيلى عن تطويقها واسدلت ليزا جونلتها فوق ركبتيها.

«يالك من مخادع... يالك من مخادع» قالت فى صوت حاد وهى تضغط بيدها على صدرها اللاهث، وصمت ميكيلى وراح يراقبها بفضول رصين شديد.

وأضافت وهى تضع يديها على كتفيه «ولكن ينبغى أن تفعل هكذا... انظر...» واقتربت بشفتيها الرقيقتين على شكل قلب من شفتي الشاب ولمستهما بخفه فابتعد عنها وعيناه تلمعان ببريق الرضا. وعادت تقول فى بلاهة حتى تخفى إثارتها «هكذا ينبغى أن تفعل».

ولوى ميكيلى فمه، ونهض وراح يسير فى الحجرة، ويداه فى جيبيه ونظر إلى اللوحات المائية التافهة المعلقة على الجدران وكان غاضباً ثائراً وفجأة سمع صوتا من خلفه، فالتفت ورأى ليزا تقول له: «هل تروق لك؟» فأجابها «إنها سيئة للغاية» وقالت فى خزى «ولكنها فى الحقيقة تبدو لى جميلة».

وعاد إلى الاريكة وتوهجت وجنتاه وأخذ يفكر فى تقزز: «كل هذا أمر حقير» ولكن ما أن جلسا حتى أطاح بليزا فوق الوسائد كما لو كان يريد امتلاكها؟ ورآها تطبق عينيها اللامعتين وتستسلم فى نشوة لحالة مقززة ومضحكة، وكان وقع هذا فى نفسه من القوة بحيث تلاشت رغبته، وقبّل فم المرأة فى برود ثم ألقى برأسه في حجرها وهو يتنهد، ورأى ظلاماً وقال فى نفسه: «أريد البقاء هكذا إلى أن تنتهى الزيارة... لا أراها... ولا أقبلها». وأحس بيدها تمسح على شعره وتداعبه وسألته فى صوت معتاد زائف « ماذا بك؟»

وأجابها في نبرة جادة وهو يطبق عينيه «أفكر... إنه يكفى أن يبذل المرء جهداً بسيطاً لكى يكون صادقاً ولكنه يبذل كل ما فى وسعه ليذهب للاتجاه المعاكس».

وتنهد وبدا له أنه وصف نفسه وفكر: «لماذا أنا هنا؟ ولماذا أكذب؟ إنه من السهل أن أذكر الحقيقة وأنصرف».

قالت المرأة دون أن تكفّ عن مداعبة شعره: «حقاً... هذا صحيح ولكن دعك من هذه الأفكار... إنك لم تعد بحاجة إلى الآخرين... فأنا معك الأن؟ سنعيش معاً... ونتجاهل العالم بأسره».

ونطقت بهذه الكلمات في صوت متأجج جعل الشاب يرتعش: «سنعيش بعيداً عن كل ما يكدرك... بعيداً عن كل هذه الأحزان... ستروى لى عن حياتك وآلامك وأحزانك وسأمنحك أنا كل الحب الذى أملك، الذي ادخرته لك... سأكون رفيقتك، ألا تريد ذلك؟ رفيقتك المخلصة المتواضعة... متواضعة للغاية، تستمع إليك في صمت وتواسيك بمداعبتها، هكذا، هكذا...» وانقبضت يداها التى كانت تداعب رأس الشاب، وانحنت ليزا وقبلت شعره وقفاه فى اضطراب، وخفق قلبها بينما كانت أصابعها المتأججة تتشبث وتضغط بعصبية على كتفيه ثم قالت: «أخيراً... وجدت من يبادلنى الحب... أخيراً».

ولكن ميكيلى لم يتحرك، فلم يسبق له أن رأى المهزلة تختلط بالصدق والزيف بالحقيقة إلى هذا الحد. وتملكته حيرة ممقوته وراح يفكر «يا ليتها تصمت على الأقل... ولكن لا... إنها تريد أن تتحدث». وكانت تراوده من وقت لآخر رغبة جنونية فى أن يقول الحقيقة، حقيقته هو، الحقيقة الوحيدة الممكنة، ثم ينصرف بعدها، ولكن منعه من ذلك إحساسه بالشفقة ثم، ألم يكن هو الذى أوهمها وبدأ بعناقها؟ وعادت ليزا تقول «عزيزى... عزيزى لا يمكن أن تتخيل كم أحبك» وود الفتى أن يقول لها «إنك تبالغين»، ولكن عينيه كانتا مملوءتين بالظلام، وخيل له أنه لم ير النور أبداً، فهذه الكلمات والمداعبات وهذا الصوت أعطاه انطباعاً بليل لا أمل فيه. ورفع رأسه، وتوجه للجلوس وهو يدعك عينيه المنبهرتين وقال «آن لي أن أنصرف... وقريبك هذا متى يأتى؟».

يبدو أن ليزا لم تتوقع هذا السؤال فقالت: «سأذهب وأتصل به هاتفياً» وخرجت ومكث بمفرده، ثم نهض واتجه نحو الجدران ونظر فى شرود إلى إحدى اللوحات المائية، واقترب من الباب وهو ذاهل وفتحه قليلاً،

كان الهاتف معلقا على الحائط فى آخر الممر المظلم، ولكن ليزا لم تكن هناك، كان خروجها مداهنة، وهذا القريب ليس له وجود، لقد كذبت المرأة لكى تحمله على المجىء إلى بيتها.

وراح يفكر وهو يغلق الباب فى حذر: «التظاهر... إنه من الصواب أن نتظاهر» وعاد إلى الجدران وأخذ يتأمل اللوحة التى تجسد منزلاً ريفياً وركاماً من التبن وقد قهره ضيق خفيف مضجر كالذى يشعر به عند التقيوء وقال لنفسه: «فى نهاية الأمر... نحن متشابهان». هذه الفكرة جعلته يشعر بقليلٍ من الشفقة نحو هذه الإنسانة التي تكذب دونٍ داع وفكر: «نحن جميعاً متشابهون.. فمن بين آلاف الأفعال، نختار دائماً على نحو غريزى أسوأها». وفتح الباب بعد لحظة ودخلت ليزا وقالت «إننى آسفة جداً... إن قريبى مشغول... ولا يستطيع المجىء... ولكنه يقول إنه سيأتى غداً... فهل يمكنك الحضور بعد ظهر غد؟».

وتبادلا النظرات، وازداد ميكيلى ضيقاً وشفقة وقال لنفسه: «لقد فاض الكيل... إنها تخدعنى... وغداً ستكرر نفس القصة وتقول لي احضر غداً». وبدا له أنه لو تظاهر بعدم الفهم فسيعد هذا تواطؤاً بينهما، ومغالطة مشاكسة تسمح لهما بأن يتفقا على أعمال غير مشروعة دون تحرج أثناء انتظار القريب الوهمى.

قال لها «كلا... لن أعود غداً» قالت فى إصرار وفى شيء من السفاهة «ولكنه سيأتى... وإذا لم تأت...»

ووضع ميكيلى يده فوق كتفها ونظر إليها قائلا: «هذا أمر مضحك إنه لن يأتي... لماذا لا تقولين الحقيقة؟» ورآها تضطرب، وأسوأ ما فى الأمر، أنها لكى تتحاشى نظراته ابتسمت ابتسامة خليعة، قليلة الحياء، ابتسامة امرأة لا تستاء من أخطائها.

وعادت تقول دون أن تنظر إليه أو تكف عن الابتسام: «أية حقيقة؟ أنا لا أفهمك... إنه ظرف مفاجيء، وسوف يأتى دون شك...».

وراح ميكيلى يقول فى هدوء: «إننى نظرت إلى الممر... ولم أرك تتحدثين فى الهاتف وهذا القريب لا وجود له».

وسادت لحظة صمت، ثم اختارت ليزا الموقف الأسهل بأن رفعت كتفيها بعض الشيء وهى تبتسم وقالت: «إذا كنت قد نظرت إلى الممر فلماذا كل هذه الاسئلة؟» ونظر ميكيلى إليها وقال يحدث نفسه «ألا يمكن أن تفهم أنه كان فى مقدورها أن تكون أفضل من ذلك»، وأراد أن يبذل جهدا آخر فقال فى إصرار «كلا... لا تتكلمى بهذه اللهجة... إن الأمر جاد للغاية... لماذا هذه المهزلة بدلاً من أن تقولى لى «تعال غدا لكى نتناول قدحاً من الشاى معاً؟» وأجابت دون استحياء وبنفاد صبر: «أعلم أنه كان يجب أن أقول ذلك... هذا يعنى أنك ستأتى على كل حال، أليس كذلك؟... ثم لا تخف إن كنت لم أتحدث مع قريبي بعد، سأتحدث إليه... بالتأكيد فى أقرب وقت ممكن».

وفكر الشاب «آه... إنها تظن أن تأنيبى لها بسبب إخفاقى فى مقابلة هذا القريب الملعون» وتصلب وجهه وقال: «كلا... لن آتى... ولا تتحدثى لأحد»، وأولاها ظهره وخرج إلى الممر.

فاحت رائحة الطبيخ فى الظل الضيق من الحجرة، وسألته فى توسل وريبة وهى تناوله قبعته «أحقاً لن تأتى غداً؟» نظر إليها، وتردد. ورأى أن محاولاته لم تأت بشيء فى نهاية الأمر: هل تقززه وحنوه لم يكن لهما أية فائدة؟، فقد ظلت المرأة على خطئها.

كان يؤلمه إحساسه بتفاهة جهده، وأراد أن يصرخ لشعوره بالسأم اليائس المضنى الذى قهره وسألها «وماذا يفيد مجيئى؟»

«ماذا تعنى؟» وهز رأسه وقال «لن يجدى... لن تتغيرى... لا فائدة... إنكن جميعاً سواء».

قالت في إصرار وقد أحمر وجهها رغماً عنها: «ماذا تعنى؟»

ود لو أنه أجابها: «أنتن تافهات ناقصات... الحب عندكن حب الفراش... مقابلة قريبك كانت على قمة أفكارى. ولكن هناك شىء أريدك أن تفسريه لى قبل أن أنصرف... ما دمت واثقة من أننى أحبك ومن أننى سأعود، فلماذا الاصرار على استخدام ذريعة قريبك بدلا من أن تتكلمى بصراحة؟»

وأجابته دون تردد «يؤسفنى أن أقول لك أنني لجأت أول مرة لهذه الحيلة لكى تأتي».

فقال ميكيلى وهو ينظر إليها بانتباه «لم يكن هناك داع لذلك... ولا حتى أول مرة».

وقالت في خضوع: «نعم... إنك على حق... ولكنِ من منا بلا خطيئة؟ ثم إن قريبى هذا موجود بالفعل... وهو ثرى جداً... ولكننى لم أره منذ فترة طويلة».

وقال ميكيلى وهو يمسك يدها: «هذا يكفى... إلى اللقاء غداً».

ولكنه رأى فجأة أن ليزا تنظر إليه بطريقة غريبة وأنها تبتسم فى خجل وتملق، فأدرك ميكيلى هذا وقال لنفسه: «وليكن» وانحنى، وضم المرأة إلى صدره وقبّلها، ثم تركها وخرج، ثم التفت إليها عند الباب لكى يحييها ورأها كطفلة تقع فى الحب لأول مرة تختبىء فى خجل وحياء خلف معطف معلق على المشجب هناك بين ظلال الحجرة. ورفعت أناملها إلى شفتيها وأرسلت إليه بقبلة أخيرة. فقال فى نفسه «يا لهامن مسرحيةهزيلة» وأسرع يهبط درجات السلم دون أن يلتفت وراءه.

الفصل السادس

في ذلك اليوم فرغت الأم من ارتداء ثيابها في وقت متأخر جداً، وكانت عقارب الساعة تشير إلى منتصف النهار وهي لا تزال جالسة أمام طاولة الزينة تمرر الفرشاة بعناية شديدة على جفنيها المتورمين لتصبغهما باللون الأسود. كانت صور الغيرة قد كدرتها منذ أن استيقظت. وما لبثت أن تذكرت أن اليوم ستتم كارلا من العمر أربعة وعشرين عاماً، فغمرتها موجة عارمة من حب الأم المتدفق، وراحت تحدث نفسها وتكاد تذرف الدمع من فرط شعورها بالحنان «صغيرتي كارلا... صغيرتي المسكينة كارلا... لا يوجد مخلوق غيرها يحبني في العالم».

ونهضت وارتدت ثيابها وهي تفكر في كارلا التي بلغت الرابعة والعشرين، وبدا لها أن هذا الأمر مؤلم ومثير للشفقة والبكاء عليه. وكانت تتخيل في غير انقطاع الهدايا والمسرات التي يمكن أن تقدمها لابنتها وقالت لنفسها: «إن لديها قليلاً من الثياب... وسوف اشترى لها المزيد... سأشترى لها أربعة أو خمسة من الثياب... سأشترى لها معطفاً من الفراء أيضاً... فهي تريد واحداً منذ وقت طويل».

ولكن من أين تأتي بالمال اللازم لشراء هذه الاشياء، لم تفكر الأم في ذلك. ثم راحت تفكر أيضاً: «ويجب أن تجد زوجاً... وبعدها لن تكون لى أية أمنيات».

وأخذت تفكر في ابنتها التي بلغت الرابعة والعشرين من عمرها ولم تتزوج بعد، وأحست بغضب شديد نحو الرجال وقالت تحدث نفسها: «كل هؤلاء الشباب الحمقى... إنهم لا يريدون إلا الملذات ومضيعة الوقت، ولا يفكرون في الزواج» ولكن كارلا من المؤكد أنها ستتزوج.

وأخذت تقول لنفسها وهي تعدد صفات ابنتها على أصابعها: «فهي جميلة... بل جميلة جداً... طيبة القلب، كالملائكة... ثم إنها ذكية ومثقفة... وقد تلقت تربية ممتازة... فماذا يريد المرء أكثر من ذلك؟»

المال؟ تلك هى المشكلة، فهى ينقصها المال، ستذهب كارلا إلى بيت زوجها كما جاءت إلى الحياة، عارية تماماً، ثرية فقط بفضائلها، لا شك فى ذلك، ولكن هل صحيح أن الفتيات الثريات هن وحدهن اللواتى يتزوجن هذه الأيام؟ ألم يحدث في الآونة الأخيرة أن تزوجت فتيات ولا يملكن بائنة؟ هدأت هذه الفكرة من روعها وغادرت الأم غرفة نومها إلى غرفة الانتظار.

كانت هناك باقة جميلة من الورد على المائدة وبجوارها صندوق، وبين الزهور بطاقة أخذتها الأم وفضت المظروف وقرأت: «إلى كارلا... إلى ابنتى تقريبا... مع تمنياتى القلبية، ليو»، وأعادت البطاقة وسط الزهور وقالت وهى سعيدة: «يا له من إنسان رقيق، رجل آخر فى مكانه ما كان ليعرف كيف يتصرف مع أولاد صديقته... أما هو فإنه يعرف كيف يزيل كل الشكوك... إنه أب بالنسبة لها.» كانت تريد أن تصفق لفرط سرورها، ولو أن ليو كان موجودا فى هذه اللحظة لعانقته، ثم فتحت الصندوق، ووجدت به حقيبة من الحرير المطرز وبها حجر أزرق في المشبك، وكانت الأم فى غاية السعادة.

وأخذت الصندوق والباقة وأسرعت إلى غرفة كارلا وصاحت تقول: «كل عام وأنت بخير... أنظري ما جاءك» وكانت كارلا جالسة على المائدة وفى يدها كتاب، فنهضت دون أن تنطق بكلمة وقرأت البطاقة...

إن وقاحة ليو هذه وملاطفته إذ دعاها «بابنته تقريباً» أعاد إلى ذهنها بطريقة حادة جعلتها ترتجف، المعنى المؤلم والمحرم لمؤامرتها.

ورفعت عينيها فرأت عينى أمها تتألقان سروراً فابتسمت وقد تحركت مشاعرها وضمت الباقة إلى صدرها فى سخرية وقالت فى برود «إنه تصرف رقيق منه وماذا فى هذا الصندوق؟»

أجابتها الأم فى حماس: «حقيبة... حقيبة أنيقة للسهرة... لا شك أن ليو دفع فيها ما لا يقل عن خمسمائة ليرة» وفتحت الصندوق وقدمت إليها الهدية وقالت «أليست جميلة بالفعل؟»

أجابت كارلا «إنها جميلة جداً»، ووضعتها فوق المائدة وأخذت كل منهما تنظر إلى الأخرى وقالت الأم فجأة فى صوت متأثر «ها هى ابنتى

العزيزة أتمت الرابعة والعشرين عاماً... وهى التى كانت تبدو لى بالأمس طفلة صغيرة.

وقالت كارلا بغير أية علامة للسخرية «نعم يا أمى... وأنا أيضاً يبدو لى ذلك» ولكنها كانت تريد أن تضيف: «ابتداء من اليوم لن أكون أبدا طفلة».

واستمرت الأم تقول «كنت تلعبين بالدمى... تهدهدينها وتشيرين إليّ بعدم الكلام لأنها نائمة». وتوقفت عند منتصف هذه المناجاة المثيرة للشفقة ونظرت إلى كارلا وقالت: «أتمنى أن تفعلي هذا بدمى من لحم ودم».

قالت الابنة ما بين متحيرة ومشفقة «نعم يا أمى أتمنى ذلك».

واستمرت الأم فى حديثها بإصرار كما لو كانت تريد أن تقنعها بحقيقة عظيمة وعميقة «حقاً يا كارلا... حقاً فأنا ليست لي غير رغبة واحدة... وهى أن أراك متزوجة... سيسعدنى ذلك كثيراً».

وابتسمت كارلا وفكرت: «سيسعدك أنت... ولكن هل سيسعدنى أنا؟» وأجابت وهى تطرق برأسها: «نعم، حسناً ولكن لكى نتزوج يجب أن نكون اثنين... أنا... وهو».

وقالت الأم بلهجة كلها ثقة: «هو... لسوف يأتى... انظرى... قد يبدو لك الأمر هزلياً... ولكن لدى إحساساً بأنك ستتزوجين خلال هذه السنة الجديدة من عمرك أو على الأقل ستخطبين... لدى هذا الإحساس... ولا أدرى له سبباً، إنه من الأمور التي لا نجد لها تفسيراً... وسوف ترين أنه سيتحقق».

وأرادت كارلا أن تجيبها «شيء آخر سوف يتحقق»، وفكرت فى عزمها علي أن تبذل نفسها لليو فى نفس اليوم، وسبب لها عدم إدراك أمها إحساساً أليما بالدُجى وبظلام يحيط بهم جميعاً دون أمل في خلاص، وابتسمت وقالت «لا بد أن شيئا ما سيحدث».

وعادت الأم تقول فى اقتناع «لدى إحساس بذلك... وهذه الزهور أين نضعها؟».

وضعنا الزهور في الإناء، ودخلنا إلى غرفة الانتظار، كان الضوء خافتا، فكانت هناك ستارة حمراء تتسدل فوق زجاج نافذة السلم الضيق وكانت الظلال تملاء الأركان البيضاء، وجلست الأم وابنتها فوق الأريكة، وقالت الأم: «أخبرينى، كيف تراءت لك ليزا بالأمس».

«كيف تراءت لى؟ كعادتها».

سألتها الأم فى شك «يبدو لك هذا؟ ولكننى أرى أنها ازدادت بدانة... ثم لا أعرف... فملامح الشيخوخة بدأت تظهر عليها».

وأجابتها كارلا: «لا... لا يبدو لى هذا»، وأدركت كارلا ما الذى تعنيه أمها وفكرت «يجب أن تغارى منى أنا يا أمى وليس من ليزا».

واستطردت الأم تقول: «وذلك الثوب الذى كانت ترتديه... لم أر أسوأ منه ذوقاً أبداً... وهى التى تعتقد أنها ترتدي أجمل الثياب...».

قالت كارلا: «فى الحقيقة لم أره سيئاً».

ولكن الأم قالت تؤكد: «بل إنه سيئ للغاية» وأمسكت عن الكلام لحظة ونظرت بعينيها المتسعتين فى فراغ الغرفة وكأنها رأت هناك صور غيرتها تتكون أمامها، ثم توجهت فجأة نحو ابنتها قائلة: «ولكن قولى الحق... ألم ترين كيف كانت ليزا متعلقة بمروميتشى؟» وودت كارلا أن تصرخ من السأم وتقول: «لا... ليس ليزا... ولكننى أنا... كنا نتعانق خلف الستارة... نتعانق» ولكنها قالت: «متعلقة... كيف؟»

وعادت الأم تقول: «متعلقة به... أرايت كيف أصرت على أن يصطحبها معه... أتعرفين ماذا أظن أنا؟» وأضافت وهى تتحني، «أظن أنها تتلهف على تجديد علاقاتها القديمة به... لهذا فهى تنظر إليه بعينيها البراقتين... ولكن ميروميتشي لم يعد يحفل بها فلديه ما يشغله عن هذه المرأة المسكينة... وإذا أراد فإنه سيجد كثيرات أفضل منها... فهى بهذا الشكل... وبهذا الوجه... امرأة معجونة بالغيرة والنفاق، أمامك تقول شيئاً ومن وراء ظهرك تقول عكسه. أنني في حقيقة الأمر حسنة التعامل مع الجميع، ولا أضر أحدا حتى ولو ذبابة، ولكنى لا طاقة لى بهذه المرأة»

«ولكنها صديقتك»

قالت الأم: «وما العمل؟... لا يستطيع المرء أن يقول الحقيقة دائماً في وجه الناس... إن آداب التعامل الاجتماعي غالباً ما تدفعه إلى أن يفعل عكس ما يريد... وإلا فمن يدرى إلى أين سينتهي به الأمر...» وأشارت بحركة كما لو كانت تريد أن تقول «عليك أن تفهمى، فالأمر كذلك». وقطبت جبينها غضباً ولوت فمها اشمئزازاً ولكن وجه كارلا تجمد، وبذلت ما فى وسعها حتى لا ترى هذا القناع المزيف على وجه الأم وودت لو صرخت فيها قائلة: «قدر من الصدق أكثر والأمر سيكون أفضل» واستطردت الأم تقول «ولكنه الزيف والنفاق... ما تفعله ليزا شيء لا يطاق... فإننى على ثقة من أنها لم تأت لزيارتنا بالأمس ولكنها كانت تعلم بطريقة ما بوجود مرومتشى عندنا خاصة وأنها لم تقل شيئاً ذا أهمية، ومكثت قليلاً، وكم كانت تتوق للحظة الانصراف».

وأخذت كارلا تنظر إليها بعيون الشفقة فتلك الطريقة المضنية والمؤلمة التى أخذت تنقب بها أمها فى أخطاء من صنعها تجعلها تشعر نحوها دائماً بشفقة مقززة وسألتها لمجرد أن تقول شيئاً «أحقاً هذا؟»

وأجابتها أمها بثقة «دون شك» وغرقت لحظة فى التفكير وبدا وجهها المزين فى ظلال غرفة الانتظار اللامعة وبين الستائر المخملية، بدا وقد تقلص اشمئزازاً لشعورها بالكراهية وقالت «انظرى... إن جسد هذه المرأة يثير فى نفسى التقزز... لا أعرف لماذا... إنها تبدو لي دبقة متوهجة تشتعل حرارة... فهى كالكلب... نعم... إنها تنظر إلى الرجال بعينيها البراقتين كما لو كانت تدعوهم... وتقول لهم: «تعالوا معى» تخيلى لو أننى كنت رجلاً فإنني ما كنت لألمسها بطرف إصبعي... إنها تثير اشمئزازي».

وقالت كارلا: «إنها لا تترك فى نفسى هذا الانطباع يا أمى».

فقالت الأم: «ليس بوسعك أن تفهمي... فهناك بعض الأشياء لا يمكنك إدراكها ولكننى امرأة ذات تجارب عديدة وتعرف معنى الحياة،... وهذا النوع من النساء بتلك العيون، وبذلك الوجه... أجيد الحكم عليهن... تك... كمن يلتقط صورة فوتوغرافية».

ووافقتها قائلة: «فليكن» وأمسكت المرأتان عن الكلام لحظة وساد سكوت وسكون ثم جاء من أخر الممر صوت باب الشقة يغلق بقوة فى الطابق الأول، وقالت الأم وهى تنهض «إنه ميروميتشي ؛ استقبليه أنت... سأعود فوراً».

وأخذ قلب كارلا يدق دقات سريعة، وهبطت السلم درجة درجة كمن يشعر بأن قواه تخور فيسير فى بطء حتي لا يسقط، ودخلت غرفة الصالون، وكما توقعت أمها، وجدت ليو واقفاً بجوار النافذة، وكان يوليها ظهره. وقال وهو يمسكها من ذراعها ويجلسها فوق الاريكة: «آه ها أنت هنا».

وقالت على الفور: «شكراً لهديتك... ولكن لماذا تلك البطاقة؟» «أية بطاقة؟» وقالت وهى تحملق فيه: «التى كتبت عليها... إلى ابنتي تقريباً».وقال ليو كما لو كان قد نسى ما كتبه: «آه... نعم... كتبت هكذا... تقريباً ابنتى... صحيح هذا».

«ولماذا كتبتها؟».

ارتسمت على وجه الرجل ابتسامة ما بين راضية ووقحة وقال: «أولاً مراعاة لأمك... ثم لأنه يروق لى أن أتخيلك ابنتي».

نظرت إليه وهى تفكر: «يا للعار... يا للعار» ولكن رغبتها فى الدمار كانت أقوى من الاشمئزاز، وقالت وعلي شفتيها نصف ابتسامة: «أنا ابنتك؟... فى الحقيقة لم أفكر في ذلك أبداً... من أين جاءتك تلك الفكرة؟» أجاب ليو فى هدوء: «جاءتنى مساء أمس، بينما كنا خلف الستارة... فى تلك اللحظة تذكرت، ولا أعلم لماذا، إننى رأيتك طفلة، وساقيك العاريتين وجدائلك فوق كتفيك... وقلت لنفسى فى مقدورى أن أكون أبا لها، هذا بالرغم من...» وأتمت كارلا قوله وهى تنظر إليه مليا: «بالرغم من أن كلا منا يحب الآخر أليس كذلك... ولكن ألا ترى أن هذين الأمرين متضاربان».

قال ليو وهو لا يكف عن الابتسام ويمسح بيده على جبينه: «لماذا... . قد يكون ذلك بشكل عام... . ولكن فى الحالات الفردية كل امرىء يتصرف حسب مشاعره ».

«ولكن هذا شيء يتعارض مع الطبيعة».

راح ليو يضحك ويقول وهو يرى وجه الفتاة وقد ارتسم عليه علامات الجد والقلق: «نعم... ولكن بما أنك لست ابنتى حقاً فالتفكير فى هذا ليس له أهمية...».

ونظر كل منهما للآخر. وأضاف ليو قائلاً: «وبهذه المناسبة، وقبل أن أنسى... بعد تناول الطعام، انتحلى عذرا واهبطى إلى الحديقة... وسألحق بك على الفور... اتفقنا؟»

أشارت برأسها بالموافقة، وانبسطت أسارير ليو وعقد ذراعيه ورفع عينيه إلى السقف. لم يشأ أن يلمسها، لأنه كان يتوقع من لحظة لأخرى أن تدخل الأم وأخذ يفكر ويقول لنفسه «بدلاً من أن أبقى على اضطرابى ورغبتى فمن الأفضل إرجاء كل شيء إلى ما بعد، حين لا يكون معنا أحد، وحين يكون أمامى كل الوقت».

ولكنه إذا ما نظر إلى كارلا توقّـد وجهه كالمشكاة: وتملكته رغبة فى أن يضمها بين ذراعيه ويمتلكها فوق الأريكة فى اللحظة نفسها.

وزادت شهوته المكبوته من حقده على عشيقته، وتذكر مشهد غيرتها الشديدة التى تعرض لها بالأمس، فعصف به غضب مفاجيء وقال بعنف لكارلا: «إن أمك غبية من الدرجة الأولى».

والتفتت إليه كارلا وكادت ترد عليه ولكن منعها صوت فتح الباب ودخلت الأم وهى تكاد تجر ميكيلى بيدها جرا وصاحت فى ليو قائلة: «صباح الخير يا ميرومنتشى»، ثم قالت وهى تشير إلى ابنها: «إن ميكيلى يقول إنه بدلاً من أن نتنازل لك عن الفيلا نبيعها بالمزاد، وبذلك نستطيع أن نسدد لك دينك وأن يتبقى لنا نحو عشرة آلاف ليرة، صحيح هذا؟».

تجهم وجه ليو وقال دون أن يتحرك: «هذه حماقة لا أحد يمكن أن يدفع لكم ثمناً للفيلا أكثر مما أقدمه لكم».

قال ميكيلى وهو يتقدم: «ولكنك فى نهاية الأمر... . لن تعطينا شيئاً... وإنما سوف تطردنا منها ولا أكثر».

وأجاب الآخر غاضباً وسئماً وهو ينظر إلى النافذة التى تعكس سماء غائمة «إنني سبق وقدمت لكم الكثير...» وأضاف مستنكراً «افعلوا ما يحلو لكم... أن تبيعوا الڤيلا... أو اهدوها إلى أحد... افعلوا ما تشاءون ولكننى أحذركم بأننى لن أساعدكم في شيء... وفى يوم الاستحقاق لا بد وأن يكون المبلغ هنا، فى يدى».

كان ليو يعلم الخطر الذى يتعرض له بقوله هذا، ترى ماذا سيحدث إذا ما باعوا الڤيلا بالمزاد؟... فى هذه الحالة سوف تظهر قيمتها الحقيقية، وتضيع الصفقة، ولكن الأم لم تكن تعرف شيئا عن المزاد أو البيع وكان انطباعها عن الصفقات أنها مرادف للغش. وفوق كل شيء كانت تخشى من هجر حبيبها لها، لذلك راحت تبذل ما فى وسعها لتشعره بمساندتها له وأسرعت تطمئنه قائلة: «كلا... لن نبيعها بالمزاد... ولكن أنت يا ميرومتشى يمكنك أن تقدم لنا شروطاً أفضل... نستطيع أن نصل إلى تسوية بيننا».

وسألها الرجل وهو لا ينظر إليها «وما هى؟» فأجابت الأم في حماقة عالية «أن تدعنا مثلاً ننتفع بالڤيلا حتى يجد ميكيلى عملاً يربح منه وتتزوج كارلا».

قابل اقتراحها هذا بضحكة عالية مغتصبة مهينة وقال ليو بمجرد أن هدأت ضحكته المزيفة «إذنّ سأنتظر كثيراً... كثيراً جداً...».

ونظر إلى كارلا وقرأ فى عينيها اللتين كساهما الحزن والاستسلام ما كانت تفكر فيه: «من ذا الذى يرغب فى الزواج منى؟»

وانتابه شعور مختلف... . لا بالرحمة أو بالحزن، بل إحساس بالغرور لكونه القدر الحى فى هذه الحياة.

وسألته الأم وهى تشعر بالإهانة «كيف... ماذا تعنى؟»

أجاب ليو: «لا أريد أن يساء فهمى... لست أشك في أن كارلا ستتزوج قريباً جداً... وأتمنى لها ذلك من كل قلبى... أما بالنسبة لميكيلى، فإننى لا اعتقد أنه يستطيع أن يكسب قوته قبل سنوات عدة ولا

أنه يسير على الطريق السليم ليحقق ربحاً... إنني أشك في هذا يا سيدتي العزيزة».

وقد التزم ميكيلى الصمت حتى ذلك الوقت، وإن كان قد جرته أمه جراً إلى هذه المناقشة على غير رغبته. ولكنه ما أن سمع ليو يتهمه بصراحة بالخمول والعجز حتى أدرك أنه لا بد أن ينتفض ضد اللامبالاة وفكر وهو يخطو خطوة للأمام «آن الأوان لكى أغضب»، وقال فى صوت زائف: «أنا لست كما تتصور... وسأثبت لك بالأفعال أننى أعرف كيف أعمل وأربح كأى إنسان...» ثم أضاف قائلاً وهو يتأمل وجه أمه الذى غمره الرضا والفخر: «وسترى أننى سأعرف كيف أتكفل بنفقات أسرتى وبنفقاتى بدون مساعدتك.»

وقالت مارياجراتسيا: «هذا صحيح» وراحت تداعب فى زهو رأس ابنها الذى أخذ يبتسم شفقة على أمه وقالت: «سيعمل ميكيلى. وسيصبح ثرياً ونحن لسنا بحاجة لمساعدة أحد».

ولكن ليو لم يكن غبياً إلى هذا الحد، فهز كتفيه فى غضب وصاح: «إنه هراء، إن المرء لا يعرف أبداً إذا كان ميكيلى يهزل أو أنه يتحدث بجد...، إنك مهرج صغير، نعم، لا شىء سوى مهرج صغير» كان فى ذروة الغضب، فهو لا يقر الهزل فى العمل، وود لو أنه تخلى عنهم جميعاً وانصرف.

وتقدم ميكيلى خطوة أخرى إلى الأمام وهو يتساءل هل عبارة «مهرج صغير» إهانة كبيرة تجرح شرفه وسمعته، أم لا؟ فإذا حكم على العبارة من حيث عدم مبالاته وهدوئه فالإجابة كلا ولكن إذا فكر فى معنى العبارة والإحساس العدائي الذي نطق بها فإنها بالتأكيد إهانة. وفكر فى شىء من الانتشاء: «لا بد أن أتصرف... أن أصفعه مثلا».

ينبغي ألا يترك الفرصة تضيع، فإن ليو يقف على بعد خطوة واحدة، مستنداً إلى النافذة ووجهه الذى سيصفعه يبدو فى الضوء تجرى فيه الدماء، حليق الذقن موفور الصحة ولا خوف من أنه سيخطئ الهدف.

وقال فى صوت أجش وهو يقترب أكثر منه «آه، أنا مهرج صغير... ألا تعتقد أن مثل هذه العبارة قد تهيننى؟».

أجابه ليو وهو يبتسم فى غير اكتراث ولكن وهو ينظر إليه بعناية: «لك أن تشعر بالإهانة كما تريد».

«إذن فالتأخذ هذا...» ورفع ميكيلى يده... ولكن سرعان ما أمسك بها ليو فجأة ودفعه دون أن يدرى كيف حدث هذا، ووجد نفسه مسحوقاً فى زاوية النافذة، وليو ممسكا برسغيه، ووقفت المرأتان خلفه فى هلع.

وقال الرجل فى سخرية هادئة: «آه، أكنت تريد أن تصفعنى؟... ولكنك مخطئ... فلم يولد بعد ذلك الذى يستطيع أن يصفعنى». كان يتحدث في هدوء ولكنه كان يضغط على أسنانه بشدة، وقالت الأم وهى تقف خلف ظهره «ماذا حدث؟ لماذا؟... .» أما ميكيلى فبالرغم من وجوده فى وضع متعب، فإن أهم ما لفت نظره هو شدة أناقة الرجل وثقته بنفسه: فكان يرتدى ستره من قماش بني اللون وقميصا جديدا أبيض اللون ياقته من الكتان الأبيض اللامع المنشى، ورابطة عنق لونها جوزى تتخللها خطوط صفراء اللون، عقدها برصانة شديدة وأدخلها في شق الصدار، كل هذا لاحظه فى ثوان قليلة، ثم رفع عينيه وقال ببساطة «اتركنى»!

وقال ليو: «لا يا عزيزى... لن أتركك... مازال عندي ما أقوله لك لمدة نصف ساعة اخرى». وتدخلت كل من الأم وكارلا بينهما، وقالت الفتاة وهى تضع يدها على كتف أخيها وتنظر إلى العشيق: «دعه يا ميرومتشى... ألا ترى أنك تستطيع أن تكلمه من غير أن تمسكه هكذا؟...».

وتفرق الاثنان وقال الرجل فى حدة: «ليس لدى ما أقول سوى أن الوقت قد حان لننتهى من كل هذا... ثم إن هذه الأساليب غير مقبولة ولا يبدو لى أنها أحسن وسيلة للوصول إلى تسوية».

وأسرعت الأم تقول فى تملق: «معك كل الحق... ولكن لا تحفل بميكيلى... فهو لا يدري ما يفعل...».

وقال الفتى وهو ينظر إليها محدثاً نفسه: «وهل أنت تدرين!» وسألها وهو يتقدم «إذن فلماذا دفعتينى إلى التدخل فى هذا الأمر؟» واستمرت

الأم فى حديثها دون أن تحفل بتدخل ابنها فى الحوار وقالت «لذلك إذا اردت أن تتحدث فى هذا الموضوع فعليك أن تتحدث فيه معى أنا ».

وقال ليو وهو ينظر إلى تلك الوجوه المتحيره: «إذن فالأمر كذلك؟... سأعرض عليك شروطى للمرة الأخيرة. سأترك لكم الفيلاِ إلى أن تجدوا مسكناً آخر... وبالاضافة إلى ذلك... سأقدم لكم مبلغاً من المال... ثلاثين ألف ليرة على سبيل المثال».

وقالت الأم وقد اتسعت عيناها: «ثلاثون ألف ليرة؟... كيف هذا؟»

وقال ليو: «سأفهمك... إنك تؤكدين أن قيمة الفيلا تربو بكثير على مبلغ الرهنيةِ... وأنا أرى غير ذلك، ولكن، ولكى أبرهن لك على أننى صديق حقاً، فإننى أقدم ثلاثين ألف ليرة إضافية، ولتكن نظير الأعمال التى نفذت فى الفيلا فى الآونة الأخيرة... الترميمات التى أدخلت بعد الرهنية».

قالت الأم فى إصرار وهى تتألم تقريباً: «ولكن الفيلا تساوى أكثر من ذلك يا ميرومتشى.. تساوى أكثر...»

أجاب ليو في هدوء: «إذن، هل تسمعين ما أقوله لك؟ بيعى الفيلا إلى أى شخص آخر... وسترين عندئذ أنه لن يتبقى لك ثلاثين ألف ليرة لتسديد الدين،... . نحن نعيش لحظات صعبة بسبب الأزمة الحالية... ما من أحد يريد الشراء والجميع يريدون البيع، يكفى أن ترين الصفحة الرابعة وهى صفحة الإعلانات في الجرائد لتدركي ما أقول، ثم إن الفيلا تقع خارج المدينة، ومن الصعب العثور على شخص يرغب فى المعيشة هناك... ولكن افعلى ما يحلو لك... فأنا لا أريد لأي سبب أن ألوم نفسي لأنني لم أقدم لك النصيحة ».

قالت كارلا: «من الممكن أن أقبل شروط ميروميتشى يا أمي، فأنا، من ناحيتى اتشوق إلى مغادرة هذه الفيلا والذهاب لأعيش فى مكان آخر، حتى ولو كان فقيراً».

أتت الأم بإشارة غيظ وقالت: «هل لك أن تسكتى؟» وساد بعدها صمت مفزع وتراءى البؤس لماريا جراتسيا ورأت كارلا تدمير حياتها القديمة، أما ميكيلى فلم ير شيئاً وكان أكثر الثلاثة يأساً.

وأضاف الرجل: «على كل حال... ففى مقدورنا أن نتحدث فى هذا الأمر... تعالى... تعالى بعد غد إلى مكتبى، يا سيدتى... وسوف نتناقش فى هذا الأمر كما يحلو لنا».

وافقت الأم وقالت فى حماس مؤلم: «بعد غد... بعد غد عصراً؟» وصمت الجميع للحظة، ثم على أثر دعوة من ماريا جراتسيا، انتقل الجميع من غرفة الانتظار إلى غرفة الطعام.

وكانت المائدة قد أعدت في أناقة ودقة ووضعت عليها الأواني الفضية والكريستال، وأطباق العائلة الثمينة تتلألأ فوق المفرش الأبيض في غرفة الطعام المضيئة، وأخذت الأم مكانها على رأس المائدة وبدأت فى توزيع أماكن الجلوس بالرغم من أنها كانت هى نفسها ولم تتغير عن مساء أمس: «ميرومنتشى هنا، كارلا هناك... وميكيلى هنا» لا أحد يدرى هل قامت بذلك لتعطى أهمية لهذا الأحتفال أو لعادة قديمة لها وهى دعوة أشخاص عديدة في تلك المناسبات.

وقالت الأم وهى تبدأ فى تناول الطعام: «كنت أود أن أعد وليمة فاخرة احتفالاً بعيد ميلاد كارلا، وأعد أكلات خاصة بالمناسبة... ولكن كيف ذلك؟ لم يعد ذلك متاحا فى هذه الأيام... أنا عندى طاهية ليست سيئة ولكنها ليست قديرة، تنقصها الحمية، ومن تنقصة الحمية ينقصه كل شىء».

وقال ميكيلى مؤكداً فى سخرية شديدة: «أنك على حق... هذا صحيح... إن من يفتقر إلى الحمية لا يعمل شيئاً... أنا مثلاً بقدر ما اجتهدت لأصفع ليو، لم أتمكن... كنت افتقر إلى الحمية».

قاطعته أمه وقد أحمر وجهها غضباً وقالت: «ما علاقة هذا بما أقول... وما دخل ليو؟... إنني أتكلم عن الطاهية... آه... . يا ميكيلى أنت لن تتغير أبداً حتى فى مثل هذا اليوم... يوم عيد ميلاد أختك، فحيث

يجب أن تنسى كل شيء وتفرح بِصدق.... تتحدث عن الصفع والعراك... إنك لن تصحح من نفسك أبداً؟»

قال ليو من غير أن يرفع عينيه عن طبقه: «دعيه يتكلم يا سيدتى العزيزة، فهو بالنسبة لى لا يتكلم... وأنا لا أصغى إليه».

وقال ميكيلى بعد أن شعر فى الوقت المناسب أنه لمس وتراً مزيفاً: «سأصمت يا أمى، سأصمت... لا ريب فى ذلك سأظل أبكم، ولن أسبب قلقاً في هذا الاحتفال».

وخيم الصمت من جديد، ودخلت الخادمة ورفعت الأطباق، وكانت ماريا جراتسيا لم تكف عن التحديق فى عشيقها بعينيها الفاحصتين ثم التفتت وقالت: «هل استمتعت مساء أمس يا ميروميتشى؟»

ونظر ليو إلى الفتاة نظرة تعنى «ها نحن سنبدأ» ولم ترد عليه كارلا وانما سمعته يقول «أين؟ ومتى؟» وفى نفس اللحظة أحست بقدمه تضغط على قدمها تحت المائدة، فعضت شفتيها وقد استاءت من هذا الرياء الحقير وودت لو نهضت وصرخت بالحقيقة.

وعادت الأم تقول: «أين؟... مع ليزا... . يا للخيبة!»

«من يدرى!... إذا كنت تجدين استمتاعاً فى مصاحبة الناس إلى بيوتها».

واعترضت الأم وهى تضحك فى خبث «كلا... إنني أشعر بالملل من مصاحبة بعض الناس بصراحة... ولكن أنت... أنت تبحث عن مصاحبتهن فمعنى ذلك أنهن يرقن لك».

وهمّ ليوِ بأن يرد عندما تدخل ميكيلى تدخلاً فى غير محله كعادته وقال مردداً نفس الكلمات التى قالتها مارياجراتسيا منذ لحظات: «آه يا أماه... . إنك لن تتغيرِي أبدا... حتى فى مثل هذا اليوم... يوم عيد ميلاد أختك، كلا... عفواً... عيد ميلاد ابنتك، فحيث يجب أن تنسى كل شىء وتفرح بصدق... تتحدثين عنِ ليزا، وعن مصاحبة الناس إلى بيوتهم... إنك لن تصححي من نفسك أبداً».

و ابتسمت كارلا رغماً عنها إثر هذا التهريج كما ضحك ليو وقال: «أحسنت يا ميكيلى» ولكن الأم نظرت إلى ابنها وقد شعرت بمهانة وقالت: «وما دخلك انت؟ إن لي الحق في أن أتحدث كما يحلو لى مع ميروميتشى.

«ولكن ليس في يوم كهذا»

«وما دخل هذا؟» وهزت كتفيها غاضبة وقالت: «أنا لم أفعل شيئاً إنما أشرت فقط... فلنتكلم فى موضوع آخر... ولكننى أحذرك يا ميروميتشى من الأن فصاعد أن تختار مكاناً آخرللقاء عشيقاتك فأنا لا أدير بيتاً لمثل تلك اللقاءات... فهل فهمت؟»

كانت هذه المرة الأولى التى تتحدث فيها ماريا جراتسيا بمثل هذا العنف، وحدث عندئذ شىء غير متوقع، فإن كارلا التي التزمت الصمت حتى هذه اللحظة احتجت وقالت: «أود أن أعرف شيئا...» وبدأت تتكلم وهى تحاول أن تبدو كلماتها ونبرة صوتها هادئة، ولكن انكماش وجهها الطفولى واحمراره وصلابة عينيها غير المعتادة كانت تعكس غضباً شديداً، «أريد أن أعرف يا أمي، إذا ما كنتى تدركين ما تقولين... هذا فقط ما أريد أن أعرفه».

ونظرت إلى أمها كما لو كانت تنظر إلى كائن غريب وقالت: «آه... هذا شىء جديد علىّ... الآن لم أعد أملك حرية الكلام».

وأصرت كارلا على طلبها وعلا صوتها واضطرب واختلجت شفتاها وقالت: «أريد أن أعرف... هل من الممكن أن نتحمل كل هذا؟» وخفضت رأسها الضخمة قليلاً وأخذت تحملق فى عيني أمها، بطريقة غريبة، وتنظر إليها من أسفل إلى أعلى.

وساد الصمت لحظة، وأخذ ينظر كل واحد من الثلاثة إلى وجه الآخر وهو مندهش غير مصدق، ويبدو أن ليو هو وحده المدرك لحالة كارلا النفسية، واقتربت كارلا قليلاً من المائدة حتى يتسنى لها رؤية أمها، وجلست منكمشة في مقعدها وبدت كتفاها النحيفتان أكثر نحافة، ورأسها أكثر ضخامة... وكأنها تتهيء للقفز.

وأخذ ليو يفكر ويقول فى نفسه: «الآن بعض الغضب سيندفع ضد ماريا جراتسيا وستمزق وجهها بأظافرها» ولكن تلك التنبؤات الفاجعة لم تتحقق، ولم تفعل كارلا شيئاً سوى أن رفعت رأسها وقالت: «هناك شيء أريد أن أعرفه، هل من الممكن أن تستمر الحياة دائماً فى مثل هذا الملل، ولا تتغير أبداً ولا ندع جانباً هذه السخافات وأن نرضى بهذه الحماقات التى تدور برؤوسنا وأن نتجادل ونتشاجر دائماً للأسباب نفسها ولا نبتعد عن هذا أبداً...».

ورفعت يدها فوق المائدة واغرورقت عيناها الغاضبة بالدموع وارتعشت واستطردت تقول وهى تعتدل «الآن... أريد أن أعرف إذا كنت تجدين هذا جميلاً... إنك لا تدركين الأمر... يجب أن تنظرى فى المرآة وأنت تتكلمين وتتجادلين، وعندئذ سوف تخجلين من نفسك وتفهمين إلى أى حد يمكن أن يؤدى بنا الملل وكيف يدفعنا كل هذا إلى أن نتوق إلى حياة جديدة مختلفة تماماً عن حياتنا هذه». وصمتت واحمر وجهها ودمعت عيناها، وراحت تتناول من الطعام الذى قدمته لها الخادمة وهى لا تدرى ما تفعل.

واخيراً أفاقت الأم من دهشتها وقالت: «آه...، حسناً لقد طفح الكيل... من اليوم يجب أن استأذن ابنتى لكي أتكلم... كنت أصغى إليك وقد خيل لى أننى أحلم... إنها الذروة ».

وقال ميكيلى فى هدوء «يبدو لى أن كارلا قد لمست الحقيقة... كل هذا يبعث على الملل إنه شيء قبيح... ولكن لا جدوى من الاحتجاج... علينا أن نعتاد».

وقال ليو مصالحاً: «لا داعى للمبالغة... إن كارلا لا تعني هذا » فأجابته الأم: «ابتعد أنت... إنني أعرف أبنائي جيداً... هل تعرف من هما كارلا وميكيلى؟ إنهما أنانيان... هذه هى الحقيقة إنهما أنانيان ولو أمكنهما أن يذهبا من البيت لفعلا وتركانى وحدى».

وتهدج صوتها، وارتعشت شفتاها... نعم سيتركها الجميع، ليو والآخرون وستبقى هى وحدها حقاً. ونظرت إليها كارلا، وقد أخذها الندم لأنها تكلمت، فما جدوى ما قالته؟ فالبحر لا ينفد بكوب من الماء، وستبقى

أمها كما هى دائماً طائشة، مدعاة للسخرية، ضائعة فى دياجيرها، لن تتغير حتى إذا حدثت معجزة، ولا فائدة من الاصطدام بها، الأفضل أن تتصرف. وأخذت تفكر وهى تنظر إلى وجه ليو الأحمر الهادىء وقالت: «حقاً يجب أن أرحل وأترك البيت اليوم بالذات، الآن وألا أعود إليه أبدا، ولكن بعد أن غالبت نفورها همت باصلاح ذات البين وقالت فى لين».

«ولكننى لم أشأ إهانتك يا أماه. إنما طلبت منك أن ندع جانباً أية مناقشة لأن اليوم عيد ميلادى، كما قلتي أنت بنفسك، و... . و... ».

وأتم ميكيلى العبارة قائلاً وهو مشمئز «وأن نبتهج بجد» وأكدت كارلا قوله: «بالضبط، نبتهج» ولكن ما أن رأت وجه أمها الأحمق الحزين المتحير، ودت لو صرخت تقول: «نبتهج لماذا؟ لما نحن عليه؟» وصمتت لحظة ثم أضافت «إذن إننى لم أهنك يا أماه، أليس كذلك؟»

وقالت الأم فى عزة نفس «أنا لم أهن أبدا... ولكن كل ما فى الأمر أننى لا أرى أن هذا هو الأسلوب الذى يجب أن تتحدث به إبنة تتسم بالاحترام مع أمها».

قالت كارلا فى إصرار وأكثر ليناً: «معك ألف حق يا أمى... ولكن علينا أن ننسي كل شىء الآن، وأن نفكر فى أشياء أكثر بهجة».

وقالت الأم وهى تبتسم نصف ابتسامة: «أنت داهية... وليكن، فلننسى ما دام اليوم هو يوم عيد ميلادك، ولولا ذلك لكان لى معك شأن آخر».

وقالت كارلا بنفس النبرة الهادئة: «حسناً جداً، شكراً يا أماه،... والآن يمكنكما يا ليو أنت وميكيلى أن تقصا علينا بعض القصص المبهجة حتى نستطيع أن نضحك».

قال ليو وهو يضع الشوكة : «سريعاً هكذا... . لا أعرف حقاً ماذا أقصّ عليكم».

وبدأ ميكيلى الحديث وقال: «أنا عندى قصة جميلة فعلاً... . هل تريدون أن أحكيها لكم؟»

قالت الأم: «فلنسمع».

رفع ميكيلى رأسه وبدأ يسرد: «كانت ليلة من ليالى الجمعة المقدسة وكان مجرمو كالبريا ملتفون حول النار وقال أحدهم: «أنت يا بيبه لديك الكثير تعرفه، قص علينا قصة جميلة، وبدأ بيبه يقول فى صوت أجوف: «كانت ليلة من ليالى الجمعة المقدسة، وكان مجرمو كالبريا ملتفين حول النار وقال أحدهم «أنت يا بيبه لديك الكثير تعرفه، قص علينا قصة جميلة وبدأ بيبه يقول فى صوت أجوف: «كانت ليلة من ليالى الجمعة المقدسة... .»

وقاطعته الأم ضاحكة «كفى... كفى... رحمة بنا... القصة لن تنتهى أبداً... فهمنا».

وعلق ليو قائلاً «الثعبان الذى يلدغ ذيله».

وجاءت الخادمة بكعكة رائعة كتب عليها بحروف من الكريمة «أجمل التهاني». تناولت منها الأم أولاً ثم ليو ثم كارلا وأخيراً ميكيلى.

وسألهم ميكيلى: «ألم تمتعكم القصة؟»

وأجابته أمه في استياء وهى تأكل: «على الإطلاق... لم أر شيئاً أغبى من هذا...».

وقال ليو فى هدوء من غير أن يرفع عينيه عن طبقه: «هذا ما تتلقونه فى الجامعة؟»

ونظر إليه ميكيلى وهو ممتعض ولم يجب، ثم قال فى إصرار: «لدى قصة أخرى... ولكن أخشي ألا تعجبكم أيضاً... إنها قصة سيدة ناضجة وعشيقها».

قاطعته كارلا مسرعة وقالت وهى تنظر بعناية إلى أخيها: «ولكنها ليست بقصة مبهجة بينما أنا أريد قصصاً مبهجة».

وقال ليو: «هذا يعتمد على القصة نفسها، من الممكن أن تكون مبهجة أو لا».

وقالت الأم في عزة نفس: «إننى يا ميكيلى لا يحلو لى أن تتحدث بحرية عن هذه الأمور أمام كارلا...».

وأضحكت كلمات الأم ليو... وقال فى نفسه مازحاً: «أوه، إن كارلا تعرف أكثر منك عن هذه الأمور»، وأخذ يبحث أسفل المائدة عن قدم الفتاة كما لو كان يدعوها لتشاركه الضحك ولكنها كما فعلت من قبل لم تستجب لهذا التواطؤ الخفى، فهى لا تريد أن تضحك.

نظرت إلى أمها، إلى ذلك القناع الغبى المتردد المعلق فى نهار الغرفة المضىء. وفكرت «لا بد مِن أن ينتهى كل هذا فى أسرع وقت، بحيث لا يمكنها أن تتحدث هكذا غداً».

أما نفاذ الصبر الذي تخللها فقد جعلها ترغب في أن تقوم بحركة معبرة أو تضحك ضحكة ساخرة تجعل أمها تكف عن التوهم فى براعتها.

فى هذه الأثناء قال ميكيلى «خسارة... إنها قصة مفيدة جداً... ربما لا تضحك... ولكنها مفيدة».

ثم ساد الصمت، ورفعت الخادمة الأطباق من فوق المائدة وأحضرت الفاكهة وقال ليو وهو يمسح بعناية ثمرة من التفاح: «حسنا يا كارلا، اليوم تبدأين حياة جديدة، أليس كذلك؟»

وأجابت كارلا وهى تبتسم نصف ابتسامة: «أرجو ذلك» ولكن كانت هناك فكرة واحدة تؤرقها: متى تستسلم لليو؟ أفى هذه الليلة بالذات أم فى يوم آخر؟

وسألت الأم: «حياة جديدة... بأي معنى؟»

«بكل المعاني يا أماه».

«ولكنني لا أفهمك يا عزيزتي... اذكرى لى مثلاً».

«حياة جديدة... أعنى أقل حماقة وأقل سطحية وأقل تفاهة، وأكثر عمقاً... من تلك التى أعيشها الآن» ثم نظرت إليها وأضافت: «جديدة... أعنى أن أغير حياتي تماماً».

وقال ليو مؤكداً «كارلا على حق... فالتغيير مفيد من حين لآخر» أضافت الأم وقد ضاق صدرها «صه... أنا لا أفهم... كيف تغيرين حياتك؟ تستيقظين صباح كل يوم جميل وتقولين: «اليوم أريد أن أغير حياتي : كيف يمكن هذا؟»».

وقالت كارلا دون أن ترفع عينيها وهى تضغط على أسنانها من شدة الغضب: «من الممكن القيام بأى فعل يغير أسلوب الحياة من كل الجوانب».

أجابت الأم في صلابة: «ولكن يا عزيزتى... أنا لا أرى كيف يمكن لفتاة قويمة الأخلاق أن تغير حياتها إن لم يكن بالزواج... فبذلك تتغير الحياة بالفعل... ويكون أمامها مسئولية البيت، والاهتمام بشئون زوجها... وأن تربي أولادها إذا كان هناك أولاد... جميعها أشياء يمكن أن تبدل عادتنا تماماً... وأتمنى لك ذلك من كل قلبى، ولكن يبدو لى أن الاحتمال ضعيف في أن تتزوجي ما بين يوم وليلة... ولهذا لا أرى كيف يمكن أن تتغير حياتك لا لشىء إلا لأنك تريدين ذلك».

قالت كارلا فى انفعال وهى تقبض على السكين الذى فى يدها: «ولكن يا أماه هناك أشياء أخرى غير الزواج، يمكن أن تغير حياة الإنسان».

وسألتها ماريا جراتسيا فى برود شديد وهى تقطع التفاحة: «وما هى؟» ونظرت إليها كارلا نظرة تقرب من الكراهية، وودت لو أجابتها: «أن أصبح عشيقة لليو» وأخذت تتخيل بمتعة حزينة وبنهم الاندهاش والسخط والخوف الذى يمكن أن تثيرة تلك الكلمات، ولكنها على عكس ذلك استطاعت أن تكون متمالكة النفس ساخرة وقالت فى نبرة إحباط: «فقد التقي اليوم مثلا بمدير شركة سينمائية أمريكية يأسره جمالي فيقدم لي عرضاً للتمثيل... بهذه الطريقة تتغير حياتى على الفور...».

ولوت الأم شفتيها استنكاراً، وقالت: «أنت تفكرين كما لو كنت طفلة صغيرة... ولا يمكن التفاهم معك».

قال ليو: «كل شىء ممكن» قالت الأم: «كيف؟... أن تصبح ابنتى ممثلة؟ إنك يا ميروميتشى لا تدرك ما تقول».

وقالت كارلا فى إصرار: «لندع المزاح جانبا... أظن أننا سنضطر إلى ترك الفيلا خلال أيام قليلة ونذهب لنقيم فى مكان آخر... كما أننا سنحاول أن نخفض نفقاتنا.. وهكذا لا بد وأن تتغير حياتنا، أليس كذلك؟»

فقالت ماريا جراتسيا فى وقاحة يائسة وهى تحدق فى عينى عشيقها: «من قال إننا سنترك الفيلا... سنبقى هنا حتى تتزوجى». ونظر إليها ليو واحمر وجهه غضباً وقمع بالكاد رفعة كتف عنيفة وكان يريد أن يصرخ ويقول «لن تبقوا... وسوف ترحلون من هنا... . وعلى وجه السرعة» وقالت الأم وهى تبتسم ابتسامة قلقة: «ستبقى هنا... أليس كذلك يا ميروميتشى؟» ونظر الجميع إلى الرجل الذى أخذ يفكر ويقول فى نفسه:

«فلتذهب إلى الجحيم...» ولكنه لم يشأ إثارة المواقف ولا إفساد الأمور مع كارلا فقال: «نعم، نعم، ستبقون».

وصاحت الأم فى لهجة الانتصار: «أرأيتما؟... لقد وعدنى ميروميتشى... ولن يتغير شىء فى الوقت الحاضر.»

تمتم الرجل فى صوت خافت لم يسمعه أحد قائلا: «نعم... لساعة من الزمن». وعندئذ ثارت حفيظة كارلا مرة أخرى بطريقة لا يمكن كبحها، ورآها الثلاثة الآخرون وقد احمر وجهها غضباً وهوت على المائدة بقبضة يدها فجأة وقالت فى صوت وكأنها تصرخ: «أنا لا أصدق كل هذا... إنك يا أماه تريدين أن ترينى أختنق... إنني أفضل الدمار، نعم، أتفهمين؟ أفضل الدمار على كل هذا، أفضل أن أغوص في الدمار، إلى أسفل سافلين، إننى أخبرت ليو بهذا فى اليوم السابق، فأنا لا أفعل شيئاً إلا التفكير فى ذلك ليل نهار، وحتى صباح اليوم، ما كدت استيقظ من النوم حتى نظرت إلى المرآة وقلت لنفسى: «سيبدأ عام جديد بالنسبة لى ويجب أن يختلف تماماً عن العام الذى انقضى لأن من المستحيل أن أستمر هكذا... مستحيل.» وفجأة تغير وجهها من وجه أحمر إلى وجه شاحب، وأحنت رأسها واجهشت بالبكاء، ونظر الجميع إليها فى حيرة وارتباك ونهضت الأم واقتربت من ابنتها فقد بدا لها جلياً أن بكاءها صادق تماماً لكي يمحو الاتهامات التي سبقته وقالت: «لماذا تبكين هكذا من غير سبب؟... هيا... إن اليوم عيد ميلادك... لا يجب أن تبكى...».

لم تقم كارلا رأسها وكانت ترتعش من شدة البكاء، ولكنها وجدت فى كلمات أمها الرقيقة المواسية لها، صدى واضحاً لأيام طفولتها، بأحزانها الصبيانية وسند أمها لها مما جعل بعض التأثر يتسلل على مضض إلى

آلامها، ورأت نفسها تبدو كما كانت فى الماضى، طفلة، وراودها ندم مفاجئ لضياع براءتها واللامسئولية، ومرت أمام عينيها صور وأحداث تلك السنوات عبر ستار من الدموع ومرت لحظة، ثم سمعت ليو يقول لها بدوره مواسيا: «هيا... امرحى... لماذا تبكين؟» ورفعت رأسها وقالت فى صوت ثابت وهى تجفف دموعها: «إنك على حق... إن اليوم عيد ميلادى...» وكانت تريد أن تضيف أشياء أخرى ولكنها تماسكت. وصاح ليو قائلا: «يا إلهي... بكاء على المائدة» ابتسمت الأم ابتسامة بلهاء، كل شيء كان من قبل عذبا ومرا.

وكان ميكيلى الوحيد الذى لم يحرك ساكنا ولم يتكلم، ولكنه أخذ يفكر وهو يرى أخته تذرف الدمع: «إنها حالة هستيريا... لو أحبها شاب من عمرها وبادلته الحب لكانت هادئة وسعيدة» لم يجد فرقاً بين أخته والآخرين، فقد بدا له أن الثلاثة كاذبون وبعيدون بشكل لا يحتمل، وتسأل فى لوعة: «هل هذا ممكن... أن يكون ذلك فقط هو عالمى وناسى؟» وكلما استمع إليهم أكثر، بدوا له أكثر هزلاً وغموضاً فى صدقهم الموحش وفكر: «أضحك... لا بد أن أضحك» ولكنه لا يدرك إذا كان يشعر بالنفور أو بالشفقة عندما يرى ليو وأمه وأخته كارلا للمرة الألف ثابتين على حالهم، لا يتغيرون، على عيوبهم، جالسين إلى المائدة. وقد تجهم وجهه وغمضت عيناه من شدة التعب وعاد وقال: «هناك خطأ... لا بد أن هناك خطأ». وأخفض رأسه ليخفى جفونه المبللة.

لا أحد يرى ولا أحد يفهم، تناول الجميع الفاكهة وكان أمام طبق كل واحد منهم كأس، وأخذ ليو يقرأ فى انتباه شديد ملصقات قارورتى النبيذ الفرنسى اللتين أحضرتهما الخادمة في تلك اللحظة. وأخيراً قال كخبيرفى أنواع النبيذ: «هذا جيد... وهذا جيد جداً».

وقالت الأم فى حكمة: «قارورة واحدة أولاً ثم الثانية بعدها... انزع السدادة أنت يا ميروميتشى».

أخذ ليو القارورة ونزع عنها الخيط المعدنى وراح يعدّ فى تصنع: «واحد، اثنان، ثلاثة» وعند ثلاثة اندفعت السدادة وأسرع ليو يصب النبيذ فى الكئوس قبل أن ينسكب الزبد، ووقف الأربعة أسفل المصباح المغبر.

وقالت الأم في صوت منخفض وودود كما لو كان الأمر يتعلق بسر ما: «نخب صحتك يا كارلا» وتخابطت الكئوس وتداخلت بشكل مؤثر النداءات الرقيقة في كل الاتجاهات: "أماه"، "ميكيلي"، "كارلا"، "سيدتي" "ميروميتشي" ، وصلصل زجاج الكئوس في ألم مع كل طرقة فوق المائدة غير المنظمة بين رؤوس الأربعة المنحنية، ثم تجرع الجميع النبيذ وهم يتبادلون النظرات بعيون مرتابة.

في النهاية قالت الأم: «إنه نبيذ جيد... إنه معتق».

قال ليو مؤكداً: «إنه جيد جداً» ثم أضاف «الآن سأوجه حديثاً لكل شخص ولكن قبل أي شيء أرجو من ميكيلي ألا يبدو كمن حكم عليه بالأعدام... إنها شمبانيا وليس سّما».

وفكر ميكيلي وقال لنفسه: «أنت على حق، لا بد أن أضحك» وامتعض وجهه في حماقة أدركها وضحك منها.

«حسناً» قال ليو وهوسعيد بتلميحه إلى سقراط ؛ ورفع الكأس قائلاً: «نخب حياتك الجديدة يا كارلا» وابتسم وراح يلطم بكأسه كأس الفتاة واستمر ينظر إليها في خبث ويقول: «إنني أعرف جيداً مطامعك العظيمة وأعلم فيما تفكرين ليل نهار... لذلك أعتقد أنني أتكهن بذلك، لذا أتمنى لك زواجاً سعيداً بكل المعاني... زوج ثري، جميل وذكي... أليست تكهناتي صحيحة؟» وأشارت الأم مبتهجة بالتصديق على كلامه من وراء كأسها، بينما المحتفى بها لا ترد ولا تبتسم، فإن تلميحات الرجل الزائفة والساحرة جعلتها تدرك الدمار الذي تمضي إليه ؛ ولكن عليها أن تترك نفسها لتسقط إلى أسفل سافلين الحياة، واستجابت له بإيماءة باردة لا تخل من اشمئزاز، لأن ذلك النبيذ الفرنسي لا يطيب لها، وأفرغت الكأس إلى آخر قطرة.

واستمر ليو يقول: «نخب صحتك يا سيدتي... وبما أن تلك هي رغبات كارلا فنتمنى دون شك، على نقيض ابنتك، ألا يتغير شيء بالنسبة لك أبداً وأن يبقى الأمر على ما هو عليه بنفس العادات القديمة وكذلك...».

ثم أضاف بمهارة مبهجة: «وكذلك أيضاً الأصدقاء القدامى».

ورآها تبتسم كما لو أن ذلك استجداها.

وصاحت في يأس: «فليحيا الأصدقاء القدامى» وراحت تقرع كأسها بكأس عشيقها وتجرعت النبيذ فى نشوة.

وأخيراً قال ليو: «نخب صداقتنا يا ميكيلى» وتجرع النبيذ بسرعة دون توقف واقترب من الفتى ومد له يده ليحييه، ونظر ميكيلى إلى أعلى ورأي ليو يبتسم في ثقة ولطافة وشاهد يده ممدودة تحت انفه، وكان جالساً وليو واقفا، ورأى بدن ليو العريض وبنظرة من أسفل إلى أعلى رأى تلك الابتسامة الوردية الأبوية تسرى فى حماقة بين وجناته الثقيلة، وفكر«أرفض التحية... أرفضها نكاية» ونهض ووضع الفوطة (المنشفة) فوق المائدة. حينئذ وعندما نظر من حوله أدرك أن صمتاً عميقاً تلا الضحكات والكلمات والنخب، ولم يكن الشمعدان وآنية المائدة غير المرتبة أكثر جموداً من كارلا وأمها، ونظرت إليه الأخيرة ورأسها مستندة على يديها تبدو قلقة وآمرة وارتسمت تجعيدتان على جبينها لا يعلم المرء ما إذا كانت تتضرع أم تأمر.

وعاد وساوره استياء الشعور بالشفقة وأراد أن يقول لأمه: «لا تخافي، لن يمس أحد عشيقك يا أمى... لا أحد...».

استقرت عيناه بين ليو وأمه وشردت فى بريق الضوء الأبيض... إنه حلم، كابوس من اللامبالاة.

وسمع ليو يقول: «هيا... هيا اعطنى يدك وينتهى كل شيء».

مدّ ميكيلى يده اليمنى وسلَم عليه ليو ثم ، مباشرة وبتلقائة بدت له غريبة، وجد نفسه بين ذراعى الرجل واحتضنه وقبّل كل منهما الآخر.

وعادت على الفور فرحة كبيرة وصفقت الأم هاتفة: «حسناً هكذا... حسناً يا ميكيلى» وصاح ليو فى سعادة غامرة: «إنه غير مقبول أن يكون هناك خلافات بين شخصين صادقين مثلى أنا وميكيلى». وقال لنفسه: «الآن وبعد أن تعانقنا هل ستتركنى فى سلام؟» أحنى الصبي رأسه على طبقه هناك فى نهاية المائدة بمفرده، بدا وكأنه قد اخجله هذا العناق وجعله يندم ندمه عن فعل قبيح، وفى النهاية رفع عينيه: الآن هؤلاء الثلاثة،

وبعد اجتياز حاجز الكراهية، لم يعودوا يعيرونه اهتماماً فقد تجمعوا حول الطرف الآخر من المائدة وبدوا له منعزلين غرباء كما لو كان يراهم عبر زجاج، يضحكون ويشربون... ويتجاهلونه.

عاد ليو وأخذ القنينة وصب النبيذ فى كأس المرأتين وخاصة الابنة، وأخذ يفكر ويقول: «لن أكون أبداً ليو إذا ما جعلت كارلا تتجرع إحدى القنينتين على الأقل». إنه يعلم جيداً أن الخمر سيسهل له إخضاعها.

بات يتخيل المتعة التى شعر بها عند لقائه بكارلا فى الحديقة وتسللت إلى جسده شهوة منتفخة ربما بسبب الغداءِ المفرط أو شىء آخر. قال فى قسوة وهو يرفع الكأس: «إذن تذكروا جيداً أنه لا يمكن ترك المائدة قبل أن تنفدا هاتين الزجاجتين».

قالت الأم وهى تضحك بشدة «فلتشربهما أنت أو كارلا... أما أنا حقيقة فلا». وكانت بين ضحكة وأخرى تقذف عشيقها بنظرات مثيرة مشتعلة. وقال الرجل مصدقاً: «هذا صحيح جداً سوف نتجرعهما أنا وكارلا... أليس كذلك يا كارلا» ثم رفع كأسه.

نظرت إليه الفتاة، هذا النبيذ لا يروق لها بل يثير تقززها، ولكن كان فى إيماءة العشيق وفى نظرته التى اصطحبتها تحكم وتهديد لا يقاوما، جعلها تقبل على مضض الدعوة. وأشار عليها الرجل قائلاً: «كله... إلى أخر قطرة». ضحكت أمها ونظرت هى إلى ليو ثم إلى ماريا جراتسيا، وفجأة فكرت فى انفعال وخوف شديد، تلك الوجوه التى تلبث هناك فى ضوء العصر الأبيض كانت تفزعها، إنها وجوه حياتها البائسة المبهمة: «أثمل ولن أرى كل هذا فيما بعد» ورفعت الكأس فى تقزز وأخذت تتجرعه حتى رأته فارغاً، وامتلأ فمها بسائل النبيذ الحلو المقيت ذى المذاق المثير وابتلعته على الفور وشعرت للحظة بالرغبة فى أن تبصقه على وجه عشيقها ولكنها تمالكت وأغلقت جفونها وراحت تستمع إلى القرقرة السارة فى زورها المتقزز، ثم عادت وفتحت عينيها ورأت الزجاجة معلقة من جديد فوق كأسها ويد ليو تميلها عليه، وتدفق النبيذ الأصفر ليملأ الكأس.

تحدث ليو إلى الأم يحثها قائلاً: «لتشربى أنت أيضا... أتعلمين المثل الذي يقول: «املأ الكأس الفارغ، وأفرغ الكأس الملآن، لا تتركه أبداً فارغا، ولا تتركه أبدا ملآنا».

«هـا، هـا» ضحكت الأم فرحة بتلك الطرائف التى عاف عليها الزمان. واستمر ليو يقول: «فى النبيذ الحقيقة... شاركينى الشرب... إننى واثق من أنك سوف تغبين مع الكأس الثانى».

شعرت الأم بمهانة وقالت فى كبرياء: «أنت تخطىء... هم قليلون الذين يتحملون النبيذ مثلى». وقامت بإفراغ الكأس لتثبت قدرتها على ذلك. وقال ليو وهو يشير بإصبعيه مازحا وقد أصبح حسن المزاج: «كم هذا؟»

أجابت العشيقة وقد علت ضحكتها «إنهم عشرون، حسناً جداً».

وصمت الرجل برهة وهو ينظر إلى المرأتين، الأم وابنتها ثم أضاف وهو يتحول فجأة إلى كارلا: «لنشرب الآن نخب صحة زوجك المقبل».

وصاحت الأم وهى فى غاية السعادة: «سأشرب أنا أيضا هذا النخب».

ترددت كارلا، قد شوش السكر رؤيتها فأصبحت كما لو كانت تضع على عينيها نظارة سميكة أو كانت تنظر فى حوض لحفظ الحيوانات المائية، واهتزت الأشياء أمامها وراحت تختلط بعضها ببعض، وقالت لنفسها:

«كأس آخر لا أعى بعده شيئاً». وابتسمت ابتسامة حائرة ورفعت الكأس البائسة وشربت، وأحست على الفور بأنها قطعت شوطاً كبيراً فى سماء السكر. وغمرها فرح شديد وإحساس بالرغبة في الكلام لتظهر للآخرين أنها مدركة تماماً لما حولها.

قالت فى صوت واضح المقاطع: «يسرنى أن أشرب نخب زوجي المقبل، ولكن من هو هذا الزوج يا ترى؟»

أجابت الأم: «الله وحده يعلم من هو» وبدأ ليو الحديث قائلاً: «لولا أنني اعتبرك كابنتي لتقدمت أنا نفسى كزوج لك... هل تقبليننى؟»

وصاحت كارلا وهى تشير إليه بإصبعها: «أنت؟... أنت زوجى... ولكن» ونظرت إليه لحظة: ولكن أليس هو عشيق أمها؟ ثم قالت: «ولكنك بدين جداً يا ليو».

واعترضت الأم غاضبة: «أوه كلا، لهذا السبب... ولكنه ليس بدينا أبدا... وأتمنى لكي زوجاً مثله».

قال ليو فى إصرار وهو يبتسم: «ستقبلين يا كارلا؟ سنقضى شهر العسل فى باريس...» قاطعته الفتاة فى لهجة متذمرة: «كلا. أننى أفضل الهند».

قالت الأم التى لم تذهب إلى باريس: «باريس أكثر متعه...».

قال ليو: «فلتكن الهند سأهديك سيارة وبيتاً وملابس... إذن هل تقبلين الزواج منى؟»

ونظرت كارلا إليه وقد شوش السكر أفكارها، لماذا يتكلم ليو بهذه الطريقة؟ ربما لكى يهزأ من أمها؟ فى هذه الحالة لا بد من أن تضحك، وأجابته في النهاية وهى مترددة: «بالنسبة لى... ليس لدى أى مانع... ولكن لا بد من موافقة أمى».

وسأل ليو أمها وعلى ملامحه نفس الابتسامة الهادئة الراضية: «وانت يا سيدتى هل تقبليننى صهراً لك؟»

سألته الأم فى سلاسة وقد بدا لها تحت تأثير النبيذ والإثارة أن كل هذا ليس إلا مهزلة، «لنرى... هل تشغل وظيفة جيدة؟»

أجابها ليو في تواضع: «أنا موظف فى وزارة العدل، وأتقاضى مرتباً قدره ثمانمائة ليرة فى الشهر... ورؤسائى راضون عنى... ووعدونى بترقية...».

قالت الأم وهى تغالب ضحكها: «وأسرتك؟»

«لم يعد لى أسرة... إننى وحيد في هذا العالم».

«متدين؟»

«متدين جداً».

وانهت الأم كلامها قائلة: «إذن هل تعتقد أنه بإمكانك إسعاد ابنتي؟»قال ليو وهو ينظر إلى كارلا مليا: «أنني مقتنع بذلك تماماً» وصاحت ماريا جراتسيا وقد علت ضحكتها «إذن فتزوجا على بركة الله».

وصفقت كارلا دون أى فرح: «فلنتزوج يا ليو».

وضحك ليو وقال: «يبدو لى أن الاختبارات العامة سارت على ما يرام... والآن ليس أمامنا إلا أن ننتظر الزوج الحقيقى».

وتناول الزجاجة الثانية وملأ كأس كارلا وهو يقول لنفسه: «ينبغى أن تشرب... وأن تفرط فى الشراب».

ثم نظر إليها وقال: «نخب صغير فى صحة السيدة»، أخذت كارلا كأسها بيد مضطربة وشربت. وعندئذ، اجتاحها خوف مفاجيء وأدركت أنها سكرى فقد دارت رأسها وجف حلقها وبقدر ما كانت تحاول فتح عينيها اختلطت الأشياء أمامها. فقد فقدت الوعى، الوعى الصحيح بما تفعله، فمنذ هذه اللحظة لم تعد ترى أو تسمع شيئا. وبدت لها الأوانى الزجاجية والفضية فوق المائدة شديدة اللمعان والوضوح بحيث آلمت عينيها وأصبحت وجوه الجالسين جامدة قاسية الملامح بحيث بدت كالأقنعة. ومن حين لآخر كان يخترق هذا الواقع حيرة مرتجفة، وأحاط الضباب المكان، واتسعت العيون والأفواه كلطخات طين على الوجوه، ومجموعات من البرق بيضاء تضرب الهواء بقسوة، وكانت تسمع الكلمات حولها وحاولت بشتى الطرق أن تفهم معناها ولكنها لم تفلح وقالت لنفسها: «إننى الآن سكرى... فكيف أستطيع التحدث إلى ليو فى الحديقة؟» واستبد بها الخوف وندمت أشد الندم لإفراطها فى الشرب وودت أن تبكى. وكان على ليو أن يضغط عليها لكى تشرب وهو يتحدث مع أمها متظاهراً بعدم الاكتراث أو النظر إلى الفتاة ولكنه التفت إليها فى منتصف حكاية من حكاياته بوجه مرح وبيده الزجاجة يصب النبيذ فى

كأس كارلا ويقول: «هيا يا كارلا...» ورفع كأسه وكارلا تنظر إليه وودت لو سألته «لماذا؟»

وبدا لها أن قدراً قاسياً مبهماً آلياً يعلو كل شيء من حولها: وجه الرجل الجامد تعترضه يده ممسكة بالزجاجة، وتلك الحركات والكلمات، كما لو كان الرجل إنساناً آلياً جاء إلى هذا المكان ليصب لها النبيذ من هذه الزجاجة كل خمس دقائق، ولكنها لم تعترض وغلبت تقززها وشربت، ثم أعادت الكأس فارغاً ونظرت إليه بعيون غارقة خائفة، وعلى الفور فكرت فى أن النبيذ سيتدفق من جديد فى الكأس من عنق الزجاجة الضخم بدون شفقة.

وأخيراً كانت زجاجة النبيذ الثانية قد فرغت فقال ليو فى مرح: «إننا أتينا على الزجاجتين... حسناً يا كارلا».

ولم ترد الفتاة وظلت رأسها منحنية وشعرها يتدلى أمام عينيها، وقال الرجل فى إصرار: «ياه... ماذا بك؟ هل تشعرين بدوار؟» ثم أضاف وهو يقدم لها علبة سجائر: «خذى سيجارة» وعندما رآها تشعل السيجارة وراحت تدخن فى صعوبة كبيرة، قال فى نفسه على الفور: «لا ينقصها سوى وردة على صدرها... لتكون كمرتادي الملاهي الليلية».

وكان هذا صحيحاً، فقد كانت كارلا تسند مرفقها على المائدة مثل النساء فى صالات الرقص صباحاً، ورأسها منكوش بقدر بين يديها، والسيجارة من زاوية فمها، وتنظر أمامها، ورداؤها أنثوي واسع جداً، كان لأمها من قبل، ينزلق من على أحد اكتافها ليكشف عن بداية ثدييها البيضاوين المنتفخين وازدات حالتها سوءاً، فاسترخت فوق المائدة وخيل لها أنها تفقد حياتها.

ونظرت إليها مارياجراتسيا دون استنكار ونصحتها قائلة: «أخرجى إلى الحديقة واستنشقى الهواء... سوف ينعشك»، وبالرغم من سكرها أوحت تلك الكلمات لكارلا برغبة فى التهكم الحاد تجاه أمها وودت لو ردت عليها تقول: «ما الذى سيجعلنى انتعش؟ أن أكون مع ليو... بالتأكيد هذا ما سيجعلنى أنتعش».

ولكنها على العكس قالت: «هل أنت متأكدة من ذلك تماماً.» ثم نهضت وأدركت على الفور أنه سيتعذر عليها ألا تقع، فقد راحت الغرفة كلها تدور وتتمايل حولها، وتعلو الأرضية وتهبط أسفل قدميها مثل جسر السفينة، وأخذ الجدار يتأرجح، ومالت اللوحة التى كانت معلقة مستقيمة، وسقطت فوقها إحدى قطع الأثاث، وتخيلت أن المائدة ومن عليها لابد وأن تنقلب وتلمس السقف بين لحظة وأخرى. وكان هناك أحد ما ينظر إليها ممن على رأس المائدة بعينين واسعتين تائهتين، يسند رأسه بيديه: هل هو ميكيلى؟

لم يكن الوقت متاحاً لها لتعرف، وبخطوة مترددة خرجت من الغرفة وأختفت فى ظلام البهو.

قالت الأم وهى تتبعها بعينيها: «إنها غير معتادة على النبيذ».

وقال الرجل: «هذا صحيح... من أقدم مثلى على النضال وشرب أقوى المسكرات مثل تلك التى يصنعونها فى فرنسا، هو فقط الذى يستطيع أن يعرف معنى السكر». وأخذ الزجاجة وصب القطرات القليلة المتبقية فى كأس كارلا وصاح وهو يلتفت إلى الفتى: «نخب صداقتنا يا ميكيلى».

ولكن ميكيلى لم يجب ولم يشرب ولم يرد على النخب، وإنما أطرق برأسه وقد اجتاحه تقزز كريه مشوب بوخز الضمير والمهانة، وأخذ يتأمل ليو فى ذاكرته وهو يسخر منه ويعانقه، وأنفه فوق كتف الرجل وذراعاه متدليتان متأثراً بعاطفة فى قلبه، وراح يستعيد نكهة القبلة التى تلقاها والتى أهداها... آه يا لها من لحظة جميلة! وبدا له أن أذنيه قد صُمّتا من دوى الضحك الشديد وشعر بالأزدراء والاستهانة، فقد انتصر عليه ليو وأخذ نقوده كما أخذ أمه ولم يبق له شىء إلا الرضوخ للنخب والعناق وكلها أشياء هشة.

فرغت الزجاجتان وتبددت السجائر المشتعلة متحولة إلى دخان، وراح نور هادىء أبيض ينتشر من خلال ستائر النافذة، وعادت الأم، وقد استحوذت عليها غيرتها، إلى الشجار القديم، وقالت بصوت عنيد: «لماذا

لا تشرب نخب الصديقة البعيدة؟» واردفت تقول فى لهجة يرثى لها: «البعيد عن العين، بعيد عن القلب... .»

اما ليو فقد اضطجع فى مقعده وقد أثقل عليه الطعام وراح ينظر إليها بعين عابثة ولم يجب. وقد خيم على المكان صمت ثقيل مقلق لم يقطعه غير صوت جهاز التدفئة: بروووم... . بروووم، فقد راح شخص ما في الطابق الأرضي يحمي النار في جهاز التدفئة المركزى.

الفصل السابع

اجتازت كارلا الممر إلى البهو، تلك هى الستارة التى اختبأت خلفها الليلة الماضية مع ليو، كان كل شىء يرتجف حولها، وتشبثت بالستارة حتى لا تقع، ثم خرجت وهبطت درجات السلم الرخامي، وكان يخيم على الحديقة صمت قاتل وظهر هناك وراء جذوع الأشجار وفروعها العارية السور الحزين الذى يحيط الحديقة بلونه المائل للاصفرار وعليه لطخات كبيرة من الرطوبة، كان المكان خاليا من الظل والضوء والرياح وكان الهواء باردا ساكنا، والسماء رمادية تخترقها مجموعة من الغربان تطير على ارتفاع كبير، تتبعثر حينا وتتجمع حينا وهي تبتعد مع سقوط خفيف، وكان يختبئ في هذا المكان الشاسع عصفور يغرد تغريدا رقيقا، لا يعلم أحد مكانه، وبدت الطبيعة ترتجف بأكملها. وأخذت كارلا تلف حول الفيلا، خطوة خطوة وهي تتكئ على الجدران، وأخذت تنظر إلى أعلى في اتجاه نافذة غرفة الطعام المغلقة وتساءلت ماذا يفعل هؤلاء الثلاثة ياترى؟ هل مازالوا يجلسون حول المائدة يشربون؟ أم أنهم يتناقشون؟ والتقطت حصوة صغيرة وقذفتها أمامها، وقطفت زهرة وقامت بحركات صغيرة كثيرة لتثبت لنفسها أنها ليست بسكرانة، ولكن على مسافة منها ارتبك كل شيء أمامها، التفت الأشجار كالحيات وستر الضباب خلفه كل شيء، وما كان مجدياً إخفاء أن ساقيها لا تحملانها، وكانت تشعر مع كل خطوة تخطوها أن الأرض تهتز وتفر من تحت قدميها.

كانت الحديقة تقل مساحتها خلف الفيلا عن الجزء الذى يقع على الجانب الآخر، ولكنها كانت أكثر كثافة، تظهر فيها اشجار ضخمة وشجيرات غزيرة يصل طولها حتى صدر الإنسان، وطريق ضيق يلف حول هذه الكتلة النباتية المهملة بطول السور الذى يحيط الحديقة، ولكنه كان ايضاً مهجوراً تغزوه الحشائش والفروع حتى أنه كان من الصعب العثور على الطريق القديم، ومن المفترض أن يكون هناك فى نهاية

الحديقة، بناء صغير مستطيل الشكل، مخزن، ولكن حيث تقف كارلا لا يستطيع أحد أن يراه فالأشجار تخفيه تماماً.

وجلست كارلا فوق مقعد خشبي مطلي بلون أخضر مستند على حائط الڤيلا وأمسكت برأسها بين يديها وهي تشعر بتوعك لم تشعر بمثله من قبل، وكانت حالة السكر في أزدياد بدلاً من أن تنقص، ومع أول احساسها بالأنفراج واليسر راح يتدخل شعورها بالدوخة والغثيان تارة وعدم قدرتها على تحمل التأرجح الغريب للاشياء تارة أخرى. وفكرت في حزن وهي تنظر اسفل قدميها إلى الحصى الأبيض وقالت: «اليس هناك أية وسيلة لينتهي هذا العذاب؟».

ولم تجد أية إجابة. وأزعجها التناقض الشديد بين هنيانها وهدوء الطبيعة الصامتة، فأغلقت كارلا عينيها في رغبة مبهمة في الاستسلام والفناء في ثبات الأشياء. لم تنم ولم تفكرفي شيء وظلت هكذا مغمضة العينين نحو عشر دقائق: ثم احست بيد تلمس كتفها ففتحت عينيها ورأت ليو.

كان يحمل فوق ذراعه معطفه وقبعته ويضع سيجارة في فمه وسألها: «ماذا بك؟ ولماذا تمكثين هكذا؟» ورفعت الفتاة رأسها وأجابت ببساطة: «لست على ما يرام».

وردد ليو مبتسماً وقد نفد صبره: «لست على ما يرام، لست على ما يرام... . على أية حال انهضي وسيري... وبعدها لن تشعري بالتعب... لقد شربتي كثيراً فقط».

ووقفت في استرخاء، وما كادت تفعل حتى تشبثت به بكلتا يديها وتوسلت إليه قائلة: «أمسك بي جيداً... كل شيء يدور من حولي» ونظرت إلى وجه حبيبها، ثم خفضت رأسها واطلقت تنهيدة طويلة.

ومشيا عدة خطوات ودخلا تحت قبو افرع الشجر على الطريق المغلق الرطب المصاحب لسور الحديقة، وكان ليو يسأل من آن لآخر الفتاة: «اتشعرين بتحسن؟» وتجيبه: «لا» ثم يعود ويسألها: «اتشعرين بتحسن؟»... : «لا».

ولم تكن الأشجار والنباتات المتشابكة فوق رأسها اكثر سكوناً من السماء الرمادية التى كانت تظهر من بين فروع الشجر، وكانت طبقة كثيفةٍ من أوراق الشجر سوداء عفنة تبطئ خطواتهما، كان الصمت عميقاً، ولا تسمع أية ضوضاء.

عاد ليو يسألها: «اتشعرين بتحسن يا عزيزتى؟» وشعر بالإثارة وملأته الرغبة وأخذ يترقب اللحظة المناسبة ليحتضن رفيقته، كان جسدها يستند بحنان على ذراعيه وخصرها المستدير يضغط على خصره وتحركت فى نفسه شهوة شديدة من تلامس الجسدين، وفكر وقال لنفسه «التزم الهدوء... الان سوف آخذها إلى ذلك البناء وأفعل بها ما أريد... قليل من الصبر».

وكانت عينا كارلا تجولان فى متسع الطريق البائس المليء بالظلال وفروع الأشجار، واخيراً سألته فى نبرة متذمرة: «لماذا حملتنى علٍى أن أشرب؟» وأجاب ليو: «وأنت لماذا شربت؟» أسئلة وأسئلة دائماً... ثم توقفا وقالت كارلا فى تردد: «إننى شربت لكى لا أرى أمى وأنت... ولا حتى ميكيلى... لكى لا أرى أحدا منكم...» وخفضت عينيها وهزت رأسها ثم قالت: «ولكن لو أننى عرفت أن الشراب سيضرنى هكذا لما شربت».

وقال الرجل فى صوت مرتفع أثار دهشته هو نفسه: «كفِّى عن هذه الحماقات... لقد شربت لأنه طاب لك أن تشربى».

ورآها تبتسم فى غموض وسألته فى نبرة ودية: «لعلك تعتقد أننى أحبك؟» وتبادلا النظرات، كارلا فى جد وجنون السكر فى عينيها الصافيتين، وليو بين الشهوة والسخرية ونظرات مضطربة، وفجأة خفض الرجل ذراعه وأمسك الفتاة من خصرها فى غلظة، فأطلقت ضحكة حادة، وراحت تقاوم بساقيها وكتفيها بحركات سكر ومشينة بشكل ما، وصاحت تقول بين ضحكتها المتقطعة: «ليو... ليو، لا تنظر إلى هكذا... لا... دعنى».

وكتم قبو الأغصان المنخفض صوتها الحاد، وكانت ترى على فترات، بين التواءاتها، وجه الرجل المحتقن يتجه نحو وجهها وعليه خبث

وشهوة هرمة، ولم تدر هى نفسها لماذا تقاومه. واخيراً تغلب عليها عشيقها وضمها بين ذراعيه، ونظر لحظة إلى عينيها اللتين تجلى فيهما الخوف، وإلى وجهها الابيض وفمها المفتوح بالكاد، ثم انحنى وقبلها. وافترقا وتقدما متأرجحين بين الظلال، تحت اغصان النباتات والاشجار المتشابكة الميتة، ولكن ها هى كارلا قد توقفت فجأة مرتابة وضغطت فى عصبية على ذراع رفيقها، وتمتمت تقول وهى ترفع أصبعاً محذراً ساذجا: «ليو... ليو لا يجب... لا يجب...».

ولكنها امسكت فجأة، وبقيت ثابتة شاردة بسبب البكاء والحوار، تنظر إلى شىء ما فى ظلال الطريق بعينيها اللتين بدّلتا تعبيراتهما بشكل غريب تحت ستار الدموع.

وسألها الرجل: «حسنا... ما هذا الذى لا يجب؟...»

ولكن كارلا لم تتمكن من الرد وبدت مفتونة بحصوة نصفها مدفون بين أوراق النباتات السوداء، مستديرة بيضاء مثل البيضة، فإن عبارة " لا يجب " قد انسابت من بين شفتيها دون وعى منها، كما أن الشعور الذى ألهمها هذه العبارة قد تلاشى، وعاد الظلام.

وقال ليو مشجعاً: «هيا... هيا... ما هذا الذى لا يجب؟ لا يجب أن نشرب؟... اعرف هذا جيداً... ولكن الآن...» وأضاف وهو يدفعها إلى الأمام: «سيري، سيري بضع خطوات أخرى» وبلغا آخر الحديقة حيث يأخذ الطريق شكل خور حول البناء المستند على الحائط المحيط بالحديقة وجدرانه تخفيه النباتات المتسلقة، ولم يظهر منه غير باب مفكك مفصلاته مصدأة.

وقال ليو كما لو كان ما رآه أدهشه: «ما هـــذا؟...»

ــ «إنه بيت البستانى».

ــ بيت البستانى؟... وهل يقيم فيه؟

ــ كلا.

ثم عاد ليو يقول كما لو كانت هذه الكلمات تطيب له بشكل غريب ولشىء خفى فى معناها: «بيت البستانى؟ هلمى هلمى بنا لزيارته».

ضحكت كارلا. وكان كل ذلك يبدو لها سخيفاً، ولكنها اطاعته.

كان الباب مفتوحاً، دفعه ليو فإذا به غرفة وحيدة منخفضة السقف... أرضيتها من الخشب يعلوها الغبار وجدرانها عارية، بها فراش من الحديد يشغل ركناً من الغرفة فوقه مرتبة ممزقة رمادية اللون، وأمامه فى الركن المقابل حامل ثلاثى القوائم مهجور فوقه طست يعلوه الصدأ، هذا كل ما فى الغرفة. وراحت كارلا تتأمل كل هذه الأشياء الحقيرة وهى حالمة وبلغ غثيانها حداً لا يطاق. ودت لو أن تعود إلى الفيلا وأن تستلقى فوق الأريكة فى غرفتها ولكن غلبها سكرها، وثنت ركبتيها وجلست فوق الفراش، وقالت متحسرة: «لماذا حملتنى على الشراب؟».

ونظرت إلى ألواح الأرضية الخشبية وقد تهدلت خصلات شعرها أمام عينيها وملأ اضطراب غامض فمها باللعاب. جلس ليو بجوارها وقال لنفسه المثارة: «هذه هى اللحظة المناسبة» وطوق الفتاة بذراعه وهو يقول فى صوت كعزف الناى: «كونى عاقلة... أنت التى شربت بإرادتك التلقائية.» وهزت كارلا رأسها ولم ترد.

واضاف ليو قائلاً: «ومع ذلك... فهذا أمر لا أهمية له... كل شىء سوف ينتهى.»

وسحب الثوب على ذراعه وقبل باحترام كتفها العارى.

ولم يحول عينيه عن صدرها العارى الذى يسمح رداؤها الواسع برؤيته. وأمسك بها فجأة والقاها فوق الفراش ووضع يديه على جسدها، وبدأ الصراع وارتفع صرير الفراش الحديدى وفشلت المقاومات. وقالت كارلا فى النهاية: «دعنى» وكفت عن المقاومة فقد انهكها الجهد الذى بذلته والإعياء الذى لم تعرفه. ومن سقف الغرفة الذى راحت تحدق فيه بعينيها المحملقتين المتألمتين رأت وجه ليو المحتقن يهبط نحوها كالنيزك وحطت القبلة على عنقها، وانزلقت على وجنتيها ثم استقرت على شفتيها.

اغمضت كارلا عينيها واخفضت رأسها على كتفيها، وانتابها شعور بلامبالاة لملامسة فم الرجل الرخوة الرطبة، كانت تود لو راحت فى سبات.

ولكن صوتِ تفرق الأزرار الذى راح يتدحرج فوق أرضية الغرفة جعلها تقفز خوفاً وفتحت عينيها ورأت وجها متقدا تعلوه علامات الإثارة ينحنى فوقها، وادركت أن كتفيها عاريتان فانزعجت وتشبثت دون جدوى بطرف ثوبها مثل تشبثها بحافة هوة، وانتزعته انتزاعتين عنيفتين كادتا تكسران أظافرها.

وقام ليو برفع الفتاة من فوق الفراش بعناية دقيقة تتناقض بشكل غريب مع القلق الذى يعلو وجهه وبصعوبة انزل ثوبها حتى خصرها، ثم عاد وارتمى فوق صدرها وراح ينزل بأصابعه الدؤوبة حمالة ملابسها الداخلية من فوق ذراعيها العاريتين. ونظرت إليه كارلا فى فزع، وفى كل مرة كانت تحاول أن تتخلص منه، تراه يأتي بحركات كتلك التى يقوم بها الجراح اثناء إجراء عملية جراحية، يحدب حواجبه ويهز رأسه ويلوى فمه كمن يريد أن يقول: «لا يا عزيزتى... لا تخافي... الأمر بسيط للغاية... دعيني أقوم به أنا...» هذه الإيماءة الملحة والاعياء الذى صار الآن غثيانا وتقززا كان لهما فاعليةً وسلطانا عليها اكثر من محاولات ليو، واستسلمت كارلا، وكانت ترفع ذراعيها كلما تطلب منها ذلك وتنحنى كلما كان من الضرورى الانحناء، ولم تردع لِيو وهو ينزل القميص بعناية فوق بطنها، وتركت نفسها وهى عارية تماماً تستسلم فوق المرتبة وعيناها مغلقتان، وشعرت بأن الغثيان يزداد أكثر وأكثر، ولم تعد تفكر فى شيء وظنت أنها تموت.

وفى تلك الأثناء فكر ليو وقال: «آه... يا لها من طفلة جميلة...» فقد أثاره ذلك العُرى ولا يعرف من أين يبدأ... هل بكتفيها الرقيقتين النحيفتين البيضاوين أم بصدرها الشاب الملىء بالحنان الأبيض كاللبن الحليب الذى لم تقدر عيناه النهمتان المندهشتان من أن تشبعا منه.

وفكر ليو: «آه... يا لها من صغيرة جميلة!» وانحنى لكى يقبلهاَ عندما رآها ترفع رأسها مذعورة، وقد شحب لونها وهي تصدر أصواتاً من حلقها وتقوم بحركات بذقنها وتتحدث بفم مغلق، وتخلصت منه وابتعدت عنه. وجلست كارلا التى استحوذ عليها الرجل فوق الفراش تركز عينيها على الركيزة الموجودة فى ركن الغرفة. فهم ليو وأمسك بالطست وجاءها به فى الوقت المناسب فقد اندفع من فمها المفتوح فى

الوعاء الذى علاه الصدأ سائل كثيف متعدد الألوان يتصاعد منه الدخان. وتوقفت لحظة ثم عاد السائل يتدفق من جديد وارتجفت احشاؤها المضطربة. وراح الرجل يتأملها فى غضب وهو ممسك بجبينها ويحدث نفسه قائلاً: «الخطأ خطئى... ما كان يجب أن أدفعها إلى الشراب بهذا الشكل». لا يجدى نفعاً الآن إخفاء ذلك، فقد انتهى كل شىء ولم يعد هناك ما يمكن عمله الآن. ونظر إليها وبدا له أنه يكاد ينفجر من الغضب: ها هى، فتاة احلامه عارية أمامه على استعداد أن تستسلم له ولكنها تضع الطست فوق ركبتيها بدلاً من رأس حبيبها وتصوب إليه عينيها المفتونتين. وعاد يفكر ويقول: «لو أننى لم أحملها على الشراب لكانت ملكى الآن».

وبعد أن انتهت كارلا من القىء ابعدت الطست الممتلئ عنها فأخذه الرجل فى اشمئزاز ووضعه فوق الركيزة ونظر إلى الفتاة وهو يستدير، كانت جالسة على حافة الفراش، لاتزال عارية، مطرقة الرأس وذراعاها متدليان، وصفعه هذا التباين بين هزال جسدها الذى يُظهر ضلوعها وكتفيها الضئيلتين المرهفتين وضخامة ثدييها ورأسها غير الطبيعى، وفكر ليعزى نفسه: «لا تناسق...» ثم سألها:«بماذا تشعرين الآن؟»

أجابته: «لست على ما يرام». ونظرت إلى الأرض وهى تحرك فمها باللعاب الحامض ومن حين لآخر كانت عيناها تقعان على ملابسها المرفوعة فوق بطنها شبه العارية. وبدأت تشعر بالبرد وعصف بها تقزز يائسٍ وراحت تقول لنفسها: «انتهى كل شىء» وفى الحقيقة، أدركت أن شيئاً ما قد انتهى دون متعة أو كرامة فى ذلك الطست، ولكن ما هو بالضبط ما استطاعت أن تقول. ورفعت رأسها رويداً رويداً ونظرت إلى عشيقها بعينين مغرورقتين وخرج من بين شفتيها دون أن تدرى سؤال: «والآن؟...».

أجابها الرجل فى غضبٍ موزون: «البسي ثيابك ولننصرف». ونهض وراح يمشى جيئة وذهاباً على تلك الألواح التى تصدر صريراً، وهو ينظر من وقت لآخر إلى كارلا وهى ترتدى ثيابها، وعادت الرغبة تتولد فيه من جديد وساءل نفسه مرات ومرات إذا لم يكن من الأوفق أن ينتظر قليلاً حتى تنتهى الوعكة ثم يعاود الهجوم على ذلك الجسم الجميل

ولكن فات الميعاد، فقد ارتدت كارلا ثيابها، وفكر وقال فى نفسه منزعجاً «لا جدوى... لقد زال السحر ولم يعد هناك ما يمكن عمله اليوم».

واقترب من الفراش، وقال: «كيف حالك الآن؟»

أجابت الفتاة: «أحسن... أحسن». انتهت من ارتداء ملابسها ثم نهضت، ثم خرجا الواحد تلو الآخرى من البيت دون أن يتلامسا.

فى الخارج كان يسمع حفيف أوراق الشجر. فقال ليو فى دهشة محاولا التظاهر بالطلاقة وقد ازعجه صمتِ كارلا: «آه... إنها تمطر»، وسار بعض الخطوات وكان الهواء هادئاً وخانقاً تحت أغصان الشجر وظل أسود يلتف حول الأغصان المتعقدة وراح الماء يتساقط كالعصارة من فوق أوراق الشجر حول قدميهما مع كل خطوة فوق الأرض الزلقة. واضاف الرجل: «هذا شيء غريب... كل يوم نفس الطقس: صاف فى الفجر ويبدأ يسوء فى النهار ثم يمطر مع أول الساعات من بعد الظهر حتى الليل» لم ترد كارلا بكلمة، وقال فى إصرار: «إذن سنلتقى هذا المساء» ؛ توقفت كارلا ونظرت إليه وكانت تريد أن تجيبه قائلة: «لن نلتقى ابداً» ولكن خاطرا منعها وقالت لنفسها: «يجب أن أمضى حتى النهاية... حتى النهاية» واستأنفت سيرها وقالت وهى تطرق برأسها إلى الأرض دون أن تنظر إليه: «ربما... لا أدرى» وكان قد بلغا آخر الممر فتوقفا من جديد، وقال ليو وهو يبتسم ابتسامة بلهاء ويضغط على ذراعها: «إنك طفلة جميلة حتى وأنت مريضة». تبادلا النظر. فكرت كارلا وقالت لنفسها وهى تراقب وجه الرجل المتوهج غير المعبر «استطيع أن أحبه» كانت لا تزال تحت تأثير الشرابْ وكانت تشعر بصداع وأحست برغبة كبيرة فى الاستسلام والحب ولكن ليو ربت الآن بيده على صدغها وقال: «يا لك من حمقاء صغيرة... حمقاء تريدين أن تشربين ثم تشعرين بالتعب... صغيرة حمقاء... حمقاء جداً». ثم جذبها إليه واستطرد يقول: «قبلينى ولننسَ كل هذا».

تعانقا وتباعدا ثم خرجت كارلا من بين أشجار الطريق واسرعت راكضة تحت المطر واختفت خلف زاوية الفيلا.

ومشى ليو بدوره وهو يفكر ويقول: «يا له من يوم ردىء... يا له من يوم احمق». وكان المطر يتساقط فى هدوء من السماء العالية وابتلت الحديقة كلها وكان خرير الماء الرطب المستمر يقضى على أية ضوضاء أخرى وانصرف ليو وهو ناقم ليس فقط لأن حفلة كارلا كلفته ما بين الزهور والهدية خمسمائة ليرة ولكن ايضاً بسبب النبيذ الخادع الذى انهى المغامرة بطريقة، لا يدري إن كانت أكثر سخافة أو أكثر تقززا.

وفكر غاضباً: «لم تكن كارلا ترغب فى شىء آخر، ولم تكن هناك أية حاجة لكى اسكرها، والآن عليّ أن ابدأ من جديد».

وعندما خرج إلى الشارع وفكر إلى أين يتجه، تذكر أن ليزا طلبت منه مساء أمس أن يذهب إليها فى الصباح.

وبدت له فكرة عودته إلى عشيقته القديمة سخيفة فى بادىء الأمر، فلم يكن يطيب له ابدا أن يرجع إلى الطرق التى سبق أن سلكها، وبدا له أن هذه الزيارة " طعام بائت " لا قيمة لها. ولكن من جهة أخرى كان لا بد له من إرضاء شهوة الجنس التى ايقظتها فيه كارلا.

وراح يقول لنفسه وهو يسير تحت المطر فى الشوارع الواسعة والخالية فى ضاحية المدينة الثرية: «إذا لم أرض حاجتى اليوم فأننى سأنفجر».

كانت صورة كارلا وهى تبكى عارية تقف أمام عينيه فى إصرار حتى أنه لوح بيده كما لو كان يريد إبعادها. وفى النهاية قال لنفسه: «نعم، سأذهب إلى ليزا... على كل حال هى أيضاً امرأة».

ووضع هذا القرار أجنحة فى قدميه ؛ واستوقف سيارة اجرة واستقلها وطلب من سائقها وهو يرتمى فوق المقعد أن يوصله "شارع بواتزيو" وانتلقت السيارة إلى منزل ليزا.

أشعل ليو سيجارة وفكر قائلاً: «سيكون أجمل أيام حياتها»، وأخذ يتخيل أنه بمجرد أن تراه ليزا سوف تعانقه وقال لنفسه: «بالأمس قامت ليزا ببعض الحركات المسرحية، أرادت ان تثير ظنونى، أفهم ذلك، إنها ايضاً تشعر بكبريائها كامرأة... ولكن اليوم... اليوم لن تتوسل كثيراً».

كانت السيارة ترجه يميناً ويساراً أثناء سيرها، وبدا له أنه كريم فى زيارته لليزا وأنه سيجد فيها منفعته وهي فى الوقت نفسه عمل طيب.

وقال فى نفسه: «سيكون أجمل أيام حياتها وسأمنحها ما لم تجرء على أن تأمله وفى ذات الوقت سأقضى هذا اليوم الأحمق فى حال أقل سوء».

القى السيجارة من النافذة، ودخلت السيارة وعجلاتها تنزلق فى ليونة فوق الأسفلت المبلل شارعاً خاوياً اصطفت على جانبيه الأشجار، كانت النقود فى يد ليو، توقفت السيارة فنزل ودفع الأجرة وهو منحن تحت المطر ثم اختفى بسرعة فى مدخل المنزل.

صعد السلم فى بطء وهو يتذكر فى شىء من الرضا وعدم الانزعاج عدد المرات الذى ارتقاه منذ عشر سنوات.

وأخذ يفكر دون أن يحاول أن يشرح لنفسه معنى هذا التفكير: «لا أجد ما اقول... عشر سنوات مضت... عشر سنوات». ودق الجرس وفتح الباب، ووجد كل شىء كما كان فى الماضى، حتى أنه شعر للحظة بأنه لم يعد ابن اللحظة ولكن رجل الماضى، كل شىء فى مكانه، الخزانات فى الممر المظلم وفى آخره باب حجرة الملابس الزجاجى بصريره، وها هى نفس الستارة المسدلة ونفس السجاد... ثم جلس فوق مقعد من المقاعد الذى يصدر عنها صرير وأشعل سيجارته.

ودخلت ليزا بعد لحظة وقالت دون تفكير: «اوه... اهو أنت؟» وجلست، ونظرت إليه كما لو كانت تريد أن تسأله عن سبب زيارته. وقال ليو فى دهشة: «أما كنت تتوقعين حضورى؟... مع أنك جعلتينى أعتقد العكس بالأمس» فقد كان يعتقد تماماً أنها تنتظره فى اشتياق.

قالت وهى تشد جونلتها فوق ركبتيها: «أشياء كثيرة تقال... خاصة فى الليل عندما لا نبصر شيئاً».

قال ليو يحدث نفسه: «إنها ماكرة... تريد أن اتوسل إليها».

واقترب منها بمقعده وقال وهو ينحنى: «ولكننى مقتنع أنك كنت تتحدثين بجدية».

وسألته فى حدة: «وإذا كنت قد غيرت رأيى؟» وحينئذ شعرت بأن ضعفها فى الليلة السابقة يبدو الآن على حقيقته: ليس عودة إحساسها بالحب تجاه ليو ولكن ضياع مؤقت وعدم ادراك لحقيقة شعورها نحو ميكيلى.

ثم أضافت فى جدية: «هناك أمور كثيرة تقع ما بين الأمس واليوم».

أخذ ليو يحدق فى المرأة وعيناه تتجهان إلى وجهها تارة وإلى جسدها تارة أخرى وإلى أعلى صدرها الابيض الممتلىء ثم إلى كتفها العارى الذى كان يبدو فى ظلال الحجرة الكريهة أكثر نضارة وأكثر نظافة ونقاء من الحقيقة. وفكر وقال: «إنها تريد إغرائى... ها!... ها!... إنها ماكرة كالثعلب» ثم تقدم وقال: «أتدرين أنك تزدادين جمالاً خارقاً؟»

صاحت ليزا فى ابتذال غريزى: «آه... وهل كنت قبيحة من قبل»، ولكن سرعان ما ندمت على هذا الوهن وفكرت: «لا بد من طرده... لا بد أن يفهم أنه اخطأ» ثم نظرت إليه ورأت وجهه محتقناً تملأه الإثارة واثقاً من انتصاره، كان يكفى أن تراه هكذا منحنياً من فوق مقعده المنخفض، وصدره يكاد ينفجر من الرغبة وعيناه اللامعتان من الشهوة تبغيان أن تكونا معبرتين وشغوفتين فى آن واحد. وشعرت باستياء ممزوج بكبرياء منتصر، وودت لو صرخت تقول له: «الأن أنا أحب رجلا آخر يبادلنى حبا بحب»، وفجأة بدا لها أن الأمر سيكون مسلياً وأكثر توهجاً إذا ما جعلته يعتقد أنها ترغب فيه وتحبه ثم تخدعه فجأة: خلاصة الحديث تستهزئ به.

قال الرجل حينئذ: «كنت دائماً جميلة... ولكنك الأن أكثر جمالاً من العادة».

واحتجت ليزا وقالت منفذة خطتها: «ولكنك لديك مارياجراتسيا... فكيف تحفل بى؟»

ــ «إن كل شىء قد انتهى بينى وبين هذه المرأة... كل شىء بينما أصبحت أحفل بك كما كان فى الماضى».

ـ «اشكرك جداً».

ـ «إنه سوء التفاهم الذى فرق بيننا حتى اليوم... فقط سوء تفاهم، ماذا تريدين؟ كثيراً ما يخطىء المرء... وأنا اخطأت معك، اعترف بذلك... ولكننى جئت أقول لك فلننس الماضى ولنتصالح».

وصمت وبسط يده إلى ليزا.

فنظرت إليه ثم إلى يده وقالت: «لماذا نتصالح؟... نحن لم نكن ابداً على خصام».

وقال ليو محتجاً: «لا... الأمر لن يسير هكذا... أقولها لك فوراً... لن يسير هكذا الأمر... أرجوكى لا تتظاهرى بعدم الفهم... ولا تكونى... عفوا... بلهاء... أنك تفهمين جيداً... لقد تكلمت فى وضوح... قلت فلننس كل شىء... ونتصالح... ولم لا؟ بالنسبة لى إننى لا أفعل طواعية... أن نبدأ من جديد... كما ترين أننى لا أخلط الأمور... أقول ما أعنيه ولا استخدم أنصاف الكلمات... والأن الكلمة لك...».

وبدأت تقول وهى تتظاهر بأنها مرتابة جداً: «ولكننى... لا أعلم».

ـ «كيف لا تعلمين؟... هيا... تشجعى...».

قالت ليزا: «حسناً فلنتصالح إذا أردت... أما أن نبدأ من جديد... سوف نرى...».

وقال ليو لنفسه وهو فى غاية السعادة: «فات الكثير... إنها ليست بلهاء... فقد فهمت كل شىء...» وانحنى وقبل بحرارة يد المرأة ثم رفع رأسه وقال: «إن أكثر ما يثير إعجابى بك هى البساطة.. فمعك الأمور لا تأخذ وقتاً طويلاً... ولا يحدث سوء فهم...»

قالت موضحة كلماتها فى نبرة تملأها معان خفية: «هذا يحدث... لأننى أستطيع أن أخمن دائماً وفى الوقت المناسب نوايا الآخرين». قال ليو وهو يقترب مرة أخرى بمقعده من مقعد ليزا: «آه! حسناً جداً... وعلى سبيل المثال هل تعرفين ما هى نواياى الأن؟»

نظرت إليه ملياً، فتلك الحيل وتلك الإجراءات التى تقوم على الاسئلة والأجوبة وتصوب إلى نفس الهدف، الآن، وبعد أن أساء استخدامها...

جعلها تشعر باشمئزاز مترفع وقالت تحدث نفسها: «لقد انتهى كل شيء بيني وبينك... كل شيء انتهى إلى غير رجعة... الآن أحب رجلاً آخر ويبادلني الحب...»؟ ولكنها كانت تريد أن تصل بخيالها إلى النهاية فقالت له: «هل تريد أن تعرف ما هي نواياك أنت الآن؟... بالتأكيد ليس من الصعب أن أخبرك...».

ــ قال الرجل في إصرار وضيق: «إذن لو كنت تعرفين فلتصرحي»

بدأت تقول في حياء وتردد ما بين خبث وتحفظ فعّال للغاية:

«حسناً... إذا كنت بالفعل تريد أن تعرف... يبدو لي أن لديك نوايا... لا أعرف ماذا أقول... نوايا عدوانية...».

سألها ليو وهو ينحني بشدة إلى الأمام وكاد يلمس بذقنه كتف ليزا العاري «أي...».

نظرت إليه. أرادت أن تقول له وهي غاضبة من ذلك الوجه المحتقن المتجه نحو وجهها: «أي... لا جدوى من الغضب... إنني أحب ميكيلي... ميكيلي هو عشيقي...» إلا أنها تمالكت وقالت محذرة في نبرة ساخرة «انتبه... الانحناء هكذا... يؤدي إلى السقوط».

كان ليو متحمساً جداً لسماعها وسألها في بلاهة: «كيف؟».

عادت ليزا تقول: «يسقط... أو يصاب بخبطة... ».

قال الرجل في بطءٍ وأصرار دون أن يرفع رأسه: «علي كلٍ حال فإن نواياي بسيطة جداً... الآن ارتدي ملابسك ونتناول معاً كوباً من الشاي... وليكن في منزلي... ثم نتناول طعام العشاء ونذهب لنشاهد عرضاً مسرحياً... وفي النهاية أعيدك إلى المنزل».

ومرت لحظة صمت، ثم قالت ليزا في النهاية وهي تبدو مترددة للغاية: «سوف أذهب معك ولكن من الذي يضمن لي أنك تحبني حقاً، وأن ما تقوله ما هوإلا نزوة عابرة تعود بعدها إلى مارياجراتسيا؟»

قال الرجل مصححاً دون أن يحرك رأسه وفي عناد ملأته رغبة مكبوحة ونفاد صبر: «كلا... أنك مخطئة... لقد قلت لك من قبل، وأعود وأقوله لك... إنني لن أعود إلى مارياجراتسيا لأن كل شيء بيننا قد انتهى

منذ زمناً بعيداً... لقد استمرينا معاً حتى لم أعد اتحمل بعد... كانت علاقتنا معاً كتلك التى تستمر ولا تنتهى ابداً، احياناً بحكم العادة واحياناً لأسباب أخرى...».

قالت ليزا ملمحة: «أسباب عملية؟».

فى النهاية رفع ليو عينيه ونظر إليها قائلاً: «لا... لا تلقي بماريا جراتسيا فى ورطة لا دخل لها فيها... ولكن اجيبينى... .»

ــ «مـــاذا؟»

قال ليو فى بطء وهو يضع يده على كتفها كما لو كان يريد أن يسوى طرف الثوب: «ايتها الجميلة... قلت لك... هل تقبلين أن تأتى معى اليوم أم لا؟»

ترددت قليلاً وتساءلت هل يجب عليها أن تخبره بالحقيقة؟

ولكن انقذتها تلك اليد التى راحت الآن وكأنها صدفة، تلمس قفاها وقالت محتجة: «كلا... دعنى... إن أكثر ما يزعجنى أن يلمس أحد عنقى...» قال ليو فى بطء وهو يحدق فيها بعينيه واقترب وجهه من وجهها: «ولكن ذلك كان يطيب لك فيما سبق...».

قالت فى الحال وهى تحاول أن تقاوم جاذبية يده: «ربما... ولكننى لم أعد كما كنت فى الماضى... دعنى».

فصاح: «إذن هكذا هو الأمر».

ونهض فجأة، وانحنى فوقها وأمسكها من شعرها وطوح رأسها إلى الخلف وحاول أن يقبلها، ولكن ليزا اسرعت فى الوقت المناسب فوضعت يدها فوق فمها. وقال ليو: «هيا... لا تتمنعى»، وبدا فى عينيه وهو يحاول أن يزيل حاجز يدها أنه واثق من أنه سيتغلب عليها فى النهاية وأنه متشكك فى جدية تمنعها، وشعرت ليزا فجأة أن غضباً أعمى يعصف بها فرفعت يدها من أمام فمها وصاحت بصوت عنيد وعيناها حنقتان: «دعنى، قلت لك» غير أن الرجل اغتنم هذه الفرصة ليستحوذ على شفتيها المتمنعتين، وتحملت قبلته للحظة وهى تحاول دون جدوى أن

تتحرر منه. واخيرا دفعته عنها فى غلظة ونهضت وكانت دفعه شديدة بحيث فقد ليو توازنه وانقلب ووقع فوق المقعد.

ونهض ورتب فى عصبية سترته وقال: «ليزا... نحن لا نمزح... ألم نتفق على أن نعود أصدقاء؟... ما هذا التصرف؟».

أشارت إلى الباب بيدها فى حركة متصنعة وقالت: «أخرج من هنا». وراح ليو يقول فى غضب: «كيف ذلك؟».

وراحت ليزا وهى منحنية تصرخ بالكلمات فى وجهه: «إننى لا أحبك، ولم أحبك أبداً... لقد جعلتك اليوم تعتقد ذلك للحظة، حتى أتذوق أحساسك بكل الأكاذيب التى قلتها لى... والآن أخرج من هنا».

ومكث الرجل للحظة ثابتاً لا يتحرك مندهشاً، ثم تحول فجأة من تلك الدهشة المتحجرة إلى غضب ثائر وعنيد وصاح يقول: «آه... نعم إن الأمر هكذا... ينبغى أن أرحل من هنا!... بعد ما لعبت دور المهرج من أجلك... حسناً لن أخرج من هنا...» وتردد وهو يبحث دون جدوى فى ثورة غضبه عن جزاء بقدر اللطمة التى وجهتها إليه ليزا: هل ينهال عليها ببعض الأثاث أو بعض الأواني الخزفية؟ هل يصفعها؟

قال ليو: «لا، لن أخرج من هنا قبل أن أقبلك» ودفع الكرسى ونحاه جانباً وأخذ ليزا بين ذراعيه وأصبحت القبلة فى غضبه استحوازاً تاماً، وفكر فى ارتباك أن يطرح المرأة أرضاً ويهجم عليها هناك على البساط ولكن فرت منه ليزا واختبأت خلف المقعد، وبقيا للحظة الواحد أمام الأخرى، منحنيين وممسكين بالمقعد، يترقب كل منهما ويجاهد ليخمن تحركات الآخر. وأخيراً قالت ليزا وهى تلهث شعثاء تفزعها الوحشية التى تضخم وجه الرجل هناك أمامها: «أخرج من هنا» وحينئذ مسكها ليو من شعرها فجأة فى غلظة وحدّة ودفع المقعد وأخذها بين ذراعيه... أخذا يتصارعان لبضع ثوان: يحاول ليو إعاقة حركات ليزا وهى تحاول التخلص من بين ذراعيه. وأفلحت فى التخلص منه أخيرا، وأسرعت نحو الباب، وصاحت تقول فى صوت متقطع: «أخرج من هنا... أخرج والا صرخت...» واصطبغ وجهها وتبعثرشعرها وأخذت تلهث وتهدل ثوبها عند كتفيها وأمسكت بيديها الباب وراح صدرها يرتجف وعادت تقول:

«أخرج من هنا» ولكنها أحست بأن شخصاً فى الممر يدفع الباب ويحاول الدخول فقالت دون أن تلتفت: «لا داعى يا ماريا... إننى لست بحاجة إليك...» وقال من كان يدفع الباب فى صوت رجل: «افتحى أنا لست ماريا... افتحى...». وانسحبت ليزا بحركة آلية فانفتح الباب ودخل ميكيلى.

كان ممسكا بقبعته فى يده ويرتدى معطفا أخضر بلله المطر، ونظر إلى ليزا اللاهثة شبه العارية وإلى ليو الذى أحمر وجهه وسرعان ما ارتسمت فى ذهنه الصورة التى يراها أمام عينيه وأخذ يفكر: «جاء ليو ليجدد علاقته بها ولكن ليزا صدته...» ولكنه لم يتصرف حسب أفكاره، وبدا له بشكل مربك أنه يجب أن يغتنم هذه الفرصة لكى يقطع علاقته بليزا نهائياً، ألم يكن هذا هو التصرف الملزم الذى تمليه مثل تلك الظروف؟

وقال فى صوت رتيب حاول أن يجعله ساخراً: «معذرة... إنه خطئى..كنت قد قررت ألا أعود ولكننى عدت.

أننى أزعجتكما... معذرة».

ثم انحنى انحناءة مضحكة صارمة، واستدار على عقبيه وخرج، وانغلق الباب.

وهدأ من انفعال ليو ظهور ذلك الشيطان دون سبب من ظل الممر والعودة إليه فابتسم وقال: «أهذا هو حبك يا ليزا؟»

أومأت برأسها أن نعم وهى شديدة الاستغراق فى ذهولها، وفجأة كما لولم تحتمل فكرة رحيل ميكيلى دون أن يودعها، ربما إلى الأبد، أسرعت إلى النافذة وفتحتها على مصراعيها.

كان منزلها بالطابق الأول حيث يقطن ملاك العقار، وكانت النافذة منخفضة جداً، وأطلت منها لتشاهده: كان الهواء بارداً والشارع خالياً مبللاً وكانت السماء تمطر وحجبت رؤية السماء شجرة كبيرة مغروسة هناك وقد تساقطت أوراقها، ولكن وعلى مسافة عدة أمتار ناحية اليسار رأت شخصاً يرتدى معطفاً أخضر ضيقاً عند خصره يمشى فى هدوء

بمحاذة الحائط فنادته وهى متدلية: «ميكيلى!... ميكيلى!...» ورأته يستدير قليلاً وينظر إليها فى استغراب ثم يعاود سيره فصاحت فى صوت أقوى: «ميكيلى!»، وفى هذه المرة أشار الفتى بيده مودعاً دون أن يستدير أو يتوقف، ورأته يسير على بعد مسافة قليلة، هناك على الرصيف اللامع فى خطوات ملائمة وفكرت أنه سوف يلتفت إليها فى الحال ولكن ادركت ليزا أن أصرارها لن يجدى نفعاً فاستدارت نحو الغرفة.

قال ليو فى رفق كاذب وكان واقفاً فى منتصف الغرفة: «إنه سيعود... إننى أعرفه... فهو ليس من النوع الذى يأخذ الأمور بجدية... سيعود... ولك أن تطمئنى».

استفز صوته ليزا وأغضبها وأهانها وأدماها وراحت فى وقار كبير تضغط على زر مثبت فى الحائط المقابل، ومرت لحظة ثم ظهرت الخادمة فقالت لها: «ماريا... رافقى السيد إلى الخارج». كانت هذه هى النهاية، نهاية مبتذلة للغاية مثيرة للسخرية، كان الباب على بعد خطوتين من الغرفة. خرج ليو وهو يتمتم فى حقارة: «إننى خارج يا ليزا... إننى خارج، وتحياتى إلى ميكيلى».

وقفت الخادمة حائرة لا تفهم شيئاً تنظر إلى الرجل فى دهشة تارة وإلى ليزا تارة أخرى، ولم يتنظر ليو أن تدله على الطريق ولكنه أخذ قبعته ومعطفه وخرج بمفرده.

وأنعش المطر نفسه ففتح مظلته وسار دون أن يفكر فى شيء، وفى لحظة راح يعزى نفسه قائلا: «كان يمكن أولاً أن تسير الأمور علي ما يرام... ولكنه لم يحدث...» وأضاف فى هدوء «اليوم أدركت جيداً أنه من الأفضل عدم مواجهة هذا الأمر» ثم لم يعد يفكر فى شيء وأشعل سيجارته وسار بخطوته المعتاده، لم يبطئ ولم يسرع حرصاً على ألا تبتل قدميه فى برك المياه.

وعندما بلغ آخر الشارع انعطف إلى ميدان كبير ممطر لا توجد به تماثيل أو حدائق، وقفت فى ركن منه جماعة من الناس أسفل عمود علامة المحطة تنتظر الترام، فاقترب منهم ورأى ميكيلى مستنداً على العمود، فقال له دون امتعاض: «أف!... مازلت هنا؟».

أجابه الفتى وهو ينظر إليه فى ضجر: «نعم... إننى أنتظر». وسادت لحظة صمت ثم قال ليو: «بما أننى عائد إلى منزلى، سأوصلك معى فى التاكسى... تاكسى!»

وقبل ميكيلى الدعوة وقال لنفسه وهو يرتمى ليجلس فى السيارة بجوار الرجل: «ولكن لم كل هذا؟»

ومضت دقيقة دون أن يتحدثا، ثم تكلمٍ ليو فى النهاية وسأله: «لماذا انصرفت... ألم تفهم أنها لم تكن تريد شيئاً أكثر من بقائك معها».

لم يجبه ميكيلى على الفورو راحٍ ينظر من خلال نافذة السيارة إلى واجهات المنازل المبتلة. ثم قال أخيرا: «إننى أعرف ذلك».

ـ «إذن... لماذا لم تبق؟»

ـ «لأننى لا أحبها».

وابتسم ليو من هذه الإجابة وقال: «ولكن... هل تعتقد أنه لا بد للمرء أن يقيم علاقة فقط مع امرأة يحبها؟»

أجاب ميكيلى فى لهجة جادة دون أن يلتفت إليه: «إننى أعتقد ذلك».

تمتم ليو مرتبكاً يقول: «أوه» فى هذه الحالة... أنا مثلا...» ثم أضاف فى هدوء: «كان لى علاقة بعدد من النساء لم أحبهنٍ... وليزا نفسها عاشرتهٍا دون أن أحبها... ولم أندم على ذلك أبداً... وإنما استمتعت كثيراً».

وقال ميكيلى متضرراً: «لا شك فى ذلك» وأراد لو أجابه: «لعنة الله عليك» ولكنه قال: «هل تعتقد أن كل العالم مثلك؟»

واستأنف ليو يقول: «ثم دعنا من هذا... عندما أرى فتى مثلك، لم تصقله تجارب كثيرة وبدون إمكانيات كبيرة، يبدو مستخفاً بامرأة مثل ليزا، فلتكن ما تكون، ولكنها بالتأكيد لا يزدريها المرء... فيبدو لى أن العالم قد انقلب على عقبيه».

وتمتم ميكيلى قائلاً: «ربما!... بالنسبة لى أفعل ما شئت»، وأشعل سيجارته والتف فى معطفه.

نظر إليه ميكيلى وسأله: «إذن فى رأيك لا بد ألا أتخلى عن ليزا».

قال ليو مصدقاً وهو ينزع السيجارة من فمه: «نعم... بالتأكيد... قبل كل شيء لأن ليزا ليست امرأة للرمى بالطبع... فاليوم شاهدتها... إنها بدينة ولكنها صلبة العود... تمتلك صدراً... .» ثم أضاف بغمزة عين يخاطب بها ميكيلى الذى بدا مشمئزاً: «وخصراً... ثم إنها يا عزيزى تستطيع أن تمنحك من المتعة ما لا تستطع أن تمنحها لك أية واحدة من هؤلاء الفتيات الصغيرات... إنها امرأة شديدة الشهوة... أنثى حقيقية... ومن ناحية أخرى أين تجد اليوم عشيقة مثلها تستقبلك فى بيتها؟ إن ذلك ملائم لك، فليس فى مقدرتك أن تدفع أجرة الحجرة أو الشقة، أنت تذهب وتعود إليها وتدخل وتنصرف منها دون أن يقول لك أحد شيئاً وكأنك فى بيتك ولا تعير اهتماماً لأحد، خصوصاً أنه فى مثل عمرك هذا ينتهى الأمر باصطحاب العشيقة إلى أماكن سيئة، مطاعم، فنادق صغيرة تجعلك تفقد الرغبة بمجرد التفكير فيها... أضف إلى كل هذا أن ليزا لن تكلفك قرشاً واحداً... أقول لك قرشاً واحداً... أنا لا أعرف ماذا تريد أكثر من هذا... ؟»

كرر الفتى قائلا لنفسه بشيء من الحزن: "بالفعلماذا يمكن أن نريد أكثر من هذا؟". لم يتكلم، وكان منحنيا ينظر إلى الرجل تارة وإلى الشارع تارة أخرى، كانت ساعة الغسق، ولم تكن المصابيح قد أضيئت بعد... واجتاح ظل رطب الشارع المزدحم بقدر لا يسمح برؤية نهايته، وعلى بعد مسافة قليلة اختلط كل شيء: رجال ومظلات ومركبات كلها على مساحة واحدة ممطرة حيث كانت أنوار الترام والسيارات ذات اللون الأصفر تنزل وتصعد منفردة وسريعة. وأخذ الفتى يتساءل: «والآن ماذا أفعل؟» وكان خموله يثير فزعه فى كل مرة يرى فيها تقلب الحياة واضطرابها المستمر. واستطرد ليو يقول: «اذهب إليها يا عزيزى... ولا تفكر كثيراً... إن الأمر أسهل بكثير مما تظن... وليزا لا تنتظر غيرك... عد إليها الليلة وسوف تستقبلك بذراعين مفتوحين».

والتفت إليه وقال: «عليّ إذن أن أتظاهر بأننى أحبها».

قاطعه ليو قائلاً: «ولكن من الذى يجبرك على التظاهر؟... لا تعظم الأمور كثيراً... إنها على استعداد لأن تضاجعك وهذا هو المهم... اقبل وابتهج».

وعاد ميكيلى ينظر إلى الطريق وهو يفكر وقال: «قل له يقف فى الميدان... أريد أن أنزل هنا». ومرت لحظة صمت ثم أضاف بعدها ميكيلى: «وإذا أهانك شخص بطريقة ما... فى رأيك هذا النمط من الناس تراه بغيضاً، بل بالرغم من إهانته لك، لا تستطيع أن تكرهه... فتتظاهر حينئذ بالغضب، فهل تنهال عليه ضرباً أم لا؟»

أجابه ليو قائلاً: «هذا يتوقف على نوع الإهانة».

ـ «أعظم الإهانات».

فقال الرجل: «إذن فمن المستحيل أن يظل لطيفاً بالنسبة لى... ولا يعنينى فى شىء».

ـ «ولكن فى هذه الحالة...».

أجابه ليو دون تردد: «إذن سأنهال عليه ضربا».

وتوقفت السيارة فى الميدان، ولكن قبل أن ينزل ميكيلى شده ليو من كمه وقال له وهو يغمز له بعينيه ويشير بيده فى حركة معبرة: «اعمل بنصيحتى... وامض إلى ليزا» وبعد ذلك انقلب على المسند وذكر عنوانه للسائق وانطلقت السيارة.

وبلغ بيته بعد خمس دقائق ودخل مكتبه، وهى غرفة تكاد تكون عارية، الجزء السفلى للحائط من الخشب البنى وتوجد بها رفوف ومكتبة على الطراز الامريكى، جلس، وكان ظل الغسق الممطر يخيم على ذلك الأثاث الزهيد وتلك الأشياء النافعة ويكسبهم مظهراً لا يحتمل من السأم والقلق، كان الوقت اسوأه، لم يعد وقت الظهيرة بضوئه الأبيض ولا المساء بظلمتها السوداء فقد كان نور النهار ضعيفاً لا يسمح برؤية شىء وكان ضوء المصباح شديداً جداً لينير تلك الظلال الرمادية، ولكن تغلب ليو بيسر على تلك المضايقات وأضاء مصباحا وقرأ خطاب عمل وبدأ يكتب الرد عندما صلصل جرس التليفون.

وبدون أن يترك قلمه أمسك بالسماعة وأسندها إلى أذنه وسمع صوتاً نسائياً يقول: «مع من أتكلم؟» وقال لنفسه «إنه صوت ماريا جراتسيا»، وأجاب: «هنا رقم ٣١٤٩٦».

فعاد الصوت يقول: «هل أتكلم مع السيد ميروميتشى؟»

ــ «نعم».

ــ «انا ماريا جراتسيا... إن كارلا لا تريد أن تذهب معنا إلى فندق الريتز لترقص... فهل تأتى معنا؟»

فقال الرجل: «نعم... سأكون لديكم خلال نصف ساعة».

قالت الأم: «اصغ يا ليو... متى سنلتقى؟»

ولكن ليو أدرك أنها بداية لإحدى المناقشات المعتادة التى لا تنتهى فأجابها: «سنرى» وعاد ووضع السماعة فى عنف.

وفرغ من تحرير رسالته بعد هذه المكالمة وراح يكتب فى بطء رسالة أخرى: لم تكن لديه أعمال بحق، كان لا يعمل وكان كل نشاطه مقتصرا على إدارة أملاكه التى تتمثل فى بعض العقارات والمضاربات العاقلة فى البورصة، ومع ذلك فقد كانت أمواله تزداد بانتظام عاماً بعد عام، فقد كان ينفق ثلاثة أرباع دخله ويستخدم الباقى فى شراء شقق جديدة. وطوى الرسالة وأشعل سيجارة ومضى إلى مخدعه... عليه أن يحلق ذقنه ويستبدل ثيابه ويذهب إلى منزل آل اردنجو فى خلال ساعة واحدة. ودخل الحمام واغتسل وحلق ذقنه بعناية شديدة، ثم عاد إلى مخدعه وراح يرتدى ملابسه، وهو يروق له بشكل كبير الملابس والثياب الجميلة ويعد ارتداءها من أحب الأمور التى تشغله، ارتدى قميصاً من الحرير الأبيض وعقد عليه رابطة عنق تجمع بين اللونين الأسود والفضى، وجوربا من الصوف الرمادى والأحمر وأخيراً وبعد التواءات عديدة قام بها، لبس بدلة زرقاء رائعة التفصيل فى الحقيقة، ثم نظر بأعجاب إلى مرآة الدولاب فعسى ظلال الغرفة تكون قد بدلته وجعلته شاباً، أسكرته الثياب الجميلة تماماً، فقد كان يشعر فى داخله بأن له مظهراً جميلاً نبيلاً وأيضاً حزيناً بقدر متميز، ثم نظر إلى ساعته، فقد

مضت ثلاثة أرباع الساعة فخرج مسرعاً واندفع إلى الجراج وانطلق بسيارته: وبعد عشر دقائق كان يطرق باب آل اردنجو.

كان هناك مصباح واحد منير فى غرفة الاستقبال ورأى ليو كارلا جالسة بجواره ثابتة لا تتحرك مستعدة للخروج، وكانت ترتدى ثوبا خفيفاً وردِى اللون وقد تجملت وقصبت شعرها وتزينت، وقالت: «ستأتى أمى حالا».

وقال ليو وهو يجلس بدوره يفرك بقوة يديه: «حسناً... وأنت كيف حالك؟»

ــ «على ما يرام».

وساد صمت، وأخذ ليو يد الفتاة وقبلها قائلاً: «إذن ماذا نفعل؟» أجابته حالمة: «سنذهب لنرقص... وسوف نتناول العشاء معا الليلة، أليس كذلك؟»

قال ليو: «العشاء... ربما لا... ولكننى سآتى حتما بعد العشاء».

وتناهى إلى سمعهما صوت أبواب تفتح وتغلق، فسحبت كارلا يدها على الفور، ودخل ميكيلى وصاح يقول فى مرح مصطنع: «أوه... ما هذه الروعة!... طاب مساؤك يا ليو؟... ماذا تفعل هنا، أيها النبيل الثرى السعيد الأنيق؟»

أجابت كارلا بنفس النبرة والصوت السابقين: «سنذهب للرقص».

جلس ميكيلى وهو يقول: «للرقص؟ فى هذه الحالة سآتى معكم... هل تدعيننى يا كارلا؟»

قالت وهى تنظر إلى عشيقها: «إن ليو هو الداعى».

رفع ليو رأسه وقال يحدث نفسه: «فى الحقيقة لم أدع أحدا على الإطلاق».

وقال ميكيلى محتجاً: «لا... ليو لا... فأنا بأمكانى أن أدفع ثمن حتى الشاى».

وعادت كارلا تنظر إلى الرجل، وأسرع ليو يقول: «ما دخل ما تقوله، إننى أنا الداعى وسأدفع كل شىء».

ولزم الثلاثة الصمت لحظة ثم قالت كارلا: «تستطيع أن تأتى معنا يا ميكيلى بشرط أن تذهب وتستبدل ثيابك».

انحنى الفتى وقال: «حقاً... حقا... يبدو لى أنك على حق...».

كان على قدر مدهش من القذارة؛ حذاؤه موحل وسرواله مبتل حتى ركبتيه بسبب الأمطار. ثم قام وقال: «أشكرك أف مرة يا صديقى الكريم... سأذهب لاغتسل» ثم انحنى وخرج.

وقبل أن يغلق الباب خلفه قالت كارلا: «إننى حزينة».

ـ «لماذا؟»

ـ «لا أدرى».

ونظرت إلى زجاج النافذة الأسود وعليه بريق خاطف يكشف عن هطول المطر وقالت: «ربما بسبب الطقس» ومالت رأسها الضخمة فى وهن نحو الرجل، فأخذها من شعرها وقبلها، فقالت فى هدوء وبغير حياء بعد القبلة «سوف ترقص معى... دائماً معى... وسوف تترك أمى فى مقعدها... سترقص مع الآخرين... أو مع ميكيلى».

وضحكت ضحكة جافة، وبدا كأنها كبرت سنة وقالت لنفسها: «إنها النهاية» وتعانقا، ثم قال ليو حازماً: «ستأتين عندى الليلة... أليس كذلك يا كارلا؟» قالت كارلا وقد امتقع وجهها: «عندك؟... كيف؟»

أجابها ليو وهو ينظر إلى عينيها: «فى بيتى». ورأها تتردد وتحني رأسها كما لو كانت تبحث عن شىء سقط على البساط، وقالت أخيراً: «كلا... هذا محال».

قال ليو فى إصرار: «كيف محال... وأنت التى وعدتيننى بذلك... لابد أن تأتى».

وهزت رأسها وقالت: «كلا... كلا هذا محال» ولزما الصمت لحظة، وراح ليو يتأمل الفتاة، وأثاره صدرها الملفوف فى الثوب، واعتلت

وجناته سخونة غير معتادة وراح يفكر قائلاً: «يا لها من عشيقة! يا لها من عشيقة!» وضغط على أسنانه لفرط الرغبة، وأمسك الفتاة من خصرها وقال: «كارلا، يجب أن تأتى، يجب أن تأتى حتما... وإذا لم تأت...» وتردد وأخذ يبحث عن ذريعة يلتصق بها، وفجأة تذكر البغض الذى تشعر به تجاه وجودها ورغبتها فى حياة جديدة وقال فى تواضع: «وإلا كيف يتسنى لك أن تبدئى حياة جديدة؟».

ونظرت إليه وهى تفكر فى حس قوى للواقع: «إنه لا يريد إلا أن يتسلى معى... إنه على حق: والحياة الجديدة؟» وأدركت أنه لكى تغير حياتها لا بد لها أن تدمرها أولاً دون أية رحمة، ولكن فكرة ذهابها ليلاً إلى بيت بعيد سبب لها نفوراً وأشعرها بالخوف وقالت فى بساطة زائفة: «سآتى بالنهار... يوم من ذات الأيام وسنتناول الشاى معاً... ونتبادل الحديث... حسناً هكذا؟»

قال ليو: «ليس الشاى ما أريد وإنما أنت...». ولكن سرعان ما عاد يقول فى جدية حاسمة: «لا يا حبيبتى... ستأتى هذه الليلة... وإلا لن تأتى ابدا...».

قالت كارلا متضرعة: «ولكن فلنر يا ليو...».

واستمر عشيقها يقول: «سأنتظرك فى الشارع بسيارتى، وسأعود بك إلى منزلك قبل طلوع النهار...» وأخذ ينظر إليها لحظة وعاد يقول: «سوف ترين... ستستمتعين بحيث تعودين كل ليلة».

قالت فى شىء من الذعر: «كلا... كلا... يجب أن يكون كل شىء واضحاً... وأن نقول كل شىء...» ونظرت إلى الرجل، وفجأة ودت لو صرخت من القلق الذى انتابها: «كل ليلة!... ما هذا... كيف وصلت إلى هذا؟» وقال ليو وهو يمسكها فى غلظة بين ذراعيه: «إننى واثق أنك ستأتين... تكلمى... أليس كذلك؟»

تشبثت بالحجة الأخيرة وقالت: «ولكننا لم نتحاب إلا منذ يومين، فلماذا لا تنتظر قليلاً... ألا تعتقد أن لكل امرأة كبرياؤها؟»

أسرع الرجل يقول: «يا عزيزتى... فهمت... يعنى أننى سأنتظرك إذن هذا المساء... اتفقنا؟»

ولكنها ترددت مرة أخرى ونظرت إليه بمؤخرة عينيها أسفل قبعتها الصغيرة وقالت أخيراً: «سأقول لك أثناء الرقص... نعم» وأضافت كما لو كانت تريد أن تقنع نفسها: «بالتأكيد سأقول لك أثناء الرقص».

قال ليو يحدث نفسه: «الحمد لله»، قبلها وقال فى بهجة: «والآن لم يبق إلا أن نذهب إلى هذا الحفل الراقص»، وأمسك الفتاة من خصرها والتفت بوجهه المتقد إلى وجهها المذعور المزين وقال: «أتدرين ماذا تكونين أنت؟ إنك حب... نعم، حب طفلة».

وسمع صوت الباب، واقبلت الأم وهى تقول: «هيا يا ميروميتشى... هل نخرج؟»

نهض ليو وأجاب فى سرعة: «حسناً... حسناً... . فلنخرج».

ونهضت كارلا هى الأخرى، وتقدمت نحو أمها، وسألتها ماريا جراتسيا وهى تفحصها من أعلى رأسها إلى أخمص قدميها: «لماذا لم تأخذى الحقيبة التى أهداك ميروميتشى إياها؟ إنها تلائم تماماً هذا الفستان» قالت كارلا: «سأذهب لكى آتى بها ثم أعود» وخرجت.

صعدت مسرعة السلم، ودخلت غرفتها راكضة، كانت الحقيبة فوق طاولة الزينة، غاية فى الأناقة، تدل على ذوق رائع، وبينما تمد يدها لتأخذها خطر ببالها فجأة أن هذه الهدية إنما هى الأولى من سلسلة هدايا تالية، استبد بها التخيل حتى أنها ظلت واقفة أمام المرآة تتطلع فيها وبدا لها أنها جالسة فوق ركبتى ليو يداعب وجنتيها، أو أنها تستند برأسها على صدره فى ود تطلب منه بصوت هادئ النقود لتشترى بعض الثياب، أو أنها تذهب مع عشيقها إلى صانعة القبعات ذائعة الصيت تطلب ثلاث أو أربع قبعات من باريس، أحدث طراز فهى شديدة الإعجاب بها. كل هذا فى الحقيقة كان جذابا جداً، وكذلك ستمتلك سيارة وبيتاً ومجوهرات، وتسافر وترى الناس والبلدان... خلاصة القول أنها لن تعرف حدوداً لمهامها أو لرغباتها، إنه شىء جذاب للغاية، وابتسمت على الرغم منها وهى تفكر فى كل هذا، وعندما اقتربت من المرآة فجأة رأت بقعة صغيرة

حمراء، وراحت تحكها بأصبعها وتفحصها... ثم تذكرت أخيراً أن ليو قبلها منذ لحظات فى الصالون، وتملكها خوف كبير من أن تكون أمها قد رأتها، وأخذت بدارتها وراحت ترش المسحوق بوفرة فوقها، وفجأة بينما كانت تنحنى كلية أمام المرآة لكى ترى ما إذا كانت هذه البقعة الحمراء الآثمة قد اختفت، بدت لها دعوة ليو التى لا تقاوم بأن تذهب إلى بيته الليلة مرتبطة برباط محتوم بتلك الهدايا والثياب التى تحلم بها: قالت تحدث نفسها فى فزع ظاهرى ومصطنع فهى لم تكن مدركة بقدر كاف لشعورها حتى تفزع منه عن حق: «يا إلهى!... أهذه هى حياتى الجديدة؟... أهذه هى... ؟» ولم تجد متسعاً من الوقت لمزيد من التفكير فقد تناهى إلى سمعها صوت بوق السيارة جليا يأتى فى ظلام الليل من الحديقة لينذرها بأنه قد حان الوقت للذهاب.

اطفأت النور وأسرعت بالهبوط وأثناء تأديتها لهذه الأعمال المعتادة، وبالرغم من عدم مراودة اية فكرة محددة لذهنها، استقر على وجهها فى اشمئزاز هزلى حزن حاد وحنين للبكاء يعذبها.

وكان البهو مظلماً وبلغت الردهة وهى تتحسس طريقها وفتحت الباب، واستقبلها صوت أمها الصاخب الفرح وليو وميكيلى الذين كانوا ينتظرونها فى السيارة. كان الميدان الواسع غارقاً فى الظلام وكانت السماء تمطر فى صمت، ولم تر كارلا سوى بعض انعكاسات بريق السيارة والنوافذ الصفراء المنيرة يظهر خلفها داخل الصندوق المنجد وجوه هؤلاء الثلاثة الوردية المبتهجة الراضية، ينظرون إليها فى فضول وهى آتية. ومرت لحظة صعدت بعدها كارلا وجلست بجوار عشيقها، وانطلقت السيارة.

ولم ينطق أحد من الأربعة بكلمة واحدة طوال الرحلة، كان ليو يقود السيارة بمهارة كبيرة، وكانت كارلا تشاهد فى سكون حركة الطريق وهى غارقة فى أفكارها، تنظر هناك، فيما بعد غطاء محرك السيارة اللامع وترى المركبات بأنوارها الحمراء تتحرك مسرعة فى كل جانب وكأنها مختلة العقل بين صفين سودوين من المظلات. وكانت أمها كذلك تنظر عبر نافذة السيارة، لا لترى الطريق ولكن بالأحرى ليراها الناس: فقد كانت تلك السيارة العظيمة الفاخرة تشعرها بالسعادة وبالثراء، وفى

كل مرة كان يظهر من بين جلبة الطريق المظلم أحد الرؤوس الفقيرة أو الغوغاء يحملها تدفق الازدحام ويمر أمام عينيها، كانت تود لو رمت فى وجه هذا النكرة بنظرة ازدراء وكأنها تقول له: «أنت أيها الأبلة سرّ على قدميك، فهو خير لك، أنت لا تستحق غير ذلك... أما أنا... فمن العدل أن أشق هذا الحشد وأنا متكئة على هذه المساند».

وانفرد ميكيلى بعدم النظر إلى الطريق، فقد كان يشغله أكثر ما تحمله السيارة الفاخرة بين طياتها ولا يشغله أى شىء آخر. كان الظلام يخفى وجوه رفاقه الثلاثة، ولكن كلما مرت السيارة أسفل مصباح نوره ساطع، كان ينير لبرهة وجوه تلك الأشخاص الجالسين بلا حركة: فيظهر وجه أمه بملامحه الواهنة العميقة وبعينيها المزهوتين ووجه كارلا، وجه صبية فاتن طفولى تذهب إلى الحفل، والجزء الجانبى من وجه ليو، ناضر ومتناسق صلب كتلك الأشياء المفزعة التى لا تلين بسهولة والتى يكشفها لبرهة برق العاصفة. كلما رأى ميكيلى تلك الوجوه أذهله وجوده بينهم وقال يحدث نفسه: «لماذا هؤلاء وليس آخرون؟» إن تلك الوجوه تبدو له غريبة أكثرٍ من أى شىء، يكاد لا يعرفهم، وبدا له أن فتاةً شقراء عيونها زرقاء بدلاً من كارلا، وسيدة نحيفة فارعة الطول بدلاً من أمه ورجل قصير القامة عصبى المزاج بدلاً من ليو يمكن أن يغيروا حياته، هم هناك، قابعون فى الظلام، بلا حركة، يتخابطون مع كل رجة للسيارة كالدمى الخاملة: إن أكثر ما يؤلمه هو أن يراهم متباعدين متفرقين بهذا القدر، كل منهم وحيد بلا علاج.

ووصلوا إلى الفندق وكان يقف أمامه فى الميدان الصغير المظلم أربعة صفوف سوداء من السيارات بمختلف أنواعها وأحجامها يرتدى سائقوها من أمة رأسهم حتى إصبع أقدامهم ملابس براقة واقية من الأمطار يحتشدون فى جماعات صغيرة يتكلمون ويدخنون. بينما وعلى نقيض ليلة الشتاء المظلمة كان باب فندق الريتز يتلألأ بنور بهيج مضياف، وأفضى بهم الباب الدوار المصنوع من الخشب والزجاج بصوته المألوف إلى غرفة الثياب التى تعج بالمعاطف المرقمة، واجتازوا عدة صالونات ذهبية خالية ووصلوا إلى صالة الرقص وكان بجوار الباب

منضدة يجلس أمامها رجل يبيع تذاكر الدخول، ودفع له ليو ودخلوا جميعاً.

كان الوقت متأخراً وحشد كبير يملأ القاعة المنخفضة الطويلة وكانت الموائد مصطفة بمحاذاة الحائط والناس يرقصون فى منتصف القاعة، وزنوج أمريكيون يعزفون إيقاعات راقصة فى أخر القاعة فوق منصة الجوقة الموسيقية التى تظللها نخلتان.

وقالت الأم فى تعجب وتشاؤم وهى تردد البصر حولها فى صرامة: «يا له من ازدحام... سترين يا كارلا أننا لن نجد مكاناً نجلس فيه».

وعلى عكس هذه التكهنات، فقد وجدوا منضدة صغيرة شاغرة فى أحد الأركان، وجلسوا. خلعت الأم معطفها وهى تردد البصر فى القاعة واتجهت إلى رفاقها الثلاثة تقول لهم جميعاً: «أتدرون... يوجد هنا أناس كثيرون من المعارف... أنظرى يا كارلا... هاهم آل ڤالنتينى...».

ــ «وكذلك آل سانت اندريه يا أماه».

وأضافت الأم: «وآل كونترى»، وانحنت قليلاً وقالت بصوت منخفض: «وبمناسبة آل سانت اندريه، أتعرفين أنهم أثناء رحلة شهر العسل التى قاموا بها إلى باريس منذ شهرين، كانت عربة النوم تضم العريس والعروس وعشيق العروس... ذلك الشخص الذى يدعى... إننى نسيت اسمه».

قالت كارلا: «چورچيتى».

«چورچيتى... نعم تماماً... يا لها من قصة!... لا يمكن تكرارها» وكانت الموسيقى قد انتهت، وعاد الراقصون إلى أماكنهم بعد تصفيق قليل، وعلى الفور ارتفعت همسات الحديث والتفتت الأم إلى عشيقها وقالت: «ما رأيك فى أن نذهب إلى المسرح الليلة ونسمع تلك الفرقة الفرنسية... معى تذكرة بنوار للحفلة الثانية الليلة أومساء بعد غد».

أجاب الرجل وهو ينظر بانتباه إلى كارلا: «لا أستطيع الليلة... فلدى موعد فى الساعة الحادية عشرة لا يمكننى التخلف عنه».

قالت الأم فى صوت بين ساخر وحميمى: «موعد فى الساعة الحادية عشرة مساء... قل لى يا ميروميتشى، أهو مع رجل أو امرأة؟»

تردد ليو... هل يثير غيرة الأم أم لا. وأجابها أخيراً: «موعد مع امرأة أكيد... ولكننى لم أحسن التعبير... إنه ليس موعداً وإنما زيارة... دعوة للعشاء... فى منزل سيدة تستقبل أصدقاءها...».

وسألته الأم فى غضب تام وبصوت قاس: «ومن هذه السيدة... إذا كنت تسمح لى أن أعرفَ؟»

استولت الحيرة على ليو، فهو لم يكن يتوقع مثل هذا الفضول، وأخذ يبحث ويبحث فى ذهنه عن اسم امرأة لا تعرفها الأم ووجده أخيراً: «إنها السيدة سميتسون... الرسامة».

قالت الأم فى انتصار مرير: «آه! حسناً جداً... السيدة سميتسون... وا أسفاه، حقاً وا أسفاه إننى بالفعل كنت أول أمس عند صانعة القبعات وقد شاهدت عندها إحدى القبعات طلبتها السيدة سميتسون لترسلها لها فى ميلانو... لأنها سافرت إلى ميلانو منذ خمسة أيام السيدة سميتسون الرسامة».

وصاح ليو مندهشاً: «إلى ميلانو؟»

وتدخّل ميكيلى قائلاً: «نعم... لا تعرف؟... إن افتتاح معرضها الخاص قد تقدم عن موعده».

فابتسمت الأم ابتسامة غدر وقالت: «امض إذن إلى السيدة سميتسون... امض إليها ولكننى أخشى ألا تستطع اللحاق بها، حتى إذا ركبت القطارِ أو الطائرة...» وصمتت لحظة ولم ينطق الرجل وكانت كارلا تقريباً منفزعة وهى تنظر بانتباه شديد إلى أمها. وعادت مارياجراتسيا تقول: «يا عزيزى إن للكذب سيقانا قصيرة... ولكن هل تريد أن أقول لك من هى السيدة ذائعة الصيت التى يجب أن تزورها؟ بالتأكيد إنها ليست سيدة شريفة لأنك لا يمكن أن تعرفهن... إنها واحدة من الفاسقات، نعم، إحدى العاهرات المتدنيات».

امتقع لون كارلا هذه المرة بشدة بحيث خشي ليو أن يغشى عليها أو أن تنفجر بالبكاء. ولكن شيئاً من هذا لم يحدث، وقالت بصوت هادىء: «لا ترفعى صوتك بهذا الشكل يا أمى... فأى شخص بأمكانه أن يسمعك». وسمعت صوت ثلاث دقات إيذاناً باستئناف الرقص فقالت: «هلم بنا نرقص يا ليو».

وسارا إلى حلبة الرقص، واحد وراء الآخر، بين أناس جالسة على مقاعدها، ولم يترك وجه كارلا ذلك الشحوب الذى لاحظه الرجل منذ لحظات وهى تمضى بين الموائد الصغيرة الثرثارة، وكان وجهها متسما بنوع من التعالى الصلب، ولكن قبل أن تستند إلى رفيقها، وبين ذلك الجمع رفعت رأسها إليه وقالت فى ثبات وقد خيل له أنها تجز على أسنانها: «سآتيك الليلة يا ليو... وما عليك إلا أن تنتظرنى».

ـ «هل تتحدثين بشكل جاد؟»

ـ «جاد للغاية» وقد تغيرت نبرة صوتها، لم تعد ثابتة بل مرتجفة، كما لو كانت قد فقدت أنفاسها وثقتها معاً. وأضافت تقول: «والآن لا تحدثنى بعد... أريد أن أرقص فقط».

وراحا يرقصان، كان ليو يمسك خصر الفتاة بذراعه بكل ما أوتى من قوة وشعر بخفة وتوقد غير معتاد جعلاه يطير لفرط الفرح وبالرغم من أن المكان كان ضيقاً والجمع غفيراً كان يبذل أقصى ما عنده ليحقق أصعب الخطوات. وأخذ يقول لنفسه: «هذه المرة امتلكتك... امتلكتك».

أما الفتاة فقد استولى عليها ارتباك حزين: كانت ترقص على مضض، فقد كانت تود لو أن تخرج من هذا الجمع وأن تجلس بمفردها فى ركن ما وتغمض عينيها، وكان عرض الراقصين يدور أمام عينيها فى حركة مستمرة: وجوه الرجال والنساء ثابتة جادة ومبتسمة، وكانت الموسيقى رائعة جذابة ولكنها لم تكن خالية من مؤلفات حزينة صغيرة مرتجفة، عدا ذلك فهو معتاد جداً، وكثيرا ما كانت تعود الوجوه والموسيقى بأصرار أمام عينيها وشعرت بالدوار من تكرار مشاهدة تلك الوجوه والاستماع لتلك الموسيقى.

وانتهت الرقصة وعاد الراقصون إلى أماكنهم. كما عاد ميكيلى وأمه وكانا يتشجران بحدة، وكانت مارياجراتسيا تقول له ساخطة: «لن أرقص مرة أخرى معك».

وسألها ليو: «ماذا حدث؟»

واستمرت الأم تقول: «أبداً... أبداً... تصور... كان الجميع ينظرون إلينا... ومن يدرى ماذا كانوا يقولون عنا... كان شيء فظيعاً... إنه كان يرقص كما لو كان... كما لو كان...» وراحت تبحث عن صفة لم تجدها فى ارتباك غضبها «كما لو كان لصا...».

قال ليو فى دهشة: «آه! حقاً؟»

قالت الأم مصححة فى كبرياء: «كما لو كان سيء التربية».

وسألها الصبى مبتسماً على مضض: «وكيف يرقص اللص؟... وفى هذه الصحبة من هو اللص بيننا؟ أهو أنا أم شخص آخر؟...»

قالت الأم وهى تردد البصر حولها: «أسكت».

ولكن ميكيلى لم يسكت واستطرد يقول: «على كل حال أنا أرقص كالمسروق الذى رفع عنه كل أثقال الدنيا، يغمره الحماس والحمية... بينما لكى تعرفى كيف يرقص اللصوص يجب أن تراقصى رجلا آخر... بكل تأكيد».

وعاد يقول وهو ينظر ملياً إلى ليو: «نعم... مع رجل آخر».

ووقف ليو لحظة بين المرأتين المضطربتين جامداً لا ينطق، ثم ابتسم وقال وهو ينهض من مقعده: «أظن يا ميكيلى أن شيئاً قد حدث لك بالفعل... لذلك من الأفضل أن تنصرف... أو لعلك تريد أن انصرف أنا».

تأوهت الأم قائلة: «نعم يا ميكيلى... انصرف» ونظر إليها وفلتت من فمه بعض الكلمات: «إذن... فأنت تفضلين طرد ابنك بدلا من طرد رجل غريب مثل ليو؟»

ـــ «ولكن ليو هو صاحب الدعوة».

ولم يجد الشاب ما يقول فأحنى رأسه وقال لنفسه: «هى على حق... إن ليو هو الذى دفع ثمن الدعوة».

كانت القاعة الكبيرة المنخفضة تعج بضوضاء محادثات كل هذا الجمع من الناس، النساء المتزينات جالسات واضعات ساقاً فوق ساق عارية، والرجال جالسون فى رشاقة والسيجارة فى فمهم، كل هذا الجمع كان يأكل ويشرب ويتكلم غير مكترث: والزنوج يضبطون آلآتهم هناك تحت النخيل، وأخيراً قال ليو: «أنت على حق... سأنصرف... امرحوا كما يحلو لكم... إن اللص سينصرف» وخرج.

كانت الأمطار مستمرة فى الخارج وأخذ ميكيلى يردد دون استياء، فى شىء من الإضطراب الزائف: «لص... لص... لقد حاولت أيضاً ليزا أن تسرقنى... ثم من يكون اللص؟»، ولكن بعد دقائق قليلة أدرك فى دهشة كبيرة أنه لم يتلهب غضباً على الأطلاق، ولكنه كان هادئاً للغاية ولم يفلح أى تصرف لليو، بقدر ما هو سيىء، فى أن يخرجه من عدم اكتراثه، فهو دائماً ما ينتهى به الحال، بعد انفجار زائف من الغضب، إلى ما هو عليه الآن من دماغ فارغة وشىء من البلادة وحماقة كبيرة.

كانت الأرصفة مزدحمة والشارع يفيض بالمركبات، كانت لحظة ذروة المرور، وسار ميكيلى على مهل تحت الأمطار دون مظلة كما لو كان يوماً مشمساً وهو يشاهد بتثاقل واجهات المحلات والنساء والإعلانات المضيئة التى تتدلى فى الظلام، ولم يفلح بقدر اجتهاده فى أن يعنى بهذه المشاهد القديمة فى الطريق، ولم ينكشف عنه الكمد الذى غزاه دون سبب وهو خارج عبر قاعات الفندق الشاغرة، بينما كانت تلاحقه صورته التى لم يستطع أن يسلاها، فقد بدا له أنه يرى نفسه وحيداً بائساً لا مبالياً.

أتته رغبة فى دخول إحدى دور العرض، فعلى هذا الطريق توجد واحدة فاخرة تتجلى على بابها الرخامى عجلة دوارة مضيئة فى حركة مستمرة. اقترب ميكيلى وأخذ يشاهد الصور: إنه فيلم صينى مصنوع فى أمريكا، تافه للغاية، وأشعل سيجارة واستأنف السير دون ثقة، تحت الأمطار بين الحشد، ثم القى السيجارة: لافائدة.

ولكن أثناء ذلك ازداد غمه، لم يكن هناك أدنى شك فى ذلك، فهو يعرف كيف يتكون الغم: يبدأ بحيرة مبهمة، وإحساس بعدم الإطمئنان والعجز، وحاجة إلى العمل النشط والحماسة، ثم رويداً رويداً شعور بجفاف الزور وبمرارة الفم وحملقة العين والعودة الملحة لبعض الهّراء إلى دماغه الشاغرة، خلاصة القول أنه يأس ثائر بدون أوهام. شعر ميكيلى بخوف مؤلم من هذا الكدر: كان يريد لو لم يفكر فيه ويعيش كأى شخص آخر لحظة بلحظة، دون قلق، يعيش فى سلام مع نفسه ومع الآخرين، كان أحياناً يتنهد ويقول: «يجب أن أكون أبله» ولكن فجأة ودون توقع أعادته الكلمة والصورة والتفكير إلى المسألة الأبدية، حينئذ أنهار تشتته وبات كل جهده عديم الجدوى، كان الأمر يستلزم التفكير.

وبينما كان يسير ذلك اليوم خطوة خطوة بطول الرصيف المزدحم وهو ينظر إلى الأرض ويشاهد مئات الأقدام قد وطأت الوحل، أزعجه تحركه الذى لا يجدى نفعاً. وفكر وقال لنفسه: «كل هؤلاء الناس يعرفون أين يذهبون وماذا يريدون، لديهم هدف ولذلك فهم يسرعون ويتعذبون ويشعرون بالحزن وبالسعادة ويحبون، أما أنا... إننى لا شىء... أعيش بلا هدف... كل شىء يستوى عندى، إذا مشيت أو جلست». لم يرفع عينيه من الأرض: فقد رأى فى كل تلك الأقدام التى تدوس الوحل أمامه أمانا حقيقيا وثقة لا يتمتع بها، وازداد شعوره بالنفور من نفسه، ها هو دائما هكذا أينما كان، مكسال لا يبالى، فهذا الطريق الممطر يمثل حياته نفسها، يقطعه بغير ثقة وبدون حماس، وأخذ يشاهد ما حوله بعينيه اللتين فتنهما بريق الاعلانات المضيئة الخادعه. وتسأل: «إلى متى؟» ورفع عينيه إلى السماء، ورأى العجلات الدوارة الحمقاء هناك، وفى ذلك الظلام الأسود العالى سمع إحداهن تطلب معجون أسنان وأخرى طلاء للأحذية. وعاد وخفض رأسه ولم تتوقف قدماه عن حركتهما، وكان الوحل يتناثر من أسفل عقب الحذاء والناس يسيرون. ثم عاد يتسأل «إلى أين أنا ذاهب؟» ثم مر بإصبعه على ياقته وقال: «ماذا أكون؟ لماذا لا أركض، لا أهرع مثل كل هؤلاء الناس؟ لماذا لا أكون رجلاً تلقائيا وصادقا؟ لماذا لا أنعم بالثقة؟» وقهره الكمد وكان يريد لو أن أوقف أحد الماره وهاجمه وسأله إلى أين هو ذاهب ولماذا يركض هكذا، كان يود أن

يكون له هدف حتى وإن كان زائفاً ولا يسير يدهس الأرض هكذا من شارع إلى آخر بين جماعة من الناس لديهم هدفف من الأهداف. وعاد يتسأل: «إلى أين أنا ذاهب؟». فى الماضى، كما يبدو له، كان الناس يعرفون طريقهم من أول إلى آخر خطوة، أما الآن فلا، يتصرفون دون إدراك، ظلام وعمى، ولكن لزم عليه أن يذهب إلى أى مكان، إلى أين؟ فكر ميكيلى أن يذهب إلى منزله.

وفجأة شعر أنه لا بد وأن يسرع، ولكن الطريق كان يعج بمركبات تتقدم ببطء لكثرة عددها بطول الرصيف، فكان من المستحيل أن يعبر الطريق وكانت السيارات تقف فى صفين متقابلين أحدهما على الطريق الصاعد والآخر النازل، تنتظر تحت الأمطار المنحدرة بين وجهات المنازل السوداء المضيئة أن ينفرج الطريق وتقفز إلى الأمام، وانتظر هو الآخر. حينئذ رأى من بين ما رأى سيارة كبيرة فاخرة، يجلس بداخلها رجل يستند بصلابة إلى مقعده وكان رأسه في الظل ؛ وذراع يلتف حول صدره، إنه ذراع امرأة، وجلية الأمر أنها جلست بجواره وتهاوت على ركبتيه متشبثة بكتفيه كمن يرغب فى التضرع ولكنه لا تجرؤ على النظر فى وجهه؛ ظل الرجل جامد الحركة والمرأة القابضة عليه لحظة أمام عينى ميكيلى فى ضوء مصابيح السيارات الأبيض، ثم تحركت السيارة وتقدمت فى انسياب كالحوت بين السيارات الأخرى، ولم يعد يرى سوى ضوءا أحمر ضعيفا مثبتا علي لوحة الأرقام المعدنية، بدا كأنه إيماءة ولكن هذه العلامة تلاشت أيضاً.

وتبقى له من هذه الرؤية حزن متوتر لا يحتمل، إنه لم يكن يعرف ذلك الرجل وتلك المرأة، لا بد وأنهما أناس من مكان يختلف تماماً عن بيئته، ربما غريبان، ومع ذلك خيل له أن ذلك المشهد قد نبع من عقله وهو واحد من أخيلته المضطربة قامت بتجسيدها أمام عينيه إرادة عليا، كان ذلك عالمه حيث كان المرء يعانى بحق ويعانق الأكتاف دون رحمة ويتضرع دون جدوى، وليس هذا العالم المتقلب الملىء بضوضاء عجيبة ومشاعر زائفة تتحرك فيه وجوه مضطربة كاذبة غير مكترثة، وجه أمه وليزا وكارلا وليو، كل ناسه، كان يود لو استطاع أن يكره بالفعل ذلك الرجل، وأن يحب عن حق تلك المرأة، ولكنه كان على يقين بعدم جدوى

التمنى، فتلك الأرض الموعودة كانت محرمة عليه، ولا يمكن أن يبلغها أبداً.

فى تلك اللحظة أوقف شرطى ذلك السيل الطويل من مرور السيارات، وعبر ميكيلى وشعر وهو فى منتصف الطريق بدوار وقلق لا يحتمل فخلع قبعته وراحت الأمطار تتساقط فوق رأسه العاري.

ما كان فى مقدوره أن يعبر عما يشعر به، رغبات كثيرة غير محددة كانت تغلى فى نفسه كما أصابه كمد التفكير بآلام جسدية. ومرت سيارة أجرة شاغرة بالقرب منه فصعد وأخبر السائق بعنوان منزله ولكن ظلت ذكرى هذين الإثنين عالقة فى ذهنه، الرجل والمرأة متعانقان فى سيارتهما الفاخرة. وفكر بشكل كاد يكون جاداً وقال: «أعرف أين ذهبا وأعطى عنوانهما للسائق، لأذهب إليهما والتمس منهما أن يأخذانى معهما...» وهدّأ قليلاً من روعه هذا الهراء والأخيلة التى كانت تصاحبه، ولكن بدا له مع كل رجة لركض السيارة أنه أفاق من أحلامه التى لا يمكن تحقيقها وأدرك بمرارة أن هذه الأوهام لا يمكن أن تغير ولو بقدر ضئيل واقعه الذى يعيش فيه.

وبعد خمس دقائق وصل إلى بيته وعبر الحديقة بسرعة تحت المطر الذى ازدادت حدته ودخل ردهة البيت المظلم. كان البهو حالك الظلام هو الآخر، وألقى معطفه وقبعته فوق مقعد ومضى إلى السلم وهو يتحسس طريقه دون أن يضيء النور. ولكنه حين مر أمام باب حجرة الاستقبال رأى بصيصاً من النور يظهر فى الظلام من خلال ثقب المفتاح، وسمع صوت موسيقى، إيقاع راقص، بدا له أنه نفس الإيقاع الذى سمعه من لحظات قليلة فى بهو الفندق. قال لنفسه " إنها الملاحقة... " ففتح الباب ودخل، كان النصف الأول من حجرة الاستقبال المخصص عادة للحديث مظلماً، أما النصف الآخر فيما بعد الحنية والعمودين فكان مضاء وكان هناك شخص يعزف لحناً. تقدم وحينئذ استدار ذلك الشخص الذى كان ينحنى فوق مصف مفاتيح البيانو ونظر إليه: إنها ليزا.

وقال ميكيلى يحدث نفسه " إنها جاءت لتفسر لى ما حدث، كما لو كنت لم أفهم كل شيء ". وجلس فوق مقعد بعيدا عن النور وقال فى

هدوء: «إننا ذهبنا إلى فندق الريتز، ولكن السأم تملكنى فانصرفت... ثم، تصورى أننى تشاجرت مع ليو».

نظرت إليه فى فضول ونهضت وسألته وهى تقترب منه: «آه! حقاً؟» جلست أمامه واقتربت منه بقدر ما استطاعت وأضافت تقول فى تردد وود: «ولماذا؟... لعلكما تشاجرتما بسببى» نظر ميكيلى إلى الوجه المتردد وتملكته رغبة فى الضحك، وود لو أنه أجابها قائلاً: «أيتها المسكينة ليزا... ماذا يجب أن أفعل لكى أقنعك بأننى لا أحبك؟» ولكنه أشفق عليها وأمسك عن الكلام.

ثم قال بايجاز: «كلا... لم تكونى أنت السبب... ولكن لأسباب تخصنا... تخص أمى».

قالت ليزا وهى تشعر بشىء من خيبة الأمل: «آه! إننى أفهم» وكانت تنظر إلى الفتى بإلحاح وولع، كانت تعذبها الرغبة فى أن تبرر موقفها وأن تفسر له كيف سارت الأمور بحق. وقالت لنفسها: «كل شىء سينجلى، فيما بعد وسوف يضع رأسه على ركبتى، كما فعل فى الصباح». ومر الوقت بين تلك الأفكار ولم تجد ذريعة لتتحدث عما يخامر قلبها. تبادلا النظرات واستهلت ليزا تقول: «قلت هذا لأننى اعتقد أن لديك كل الحق فى أن تغضب منى ومن ليو».

أجاب ميكيلى وهو يراقبها بانتباه: «لماذا؟... إننى لم أغضب من أحد» وود لو أضاف قائلاً: «وا أسفاه».

استطردت ليزا: «إننى أفهمك. أوه! إننى أفهمك!... ولهذا أشعر أننى لا بد أن أفسر لك موقفى».

لم ينطق ميكيلى ولم يتحرك وفكر: «لا بد وأن تشعر أننى غائب وبعيد عن أفكارها... وأتجاهلها».

وانحنت ليزا ونظرت فى عيني الفتى وقالت: «بادىء ذى بدء... إذا كنت تعتقد أن هناك شيئاً بينى وبين ذلك الرجل فإننى أؤكد لك أنك مخطئ... كانت بينى وبينه علاقة... فلا جدوى من إخفاء ذلك عليك... كان يحبنى» وأتت ليزا بإشارة سطحية لكى تعبر بها أنها تسترجع

الماضى، ثم قالت: «كنت شابة صغيرة، وبحاجة إلى المساعدة فى ذلك الوقت، وبسبب إلحاحه المستمر وظروفى فى ذلك الحين، انتهى بى الأمر إلى الاستسلام له».

قال ميكيلى مقاطعاً وهو يكاد لا يقصد: «ولكننى سمعت أنك الآن متزوجة» وأجابت فى بساطة كبيرة: «هرب زوجى بعد عام من زواجنا... وأخذ معه كل مجوهراتى».

وبقيت حالمة لحظة، ولكن من غير حزن أو ضيق كالشخص الذى يحاول أن يستأنف حديثه بعد مقاطعة تافهة.

ثم عادت تقول بعد توقف قليل عن الحديث: «استسلمت له ودامت علاقتنا لعدة سنوات، ثلاث سنوات... حتى أدركت فى يوم ما أننى لا أحبه، وأننى لم أحبه قط، فافترقنا».

وود ميكيلى لوأنه سألها: «أو بالأحرى هجرك بسبب أمى؟» ولكنه تماسك، فبماذا يفيد السؤال.

ـ «ولم ير أحدنا الآخر بعد ذلك إلا بضع مرات فى منزلكم... حتى... حتى اليوم، جاءنى ولا أدرى بأية نوايا... ربما كان يظن أنه من الممكن أن نعيد الماضى» وأخذت تضحك لتشير إلى سخافة آمال ليو وقالت: «كما لو أنه كان باستطاعتى أن أنسى سلوكه حيالى وأن أغفل عن كل هذا، كما لو أنه ليس فى الحياة غيره... وأنه ما عليه إلا أن يأتى لكى يحصل على كل ما يريد... وكنت أهم بطرده حين أتيت أنت... هذه هى الحقيقة، ولك أن تصدقنى، وأقسم لك على ذلك بكل مقدس لدى... .»

وصمتت ليزا وراحت تنظر إلى الفتى بين تضرع وقلق وأحنى الأخير رأسه وأخذ ينظر إلى يديه.

وفى النهاية قال وقد بدت عيناه مبهمتان ووجهه قلق بشكل غامض: «نعم، بالفعل».

بالفعل ماذا؟ ما معنى بالفعل؟ ربما كان يريد أن يقول "بالفعل أنك لم تخدعيننى؟" أو "بالفعل أنك خدعتيننى؟"

زادت هذه الكلمة من ارتباك ليزا، وكانت تنحنى على مقعدها وما زال تأثير الحديث يغمرها، وراحت تنظر إلى ميكيلى كما لو كانت تريد أن تبحث عن تفسير لهذا الرد فى وجهه، ولكن الفتى أظهر عدم اكتراث شديد، وامتلأت عيناه بشىء من الصلابة، وبدا كأنه لم يتحدث قط.

واتجهت ليزا لتجلس وقد خاب أملها، وتشابكت فى ذهنها مخاوف مختلفة، وقالت لنفسها: «إنه لا يصدقنى ولكنها الحقيقة» وأرادت لو أن تلوى يديها من شدة المعاناة.

مرت بضعة لحظات من الصمت الرابك، ثم ضحكت المرأة وقالت: «مسكين ليو... اليوم، ليس يوما سعيدا له... لقد تشاجر معى ومعك... ناهيك عن أمك فالتشاجر معها أمر طبيعى... أوه! يالها من إخفاقات!»

وراحت تضحك فى عصبية وافتعال وبين قرقرة وأخرى كانت تراقب ميكيلى ورأته وقد تضاعف لديه اللافهم. ضحكت. كانت غرفة الاستقبال تملأها الظلال وكان مصباحى البيانو المثبت بهما شمعتين مزيفتين نُزع فتيلهما، يضفيا نورهما على الغطاء المستطيل اللامع وكأنهما شمعتان وضعتا فوق نعش، ضحكت وكانت ضحكتها سرعان ما تموت فى حلقها أمام وجه ميكيلى الثابت دون حركة وكذلك... نعم كذلك المثير للشفقة بشكل مبهم، وكانت تقرأ على وجهه عبارة مغزاها: «إننى حتماً بصحبة حمقاء لا بد أن استمع إليها واستحسن ما تقول على الدوام، وأجتهد قبل أى شىء فى ألا أثير غضبها»، ولم يكن هناك شىء أشد شناعة من هذا البرود عن طيبة نفس أمام رغبتها فى الوفاق وتعطشها للعاطفة. ثم تحدث ميكيلى قائلاً: «بالتأكيد كان من الممكن أن تسير الأمور بشكل أفضل بالنسبة له».

أطاح ذلك الرد بآخر أوهام ليزا وسيطر عليها يأس متقد مرير.

وقالت فى نفسها: «إنه ينتقم منى... يعتقد أننى قد خونته ولا يريد أن يصغى إليّ، ويرد عليّ هكذا كالأبله».

كان ميكيلى يقف أمامها دون شك، فالنقاء والصدق اللذان كانت تبحث عنهما لم يهجرا تلك العيون وذلك الجبين، عاطفتها كانت صادقة،

ولها وجود حقيقى، وبدا لها أنه لو وجدت العبارات المناسبة لنجحت فى اقناعه بالتأكيد.

قالت وهى تنحنى إلى الأمام: «اسمع يا ميكيلى... ليس ذنبى أنك وجدتنى مع ليو... لقد جاء... ثم كيف لك أن تعتقد بعد الذى دار بينى وبينك فى الصباح، أننى من الممكن أن استقبل هذا الرجل عصراً؟... ثم إنه من المستحيل تماما أن يشغف قلبى حب ليو: إنه إنسان فظ ومادى... إنك تسىء الحكم علىّ... ينبغى أن تغير رأيك فى، أنك تظن أننى تافهة، ماذا أقول؟ سهلة، ولكنني أؤكد لك أنه ليس صحيحا... إنني مختلفة تماما... إنني في حاجة إلى شيء أكثر، لو كنت تعلم كم فكرت في ذلك... شيء لا يكون ظاهريا فقط، جسدا، ولكن أيضا...» وتوقفت فجأة عن الكلام ناظرة إلى ميكيلى، ثم أضافت تقول بصوت أكثرانخفاضاً وأكثر بطءًا وهى تقترب بوجهها من وجه الفتى: «هذا الشىء موجود فيك أنت ولهذا فأنا أقدرك وأحبك...».

قال ميكيلى لنفسه: «هذا ما يسمى التحدث بوضوح». ولم ينطق، وطوح برأسه إلى الخلف قليلاً وهو أكثر حيرة من الاشمئزاز وراح يراقب ليزا، وراحت ليزا تنحنى بكلِ نصفها الأعلى بعيدا عن مقعدها المنخفض وكان جسدها المنحنى ثائراً في ثوبها الضيق وكشفت جونلتها القصيرة عما فوق ركبتيها وكان سمينا أنثوياً ممسوكاً برباط وردى، وأثاره هذا المنظر وقال لنفسه: «إن ليو على حق... إنها امرأة لا تترك». ولكن غمره فى الحال نفور كبير ارتجفت له شفتاه وذلك بسبب هذا الزيف الذى أوحى به إليه حديثه السابق ولخسة هذا الخاطر الذى خطر له وقال لنفسه: «ليس هذا... لا يمكن أن يكون هذا» وخفض عينيه وتراجع فى مقعده إلى الخلف.

وصاحت تقول قبل أن ينطق بكلمة وقد أفزعها أن تراه متصلباً كما كان من قبل بعد ارتباكه الوجيز على اثر رؤيته عريها: «لا... لا تنظر إليّ هكذا... لا تكن هكذا... صامتاً... أرجوك تكلم... قل لى عما يدور فى ذهنك» وساد الصمت، ثم سمع ميكيلى ولأول مرة منذ أن جاء، حفيف الأمطار وهي تتساقط على النوافذ المغلقة وتذكر ليو والمرأتين الذين تركهم فى الفندق.

وأخيراً قال دون أن تظهر عليه علامات السخرية: «ما يدور فى ذهنى؟ أفكر فى أنهم لم يعودوا إلى المنزل بعد... أفكر فى أن الجو سيء... هذا ما أفكر فيه...».

ساد الصمت مرة أخرى، وظلت ليزا على حالها، تنحنى على نفسها لا تجد شيئاً تقوله، فقد باءت كل محاولاتها بالفشل، دون جدوى... وأخذت تنظر إلى حذاء ميكيلي وبدا لها أن ذهنها أصبح معتماً وقالت لنفسها: «كان من الأفضل لو أننى لم أصد ليو... ليكون فى هذه اللحظة على الأقل هو البديل» وأشتد الظلام فى الغرفة وابتلع الحوائط والأثاث وبدأ يتكاثف ويميل على ليزا وميكيلى وأخذ يلف المكان كله وتشكل من خلال القبة المنخفضة الغارقة فى السواد كهف نحته بمشقة إزميل نحات، كهف من النور الخافت. كان الشخصان فى هيئتهما السوداء منحنيين فى هالة الضوء المحتضر يترقبان التابوت الذى تخفق عليه الشموع التى توهجت وذهب نورها وانطفأت فى النهاية.

فصاحت ليزا فى الظلام فى نبرة جُبن: «والآن ماذا يحدث؟»

أجابها ميكيلى: «لا شيء... لسوء الأحوال الجوية انقطع التيار... وما علينا إلا الانتظار».

صمت وظلام وصوت هطول المطر... ثم أحس ميكيلى بيد توضع فوق يده، الأمر الذى جعله يبتسم دون رحمة. وقال لنفسه: «ها هى ذى اللحظة المناسبة، اللحظة المناسبة للصفح والنسيان والاستسلام للعاطفة فى الظلمات المواتية».

ولكن خياله المخمد كان يرفض ذلك التهكم ووجد فى لمسات أصابعها ذريعة لتلك الخيالات المتقدة: سيحاول امتلاك ليزا هذه الليلة سيضمها إلى صدره واخيراً سيقبلها قبلة صادقة جازمة.

وراح يصارع ضعفه هذا للحظة ومرت أمام عينيه صور مظلمة، صورة ليزا وبالأخص ساقيها العاريتين اللتين تتجه نحوهما كل رغباته، والأخرى صورة ذلك الرجل وتلك المرأة اللذين أبصرهما داخل السيارة، وقال لنفسه: «لماذا لا تكون ليزا تلك المرأة؟ ولماذا لا أكون أنا ذلك الرجل؟»

وسمع صوت هطول المطر على جدران الفيلا، وكان الظلام دامساً ولم ينزع يده البلهاء المتأججة عن لمستها الدافئة، ولم يجروء ميكيلى أن يدفعها عنه ويفقدها، وأخذ يّعدِ الثوانى وفكر أن ينتظرِ دقيقة عودة التيار إذ ربما يفرقهما. وقال مناشداً يده وهو يحاول مجتهداً أن يبتسم: «أيتها اليد انتظرى قليلاً... على الأقل بالقدر الكافي للحفاظ على الشكليات». ولكن لم يعد التيار ومرت الدقيقة، وحينئذ انحنى الفتى مدركاً ضعف تصرفه الهزلى وقبّل يد ليزا.

وبعدها فكر وقال لنفسه بين مبتهج ومتقزز: «الآن انتهى كل شيء، وما علىّ إلا أن أشدها وأجلسها على ركبتى وأقبل فمها» وهمّ بأن يفعل ذلك عندما تناهت إليهما أصوات وضحكات فى الممر... وفتح باب الصالون وانقشع الظلام على ضوء شمعة مرتجف جعل الغرفة تتمايل كلها، ورسم ظلالاً هائلة الحجم تقفز على السقف متناوبة مع أشعة الضوء الساطعة، ودخلت أمه ومن خلفها ليو وكارلا.

كانوا يتقدمون بخطوات قصيرة محاولين التعرف على الشخصين الجالسين، وكان ليو يمسك بيده شمعة وبدا بشكل واضح وجهه الأحمر منغمساً تماماً فى الضوء. ووقف بجانبه، جانباً إلى جنب، كل من الأم وابنتها وكان الضوء ينير نصفهما، وكانوا يتقدمون فى حذر ومن خلفهم تسير ظلالهم الضخمة على الحائط وفوق السقف.

وفى النهاية عرفت الأم ليزا فصاحت: «آه... أهذه أنت» وقالت كارلا بدورها: «أنت هنا مرة ثانية؟... هل انقطع التيار منذ وقت طويل؟... إننا رقصنا ولهونا... تصورى أن ليو حمل أمى على أن ترقص الشارلستون».

قال ليو وهو يتقدم: «وكانت بارعة أيضاً».

تنهدت الأم قائلة: «آه... لا تحدثنى بعد عن رقصة الشارلستون يا ميروميتشى» جلست وكان يبدو عليها تعب شديد وأضافت تقول لليزا: «تصورى أنه ابتعد عني ونحن نرقص وراح يحرك ساقيه ويقول لى: "افعلى مثلى" ولم أطعه فى بادىء الأمر ثم فعلت مثله ولكننى بعد خمس

دقائق كنت أرقص أفضل من الآخرين الذين كانوا فى صالة الرقص... إن رقصة الشارلستون ليست صعبة».

قالت كارلا: «ولكن لا يمكن القول بأنك تعرفين هذه الرقصة حقاً».

واعترضت الأم وقد أساءها كلام كارلا: «ولم لا؟ اظرى، سأرقصها الآن أيضاً... إنها سهلة للغاية».

وأصرت كارلا وقالت: «ولكن يا أمى... لا يمكن لك أن تتعلمي فى فترة وجيزة هكذا».

قالت الأم وهى تنهض وقد ارتسمت علامات الغضب على وجهها: «آه... أهو كذلك... إذن... أريدك أن ترى كيف أننى أرقص جيداً... حتى أثبت لك أنه ليس من عادتى الكذب كما تفعلين أنت».

خلعت معطفها وألقته فوق أحد المقاعد، وقالت تخاطب صديقتها: «هل لك أن تعزفى مقطوعة لإحدى رقصات الشارلستون يا ليزا؟ ستجدين واحدة بين تلك الكومة من المقطوعات الراقصة هناك فوق آلة البيانو...». نهضت ليزا وتبعها ليو والشمعة فى يده.

وسألتها صديقتها وهى تقلب بين الاسطوانات فى ضوء الشمعة المتمايل: «ماذا تريدين؟ "فوق الباخرة " أو "ليلة فى نيويورك"؟».

- قالت الأم: «ليلة فى نيويورك».

جلست ليزا أمام البيانو وبدأت العزف فى حين وقف ليو بجوارها يضىء لها المكان. وبقيت كارلا فى مكانها هى وميكيلى يلفهما ظل الحائط المقابل لا يتحركان وينظران فى سكوت.

وراحت ليزا تعزف الموسيقى السهلة غير المتجانسة فى صمت الغرفة وليو يهتف: «هيــا» وبعد أن نظرت الأم إلى قدميها بانتباه بدأت الرقص، وألقت الشمعة ضوءها الضعيف على وجهها المخضب المحتقن والمتغضن، وكان ثوبها ضيقاً يتمدد نسيجه اللامع مع كل حركة متهورة لصدرها وجانبيها، وراحت تطوح بقدميها يمينا ويسارا محاولة تتبع أنغام الموسيقى والمحافظة على تقارب ركبتيها، ولكن يبدو أنها نسيت الدرس الذى لقنها ليو اياه لأنها توقفت فجأة ونظرت إلى عشيقها بخيبة أمل

وقالت: «لا أدرى... إنها ليست نفس الرقصة التى رقصناها فى الفندق... أما هذه فلا أستطيع أن أرقصها».

وقالت كارلا وهى تخرج من ظلام الغرفة: «آرأيت يا أمى... أننى كنت على صواب».

قالت الأم وقد علا وجهها المضىء استياء شديد: «أبداً... ولكنها ليست نفس الرقصة».

قالت ليزا وهى تستدير أمام البيانو: «ولكن أنت التى اخترتينها بنفسك»، تقدم ليو وفى يده الشمعة ووقف داخل دائرة الغضب والاضطراب التى صنعها هؤلاء الثلاثة وقال: «لا شىء يهم... سوف تتقنينها فيما بعد».

لزم الجميع الصمت وهم يتبادلون الأنظار للحظة، وكان المطر قد اشتد وراح يهطل غزيرا ممزوجاً بهبوب الريح على مصاريع النوافذ، ثم قالت كارلا: «علينا أن نذهب لنستبدل ثيابنا... فبعد قليل سيحين موعد تناول طعام العشاء».

وقالت الأم وقد عزمت على أن تنتزع من عشيقها بأى شكل موعداً فى اليوم التالى: «ستبقى لتناول العشاء معنا يا ميروميتشى... أليس كذلك؟»

أجاب ليو: «كلا... بل أعنى نعم».

ومضوا نحو الباب، الواحد خلف الآخر فى خطوة مترنحة، وكانت الأم عندئذ تحمل الشمعة وقالت: «من يحبنى يتبعنى...»، وضحكت كارلا. واقترب ليو قبل أن يخرج من ميكيلى، وكان لا يزال جالساً وقال له: «حسناً، هل عملت ما نصحتك به؟ تذكر ما قلت لك، أن ليزا امرأة لا يستهان بها... إنها بدينة ولكنها ذات خبرة» ثم غمز بعينيه إلى الصبى الصامت غير المكترث وبعدها لحقا بالآخرين. وأرسلت الشمعة آخر ضوء لها أسفل عتبة الباب وغاصت فى ظلام الممر، وكانت أصواتهم لا تزال تعلو ومن بينها صوت الأم التى كانت تقول: «افتحى الباب يا كارلا». بينما لم يتحرك ميكيلى من مقعده وظل جالساً فى الظلام.

وصعدوا السلم جميعاً وهم يتصادمون ويتكلمون، وفى الطابق العلوى، فى الردهة، وجدت كارلا فى الدرج شمعتين أخريين أخذتهما أمها وجرت ليزا معها لكى تريها ثوباً جديداً وقالت: «ياقة مذهبة... سترين أنه من أكبر مصانع الملابس»، وبقى ليو وكارلا وحدهما فى الردهة.

وراحا يتبادلان النظرات، وبدت فى عينى الرجل العابثة رغبة شديدة عنيفة، ووضع الشمعة على المنضدة وراح يزعج بأصابعه الخشنة يد كارلا، إنه شديد الأعجاب بيدها لأنها بيضاء باردة ونحيفة، وأخذ ينظر إلى الفتاة من أسفل إلى أعلا ما بين متحفظ فى إبداء دخيلة نفسه ومتغلغل، وأخذ خياله المعتم يتصور فى تمهل الملاطفات الشائنة التى بإمكان تلك اليد الباردة أن تقوم بها ببساطة لا تخلو من الدهشة. وقال لنفسه: «إنها يد من تلك الأيادى التى تبدو كالزهور لرقتها ولكنها، وإن كانت تمتعنا، فهى قادرة على كل شىء».

وكلما فكر فى ذلك زادت رغبته. وفى النهاية تجمد وجهه وترك يد كارلا وأمسكها من خصرها. وكان واضحاً أن الفتاة لم تكن تتوقع ذلك فهمست له بصوت منخفض وهى تقاومه: «كلا يا ليو... كلا، حذار» وراحت عيناها الخائفتان تنظران حولهما، واخيراً استسلمت ودخلت ليزا فى هذه اللحظة.

رأتهما متعانقين فى وسط الردهة يحيط بهما خمسة أبواب وستارة من المخمل، فارتدت خطوة إلى الوراء واختبأت خلف الستارة، ثم أزاحتها قليلاً ونظرت متلصصة عبر ظل شمعة فوق المنضدة فرأتهما مازالا متعانقين يتمايلان يميناً ويساراً فى قبلة طويلة، وتقفز ظلالهما فى الصمت العميق لتصل حتى السقف. لم تفكر فى شىء وراح قلبها يدق وكفت عن مراقبتهما للحظة، ووقفت فى الظلام بين الباب والستارة الكبيرة وقد استولى عليها الارتباك والرعب، ثم نظرت إليهما فى حذر شديد ووجدتهما قد انفصلا وراحا يتكلمان.

قال ليو: «يبدو لى أن هذه الستارة قد تحركت». وأردف يقول ضاحكاً: «أيتها الروح... إذا كنت هناك فدقى دقة واحدة، وإذا لم تكونى

هناك فدقى دقتين» وكان يقلد محضرى الأرواح وضحكتِ كارلا على مضض وقد ظهر التوتر على وجهها الذى كان نصفه مضيئاً، وودت ليزا وهى خلف الستارة أن تدق بالفعل لتراهما يقفزان فجأة من الهلع وينصبغ وجههما بالحمرة ويملاء الفزع عينيهما.

وقال الرجل: «أجلسى هنا على ركبتى».

وقالت الفتاة: «ولكن... ربما يأتى أحد يا ليو».

ـ «لا تخافى».

سمع حفيف الستارة. واتسعت عينا ليزا: كلا... إنها لا تحلم، فإن كارلا هناك تجلس فوق ركبتى الرجل وتميل برأسها على رأسه، جالسة بصلابة... ثم... هاهو يقبل عنقها.

قال ليو فى مرح: «والآن يا كارلا... إذا كنت هنا فاعطينى قبلة، وإذا لم تكونى هنا فأعطينى قبلتين.» وساد الصمت وأحنت كارلا رأسها الضخمة فى حزن، ووثبت فجأة وصاحت تقول: «كلا يا ليو... لا... هذا لا...» وراحت تتخبط بين تمايل الظلال العملاقة، ثم توقفت، وكانت الشمعة تبعث أضواءً ما بين كثيرة أحياناً وقليلة أحياناً أخرى، وكان ليو وكارلا غارقين فى وضعهما ورأسهما تميل إلى أسفل، لا يتحركان ولا يتكلمان، وكان يُسمع بالكاد، على فترات صرير الأريكة. وعندئذ عادت ليزا إلى غرفة الأم من غير أن يصدر منها أى صوت.

أعقبت دهشتها الأولى فرحة انتقامية، وحدثت نفسها تقول: «سآتى الآن بمارياجراتسيا من ذراعيها وأريها ماذا يفعل حبيبها ليو» ولكنها ما كادت تدخل الغرفة وترى الأم حتى زالت فكرة الانتقام دون سبب.

وجدتها تقطع الغرفة ذهاباً وإياباً وبيدها الشمعة لترى فى زهو فى المرآة تأثير فستانها الجديد.

وقالت تخاطب ليزا وقد اعتراها شعور بالقلق لعيب لاحظته فوق الخصر؛ ثنية خارجة عن مكانها: «ما رأيك... هل أضع شريطاً فوقها؟... أو... أو... ساعدينى يا ليزا...» وأخذت تلف وتلف حول نفسها غير راضية عن هذا العيب.

وكانت ليزا تجلس فى ركن مظلم من الغرفة: وفى تلك اللحظة ودون أن تدرى لماذا، تذكرت ما رأته وتأثرت بشدة وأغلقت عينيها.

وقالت فى تردد: «ولكننى لا أعرف».

قالت الأم متحيرة وهى تنظر بانتباه إلى المرآة: «كيف لا تعرفى أنا هنا اتعذب وأنت تجيبيننى: لا أعرف... ماذا تعرفين إذن؟»

وودت لو أجابتها: «أعرف أشياء كثيرة» ولكن لم تعد لديها أية رغبة فى أن تكشف ذلك السر الذى لم يحسب له حساب: فإن شيئا من التعقل الخاص جعلها تمسك عن الكلام، أى تعقّل؟ إنه تعقّل الكرامة: إنها فى حقيقة الأمر لا تريد أن يظن أحد أن كشفها عن دسيسة ليو الجديدة هو انتقام حقير لعشيقة مخدوعة وليس من منطلق إحساسها بالاشمئزاز من ذلك الفعل وما تحمله من حب لكارلا، لذلك صمتت ولم تتكلم.

وسألتها الأم فى الوقت نفسه قائلة: «لو فى مكانى لوضعتى وردة ذهبية اللون؟»، وكانت الشمعة الممسكة بها تلقى بضوء من القلق على وجهها الرخو.

قالت ليزا فى تردد: «نعم، من المؤكد» ولكنها تذكرت كارلا وليو برأسيهما الملتحمتين وتألمت من ذلك الأمر تألمها من شىء محزن ومزعج، وكانت تلك المرة الأولى التى تشعر فيها بهذا الأحساس.

وقالت الأم: «ما رأيك لو وضعت حزاما... حزاماً صغيراً ذهبى اللون؟»

وظلت تنظر إلى نفسها وكانت تبدو أكثر رضاء. ثم أضافت تقول: «إنه فستان جميل جداً... ولكن تلك الثنية... تلك الثنية اللعينة...» وعلا الريب وجهها المضىء وتساءلت: «ربما ارتدى شيئاً غير مناسب من أسفل؟» ثم وضعت الشمعة على الأرض ورفعت بكلتا يديها الفستان وراحت تفتش بين الملابس الخفيفة التى فوق جسدها. كانت الشمعة تتوهج وتهتز وحيّات سوداء من الدخان تتماوج فى الجو، وكانت ليزا تجلس فوق المقعد فى ركن مظلم من الغرفة ثابتة لا تتحرك ولا تتكلم: وكانت عيناها تتحركان وتتنقلان من النظر إلى ساقى الأم السمينتين

العاريتين إلى الباب الذى من خلفه كان ليو وكارلا يتعانقان فى غرفة الانتظار. واعتراها شعور بالاشمئزاز، شعور آخر جديد بالنسبة لها... شعور باشمئزاز ينبىء بدمار شباب الفتاة وتوقعت بلا مبالاة، الخراب الذى ستتمخض عنه هذه المغامرة ولم تشعر بأى سخط أو أية دهشة... كلا! وعلى العكس وبعد كل هذا العمر أحست بشفقة غامضة نحو الأم وليو وكارلا،نحوهم جميعاً ونحونفسها هى أيضاً. وأخافتها تلك المشاعر الجديدة التى تحس بها فقد كانت متعبة للغاية. وأخيراً تملكتها رغبة هستيرية فى الانصراف والتفكير بمفردها فى تلك الأحداث التى جرت اليوم.

فوقفت وقالت: «سأنصرف».

وقالت الأم التى كانت قد خلعت فستانها وجاءتها بملابسها الداخلية: «فعلاً؟» ولكنها لم تستبقها. وبعد أن عانقتها سارت وراءها حتى باب الغرفة وبيدها الشمعة.

وسألتها عند عتبة الباب: «ماذا ستفعلين هذا المساء؟»

أجابتها ليزا ببساطة كبيرة: «سأذهب إلى الفراش»، ورأت الأم تنظر إليها بانتباه شديد، كمن انتابه الشك وقالت: «إذن وداعاً»، وخرجت وصفقت الباب من خلفها لكى تنبه العاشقين فى غرفة الانتظار.

ونهضت كارلا على الفور من فوق الأريكة وأسرعت إليها وقالت: «سأرافقك حتى الباب... أما أنت يا ليو فعليك بالبقاء خمس دقائق فى الظلام».

وأضاءت الشمعة وجهها المستدير ولاحظت ليزا أن عينيها متعبتين قلقتين وصدغيها شاحبين أكثر من المعتاد. وفجأة شعرت برغبة فى أن تتكلم وتنطق بما رأت، ولكن كانت كارلا قد أدارت ظهرها ونزلت السلم.

وأثناء نزولها السلم ومع كل درج من أدراجه كانت تزعجها تلك الفكرة: «يجب أن أتكلم أم لا؟» وكانت تنظر إلى وجنات كارلا البريئة ورأسها الكبير وازداد شعورها بالشفقة نحوها.

وقالت لنفسها: «إن مارياجراتسيا هى السبب لما وصلت إليه هذه الصغيرة المسكينة من أوضاع سيئة». ووصلا إلى البهو ومازالت ليزا تفكر: يجب أن تتكلم أم لا؟ إنها لم تشعر من قبل بهذا التردد المزعج ولا بهذا الأحساس الجديد القوى نحو كارلا: الشفقة. وراحت تردد وتقول: «إن الذنب ليس ذنبها». ودّت لو عبّرت بحركة أو بلمحة بدون كلام يشير مباشرة إلى سر الفتاة المشين، ولكنها لم تستطع فعل ذلك.

ولبست قبعتها ونظرت إلى المرآة على ضوء الشمعة التى تحملها كارلا دون أن تكف عن مفاحصة الفتاة. وسألتها فجأة: «ماذا بك؟... لا تبدين لى كعادتك كل يوم»

قالت كارلا وهى تبدو مندهشة: «أنا؟... ليس بى شىء».

استطردت ليزا تقول: «هل تعرفين أنك شاحبة اللون؟... يبدو لى أنك ترهقين نفسك كثيراً».

لم تنطق كارلا. وتساءلت هل يجب عليها أن تتكلم أم لا؟ وارتدت ليزا معطفها وعندما همت بأن تخرج أمسكت بيد كارلا وتبادلت المرأتان النظر، ولم تحتمل الفتاة نظرات صديقتها الثاقبة وخفضت عينيها.

وقالت ليزا فجأة بصوت منفعل: «كارلا... لقد تغيير حالك... ماذا حدث لك؟»

ـ «لا شىء».

واستولت الحيرة على ليزا، وترددت فى الرحيل: ثم قالت فى حدة: «إذن قبلينى». وتعانقت المرأتان، ولكن ليزا أحست بحزن شديد بالرغم من تقبيلها للوجنتين الباردتين الخاليتين من رقة الإحساس بشكل ما، وقالت لنفسها فى شىء من الأسف: «ما كان هكذا... ما كان يجب أن أتكلم هكذا». وأضافت تقول فى حيرة: «تذكرى أن تأتى إلىّ إذا واجهتك أية مشكلة أو أحزان وأن تخبرينى بكل شىء... ولا تخفى عنى شيئاً»

قالت كارلا فى خجل: «طبعاً... طبعاً» وخرجت ليزا وأغلقت الباب.

وصعدت كارلا إلى الطابق العلوى وهى تفكر، فقد أفزعها حوار ليزا على نحو مربك، وتساءلت: «هل فهمت شيئا يا ترى؟» ولكنها كلما

فكرت فى هذا الأمر كلما بدا لها بعيد الاحتمال لأن مغامرتها مع ليو لم تبدأ سوى من يوم واحد، ولم تقض ليزا فى البيت سوى وقت قليل، مستحيل... إلا إذا كان اختفاؤها غير المبرر هى وليو من الردهة بالأمس قد أثار ظنونها. وقالت لنفسها دون أن تدرى إن كان فى سعادة أو فى حزن: «مهما يكن سواء خمنت أم لا... فقد فات الميعاد وسأذهب الليلة إلى بيت ليو».

وصعدت السلم فى بطء يتبعها الضوء المرتجف للشمعة التى بيدها والتى تعكس على الحائط ظلاً غريباً مضحكاً برأس ضخم. قالت لنفسها: «إننى ذاهبة هكذا نحو حياتى الجديدة». كانت تود أن تشعر بهدوء تام ولكنها لم تستطع فقلبها راح يرتعش ومن العبث إخفاء ذلك، وعصف بها إحساس من الضيق والتردد وفكرت وهى تتنهد بشدة وبراءة: «ليت الساعات تمر سريعاً... ليت الليلة تمر سريعاً: هذا فقط ما أريد».

وعلى ضوء الشمعة رأت ليو جالساً فى مقعده فى غرفة الأنتظار المظلمة، فوضعت الشمعة على المنضدة وجلست بجواره وبدأت تتكلم لمجرد أن تقول شيئاً: «يا له من سأم، أليس كذلك؟ هذا النور الكهربى الذى يأبى أن يعود» ولكن الرجل لم ينطق بكلمة وأخذ يدها وقال: «إذن، ستأتى إلى بيتى الليلة؟»

ولم تجد كارلا الوقت لكى ترد فقد انفتحت ستائر أحد الأبواب الخمس ودخلت مارياجراتسيا.

كانت تحمل فى يدها الشمعة، وقد التفـّـت فى شال أسود كبير وعلى وجهها المضىء تعبير خبيث، وقالت تخاطب عشيقها دون أن تجلس: «لقد انصرفت ليزا... ولعلك يا ميروميتشى كنت تؤثر أن أدعوها للعشاء، أليس كذلك؟... ولكن ماذا تريد؟... ليس كل ما يتمناه المرء يدركه، ثم إنك ستمنح هكذا صديقتك العزيزة الوقت الكافى لكى تستعد لزيارتك... الليلة».

وضحكت ضحكة مكبوحة لتبرز كلمة " ليلة " ومضت إلى السلم دون أن تنتظر الرد.

صاحت كارلا وهى تنهض: «أين تذهبين يا أمى؟»

أجابتها أمها من غير أن تلتفت وهى تهبط فى بطء أدراج السلم، درج درج، وتمسك الشمعة بيد وتستند بالأخرى على الدرابزين الخشبى: «أظن أن ساعة العشاء قد حانت» ثم قالت لليو: «ولكن إذا أردت يا ميروميتشى أن تلحق بليزا فلا تتردد... فالأمر بالنسبة لى سيان» وتلاشت الإضاءة وعاد الظلام وضاعت الكلمات الأخيرة فى الجزء الآخر من صدفة السلم، خلف ركن الدرج الضيق. واستدارت كارلا التى كانت تتابع بعينيها هبوط الأم إلى أسفل الدرج.

وقال لها ليو وهو جالس فى مقعده: «لا جدوى... إن أمك لن تتغير أبداً... إذا ما تسلطت عليها فكرة فلا يستطيع أحد أن ينتزعها منها».

ثم صمت وأتى باشارة جازمة، ومضت لحظة دون أن يتكلما، ونظرت كارلا إلى عشيقها فى قلق كالمذعورة وشرعت تقول فى النهاية: «أظن أن ليزا خمنت شيئا».

ــ «كيف؟»

ــ «لا أدرى... ولكن يبدو ذلك من اللهجة التى كلمتنى بها».

وأتى ليو بحركة استعلاء ثم قال: «بالنسبة لى... فلتخمن ما يحلو لها» وبحركة سريعة حاول أن يجذب الفتاة إليه ولكنها قاومته دون سبب، وقالت محتجة وهى تضغط بيديها على كتفيه: «كلا... كفى ما فعلت الآن» وقال الرجل متضرعاً وهو يمد عبر الظل وجهه المنفعل محاولاً أن يمسك الفتاة من خصرها: «هيا... ما الذى أصابك؟ قليل فقط مثل ما فعلنا من قبل».

ولكنها قالت: «كلا» وراحت تقاومه فى عنف غير معتاد وقد امتلاءت عيناها غضباً وعندئذ اصطدمت بالمنضدة فوقعت الشمعة التى فوق حافتها على الأرض وانطفأت. وساد ظلام شديد وبعد أن هبطت كارلا السلم مسرعة ومضطربة، خيم الصمت.

وقال ليو وقد بقى وحده فى الظلام: «ما أغرب هذه الفتاة... تركتنى أجردها من ثيابها... وبعد خمس دقائق تأبى أن أقبلها ولو على جبينها...».

لم يكن منزعجاً وإنما كان مذهولاً بعض الشيء، وخمدت شهوته. وراح يردد النظر في الظلام الذي يحيط به وهو يبحث في جيبه عن علبة الثقاب، ثم أضاء عودا وانحنى وأخذ الشمعة وغرز بها الشعلة وقال: «فلأذهب الآن لتناول الطعام».

نهض ومشى بضع خطوات ولكن تذكر فجأة أنه نسى أن يقول لكارلا متى وكيف يلتقيان الليلة ليذهبا إلى بيته. فعاد إلى المنضدة ووضع الشمعة فوقها وعلى ضوئها الخافت كتب بقلم حبر من الذهب على إحدى بطاقاته أخرجها من محفظته العبارة التالية: "سأنتظرك في خلال ساعة بالسيارة عند باب الحديقة " وقال يحدث نفسه «سأعطيها هذه البطاقة عند انصرافي» وبكل رضاء أخذ الشمعة ونزل السلم.

كانت هناك شمعة واحدة تضيء فوق المائدة المّعدة، وكانت الغرفة غارقة في الظلام ولم يتبين من ميكيلي وكارلا وأمهما الجالسين في أماكنهم غير وجوههم المضاءة بالكاد وجلس ليو بدوره وراح يأكل في صمت. وانتهوا من تناول الطبق الأول دون أن يتحدث أحد منهم وكان الأربعة ينظرون إلى ضوء الشموع المهتز دون أن يّسمع لهم صوت، فقد كان كل منهم يفكر في شيء يزعج خاطره ويقلقه، ولكن الأم كانت أكثرهم تركيزاً وانشغالاً دون أي شك، كانت تسند ذقنها على راحتيها المجتمعتين وظهرت الغضون القبيحة بين ثنيتي شفتيها وراحت تنظر بعينين شاردتين إلى تراقص الشعلتين الصامتتين.

ونظرت أخيراً إلى عشيقها وحينئذ علا وجهها معاناة مّرة وسخرية لاذعة ثم قالت بصوت حرون مخاطبة الأربعة دون تمييز: «أريد أن أعرف... لماذا لا بد أن يكون في الحياة ناس يختلقون الكذب... هذا ما أود أن أفهمه... إنهم يأتون أفعالاً... أقر أنه من الممكن فعلها ولكن ما يثير غضبي هو إخفاؤها بعد ذلك والكذب وتحريف الحقيقة».

ساد الصمت. لم يرغب أحد في أن يكون مسئولاً عن خوض الأم في هذا الطريق برد متهور. وراحت تنظر إليهم جميعاً واحدا تلو الآخر كما لو كانت تريد حثهم على الكلام، ولكن ليو وكارلا خفضا عيونهما وأدار ميكيلي عينيه في مكان آخر. وبعد الهجوم غير المباشر قررت أن تهاجم

ليو مباشرة فقالت وهى تتجه إليه: «فأنت مثلا يا ميروميتشى، لك مطلق الحرية فى أن يكون لديك التزام بعد العشاء، وما من أحد يمنعك من ذلك حتى لو انصرفت فور تناولك طعام العشاء من المنزل الذى كنت ضيفاً عليه على الرغم مما فيه من مجافاة شديدة للأدب... ولكن لماذا لا تقول الحقيقة بدلاً من اختلاق الأكاذيب... وتقول أنك مدعو لحفل استقبال لا يمكن أن تتخلف عنه وأنك ذاهب لزيارة السيدة سميتسون فى حين أنها موجودة الآن فى ميلانو... إلخ... إلخ؟... قل لى من الذى يجبرك على هذا؟ من الذى طلب منك أن تختلق كل هذه الأكاذيب الحمقاء... ؟ ثم إن هذه ليست كذبة فحسب وإنما هى إهانة لى، كما لو كنت بلهاء غير جديرة بأن أفهم ثمة أمور...، بينما كان من الأسهل لك أن تقول الحقيقة: " سيدتى العزيزة يجب أن انصرف الساعة كذا... لأذهب إلى فلان... " فأرد أنا عليك: " اذهب أينما يحلو لك... حتى إلى الشيطان إن أردت " وتنتهى المسألة عند هذا الحد».

صمتت ورفضت بإشارة من يديها الطبق الذى قدمته لها الخادمة فى الظلام، كانت يداها ترتعشان من شدة الانفعال وبحركة آلية أقصت عنها أدوات المائدة والأكواب وأعادتها إلى مكانها.

ولما رأت أن ليو لا يريد أن يتكلم صاحت: «ولكن قل شيئاً... تكلم... قل الحقيقة ولو مرة واحدة».

نظر الرجل إلى عشيقته غضباً، وقد بدأ يشعر بالضيق إزاء إصرارها هذا وقال يحدث نفسه وهو ينظر فى كراهية إلى وجهها الناضج الأحمق: «إنها تستحق أن أصفعها على وجهها لمدة ساعتين على الأقل» ولكنه تناول ما قدم له من طعام وقال: «ليس عندى ما أقول».

استشاطت الأم غيظاً إزاء تلك الكلمات وعدم الاكتراث وصاحت: «كيف هذا؟... إننى أتهمك بحق بالكذب وأنت لا تذكر الأسباب التى تدفعك إلى هذا التصرف وحسب وإنما ترد على بشكل غير لائق... كما لو كنت أنا المخطئة... هل تريد أن تعرف ماذا تكون... إنك وقح».

لم يكن ليو يرد عادة على لوم عشيقته، ولكن هذه المرة بالذات انتابه نفاد صبر هلوع غير معتاد وذلك بسبب الإثارة التى حركتها الفتاة فى

جسده، كما أن المسبة فى واقع الأمر قد جرحته وشعر بالإهانة، فصاح فى حدة وقد تحول فجأة وسريعاً عن الصينية التى تمدها إليه الخادمة: «أسمعى... لنفرغ من هذا الأمر نهائياً وإلا فسأضطر أن أرد عليك بشكل غير لائق... إننى أحتملتك ولكن لم يعد فى مقدورى أن أحتمل المزيد».

قالها، ثم رمى عشيقته للحظة بنظرة جافة مهينة جعلت المسكينة تفقد أنفاسها، وقد زاد من غضب الرجل ذلك الضوء وتلك الظلمة اللتان كانت تحركهما الشمعتان مع كل ومضة. كان الغضب يكسو فكيه حيث تظهر عليهما أسفل جلده الأحمر الحليق أعصاب معقدة لجوجة. وعلا زوايا عينيه التى تحدق فى الأم فى غضب خطان وحشيان من التعب الحسى. وقد أبرزت الظلال مخروطية الشكل التى تغطى نصف ذقنه حركة فمه الساخرة ما بين رافض وصارم كمن يريد أن يتماسك عن الصراخ فى وجه شخص.

وراحت مارياجراتسيا تنظر إلى ذلك الوجه الذى غابت عنه الرحمة وهى مندهشة خائفة واقفة عند منتصف ازدرائها الفصيح، ذلك المنجنيق الذى أصاب وجهها، وارتعش جسدها ألماً وانخلع فؤادها وكادت تختنق من أحساسها الشديد بالتعاسة ومن الانعدام التام للشفقة والحب.

كانت تود لو صاحت: «لولو... لا تنظر إلىّ هكذا» ثم تغطى وجهها بيديها، ولكنها ظلت ثابتة لا تتحرك وهى خائفة وراحت تكرر فى صوت مرتبك فى رأسها الفارغة هذه الكلمات: "إننى أحبه... وهو يعاملنى بهذه القسوة".

ورأت ليو يتحول عنها ويتناول فى هدوء شريحتين كبيرتين من اللحم وبعض الخضر، ليس هناك ما يُقال، فالأمر لا يمكن إصلاحه، واغرورقت عيناها بالدموع وألقت المنشفة فوق المائدة ونهضت فى صعوبة وقالت: «لا أشعر بالجوع... استمروا أنتم فى تناول طعامكم...» وخرجت مسرعة وقد تعثرت قدماها فى السجادة.

وأعقب هذا الخروج المفاجىء صمت كبير، وكان ليو قد أمسك السكين والشوكة فبقى ممسكا بهما بيديه وعلى وجهه علامات الاندهاش ونظر إلى الباب المظلم الذى اختفت خلفه الأم، ونظرت كارلا كذلك

بعينينٍ مذهولتين إلى هذه الناحية، ثم تحول ميكيلى الذى كان أقل الثلاثة ذهولاً إلى الرجل وقال له دون غضب فى نبرة من يشعر فقط بملل كبير: «ما كان يجب أن ترد عليها بهذه اللهجة، فأنت تعرف كم هى مندفعة... وسنواجه الآن مشاكل لا آخر لها».

قال الرجل فى شدة: «لكننى لم أقل لها شيئاً... إذا كانت تعانى من أعصابها المهزوزة فما عليها إلا أن تعالجها... لن يحق لى الآن أن أتكلم!».

قال ميكيلي وهو يحدق فى عينى الرجل: «إنكما تكثران من الكلام... تكثران جداً».

تذمر الآخر قائلاً: «هذا هراء... إن أمك هى التى تكثر من الكلام... وليس أنا».

وسكت للحظة وراح ينظر تارة إلى طبقه حيث الطعام الشهى بدأ يبرد وتارة أخرى إلى الباب الذى خرجت منه الأم، ثم قال: «ولكن ماذا نفعل الآن... ليس من المعقول أن لا تأتي لتتناول طعامها».

وسادت لحظة صمت ثم وضعت كارلا المنشفة على المائدة وقالت: «إن ميكيلى على حق... وأنت يا ميروميتشى ما كان يجب أن تعامل أمى هكذا... إن لها عيوبها ولكنها امرأة... فقد تصرفت تصرفاً غير لائق». ثم نهضت وظلت لحظة قلقة: ما سوف تقدم عليه يثير اشمئزازها ويشعرها بمعاناة لا تحتمل.

ولكنها فى النهاية دفعت مقعدها جانباً وقالت: «سأذهب إليها لأرى ما إذا كانت ستأتى» ثم خرجت.

وكان البهو غارقاً فى ظلام تام وتقدمت وهى تتحسس طريقها على طول الحائط وتقول: «كان يجب أن آتى بالشمعة»، وتذكرت فجأة أن أمها لجأت ذات يوم إلى غرفة الصالون بعد موقف مشابه لهذا وخطت عدة خطوات وتعثرت قدماها بشدة فى السجادة فكادت تسقط، وشعرت بضيق شديد تجاه مارياجراتسيا الناضجة ذات التصرفات الصبيانية وقالت

لنفسها فى مرارة وهى تمسك بيدها مقبض باب الغرفة: «يجب أن ينتهى كل هذا... سأذهب الليلة إلى بيت ليو... وسينتهى كل شىء».

وبدا لها أن الظلام الذى يملأ عينيها تسلل إلى روحها دون أن تدرى كيف. وعادت تقول: «فلأذهب إلى هذه الأم الحمقاء» وبدت قاسية القلب نحو أمها بالرغم من إحساسها العميق بالألم من تلك القسوة.

وعضت شفتيها ودخلت إلى الغرفة.

ووجدت أمها جالسة فى ركن من أركان الغرفة كما توقعت، وسمعت فى تلك الليلة صوت بكاء وتنهد لشخص ليس ببعيد وكان يعلو زفيره من آن لآخِر. وقد أفسح غضب كارلا المكان ليحل محله أحساس أكثر اعتدالاً.

وتقدمت فى الظلام فاتحه ذراعيها وقالت لأمها فى صوت واضح: «أين أنت يا أمى؟»

لم يجب عليها أحد. وفى النهاية وبعد أن اصطدمت بالأثاث عدة مرات أمسكت بكتف أمها التى كانت كما يبدو جالسة على أريكة فى ركن الغرفة.

وسألتها وهى تهزها قليلاً وتنظر إلى أعلى نحو السقف الخفى، كما لو كان الظلام لم يملأ المكان وكأنها لا تريد أن ترى أمها باكية: «ماذا تفعلين هنا؟... تعالى لنذهب هناك».

وأجاب صوت مارياجراتسيا: «كلوا أنتم... آننى لن آتى» وتنهدت كارلا تنهيدة بين فروغ صبر وحزن، ودارت حول الأريكة وجلست بجوار أمها وقالت وهى تضع يديها على كتفى أمها الباكية: «هيا يا أمى... هيا... أؤكد لك أن ليو لم يكن يقصد... وأنه أول من ساءه ما حدث».

وسمعت صوت أمها يجيب فى حسرة ومرارة صبيانية: «يا إلهى! كم أنا تعيسة... كم أنا تعيسة».

وارتعشت كارلا وعادت وقالت فى صوت أكثر تردداً: «هيا يا أمى».

وعلا صرير الأريكة وأحاطت الأم عنق ابنتها بذراعيها وشعرت بصدغ أمها المبلل بالدموع على صدغها.

وقالت وهى تبكى: «قولى لى يا كارلا... هل تظنين حقاً أنه عاد إلى حب هذه المرأة؟»

سألتها كارلا فى ارتباك: «أية امرأة؟»

وأحست بصدر أمها الرخو اللاهث على ذراعيها، ولم تدر ماذا تفعل. يجب أن تواسى أمها وهذا ما آثار اشمئزازها لأنه عمل لا تقره الطبيعة. وعادت تقول لنفسها: «عليها أن تكف عن البكاء».

وقالت الأم فى إصرار وهى تنتحب: «إنها ليزا... ألم ترى أنهما انصرفا معا بالأمس؟ إننى واثقة أنهما عادا يتحابان من جديد... آه كم أنا تعيسة...».

ودت كارلا أن ترد على أمها وتقول: «إنه يحبنى أنا»، ولكن هل هذا صحيح؟ وشعرت بنفور مفاجىء مما يحدث من حولها. وسمعت صوت أمها تقول فى حسرة: «ماذا فعلت له لكى استحق كل هذا؟... لقد ضحيت بكل حياتى من أجله... وها أنت ترين الآن كيف يعاملنى».

ودت لو كانت على بُعد مئة ميل. قالت فى النهاية: «أنا لا أعرف شيئاً»، وهمت بأن تتحرر من ذراعى أمها عندما أضىء نور مصباحى المعزف هناك فى نهاية الغرفة فى هدوء، كما لو كان أحد قد أدار مفتاح الكهرباء.

تبدد الظلام وافترقت الأم عن ابنتها فجأة بحركة غريزية، وانحنت وتمخطت، ونهضت كارلا.

وسألتها مارياجراتسيا وهى تقف: «هل تبعثر شعرى؟ وهل وجهى محتقن؟».

نظرت إليها الفتاة ورأت صدغيها تعلوهما علامات شاحبة، وكانت شعثاء أنفها محتقن وعيناها ضيقتان، كأنها تعانى من نزلة برد شديدة وقالت: «كلا... إنك على ما يرام».

وخرجا من الغرفة إلى البهو الذى كان مضيئاً، واتجهت مارياجراتسيا إلى إحدى المرايا المستديرة ورتبت ملابسها وشعرها، ثم عادا معاً إلى غرفة الطعام، كارلا ووراءها أمها.

كان النور قد عاد إلى غرفة الطعام أيضاً، وكان ليو وميكيلى جالسين الواحد أمام الآخر يتحدثان فى هدوء.

قال الأول: «من الصعب أن ينجح فى الأعمال... من لا يفهم فيها ولا يضع أمواله فى يد من يفهم». وما أن رأى المرأتين حتى كف عن الاكتراث بالصبى. ثم قال وهو ينهض ليستقبل مارياجراتسيا: «نحن صديقان الآن، أليس كذلك يا سيدتى؟»

أجابته الأم ببرود وتباه: «إلى حد ما» وعادت لتجلس فى مكانها.

وانتهى العشاء فى صمت: فالجميع كانت تسيطر عليهم بعض الأفكار ولم يتحدث أحد.

كان ليو مضطرباً يقول لنفسه وهو ينظر إلى مارياجراتسيا: «فالتذهب إلى الجحيم!»، وبالرغم من عدم اكتراثه بسلوك المرأة إلا أن ذلك البغض غير المعتاد لم ينذره بشىء طيب. أما الأم فكانت تبحث عن وسيلة لتنتقم من ليو، فقد تلاشى ألمها وحلت محله غصة قاحلة وكانت تقول لنفسها منتصرة: «إنه يريد أن اتنازل له عن الفيلا مباشرة، ولكننى سوف أبيعها فى المزاد».

فهى لا تدرك المنفعه الحقيقية وراء تلك المضاربة ولا تعرف قيمة الفيلا ولكن خيل لها بشكل غير جازم أنه بالإضافة إلى مضايقتها لعشيقها ربما ستحصل بهذا الشكل لبيع الفيلا على عدة آلاف من الليرات زيادة على القيمة المحددة. وكانت كارلا تفكر فى الليلة القريبة، واستولى عليها اضطراب شديد وراحت تتساءل: «هل وعدته حقاً؟ هل يجب أن أذهب إليه هذه الليلة؟» أما ميكيلى فقد أرهقه شعوره بالقلق، فقد بدا له أن موقفه أثناء المشاجرة التى وقعت بين أمه وليو قد بلغ درجة من عدم الاكتراث لا مثيل لها، وقال محدثاً نفسه: «لقد ضاعت فرصة جيدة لأتشاجر معه فيها وأنهى علاقتى به».

الفصل الثامن

خرجوا في النهاية من غرفة الطعام، بخطوات محسوبة، وهم يشعلون السجائر وينظرون خلسة في مرايا الممر، وذهبوا إلى الصالون.

وقال ليو على الفور وهو يجلس إلى جانب مارياجراتسيا على الأريكة: "هذا المساء أنا على استعداد لأن أستمع لبعض المسيقى الكلاسيكية الجيدة... هيا يا كارلا، وقال موجها حديثه تجاه الصبية: " اعزفي لنا ما تريدينه أنت، بيتهوفن أو شوبان، على أن يكون شيئا من الزمن القديم الجميل، عندما كانوا لا يستخدمون الجاز الذي يجلب الصداع... ". وضحك بمودة ووضع ساقا على ساق.

وقد ألحت الأم التي لم يكن يبدو حقا أنها تستفيد من الموسيقى لكي تتمكن من الحديث بمزيد من الحرية مع عشيقها ؛ "نعم، اعزفي لنا شيئا ما، على سبيل المثال... تلك المتتالية، من كان مؤلفها؟ آه! نعم باخ... فقد كنت ماهرة فيها جدا".

وقد أعجبت فكرة الموسيقى ميكيلي للغاية؛ فكان يشعر بأنه متعب وغاضب، ولم تكن الصورة التقليدية للحن الذي يُفهم على أنه نهر حلو يمكن أن نغوص فيه وننسى تبدو له حقيقية كما هي الآن وفكر وهو يغمض عينيه: "الموسيقى؛ وليذهب إلى الجحيم كل البؤس... : الموسيقى الحقيقية".

وقد نبهتهم كارلا بقولها: "إنني لم أعد أعزف منذ وقت طويل: وهذا يعني ألا تكونوا قاسيين أكثر من اللازم". وذهبت إلى البيانو، وفتحته وفحصت بعض القطع الموسيقية وأعلنت في النهاية: " متتالية باخ".

وبدأت النغمات الأولى تتردد؛ وقد أغلق ميكيلي عينيه واستعد للاستماع إلى اللحن؛ وكانت وحدته ومحادثاته مع ليزا قد وضعت في جسده احتياجا كبيرا للصحبة والحب، وأملا بالغا في أن يعثر بين كل أناس العالم على امرأة يمكن أن يحبها بإخلاص، دون سخرية ودون

استسلام للأمر الواقع وقال في نفسه: "امرأة حقيقية"؛ امرأة نقية، لا زائفة ولا غبية، ولا فاسدة... والعثور عليها..هذا بالفعل يمكن أن يضع كل شئ في مكانه الصحيح". وحتى الآن لم يعثر عليها، ولم يكن يعرف حتى أين يبحث عنها، ولكن كانت في مخيلاته صورتها بين المثالية والمادية التي كانت تختلط مع الصور الأخرى في ذلك العالم الخيالي الغريزي والصادق الذي كان يود أن يحياه؛ وكانت الموسيقى ستساعده في إعادة بناء هذه الصورة المحبوبة... وها هي تتشكل بالفعل تلك الصورة بينه وبين كارلا، بتأثير ابتهاجه ورغبته أكثر من تأثير الموسيقى نفسها، منذ النغمات الأولى... فقد كانت صبية، وكان يستشف هذا من نحافة الجسم نفسه، ومن العينين ومن مشيتها كلها، التي كانت لطيفة جدا في الحقيقة، وكانت تجعله يلف كتفيه تقريبا وهو يلاحظها بانتباه، دون إطراء، ودون أي ظل للفسق،أوه لا، وكان بوسعه أم يقسم على ذلك، ولكن بذلك الفضول الصريح والمذهول الذي ينظر به الأطفال لأترابهم: وقال في نفسه: "رفيقتي": وكانت تتشكل وتمرفي سماء خياله الجامح حركات، ومايشبه العناق، وابتسامة وحركة من يده وأحداث ونزهات ومحادثات، عندما قطعت خياله ثرثرة كثيفة وهادئة وأعادته إلى الواقع.

كانت والدته التي تقوم بإتمام غايتها في الاستفادة من الموسيقى للتحدث مع عشيقها:

وكانت تلح وهي تنظر بغلّ لعشيقها شارد الذهن: "إذا كنت تريد يا ميروميتشي يمكنك الذهاب أيضا على الفور إلى حفلتك تلك... ؛ فليست هناك حاجة لأن تضايق نفسك هنا بالاستماع إلى الموسيقى... لن يمنعك أحد... اذهب... اذهب إلى حيث ينتظرونك".

نظر ليو إليها نظرة ثابتة؛ ولم تكن لديه أية نية للتشاجر؛ وأشار في اتجاه كارلا كما لو كان يريد أن يقول: "الآن لا... الآن نحن نستمع إلى باخ".

وألحت الأم قائلة: "بالتأكيد؛ أنت هنا تتضايق... لا تقل لا... : لقد رأيتك تتثاءب بعيناي... نحن نضايقك، ومن ناحية أخرى لا نستطيع أن نرقص لكي نسليك... اذهب إذن إلى ذلك المكان، حيث سيستقبلونك

بالأحصان ولن يقوم أحد بالعزف، ولن يزعجك أحد... اذهب... ". كانت تتحدث ولم تكن تتوقف عن الابتسام بغباء، وقد استولت عليها دوامة من الغيرة، لمجرد التفكير في ليزا: وأضافت قائلة: " ثم إنه سيكون من سوء الأدب فعلا عدم الذهاب لحفلة سميثسون... ومن يدري كم من الناس سيكونون هناك... وربما أعد قطارا خاصا لكي يحضر مدعويه حتى ميلانو... ".

كان ليو على استعداد لتقديم أي شئ لكي يتخلص من هذا الضيق؛ فهز رماد السيجار، والتفت بهدوء نحو والدته:

وقال: "إذا كنت قد كذبت فقد كان هذا فقط احتراما لك، لكي لا تعتقدي أن الناس تتضايق في بيتك... و الحقيقة أنني هذا المساء لن اذهب لأي حفلة ولكن للنوم... فلم أذق طعم النوم لليال طوال حتى الساعات الأولى من الصباح، وأشعر بالتعب... و هذا المساء أريد أن أخلد إلى النوم مبكرا".

وصاحت والدته وقد بدا على وجهها أنها تعرف بواطن الأمور: "آه نعم ؛ هكذا أنت تريد الذهاب إلى النوم... ويغالبك النعاس ولم تنم لساعة متأخرة كل ليلة، وهذا واضح، مؤكد، أنك لا تستطيع الوقوف على قدميك، ولم تعد تستطيع مغالبة النعاس... مسكين!... لو تعلم مدى الشفقة التي أشعر بها نحوك".

ورد ليو وقد اشتاط غضبا رغما عنه: " إنني لست بحاجة لاستدرار شفقة أي أحد"

وسألت ماريا جراتسيا فجأة قائلة: "ولكن ألا تلاحظ أنك تسرد الأكاذيب الواحدة تلو الأخرى؟؛ في البداية كان سميثسون، والآن النعاس... : عليك أن تخجل من نفسك".

"إنني لا أخجل، ولماذا يتعين عليّ أن أخجل؟"

"اسكت، من فضلك... ".

رفع ليو كتفيه ولم يقل شيئا ؛ وكان ميكيلي يراقبهما من مقعده الوثير بامتعاض: وكان يقول في نفسه: "عسى أن يأخذهما الشيطان؛ لم يعد من

الممكن حتى سماع الموسيقى... لديهما دائما واحدة من مناقشاتهما المسكينة " ؛ وكانت الصبية المحبوبة قد زاغت؛ وكانت هناك مجموعة مختلطة من النغمات بلا معنى: ها هي الموسيقى ؛ وكانت الأم وليو ينتشيان بالنصر.

استمرت الأم في الحديث في أذن الرجل وهي تقول: "النوم هه! ؛ النوم أليس كذلك؟ ولكن هل تعلم؟ أنني أعلم كل شئ، هل تفهمني؟ كل شئ! أعلم ما حدث مساء أمس وهذا المساء، كل شيء".

انفجر ليو قائلا دون أن يلتفت إليها: "ولكنك لا تعلمين شيئا"، ونفث أمامه سحابة من الدخان ؛ وكانت كارلا هناك، وقد أدارت له ظهرها المكتنز، الممتلئ: وقال هو في نفسه: "يا لها من ليلة"، "يا لها من ليلة!... لم تبق سوى ساعات قليلة وتبدو لي دهرا ". وكانت عيناه المحدقتان والساكنتان، تتجاهلان الأم وميكيلي وكل الصالون... وكانت الرغبة تهيئ له بعض الرؤى... : ها هي كارلا عارية تماما، وهي جالسة على ذلك الكرسي الصغير، أمام البيانو؛ وكان يبدو له أنه يرى في ذلك الركن الملئ بالظل ذلك الظهر الأبيض الذي يقسمه خط منحن، والجوانب العريضة والمستديرة، والآن عندما تلتفت النهدان أيضا. ولكن الموسيقى كانت قد انتهت وعاد الواقع؛ وعندما صفق لها ميكيلي، الذي كان ودودا على غير العادة، تحدثت الصبية:

وسألته: "هل أعجبتك؟"

فقال ليو: "جدا، نعم جدا، مرة أخرى يا كارلا".

وتدخلت الأم قائلة: "كلا يا كارلا؛ لا، لا تعزفي؛ إن ميروممينشي لا يتضايق فحسب بل إنه يتوق للرحيل أيضا... لم يعد يحتمل مقاومة النعاس، ويريد النوم... فلماذا نمنعه؟" وقالت لعشيقها: "هيا"، وألحت بصوت عنيد وهي تجذبه من كمّه؛ "هيا، اذهب للنوم".

حرر ليو ذراعه وابتسم على مضض؛ وراودته رغبة شديدة في أن يسدد صفعتين مهيبتين لعشيقته التي لا يمكن إصلاحها؛ ونظرت كارلا للإثنين برهة وكانت تكرر قولها: "وهل عليّ أن أذهب إلى بيتك في هذه الليلة بالذات؟"؛ وكان يبدو لها غريبا، الآن كانت تجلس أمام البيانو، وبعد

ساعتين ستكون في غرفة نوم عشيقها؛ ولكن بما أنها كانت تخمن نفاذ الصبر عند الرجل الذي يتحرق شوقا، فقد أرادت الاستمرار في العزف، لكي تؤجل بقدر الإمكان اللحظة الأخيرة من انشغالها من ناحية، ومن أجل بقية من الخيلاء من الناحية الأخرى. وقالت بحزم: "حسنا ": "إن ليو لن يذهب من هنا وسيتضايق لعشر دقائق أخرى...: أليس كذلك يا ليو؟". وفتحت كتابا كبيرا وبوجه منتبه ومشغول البال بدأت العزف من جديد.

وقال ليو في نفسه: "آه الساحرة الصغيرة؛ إنها تريد أن تراني أموت من نفاذ الصبر... تريد أن تراني احتضر ". كانت الموسيقى والمحادثة والصمت وكل شيء يمثل له ضيقا لا يحتمل، وكانت الشهوة تلتهمه، ولم تكن لديه سوى رغبة واحدة: أن يصطحب كارلا إلى البيت ويأخذها: وقال في نفسه وهو يستمع بغضب للـنغمات الأولى من اللحن: "من يدري كم سيستمر"؛ عشر دقائق؟... ربع ساعة؟... الله يلعن اليوم الذي خطرت لي فيه الفكرة الغريبة في أن أجعلها تعزف...".

ولكن الأم لم تستسلم؛ ولمست كتف الرجل، وقالت بابتسامة لزجة كما لو أنها استمرت في محادثة بدأتها للتو: "وغدا صباحا ساذهب إلى محاميي صباح الغد وسأعطيه التعليمات لعرض الفيللا في المزاد".

ولو كانت طوبة قد انفصلت من السقف ووقعت على رأس ليو، لما كان مندهشا في استياء عند سماعه لهذه الكلمات ؛ وقد احمر وجهه، ثم ازرق ؛ وجزّ على اسنانه وكانت هناك عبارات قصيرة تلمع في ذهنه: "هل كنا بحاجة أيضا لهذا وفي هذا المساء بالذات... الله يلعنها... هذه الأشياء تحدث لي أنا فقط"؛ ثم توجه دفعة واحدة تجاه الأم، وهو يأمرها مخاطبا إياها بلا تكلف من الغضب وهو يضغط بقبضتيه على صدره بحركة تلقائية وهو يقول: "أنت لن تفعلي هذا".

وقال ميكيلي في نفسه وهو يراقبهما في استياء: "الآن سيشد كل منهما شعر الآخر".

وردت الأخرى بهدوء مفتعل قائلة: "من المؤكد أنني سأفعل ذلك؛ وغدا بالذات...". وبدا ليو يقول: " إنه شغل مجانين؛ وأخذ إحدى يدي المرأة وضغطها في المقعد الوثير: وكررقوله في نفسه بنظرة غاضبة في

اتجاه كارلا: "أنت تريدين... حضرتك تريدين بيع الفيللا في المزاد لكي تخسري فيها خمسين في المائة... وتقولين لي هذا في هذا المساء، في هذا المساء بالذات"."و الآن وقد كتب العقد ولم يبق سوى التوقيع عليه...، إن هذا... هذا يسمى جنونا رسميا... ...".

وردت الأم التي لم يكن يبدو عليها أنها تتصرف بهدوء قديسة لا تهتز، فقالت: "سمّه كما تريد؛ ولكن أول شيء سأفعله صباح الغد هو الذهاب إلى محاميي".

ونظر إليها ليو: وقد أضيف للغضب الذي تسبب فيه عدم إشباع رغبته الجنسية الجامحة هذا العائق الجديد. وربما كانت غريزته الطبيعية هي القفز على المرأة، وأن ينهال عليها بالصفعات، وربما يخنقها أيضا ؛ ولكنه استطاع أن يتمالك أعصابه:

وألحّ قائلا: "و لكنك لا تتحدثين بجدية ؛ فكري في الأمر قليلا".

"لقد فكرت فيه بالفعل".

وبدأ ليو في توجيه الحديث إليها بلا تكلف، ولكن في هذه المرة بوعي تام فقال: "لنر ماريا جراتسيا ؛ لا تفاجئيني بتهورات مفاجئة... ففي الصفقات لا يجب التصرف أبدا باندفاع... ولكن بالأحرى، هل تريدين... أن نتقابل غدا عصرا؟".

وردت الأم بحزم أقل: "هذا لا يجدي وأعتقد أن من الأفضل أن أذهب إلى محاميي".

كان ليو يود أن يصرخ فيها قائلا: "أيتها الغبية القبيحة"؛ ولكنه ضمّ يديه.

وتوسل إليها قائلا: "يا ماريا جراتسيا، إن المزاد مخاطرة ؛ ومحاميك يمكن أن يكون نصّابا، والعالم ملئ بأمثاله؛ وأنت امرأة، ومن السهل خداعك في الأمور التي لا خبرة لك فيها...".

وسألت الأم بابتسامة حائرة قائلة: "هل تعتقد هذا؟"

"إنني واثق من هذا... إذن اتفقنا... سأنتظرك غدا في الساعة الرابعة...".

ونظرت هنا وهناك بخيلاء ؛ وكان قلبها الناضج يرتجف: وكانت تود أن تساله"هل تحبني؟"؛ ولكنها كررت قائلة: "غدا... ؛ لا لا أستطيع".

"إذن بعد غد".

وهمست الأم وهي تنظر في الهواء كما لو كانت تريد أن تتذكر شيئا ما وقالت: "انتظر ؛ وأضافت بابتسامة براقة وجذابة قائلة: " نعم، إنني على موعد، ولكنني سأؤجله... و سآتي، حسنا... ولكن لا تصدق أنك يمكن أن تقنعني". ثم صمتت وترددت، وفي النهاية أخذت بيد عشيقها؛ وكانت بالفعل على وشك أن تسأله بصوت منخفض: "وهل تحبني قليلا؟ "عندما توقفت الموسيقى فجأة والتفتت كارلا وهي تقول في هدوء: "لا فائدة من عزفي: فالجميع يتكلمون... الجميع يتناقشون... من الأفضل حقا الذهاب للنوم...".

وقد رأى الإثنان على الأريكة نفسهما معا؛ وانفصلت الأم عن عشيقها ونظرت إلى الابنة بوجه حائر.

وأضافت الصبية قائلة: "إذا كنتم تريدون الكلام فلا تجعلوني أعزف". سكوت.

ورد ليو في النهاية بقوله: "لقد كنا نقول بعض التعليقات على موسيقاك. أنت تعزفين جيدا يا كارلا ؛ استمري، استمري أيضا".

وكانت هذه الكذبة الجديدة إشارة لما يشبه التمرد،كما لو كان الجميع قد استيقظوا فجأة من سبات طويل ؛ وأولهم ميكيلي الذي كان قد تحمل حتى الآن في صمت محادثات والدته وليو ؛ وتارة بسبب الغضب من ناحية وبسبب الحاجة التلقائية للعمل من الناحية الأخرى،أخذ الجريدة التي كان يمسك بها مفرودة على ركبتيه وقذفها بقوة على الأرض.

وصرخ وهو ينظر إلى ليو قائلا: "هذا غير حقيقي إطلاقا ؛ إنها كذبة بلا حياء... لقد كنتم تفكرون في الموسيقى كما أفكر أنا... في أن أكون راهبا... لقد كنتم تتحدثون عن الصفقات، والمحامي وضحك ببعض الجهد وهو يقول: " وفي أشياء أخرى أيضا".

وساد الصمت: وصاحت كارلا فجأة وهي تصفق قائلة: " هاهي، هاهي الحقيقة... أخيرا نستطيع أن نتنفس... ".

كان كما لو أن أحدا قد فتح النافذة ودخل هواء الليل البارد في الصالون ؛ ولبرهة نظر الجميع كل منهم في وجه الآخر في ذهول ؛ ولكن أول من أفاق كان ليو: حيث قال بقسوة لميكيلي: أنت مخطئ: فهذه علامة على أنك استمعت بصورة سيئة".

ومثل هذا الزيف أوحى للفتي بضحكة عالية وغير لائقة: فكان يضحك وقد انقلب على ظهره على المقعد الوثيرقائلا: "أه! أه!: هذه جميلة" ثم توقف وقال فجأة وبوجه جاد: "كذاب!".

نظر كل منهما إلى الآخر؛ وحبست كارلا أنفاسها؛ وشحب لون الأم.

وصاح ليو فجأة وهو يضرب بقبضته على المنضدة: أنا أقول أن هذا كثير". ولكنه لم ينهض؛ وبقي جالسا وهو يحدق في الفتى بعينين فاحصتين، وأضاف قائلا: "لم أكن أعرف أنك تميل للشجار هكذا ؛ ثم قال له بعد لحظة: "وإذا استمررت في هذا فإنني سأكون مضطرا لشد أذنيك".و هذه العبارة الأخيرة نطقها بأغبى وأثقل طريقة: وقد بدا لميكيلي أن تهديد ليو، الذي بدأ بكبرياء، قد خفت تدريجيا، حتى وصل إلى البذاءة المسطحة لشد الأذنين ؛ وبالتالي فإن شعوره أيضا كان يتناقص؛ ولم يكن هناك ما يفعله؛ لا إلقاء قفاز التحدي، ولا التظاهر بالشرف المهان؛ وكان يكفي إخفاء الجزء المهدد، وهو الأذنان، وهو قليل جدا.

"يشد أذناي، يشد أذناي أنا؟ أنا؟ أنا؟ وكانت كل "أنا" دفعة أكثر نحو العمل، ولكنه كان يشعر بأنه بارد وغير مكترث؛ فقد كانت زائفة الكلمات التي كانت تخرج من فمه، وكان صوته زائفا ؛ أين كانت الحميّة؟ أين كان الاستياء؟ في مكان آخر، ربما لم يكن موجودا.

وعلى المائدة، بين الزهور والفناجين وإبريق القهوة، كانت هناك منفضة السجاير المصنوعة من الرخام، الألبستر الأبيض المشبع بالرمادي: مد يده وهو شبه نائم، وأخذها، وألقاها بمياعة. ورأى والدته تضم يديها، وسمعها تطلق صرخة ؛ وكان ليو يصرخ قائلا: "حاجة

تجنن!!"؛ وكانت كارلا مضطربة؛ وأدركت أن الرخام أخطأ طريقه؛ وبدلا من ليو فقد أصاب الأم ؛ على رأسها؟ لا، على كتفها.

نهض، بطريقة تعوزها الرشاقة، واقترب من الأريكة حيث كانت ترقد ضحيته؛ كانت الحيرة بادية على وجه الأم ودون أن تدري لماذا، وكانت مغمضة العينين وهي تتنهد بين الحين والآخر، ولكن كان من الواضح أنها لم تكن تشعر بأي ألم وأن إغماءتها هذه كانت خيالية تماما.

ومع الإثنين الآخرين انحنى ميكيلي؛ وعلى الرغم من هذا المشهد الذي لابد أنه كان مؤلما، فإنه لم يكن يشعر بأي تأنيب للضمير، بل قد بدا له أنه لا يستطيع أن يخنق الشعور بأن ذلك المشهد كان مضحكا. وعبثا كان يقول في نفسه: "إنها أمي... لقد أصبتها... لقد جرحتها... كان يمكن أن تموت"؛ وعبثا كان يبحث عن شيء من الشفقة الودودة لتلك الشخصية الساكنة، التائهة في الخطأ: وظلت روحه خاملة. انحنى ونظر إليها: والآن كانت الأم ترفع، دون أن تغير وضعها أو تفتح عينيها، ذراعا واهية وكانت تبعد بأصابعها الثياب عن العضد المصاب ؛ وبدا كتفها عاريا وبدينا، ولكن بدون أي أثر للكدمات، لا هو أزرق ولا أحمر: لا شئ. ولكن أصابعها، كما لو كانت غير راضية، كانت مستمرة في جذب وإنزال الثوب، لتعرية الذراع فكشفت عن إبطها: كان رائعا: وكانت أصابعها قليلة الحياء المنتشرة على الصدر الذي كان يتسع دائما ويزداد بياضا، ويكشف عن بداية النهدين، كانت تبدو وكأنها تسعى لهدف مختلف تماما عن هدف إظهار الجرح؛ وهو هدف العري، مثلا. وفي الحقيقة كان هذا الاسترخاء موجها للعشيق؛ وكان لابد أن تنبثق منه شفقة رومانسية يرق لها قلبه: وكان تفكيرها يقول تقريبا : "سيراني جريحة، مغمى عليّ، عارية الصدر"؛ "سوف يتذكر أنني تقدمت من أجله، وتلقيت منفضة السجاير بدلا منه، ولن يستطيع أن يتجنب الشعور برقة مليئة بالعرفان العميق".

وكان خيالها الواهم يتخيل أن ليو سيأخذها بين ذراعيه، ويهزها، ويناديها باسمها، وسيشعر في النهاية بالقلق عندما لا يراها تفيق... وفي النهاية ستعود ببطء إلى رشدها، وستفتح عينيها من جديد، وستكون أول

نظراتها للعشيق، والابتسامة الأولى له. ولكن لم يحدث هكذا، وليو لم يأخذها بين ذراعيه ولا ناداها باسمها.

ولكن كارلا قالت بصوت مليء بالنية الساخرة: "ربما يكون من المستحسن أن أذهب خاج الباب ". كان كما لو أن الأم قد تلقت دشا من المياه الباردة، هناك بالذات، على تلك الكتف التي عرتها للعشيق؛ وقد فتحت عينيها من جديد، ونهضت لتجلس، ونظرت: وكان هناك ميكيلي الذي كان يراقبها بعينيه الهادئتين، كما لو أن تأنيب ضميره قد اختلط بمشاعر أخرى ؛ وكارلا التي كانت تجتهد لإعادة الثياب فوق صدرها المكشوف؛ ولكن ليو؟ أين كان ليو؟ في مكان آخر ليس بجوارها: فقد التقط منفضة السجاير وكان يزنها بيده؛ ثم التفت فجأة نحو ميكيلي:

وقال له بتشجيع ساخر: "حسنا ؛ حسنا... حسنا جدا".

رفع ميكيلي كتفيه ونظر إليه: ونطق بهدوء قائلا: "بالطبع... بل حسنا للغاية ". وعندئذ ارتفع صوت الأم وراء ظهر الرجل، حادا ومألوفا. وكانت تتوسل قائلة: "من فضلك يا ميرومينتشي، من فضلك لا تبدأ من جديد... لا تلمسه... لا تتحدث إليه... لا تنظر حتى إليه...". وكان يبدو أنها قد وصلت إلى الحد الأقصى للصبر والعقل،الذي لا شئ وراءه سوى الجنون.

آوى الفتي إلى جوار النافذة: وكان المطر لا يزال يتساقط، وكان يسمع حفيفه على الشيش وعلى أشجار الحديقة ؛ وكانت تمطر في هدوء، على الفيلات، وفي الشوارع الخاوية. ولابد أنه كان هناك أناس كثيرون يستمعون مثله، وراء الزجاج المغلق، وقلبهم ملئ بنفس الألم، وظهورهم موجهة لحميمية الغرف الدافئة: و كان يكرر لنفسه وهو يلمس بأصابعه غير الواثقة أحرف النافذة: "لا فائدة، لا فائدة... هذه ليست حياتي...". وعاد إلى ذهنه مشهد منفضة السجاير، والإغماءة المضحكة، وعدم الاكتراث ذلك: "كل شيء هنا يصبح كوميديا، وزائفا ؛ لا يوجد صدق وأنا لم أخلق لهذه الحياة". والرجل الذي كان يجب أن يكرهه، وهو ليو، لم يجعل الآخرين يكرهونه بما فيه الكفاية؛ والمرأة التي كان يجب أن يحبها، وهي ليزا، كانت زائفة، وكانت تخفي بمشاعر لا تحتمل رغبات

بسيطة جدا وكان من المستحيل حبها: وشعر بانطباع بأنه يدير ظهره ليس للصالون، ولكن لهوة فارغة وغامضة: وقال في نفسه مرة أخرى باقتناع: "هذه ليست حياتي، ولكن ما العمل؟".

انغلق الباب خلفه ونظر هو خلفه؛ كان الصالون خاويا؛ وكانت الأم والابنة قد خرجتا لمصاحبة الضيف إلى الباب ؛ وكان نور المصباح يتلألأ في دائرة الأرائك المهجورة الساكنة.

قالت الأم لليو في المدخل: "إنه فتى صغير ولا يجب أن نأخذه على محمل الجد... فهو لا يدري ماذا يفعل".

وبوجه آسف انتزعت القبعة من على الشماعة وقدمتها لعشيقها. وقال ليو بمرح وهو يلف حول رقبته كوفية من الصوف: "بالنسبة لي، بالنسبة لي لم يفعل شيئا... ويؤسفني فقط بالنسبة لك حيث تلقيت الطلقة إياهاعلى كتفك". ابتسمت ابتسامة باردة، وزائفة ولطيفة: ونظرت لحظة إلى كارلا كما لو كانت تطلب منها الموافقة ؛ وأخيرا استدارت وارتدت المعطف.

كررت الأم بصورة آلية وهي تساعده: "إنه فتى صغير"؛ وكان تفكيرها في أن ليو يمكن أن يستغل ذلك التهور من الابن فيقطع علاقاته بها، كان هذا يرعبها:

وأضافت بنبرة متواضعة ومستبدة قائلة: "يمكن أن تكون مطمئنا، أن كل هذا لن يحدث أبدا بعد ذلك... وسأفكر أنا في الحديث مع ميكيلي... ولو كانت هناك حاجة لذلك"، كما أضافت بصوت غير حازم، "سأتصرف".

كان هناك صمت: وقالت كارلا التي كانت مستندة إلى الباب وهي تنظر لأمها بانتباه: "هيا"، وأضافت وهي تغض بصرها: "هيا... لا تنفعلي... إنني واثقة من أن ليو نفسه لم يعد يذكر ذلك".

وقال ليو: "بالضبط هكذا، هناك أشياء كثيرة أهم". وقبّل يد الأم التي لم تطمئن بعد. وقال لكارلا وهو يحدق فيها بثبات في عينيها: "إلى اللقاء قريبا"؛ شحب وجهها وبحركة بطيئة ومستسلمة أدارت مقبض الباب.

وقد انفتح الباب بعنف ليصطدم بالحائط كما لو أن أحدا ينتظر الدخول قد دفعه بكل قواه إلى الخارج. وصاحت الأم قائلة: "أوه، يا له من برد، ويالها من رطوبة...!. وكما لو كانت ترد عليها، اجتاحت الغرفة هبة رياح عنيفة ؛ وهطلت الأمطار بغضب على القراميد اللامعة ؛ وتأرجح الضوء؛ وقد ضرب معطف خفيف لميكيلي معلق على الشماعة أكثر من مرة بأكمامه الطويلة وجه ليو؛ ونهض ثوبا المرأتين لينتفخا، وارتفعا، وفي النهاية التصقا بسيقانهما.

وكانت الأم تصيح وهي تلتصق بكلتا يديها بالباب وهي تنحني بصورة مضحكة إلى الأمام على قدميها المضمومتين لكي لا تبتل؛ وكطائر مائي كانت كارلا تقفز بحذر على الأرضية الغارقة في المياه: وكانت الأم تكرر قولها: "إغلقي"... ولكن لم يكن أحد يتحرك؛و كان الجميع ينظرون مذهولين لذلك العنف الذي جاء من لا شئ وكان يزأر ويتأوه ويطرقع ويبكي على العتبة الخاوية ؛ وأخيرا انفتح أيضا الباب الأخر للمدخل على مصراعيه. وقد تكوّن عندئذ ما يشبه الدوامة التي تعثرت في المنزل ؛ وسمعت جميع الأبواب وهي تغلق بعنف القريبة تارة والبعيدة تارة أخرى، بصخب غريب لم يكن صخب الأبواب المطروقة بيد غاضبة أو شاردة الذهن؛ فقد كان صخبا تختلط فيه أصوات الرياح وتلك الصدمات وتلك الترددات التي كان يبدو أنها تمهد للضربة الأخيرة والأقوى؛ وكانت الغرف الأخرى الخاوية والعالية ترد الصدى؛ ورُجت الفيللا كما لو أنها كان لابد أن تنفصل عند لحظة معينة عن الأرض وهي تدور حول نفسها مثل نحلة مجنونة، وتطير بسرعة على قمة السحب الفسفورية.

سأل ليو والدته وهو يراها تغلق الباب بعد جهود كثيرة: "والآن؟، ماذا سنفعل؟".

وكانت الإجابة: "ننتظر". وسكتوا هم الثلاثة: كانت مارياجراتسيا تنظر إلى العشيق بعينين أفاقتا من الوهم وتكسوهما المرارة ؛ وكان يجتاحها استعجال شديد. وبعد قليل كان ليو سيرحل، وسيختفي في الليل الممطرليتركها في منزلها البارد، في سريرها الخاوي ؛ سيذهب إلى مكان آخر ؛ إلى منزل ليزا على سبيل المثال، بالفعل، مؤكد، إلى منزل

ليزا حيث كان منتظرا منذ وقت طويل. ومن يدري كيف سيتسلى هذان الاثنان في تلك الليلة ومن يدري كيف سيضحكان عليها!

قامت بمحاولة أخيرة ؛ ومدت أذنها، وركزت بكل وجهها كمن ينصت:

وقالت: "يبدو لي أن شيئا يُطرق في الصالون... اذهبي يا كارلا"، وأضافت بصوت نافذ الصبر: "اذهبي لترين".. واستمعوا هم الثلاثة: وكان يبدو أن الأم كانت تريد بحركة آمرة أن تخلق ذلك الصخب من الأبواب المطروقة والذي كان صمت الفيللا يوحي لها بغير ذلك.

وقالت كارلا بعد لحظة: "لا يبدو لي، أنا لا أسمع شيئا إطلاقا... إطلاقا بالفعل".

وألحت الأم وهي قلقة وعنيدة قائلة: "إنني أقول لك نعم"، وأضافت عند الصمت التام قائلة: "هل تسمعين، هل تسمعين كيف يصطدم؟".

وعندئذ ضحك ليو وضحك بهدوء من غباء العشيقة: "لا، لا... لا شئ يصطدم". ورأي بسرور متجدد ذلك التعبير من الألم في عيون المرأة واختتم حديثه وهو يأخذ القبعة من جديد: "وهم، وهم، يا سيدتي العزيزة".

وسألت الأم: "هل سترحل؟"

"بالتأكيد.. لقد حان الوقت".

ولكنها ألحت، في استماتة، وهي تضع نفسها بين العشيق والباب، قائلة: "ولكن... ألا تمطر كثيرا؟ أليس من الأفضل أن تنتظر قليلا؟".

رد ليو وهو يزرر المعطف: "إنها تمطر، كما أن الأبواب تصطدم... ". وقبــّل يد المرأة المنهكة وبحث في جيبه عن القفازات التي كانت في الجيب الاخر، واقترب من الباب، وفتحه وهو يمسكه بيده ضد الرياح: وقال للصبية: "إلى اللقاء يا كارلا"، وصافح يدها التي كانت تمدها، وابتسم، وخرج.

عادوا إلى المدخل وكانت الأم ترتعش، وكانت تكرر قائلة: "ياله من برد... أوه! ياله من برد": وكانت عضلات وجهها المتعب قد ارتخت، وكانت تبدو مهزومة، وكانت نظراتها التائهة تقع مصادفة على الأشياء،

وكانت تتأرجح وتتماوج ؛ وكانت هناك بساطة واضحة تكسو وجهها الذي اعتاد أحمر الشفاة؛ وكان فمها يرتعش بصورة غير ملحوظة، وكررت وهي تصعد ببطء وراء الدرابزين الخشبي للسلم: "سأذهب للنوم...، سأذهب للنوم... تصبحون على خير". وارتفع ظلها حتى السقف، وتوقف عند منبسط السلم، ومر على الحائط بحركات مائلة، واختفى.

بقيت كارلا وحدها الآن في المدخل. واقتربت من المصباح: وفي قبضتها المغلقة كان هناك شئ يصرّ، كانت ورقة ليو، الورقة التي أخذتها أصابعها المترددة من تلك المصافحة الطويلة لعشيقها.

كانت الورقة موجزة "أنا منتظرك خلال ساعة، بالسيارة، عند سور الحديقة"، وكانت أيضا تحمل التوقيع: "ليو".

ومع حيرتها اتجهت إلى أعلي على السلالم: وكانت تكرر "خلال ساعة، خلال ساعة سأذهب من هنا ". ودرجة بدرجة وصلت إلى منبسط السلم الضيق، ونظرت إلى أعلى: المدخل، الذي كانت ترى منه الكنبة وزاوية من الأريكة، وكانت خاوية، وكان هناك صمت منزلي وهادئ، بسبب ذلك الظل وذلك الهواء المغلق؛ وخلال ساعة بلا شك سيكون ميكيلي والدته مستغرقين في النعاس. انتهت من الصعود، وذهبت مباشرة إلى باب غرفتها، في نهاية الممر المظلم، ودخلت؛ وقد فاجأها على الفور المظهر الحميمي والساخن للغرفة: فكان كل شيء في مكانه وكان المصباح ذو الضوء الوردي مضاء وكان القميص الشفاف الأزرق الباهت مفرودا على السرير وكانت الملاءات مطوية ومفتوحة، وكان كل شئ يدعو للنعاس: لم يكن يتبقى سوى خلع الملابس والدخول تحت الأغطية والنوم.

ولو كان مشهد ذلك السريرالذي كان يوحي لها مع الصخب الشديد لطوفان الأمطار على الشيش كان يوحي لها برغبة شديدة في الراحة والأمان أو تعب اليوم في الحقيقة، فإن من المؤكد أنه قد هاجمتها فجأة خِسّة مُقنعة، واشمئزاز قوي من المغامرة التي كانت مقبلة عليها، حتى أنها خافت من نفسها وقالت تحدث نفسها: "سنرى، النوم والراحة،

حسنا... ولكن بعد ذلك؟ وغدا صباحا قد أبدأ من جديد من نفس النقطة... وعندئذ كيف ستكون لي حياة جديدة؟".

انفصلت عن عتبة الباب، واقتربت من مرآة الدولاب، ونظرت لنفسها وهي تقترب تارة، وتارة أخرى وهي تبتعد: وكان وجهها يبدو لها ملتهبا حتى تحت عينيها المتلألئتين، وعندما كانت تقترب منه كانت تكتشف بين هذا الاحمرار المشتعل والعينين، دائرة سوداء وعميقة كانت تزعجها كفكرة مذنبة ؛ وعندما كانت تبعده لم يكن هناك سوى صبية ترتدي ملابس العيد، ويداها مضمومتان في حجرها، ورأسها الكبير مائل قليلا على كتفها، وعيناها حزينتان، والابتسامة متعثرة. ولا شيء أكثر من هذا ؛ وكانت تتمنى أن تخترق لغز صورتها هذه ولكنها لم تستطع ذلك.

تركت الدولاب وقامت ببعض الخطوات في الغرفة وجلست على السرير ؛ وكان هناك قلق خفيف يمنعها من التفكير؛ وكانت تشعر بأنها مستعدة، وفضولية، ونافذة الصبر كما كانت تقوم ببعض الزيارات وكانت تنتظر، وهي تتنزه وتنظر حولها، الدخول الباسم لربة المنزل ؛ ولم يكن هناك شئ آخر. وكانت تضع ساقا على ساق، وجبهتها محدبة وكان لديها هي نفسها الانطباع بأنها تفكر بعمق ولكنها كانت تلاحظ، عندما كانت تنهض وتنظر لنفسها في مرآة الدولاب، أنها لا تستطيع التفكير.

بقيت هكذا لبضع دقائق: ولم تكن المسألة هي النوم الآن؛ وكانت تقرّ داخل نفسها، بصورة غامضة، أن تلك الليلة كانت ستعطي نفسها لليو، ولكنها لم تكن تعرف متى وكان يبدو لها أن تلك اللحظة كانت لا تزال، لحسن الحظ، بعيدة جدا. وكانت تقول في نفسها على فترات عندما كان حفيف المياه يشتد قوة: "يا له من مطر غزير!"؛ ولكن لم يكن يخطر حتى ببالها أنه كان عليها الخروج في تلك الليلة، ومواجهة ذلك المطرلمقابلة عشيقها ؛ وكانت هناك دهشة واهنة تتملكها ؛ وأخيرا، وبلا حزن، وببطء، أخذت رأسها بين يديها وتركت نفسها تسقط منسابة على السرير.

وفي ذلك الوضع لم تكن ترى سوى السقف المضاء؛ وكانت الأصوات الوحيدة التي تصل إلى أذنيها، كانت أصوات الليلة العاصفة:

ولكنها سرعان ما أغلقت عينيها واستسلمت لنوع من الخمول الملئ بالخوف والارتياب، بعد أن كررت لنفسها أنها عند لحظة معينة كانت تود النهوض والذهاب؛ ولكن الخمول تحول إلى نعاس، وشيئا فشيئا، وتقريبا دون أن تتنبه لذلك، نامت كارلا.

كان نعاسا خاويا، وأسود مثل القار، أسهم كثيرا دون أدنى شك في النسيان والسرحان في تلك الليلة. وهذا النقص في الأحلام، كان لابد أن يخدع النائمة حول مدة بياتها الشتوي ؛ وفجأة ودون أي سبب استيقظت، واستولى عليها خوف رهيب جمّد أوصالها، وقطع نفسها، لأنها تنبهت إلى أنها قد نامت: وقالت في نفسها وهي مرعوبة وهي تنهض على السرير وتنظر حولها في الغرفة المضاءة والهادئة : "لقد نمت، من يدري كم الساعة الآن... الثانية أو الثالثة... وليو ربما رحل، ربما انتظر وربما يكون قد رحل". وكانت تود أن تنفجر في الدموع، للحظة واحدة، من الأسف: وكررت لنفسها بصوت مرتفع وهي تمسك برأسها بين يديها وهي تنظر في المرآة لصورتها ذات الشعر غيرالمصفف والعينين الفزعتين، وهي تقول: "لقد نمت، لقد نمت!".

نهضت، وجرت للساعة التي كانت فوق الأدراج: لم تكن قد مرت سوى ثلاث أرباع الساعة، وكانت الساعة تشير إلى الثانية عشرة إلا الربع.

و بدا لها مستحيلا، واعتقدت أن الساعة توقفت، وقرّبتها من أذنها: كانت تسير ؛ وكان حقيقيا، كان لا يزال في وسعها الذهاب عند ليو. وقد شعرت بأنها خائبة الأمل تقريبادون أن تستطيع تفسير السبب في ذلك؛ ووضعت الساعة على الأدراج.

والآن كان يساورها شك ثان: بأي طريقة ومتى كان عليها أن تتقابل مع عشيقها؟ كانت تتذكر تلك العبارة: "خلال ساعة" ؛ ولم تكن قد نسيت حتى تلك الجزئية الخاصة بالسيارة التي كانت ستنتظرها عند سور الحديقة ؛ ولكن ها هي، لم تكن واثقة تماما: وفكرت لحظة قائلة لنفسها: "الورقة، أين الورقة؟".

نظرت حولها لتبحث عنها: لم تر شيئا. ونظرت فوق الأدراج بين الدمي لا شيء: ذهبت إلى الفراش ورجــته، وقلبت الوسادة، لا شيء... و اجتاحها قلق وسرعة غير معقولة: أين كانت تلك الورقة؟... جرت عبر الغرفة، وهي تلقي في الهواء بالأشياء، والثياب والأدراج... و أخيرا توقفت في الوسط: وقالت في نفسها: "سنرى، لقد قرأتها في الصالة، ولكنها كانت في يدي عندما دخلت، إذن لابد أن تكون هنا، هدوء، لابد أن تكون هنا". وكما يحدث نريد الامساك بحيوان سريع وصغير، فأر، فراشة، حاولت رويدا رويدا، وبدقة شديدة، انحنت تحت الأثاث وهي تلف نفسها لكي لا توسخ فستانها وهي تضغط بجبهتها ووجنتيها على تراب الأرضية، وهي تنظر بحدة في ظلام غرف الخزين. وفي كل مرة كانت تنهض من جديد كانت تشعر بتعب عصبي في جميع أوصالها ؛ وكانت تغلق عينيها قليلا، وهي ساكنة، بحركة حزينة للأيدي المفتوحة، وكانت تعتقد بصورة غامضة أنها تكفر عبر هذا البحث الحزين عن ذنب منسي وكانت في كل مرة تنثني، كانت تود أن تتكسر وتبقى على الأرض كشئ وقع وتحطم.

وقد بحثت بعناية طفولية أيضا في الأماكن السخيفة: في سلة الدانتيلة، في علبة البودرة... ولم تجد شيئا ؛ وجلست مندهشة وضعيفة: أي نوع من الكتابة تلك التي كانت تختفي بمجرد كتابتها؟ وكان نفس ذلك الخيال الخرافي للأحلام يضع بين ذكرياتها ذلك الجو الأثيري الذي يجعل الإنسان يفكر في بعض الكلمات وبعض الأفعال السريعة وغير العادية، قائلا في نفسه: "هل هي حدثت أم أنني تخيلتها، حلمت بها، صنعتها أنا؟". وتلك المصافحة، وتلك القطعة من الورق كانا قد قطعا للحظة واحدة يصعب التعرف عليها استمرارية العادة؛ وبعد ذلك، عاد كل شيء كما كان من قبل ؛ والآن، وسط اضطرابها، كانت كارلا تتمنى أن ترى من جديد كتابة ليو تلك! وما كان ينقصها لم يكن تذكر أنها تلقت الورقة حتى وإن كان مبهما، ولكن المعرفة الأكيدة والواضحة لما كانت تتضمنه؛ وكانت هي لمستها ورأتها وقرأتها ولكن لم يكن عندها الوقت لتقتنع بها ؛ والآن كانت تشك فيها.

وماذا كان مكتوبا فيها؟ ساعة بالضبط أو أكثر أو اقل؟ هذه الليلة أو الليلة القادمة؟ ألم يكن الوقت متأخرا؟ ألم يكن من الأفضل الذهاب إلى الفراش والنوم لبدء يوم جديد بعد الحياة المعتادة؟ كان الزمن يتخطاها وهي جالسة، ساكنة، منحنية ؛ وكان يبدو لها، من شدة الشكوك، أنها تطفئ نفسها بأيديها، وتنتحر.

قفزت عند سماع الدقات الحادة للساعة التي كانت تعلن عن منتصف الليل ؛ وجالت بخاطرها أول فكرة عملية: "سأذهب: وإذا لم يكن هناك فهذا يعني أنني كنت في حلم". ونظرت للساعة، وحسبت أن ليو كان عليه أن ينتظرها بالفعل من ربع ساعة ؛ وعندئذ اجتاحتها سرعة سخيفة: فجرت إلى النافذة، وألصقت وجهها في الزجاج الأسود؛ لكي ترى ما إذا كانت لا تزال تمطر: أنصتت ونظرت: لاشئ؛ لم يكن الليل يريد أن يكشف عن نفسه وكانت الغرفة خلفها تعكس أوهامها البريئة وضوء المصباح البارد بقدرية ساخرة. وقالت لنفسها بسرعة: "مطر أو لا مطر،، لنرتدي المعطف الواقي من المطر". وجرت إلى الدولاب، وانتزعت منه الجاكت وارتدته أمام المرآة؛ ثم انحنت وشدت الحمالات المرتخية ؛ وأرادت أيضا وضع بودرة التواليت، وتمرير قليل من أحمر الشفاة على شفتيها، وتصفيف شعرها؛ ووضعت قبعة عادية، بصورة سيئة، على قفاها: وقالت لنفسها وهي ترى الجبهة المستديرة وخصلات الشعر وهي تهرب خارج الثنية الضيقة: "مثل الفتيات الأمريكيات". وبحثت، بحثت قائلة: "تلك القفازات اللعينة!". لم تعد تفكر، كانت تعيش: ولكن عجلة آلية كانت قد ألغت فيها كل إنسانية. وجرت إلى الساعة بنفس تلك السرعةالخفيفة التي كانت تجعلها تصرخ في الخادمة بين شعرها وجواربها وحركات ذراعيها العاريين، وهي تستعد لزيارة ما، وهي تقول: "لنسرع قليلا... الوقت متأخر... الوقت متأخر...". ونظرت إلى الساعة وهي تقول لنفسها: "عشر دقائق مضت بالفعل: بسرعة... بسرعة". فتحت الباب وفجأة، وهي تمنع اندفاعها بافتعال، خرجت على أطراف أصابعها إلى الممر.

كان مدخل المنزل خاويا ومضاء، وكان كل شيء في مكانه،الكتب والأريكة؛ ودون أن تحدث ضوضاء، انتزعت كارلا من درج المائدة

مفاتيح المنزل ومع ألف احتياط، تارة وهي مستندة إلى الحائط، وتارة إلى الدرابزين، هبطت السلم الضيق؛ وكانت السلالم الخشبية تزيّق تحت خطواتها، وكانت مجموعة السلالم الأخرى التي بدت لها من الطابق الأرضي مظلمة بالكامل تقريبا ؛ وكانت تلمح بالكاد السجادة البنية التي كانت تتلوي كالثعبان عبر درجات السلم؛ وكان المدخل مظلما. أضاءت النور، ومرت عبر الممر بين صفي المرايا، وفي المدخل نزعت الشمسية من حامل الشماسي، وخرجت.

كانت السماء تمطر بغزارة، وكان الليل أسود ورطبا، وكان صخب الطوفان يصل رتيبا من كل مكان ؛ هبطت كارلا على السلم الرخامي للمدخل وفتحت الشمسية بحركة مألوفة أدهشتها، كما لو أن كل شيء، كما تعتقد، في ظروف غير عادية معينة، يتم بطريقة مختلفة عن المعتاد.

وبدا لها أنها لا تعزي لهروبها كل الأهمية الحزينة والمخزية التي كان سيعزوها له آخرون لو كانوا في مكانها؛ ها هي كانت تخرج وتعبر الشارع وهي منحنية تحت الشمسية، وهي تجتهد في ألا يبتل وجهها بالمطر المعاكس، وفي تجنب الحفر المليئة بالماء؛ وكانت تعبر الحديقة في تلك الساعة المتأخرة، دون خوف، ودون دهشة، وحتى دون ذلك الحزن الواسع والمغامر الذي يصاحب الأعمال الخطيرة ؛ وكان الزلط المشبع بالماء يطرقع تحت وقع خطواتها، وكانت تستمع بسرور لصخبه: هذا كل شيء.

رفعت عينيها ورأت أمامها بقعة البوابة السوداء، والعمودين الأبيضين، والأوراق الداكنة لشجرة كبيرة منحنية تحت المطر؛ وفتحت باب الخدمة الصغير، وخرجت في الطريق موجهة عينيها إلى الجانب المقابل للجانب الذي كان ينتظر فيه ليو. وقالت في نفسها وهي خائبة الأمل: "غير موجود"، وهي تراقب الضوء الهادئ للمصباح المقوس على أرضية الشارع المبلل والخاوي ؛ ولكن سيارة العشيق كانت تتقدم وراء ظهرها، أقل سرعة من الشعاع المفاجئ للمصباحين المضاءين.

وداعا للشوارع، حي مهجور تعبره الأمطار كما لو كان يعبره جيش، وفيللات نائمة في حدائقها المبللة، وشوارع طويلة مشجرة،

وحدائق ثائرة ؛ وداعا للحي الرفيع والثري: وكانت كارلا وهي ساكنة في مكانها إلى جوار ليو تنظر بدهشة للمطر العنيف وهو يبكي على زجاج السيارة الأمامي وفي هذه الرخّات المتقطعة كانت تتساقط وتتفتت على الزجاج كل أضواء المدينة والدوامات و المصابيح. وكانت الشوارع تلي الشوارع؛ وكانت تراها تنثني، وتصب كل منها في الأخرى، وتدور هناك وراء وراء الكبّوت المتحرك للسيارة؛ وعلى فترات، بين قفزات العدو، كانت هناك واجهات سوداء تنفصل في الليل، وتمر، وكانت تنزوي كجوانب لعابرات محيطات تشق طريقها، مع بعض المصاعب، عبر الأمواج ؛ ومجموعات سوداء من الأشخاص، والأبواب المضاءة وأعمدة النور، وكان كل شئ يطل للحظة واحدة أثناء العدو وبعد ذلك يختفي ويبتلعه الظلام نهائيا.

كانت كارلا تنظر إلى ليو وهي ساكنة مسحورة، إلى تلك اليدين الموضوعتين على عجلة القيادة، وتلك الطريقة الهادئة والمتدبرة في القيادة، والآن الطريق؛ كانت تلك التفاصيل تخلب لبها؛ وكان عقلها خاويا. وهكذا عندما توقفت السيارة فجأة بعد عشر دقائق، وجاءها هذا التفكير: "لقد وصلنا"، كان تأثرها شديدا لدرجة أنها لم تستطع التقاط أنفاسها.

ولكن ليو نزل وأمرها قائلا: "انتظري هنا". وقد رأته، من خلال زجاج السيارة الأمامي المبلل، وهو يفتح شيئا أسود بدا لها أنه البوابة، بعد ذلك اختفى في ظلام الحديقة. وقالت في نفسها: "لابد من وضع السيارة بالداخل"؛ وبالفعل وصلها صوت باب الجراج من خلال المطر، وظهرت صورة الرجل من جديد، وقد صعد هو، دون أن يكترث البتة بها، وقاد السيارة أولا على الزلط المبلل، وبعد ذلك داخل قبو الجراج المظلم ؛ رائحة بنزين وصلب المشحم؛ ومصباح صغير أحمر في أحد الأركان؛ وقد نزل الإثنان، وببعض الجهد أنزلا بوابة الجراج؛ وبعد ذلك، قام ليو بعناية بإدخال القفل فيه.

كان هناك مصباح مستدير يضئ يمين باب المنزل بدرجات سلمه الرخامية الأربعة وضلفتيه المغلقتين ؛ فتح ليو الباب ودفع كارلا إلى مدخل المنزل. وفي مقابل الحديقة الصغيرة المظلمة والمبللة، كان كل

شئ هنا ملونا ومتلألئا، وكان هناك مصباح من الحديد المطروق يتدلى من السقف، وكانت الجدران مطلية بالجير وكان لها سِفل أصفر، وكان هناك نخيل أخضر يرتفع في الأركان، وكان كل شئ جديدا؛ وكان هناك أيضا المصعد، أسفل المنزل، في قفصه، ولكنهما فضلا الصعود على السلالم.

صعدا في صمت مجموعتين من السلالم. وعند المنبسط الأول من سلم المبنى سمع فجأة صوت جرامافون مخنوق بالكاد فوق القرميد اللامع مع همس مختلط، حميم وسعيد من الأصوات مع وقع أقدام.

علقت كارلا بابتسامة مفتعلة وهي تستند للدرابزين قائلة: "إنهم يرقصون، من هم؟".

قال ليو وهو ينحني ليتفحص اللوحة النحاسية الصفراء على الباب: "إنه... السيد الدكتور إناموراتي، الموجود، وأضاف ليبعث السرور في قلب كارلا من ناحية، ولكي يقاوم نفاذ صبره من الناحية الأخرى، في المنزل مع زوجته اللطيفة وأبنائه الشباب، ليستقبل بصورة لائقة صحبة منتخبة من الأصدقاء والسيدات من صفوة المجتمع". ضحك وأخذ ذراع كارلا وقال: "هيا بنا، مجموعة واحدة من السلالم ونكون قد وصلنا ".

صعدا بعد ذلك: وكانت تسمع عبر السلم الأبيض الفارغ والمضاء، موسيقى الجرامافون وهي تتردد بعيدة وصاخبة ؛ وعند الوقفات صمت مطبق. وعندئذ كان يمكن تخيل الصالون الصغير، الراقصين الواقفين على أرجلهم تحت النجفة المضاءة، والضحكات والحركة وفي الأركان، بالقرب من النوافذ، وراء الستائر، المجاملات الساذجة... وعند المنبسط الثاني دخلا.

وفي المدخل نزع ليو القبعة والمعطف وساعد كارلا على التحرر من المعطف الواقي من المطر. كانت الصالة واسعة وبيضاء، وكانت تفتح فيها ثلاثة أبواب، وفي مواجهة الباب كانت هناك نافذة كبيرة مظلمة ومستطيلة كان لابد أن تطل دون أدنى شك على فناء داخلي. انتقلا إلى الصالون: وقال ليو وهو يشير إلى أريكة كبيرة من الجلد مليئة بالوسائد: "لنجلس هنا". جلسا: وكان هناك مصباح ضوءه أحمر موضوع فوق

منضدة صغيرة تضيئهما حتى الصدر، وبقي رأساهما وباقي الغرفة في الظل. وللحظة واحدة بقيا ساكنين ولم يتكلما: كانت كارلا تنظر حولها بلا فضول ؛ وكانت عيناها تقع تارة على تلك الزجاجة من الخمر هناك على المنضدة الصغيرة وتارة على الجدران، كمن ينتظر بقلق كلمة أو حركة بدلا من المراقبة؛ وكان ليو ينظر بإعجاب لكارلا: وبدأ يقول أخيرا: "حسنا، يا عزيزتي، ماذا بك، فأنت لا تتكلمين ولا تنظرين حتى إليّ؟ هيا، تشجعي، قولي لي ماتفكرين فيه، وإذا كنت ترغبين في شئ، اطلبي ما تريدين بلا مجاملات، وتصرفي كما لو كنتي في بيتك". ومد يده، وداعب بأصابعه وجه الصبية الجاد:

وأضاف دون أي أثر للحرج "ربما لا يؤسفك أنك جئتي إلى هنا؟".

أدارت رأسها وهي تقول: "لا...، لا، إنني... في غاية السرور... فقط، هل تفهمني؟ يجب أن... أعتاد ذلك".

قال ليو بثقة: "عوّدي نفسك... عوّدي نفسك"؛ واقترب أكثر عما كان من كارلا: وكان يقول في نفسه وهو مضطرب وثائر: تبا، يا لها من مقدمات مملة". ولف ذراعه حول خصرها؛ ولم يبد أن الصبية انتبهت لذلك: بدأ ليو بصوت مداعب وخافت قائلا: "ياله من فستان جميل ترتدينه: مَن صنعه لك؟... يا لك من طفلة جميلة أنت... سترين كيف سنسعد معا: ستكونين طفلتي، الطفلة الوحيدة في حياتي، طفلتي الجميلة".

سكت، ثم لمس بسرعة بشفتيه يد كارلا وذراعها العاري، وتوقف للحظة عند الرقبة، وجذب الرأس الكبير الجاد؛ وقبل كل منهما الآخر؛ ثم انفصلا:

دعاها الرجل وهو يشير إلى ركبتيه قائلا: "اجلسي هنا "؛ استجابت كارلا بوداعة؛ وفي الحركة التي قامت بها لتعدل نفسها، كشف الثوب عن ساقيها، ولكنها لم تنزله من جديد؛ وقد أقنع عدم الاكتراث هذا ليو بسلامة إنجازه.

وسأل الصبية وهو يشير بإصبعه للباب الآخر للصالون قائلا: "ما هذه الغرفة التي هناك؟".

ردت العشيقة وهي ترقبها بانتباه: "غرفة النوم"؛ وبعد لحظة قال بصوت مقنع وهو يقبلها من جديد: "ولكن دعك من كل هذا... اسمعيني... قولي لي... ؛ هل تحبينني؟".

وسألته هي بطرف شفتيها، وهي تنظر إليه بعينين جادتين: "وأنت؟..."

"أنا؟... وما دخلي أنا؟... بالطبع أحبك، وإلا لما فعلت ما فعلته... بالتأكيد أحب حبيبتي كارلوتا، عروستي، حبيبتي كالا الصغيرة"، وأضاف ليو وهو يغرز أصابعه العابثة في شعر الصبية؛: "أحبها جدا والويل لمن يمسها... وأريدها أيضا، بالطبع... كلها كاملة... أريد هاتين الشفتين، وهاتين الوجنتين، وهذين الذراعين الجميلين، وهذين الكتفين الجميلين،و جسدها هذا الملئ بالـــ... الأنوثة، اللذيذ، الملئ بالسحر والرشاقة التي... التي... التي تصيبني بالجنون" وانفجر في النهاية وكما لو كان قد استولى عليه ما يشبه الحمى ألقى بنفسه فوق كارلا، وعانقها بكل قواه، وسقط معها فوق الأريكة؛ وأضاء المصباح بضوئه الرتيب فظهر الرجل بسترته المشدودة كلها بفعل جهده البدني وسيقان كارلا، المرتدية جوربا ورديا. وبقيا هكذا لبضع لحظات، بين ارتجافات الشهوة المختلطة بكلمات رقيقة من فم الرجل. ولكن كارلا كانت صامتة. وكان موقف الصبية بين هذه الفورات وديعا ولكنه غير مستسلم ولم تكن أفكارها حاضرة، كما كانت توقعت، وبدأت إثارة مخجلة وهوجاء تشعل وجنتيها؛ أي أنه كان من غير المجدي إخفاء ذلك، ولم تتركها تلك المداعبات غير مكترثة، وكانت هناك لذة ما حادة جدا بقدر كانت تبدو لها سخيفة كانت تغطي كالضباب على وعيها: وكانت تقول لنفسها بين الفورات الغريزية التي كانت تنزع منها القبضات التحررية والقاسية لعشيقها: "سنرى، ماذا أفعل الآن؟...". لم يحدث أبدا من قبل مثل الآن، أن بدت لها هذه العلاقة الغرامية غير المشروعة بمظهر معتاد جدا، ولا يغتفر ومدمر، وقالت أيضا لنفسها في ضعف: "حياة جديدة"؛ ثم أغمضت عينيها.

ولكن شهوة الرجل كانت تعرف أنها لا يمكن أن تتجاوز حدودا معينة؛ وكانت رؤية كارلا وهي مستغرقة مغمضة العينين، وهي بيضاء مثل الشمع على قاع الأريكة الداكن، والتفكير": لا... أن آخذها هنا لا...

هناك نعم... هنا متعب جدا"، كان شيئا واحدا. نهض الرجل من جديد ودعا الصبية للنهوض؛ وبقيا للحظة واحدة ساكنين، لاهثين بدون كلام؛ وكان ضوء المصباح يترك ليو في الظل، وهو مستند لقاع الأريكة، وكان يضيئ كارلا: وكانت شيئا آخر مختلفا تماما عن الآنسة التي كانت هناك قبل بضع دقائق، وكان شعرها أشعث، وكانت هناك خصلة من الشعر تتدلى أمام عينيها، وكان وجهها أحمر، وجادا ومضطربا، وكانت إحدى الحمالتين الرفيعتين قد انقطعت أثناء العناق وكانت تتدلي من طرفيها، طرف فوق الصدر، وطرف فوق العضد، كاشفا الكتف الأبيض والعاري. وعندئذ، بينما كانت تنظر أمامها وهي مستغرقة هكذا، لاحظ الرجل شيئا غريبا: شيئا مشابها جدا للفافة مثنية أربع ثنيات كانت تملأ تجويف الفستان بين النهدين وكان يشد الحرير الأحمر للفستان بطرفين أو ثلاثة أطراف مدببة ؛ وقد ابتسم هو، ومد يده ولمس الشيء: وسأل دون أية نية، لمجرد الفضول قائلا: "وهذا ماذا يكون؟ والتفتت كارلا ووجهها يعلوه الهلع قائلة: "ماذا، هذا؟".

ألح ليو بابتسامة أبوية تقريبا قائلا: "تلك... القطعة من الورق التي تحتفظين بها هكذا بغيرة في صدرك".

خفضت رأسها ورفعت يدها إلى صدرها؛ لم يكن هناك شك، وكان العشيق على حق، كان هناك شيء يشبه كثيرا قطعة من الورق مخبأة هناك، بين القميص واللحم؛ إلا أنها لم تكن تتذكر أنها وضعتها ولم تكن تستطيع أن تفهم ماذا كانت ؛ ورفعت عينيها، ونظرت إلى عشيقها في حيرة.

قال ليو الذي كانت فكرة ذلك المخبأ ترقق قلبه وتثيره معا: "إنه المكان الذي تحتفظ فيه جميع الطفلات بأسرارهن، لنر، يا كارلا، لنر سرك هذا ".مد يده وو قام بحركة إدخالها تحت الفستان.

صرخت فجأة، حتى دون أن تعرف هي لماذا، وهي تغطي نفسها بيديها قائلة: "أنا لا أسمح لك".

اختفت ابتسامة الرجل، وقال وهو يرقب الصبية بانتباه: "حسنا، سأسمح لك بألا أسمح... أخرجي هذا الكنز... ثم اقرئيه بصوت مرتفع".

ساد الصمت؛ وكانت كارلا تنظر إلى عشيقها وهي غير حازمة وتائهة، وكانت تدرك أن قصة قطعة الورق هذه بدأت في إثارة غضبه؛ وكان هذا يرى من عينيه اللتين بدأتا تتسمان بالشدة؛ وكان يتعذب دون جدوى لكي يعرف ماذا كان يمكن أن تحتوي تلك اللفافة التي كانت أصابعه الفضولية تتحسسها؛ ولكنها لم تجذبها للخارج، لشئ من العناد الحزين (وماذا إذا كان سرا حقا لا يجب أن تبوح به لأي أحد؟)، ولنيّة مبهمة عندها في أن ترى كيف يتصرف ليو عندما تلدغه الغيرة.

وأخيرا قالت بنبرة تحد، وهي تضع يديها على ركبتيها: "وإذا لم أكن أريد أن أجعلك ترى هذا الخطاب؟".

صاح ليو مهتما وقلقا بالفعل قائلا: "آه! إنه خطاب، وممن يكون، لو سمحتي، ومن أي شخص مهم على هذا النحو بحيث تحتفظين به هناك، هناك بالذات، ولا تستطيعين تركه في المنزل؟".

نظرت إليه بين جفونها المواربة، وهي تميل برأسها الكبير الأشعث فوق كتفها العاري: وردت متخذة موقفا شقيا، وهي تنظر في الهواء وتطبل بهدوء بأصابعها فوق ركبتيها، قائلة: "هذا، هذا لن أقوله لك".

قال ليو في نفسه وهو غاضب تماما: "إنها قادرة جدا، قادرة جدا على أن يكون لها شخص آخر... قادرة جدا". ونهض ببطء من على الأريكة: وقال وهو يوضح ويثبت فوقها عينين آمرتين ومحققتين: "اسمعي يا كارلا: إنني أريد أن أعرف بصورة مطلقة من صاحب هذا الخطاب ".

ضحكت هي قليلا وهي تتسلى بهذه الغيرة؛ ولكنها لم تغير موقفها المستاء: وقالت: "حذر".

سأل ليو: "رجل".

وعلقت هي بنبرة تهكمية قائلة: "بالفعل، بالفعل، شريطة ألا يكون امرأة". ولكي تمنعه من أية حركة مفاجئة كانت تضع يدها على صدرها؛ وكانت تنظر في الهواء؛ وكانت عيناها المتجهتان نحو السقف المليء

بالظلال تغمضان قليلا ؛ وكانت تشعر بالتعب؛ وتود تميل برأسها على سرها هذا الذي لم يكن موجودا، وتنام.

قال ليو بابتسامة مفتعلة: "فهمت، فهمت... عاشق... شاب صغير...".

وردت هي دون أن تخفض رأسها قائلة: "ولا حتى في الأحلام، رجل". وكانت ترى على الحائط المقابل ظل ليو مبهما وعريضا، وهو يتحرك تارة هنا وتارة هناك كما لو كان قد استعد للانقضاض عليها:

وكررت بصوت أكثر تعبا دون أن تتوقف عن ذلك العب بالأصابع قائلة: "رجل"، وأضافت وقد ثملت بحزن بلا سبب قائلة: "ولو علمت، ولو علمت كم أحبه!... ". وكانت عيناها تغمض قليلا وهي ممتلئة بالدموع، وقلبها يرتجف وقالت في نفسها ببرود: "و لكن هذا الرجل غير موجود".

قال ليو: "رجل... كل تهنئتي". والآن كان ليو غاضبا في الحقيقة: فهذا النقاء الذي لم يكن موجودا، وهذا الانجاز الذي قام به آخر كانا يضعان الشيطان في جسده؛ فكارلا الطفولية والعفيفة في رغباتها كانت تترك مكانها لآنسة خبيرة في الحب، لم تكن تخشى زيارة الرجال في بيوتهم؛ وكانت الزغزغة والعطر وأوج الغرام يتلاشى؛ وبقيت عزة نفسه كزير نساء خاوية الوفاض أمام باب مفتوح:

أضاف مقتنعا قائلا: "إنه ذنبي أنا، وكان يجب أن أفكر في أنها لم تكن المرة الأولى".

وسألته وهي تلتفت إليه فجأة: "المرة الأولى في ماذا؟".

"المرة الأولى التي... أنت تفهمينني... التي تقومين فيها بزيارات، التي تذهبين فيها لمنزل شخص ما".

صعدت حمرة مشتعلة إلى وجنتي كارلا، ونظرت إلى عشيقها، وهي تصارع بين الرغبة في الاحتجاج والكشف له عن الحقيقة الغبية، والرغبة في الاستمرار في التظاهر الذي بدأته؛ ولكنها في النهاية سارت وراء الرغبة الثانية.

وقالت وهي تنظر له في عينيه: "وحتى لو كان هذا حقيقيا؟".

"آه، إذن هو حقيقي؟". وللحظة واحدة جزّ ليو على أسنانه وقبضتيه، وبعد ذلك سيطر على نفسه وصدر عنه صوت حاد من التهكم، وهو يقول: "آه، هكذا، أيتها الصبية بالغة النقاء، إن لك عشيقا...".

اعترفت هي وقد احمرت من جديد وهي تقول: "نعم"؛ وكانت تلك السخرية ونبرة الرجل تؤذيانها في نفسها؛ ولم تشعر أبدا من قبل مثل الآن باحتياج كبير للطيبة.

وكرر ليو ببطء قوله: "شاطرة، شاطرة للغاية"؛ ونظر إلى كارلا في عينيها وقال كما لو كان يتحدث إلى نفسه:

"هذا مفهوم... اقلب القدر على فمها... تطلع البنت لأمها". وبعد ذلك انتابه فجأة غضب متأجج حقن عينيه بالدماء؛ وأمسك بالصبية من ذراعها: وهو يقول لها:

"هل تعرفين ماذا تكونين؟... واحدة... واحدة... "؛ وفي غضبه لم يكن يستطيع العثور على الصفة الصحيحة، وكان يتمتم قائلا: "واحدة لا تستحي... وعلى الرغم من هذا جئت أيضا عندي؟".

ردت كارلا بهدوء: "هذا شيء آخر".

وكان ليو يكرر لنفسه وهو ينظر إلى الصبية قائلا: "يا له من شيء... ياله من شئ مقرف... وتقول أنها لا تزال في الرابعة والعشرين من عمرها":

وسأل قائلا: "وهل يمكن أن نعرف على الأقل من يكون ذلك الشخص؟".

قالت وهي تجتهد لتجسيد تلك الصورة المثالية المبهمةالتي كانت روحها تميل نحوها: "إنه رجل طويل القامة؛ شعره كستنائي... وجبهته جميلة هادئة، ووجه بيضاوي... وهو ليس أحمر اللون، بل يميل إلى اللون الشاحب... ويداه طويلتان جدا".

صاح ليو وهو يأخذ أول أصدقاء كارلا الذي بدا له مشابها للصورة التي راحت ترسمها، قائلا: "سانتوري".

نظرت كارلا أمامها قائلة: "لا، ليس هو، وقالت في نفسها: "ليته كان موجودا، لما كنت هنا". وصمتت للحظة.

واصلت حديثها بحلاوة مسطحة وسهلة كانت تسحرها وتدهشها، لأنه كان يبدو لها الآن أنها لا تكذب حتى، قائلة: "إنه يحبني كثيرا وأنا أحبه كثيرا، وقد تعارفنا منذ عامين... ومنذ ذلك الحين رأى كل منا الآخر دائما... وهو ليس مثلك... فهو... فهو طيب فوق كل شئ، أقصد أنه يفهمني حتى قبل أن أتكلم، وأستطيع أن أبوح له بكل ما أفكر فيه، أي شئ، وهو يناقشني بخلاف أي أحد، ويأخذني بين ذراعيه و... و... ": وارتجف صوتها، وامتلأت عيناها بالدموع؛ وفي تلك اللحظة كانت هي نفسها مقتنعة بما كانت تقول، كما لو كان يبدو لها أنها تراه هناك، أمامها بلحمه وشحمه، ذلك المخلوق الذي نسجه خيالها؛ واختتمت حديثها منفعلة ومندهشة قليلا من كذبتها نفسها، قائلة: "وهو مختلف حقا عن كل الآخرين، ولا يوجد من أحبني حقا سواه".

قال ليو غير متأثر إطلاقا من تلك النبرة وتلك الكلمات: "الإسم، هل يمكن معرفة الإسم؟".

أشارت كارلا بكلمة "لا" برأسها قائلة:

"الاسم لا".

سادت لحظة من الصمت ؛ ونظر كل منهما إلى الآخر؛ وبعد ذلك أمر الرجل بحسم قائلا: "اعطني ذلك الخطاب". ومع اضطرابها غطت صدرها بيديها وبدأت حديثها بصوت متوسل قائلة: "لماذا يا ليو؟...

"الخطاب... أخرجي الخطاب". وفجأة أمسك الصبية من حزامها وحاول إدخال يده بالقوة في مخبأها ذلك؛ ولكن كارلا تملصت منه، وحررت نفسها، وجرت إلى الحائط المقابل، وقد تبعثر شعرها:

وصرخت في وجهه قائلة: "ألا تعلم أنك بالعنف لن تحصل على شئ"، وفتحت باب غرفة النوم واختفت.

هرول ليو إلى ذلك الباب المغلق وقد انتابه غضب بلا حدود ؛ ولكن كارلا، على الجانب الآخر كانت قد أدارت المفتاح ولم يستطع هو

الدخول: وصرخ في النهاية في قمة الغضب قائلا: "افتحي، افتحي، أيتها الغبية... ". دون أية إجابة. وقد خطر بباله لحظة أنه كان بوسعه دخول غرفة النوم من ناحية الحمام؛ ؛ فجرى إلى المدخل وانتقل إلى الحمام؛ وكان كل شئ في مكانه، في الظل المواسير المطلية بالنيكل والسراميك اللامع كان يتلألأ. ولاحظ بفرحة أن الباب ذا الزجاج الأخضر كان مواربا؛ وفي البداية لم ير كارلا؛ كان النور مطفأ، وكان هناك ظلام خفيف يملأ الغرفة؛ وقال في نفسه للحظة، ومن يدري لماذا، وهو يتحسس ما أمامه: "هل ألقت بنفسها من النافذة؟". أضاء النور، وكانت الغرفة بالفعل فارغة: وتساءل قائلا: "ليت الشيطان يأخذها؛ أين يمكن أن تكون قد اختبأت؟"، وكان بالفعل على وشك الخروج والذهاب للبحث عن الهاربة في الغرف الأخرى من الشقة، عندما رآها فجأة، هناك، منكمشة، وهي واقفة خلف باب الحمام.

ذهب ببساطة نحوها، وأمسك بها من ذراعها، وجذبها إلى الخارج بشئ من العنف من مخبئها، كما نفعل مع الأطفال الأشقياء. وهددها بقسوة، وهو ممسك بها جيدا، قائلا لها: "أخرجي هذا الخطاب".

نظر كل منهما إلى الآخر ؛ وكان التفكير الآن في أن العشيق يمكن أن يتنبه إلى كذبتها، يفزع الصبية ويذلها؛ وكانت تدرك أن تلك القطعة من الورق لم تكن لها أية أهمية، ولابد أنها كان بطاقة تعارف أو من يدري أي شيء تافه آخر، وكانت تتألم من فكرة أنها مضطرة للاعتراف للرجل بأن أحلامها لم يكن لها وجود.

وقامت بمحاولة أخيرة: وبدات بصوت متبرم تقول: "هذا لا يصح، يا ليو...، إنني...".

وأمرها الرجل للمرة الثانية قائلا: "الخطاب!".

وأدركت هي أن التمرد لا يجدي. وقالت في نفسها وهي مستسلمة ومهتمة قليلا بما يمكن أن يحتويه الخطاب: "سيكون ما سيكون" ؛ ووضعت يدها على صدرها، واستخرجت منه قطعة الورق، وقدمتها للرجل قائلة: "ها هي".

أخذها ليو، ولكنه قبل أن يفحصها نظر إلى الصبية. وعندئذ، ولا أحد يدري لماذا، كان كما لو أن خجلا لا يمكن تجاوزه قد انتابها فجأة؛ وفجأة انكمش وجه كارلا، واستدارت وذهبت إلى الفراش، وألقت بنفسها عليه وهي تخفي وجهها بين يديها ؛ وكانت مجرد حركة، ولم يصاحبها لا الروح ولا أي شعور حقيقي؛ وهي نفسها لم تنخدع في معناها؛ وبعد ذلك فجأة، سمعت الرجل يضحك، ورفعت رأسها من جديد. وصرخ هو فيها وهو يتجه نحوهاقائلا: "ولكنها بطاقة التعارف الخاصة بي، بطاقتي التي أعطيتها لك اليوم".

لم تندهش؛ وفي نهاية المطاف كانت قصة الخطاب تلك سخيفة، ولم يكن من الممكن أن يكتب لها أحد، ولم يكن أحد يحبها... وعلى الرغم من ذلك بدا لها أن من الظلم بقسوة أن يكون هكذا؛ ومن الظلم هذا الغياب للمعجزة (لماذا لم تكن تستطيع تلك الرغبة الشديدة عندها في القيام بمعجزة أن تحول تلك البطاقة الغبية إلى خطاب غرامي؟)، ومن الظلم هذا الواقع الدقيق. وشحب لونها.

قالت مع شعور بخيبة الأمل المريرة والحتمية: "بالفعل، بطاقتك، وماذا كنت تريد أن تكون؟".

استمر هو في الاقتراب وهو يجلس إلى جوارها، على السرير وهو يقول: "إذن، إذن أنا ذلك الرجل... شعر كستنائي، جبهة هادئة... أنا الذي تحبينه".

نظرت إليه طويلا كما لو كانت تريد أن تتعرف في ذلك الوجه الأحمر والمسرورعلى الصورة التي تحلم بها.

قالت مترددة وهي تغض بصرها وفي نيتها الكذب من جديد: "و... و، ألم تكن قد فهمت هذا بعد؟".

وللمرة الأولى منذ كانت كارلا تعرفه، ابتسم ليو ابتسامة ظازجة، وشابة تقريبا، وتلقائية: وصرخ قائلا: "أنا لا"، وأخذها من خصرها. وكرر قوله: "كما لو أنني لم أقل شيئا من كل ما قلته، كما لو أنني لم أقل شيئا". وانحنى وقبلها على كتفيها، وعلى عنقها، وعلى وجنتيها، وعلى صدرها: وعاد ذلك الجسد لإثارته، ومع الوهم وجد الشهوة من جديد:

وكان يكرر قوله: "صغيرتي الكاذبة، طفلتي الكاذبة... ".

ولم تدم هذه التعبيرات من الحب لأكثر من دقيقة ؛ ثم نهض بصورة مضحكة، من على السرير. وسأل بين الجدية والمزاح دون أن يصفف شعره الشعث الذي كان يضفي عليه مظهرا لا أحد يعرف منه ما إذا كان ثملا أم أخرق، قائلا: "ألا تعتقدين أنه آن الأوان للذهاب للنوم؟... إنني أشعر بنعاس... بنعاس رهيب".

ابتسمت كارلا ببعض الجهد، وأومأت بالإيجاب على استحياء.

وقال الرجل: "إذن، كفتاة ماهرة، هذه هي البيجامة..." وأشار إلى خرقة بخطوط عريضة موضوعة على الوسادة، وقال لها: "هناك على الدولاب إذا كنت في حاجة إلى كل ما يلزمك من التواليت...: اخلعي ملابسك واجلسي على السرير وسألحق بك على الفور...". وابتسم لها مرة أخرى، وهو على ثقة تامة، وربت بيده على كتفها وخرج من ناحية الحمام.

الفصل التاسع

كان السرير العريض والمنخفض يشغل زاوية داخلية؛ وقد تمددت عليه ونظرت إلى الغرفة: وفي الظل الذي لم يكن يقطعه ذلك المصباح الوحيد المضاء بالقرب من الوسادة، كنا نلمح دولابين مراياهما لامعة، أحداهما على يمين باب الصالون، والأخرى على الناحية المقابلة ؛ ولم يكن هناك شيء آخر؛ وكانت النافذة تشغل كل الحائط المقابل، وكانت منخفضة، ومستطيلة، زجاجها صغير ؛ وكانت لها ستائر قصيرة ناصعة؛ وتحت النافذة كانت هناك المدفأة المختفية وراء ما يشبه الشبكة؛ وكان الشيش مغلقا، وكان باب الصالون مغلقا، وكذلك أيضا باب الحمام الذي كانت تراه من الجنب، بزجاجه المضاء بصورة خافتة مثل جدران حوض للسمك عندما تضربه الشمس.

نظرت إلى أسفل، وكان هناك جلد دب كبير، أبيض وكث الشعر، ممدد عند أقدامها: وكانت له عينان من السليولويد الأصفر، وفم مفتوح مليء بالأسنان الحادة؛ وكان الجلد المسطح والأرجل القصيرة والذيل الهزيل يعطي انطباعا بأن وابور زلط عملاق قد سواه بهذه الطريقة، تاركا فقط الرأس المتوحش دون أن يمسّه. نهضت، وقامت آليا ببعض الخطوات عبر الغرفة، ولمست المدفأة التي كانت ساخنة، وفتحت ستارة، ثم التفتت: فوراء ذلك الزجاج المضئ لباب الحمام، كان ظل عشيقها يمر ويمر من جديد، وكان يسمع تدفق الماء المنهمر، وأصوات أخرى... وعندئذ عادت إلى السرير وبدأت في خلع ملابسها، بعد أن راقبت في مرايا الدواليب الداكنة صورتها الشعثاء والخائفة.

لم تكن تفكر في شيء؛ وكانت الأعمال غير المعتادة التي كانت تقوم بها تمتصها تماما، وكانت تعطيها دهشة ذاهلة. وما كان يؤثر فيها بصفة خاصة، هو أنها لم تكن في منزلهاو قد وجدت نفسها في تلك الساعة في تلك الغرفة؛ خلعت الفستان الممزق، ووضعته فوق الكرسي المنخفض الذي كان أمام السرير؛ والجورب وتأملت للحظة سيقانها العارية؛

والتنورة التحتانية، والملابس الداخلية؛ وترددت ؛ هل كان عليها أن تخلع أيضا القميص؟ فكرت في ذلك ؛ نعم، بالطبع، كان هذا ضروريا؛ خلعته وألقت به على الثياب الأخرى. ولم تشعر بأنها عارية سوى تحت الملاءات الباردة، حيث انكمشت كلها ناحية الحائط، ويدها بين ساقيها واليد الأخرى على صدرها: والبيجاما ذات الخطوط العريضة، التي كانت تذكرها بزي إجرامي، ألقت بها على الأرض: وقد خطر ببالها أن والدتها كان يمكن أن ترتديها.

وشيئا فشيئا كان جسدها المتأجج يسخّن الملاءات. وفجأة شعرت بانطباع بأن هذا الدفء حلّ تلك العقدة من الخوف والدهشة اللذين شغلا روحها حتى ذلك الحين؛ وشعرت بأنها وحيدة، وأحست برقة كبيرة، وشفقة حانية على نفسها، واجتهدت في أن تجمع شتاتها، وأن تتكور بأقصى ما تستطيع، حتى تلمس بشفتيها ركبتيها المستديرتين. وكانت الرائحة الصحية والشهوانية التي كانت تنبعث منهما تثير انفعالها؛ وقبلتهما أكثر من مرة بشغف: وكانت تكرر لنفسها وهي تداعب نفسها قائلة: "غلبانة... مسكينة". وامتلأت عيناها بالدموع؛ وكانت تود أن تثني رأسها على صدرها المزدهر وتبكي عليه كما لو كان صدر أم؛ وبعد ذلك دون أن تتوقف عن التحديق بعينيها اليقظتين في ذلك الحائط الذي أضاءه المصباح للتو.

أصاخت السمع، كانت الأصوات التي تصل إليها مألوفة وكانت تكشف بلا شك عن المكان الذي كانت فيه، فقد كان المطر لا يزال يتساقط، وكان يسمع حفيفه؛ وكان هناك شخص ما يسير في الحمام؛ وكان الماء يسيل؛ وكانت إذا تحركت كان السرير يغوص بليونة، بصوت مكتوم، وبعيد إلى حد ما، ولم تكن تدري ما إذا كان هذا بسبب بعض الذكريات أو بسبب الرخاوة القصوى للريش. لم يكن سرير منزلها، الصلب والمحكم، ولا من تلك الأسرة الأجنبية التي نغوص فيها بعد رحلة طويلة، ويبدو لنا على الفور أننا منخفضون جدا أو مرتفعون جدا، وننام فيها دون راحة؛ لا؛ هذا كان سريرا مريحا، وفي غاية الطراوة، ومليئا بالاهتمامات والرعاية ؛ كان الجسد فقط هو الذي يخاف منه، وكان ينكمش فيه كله، ويرتجف فيه، وكانت بين الحين والحين تمد يدها

المترددة لتجس المساحة الهائلة والباردة المتبقية وراءها، سيبريا تلك المصنوعة من التيل، غير المأهولة والمعادية؛ كان شعورا كريها : مثل السير في طريق مظلم وأنت تعلم أن هناك شخصا وراءك.

أغلقت عينيها المتعبتين؛ كانت قد مرت دقيقة بالكاد وكانت تبدو لها ساعة وهي ماكثة في ذلك السرير: وتساءلت فجأة: "لماذا لا يأتي ليو؟". وقد جرّ هذا التفكير أفكارا أخرى: وقالت لنفسها بلا كراهية: "لن ألتفت إلا عندما يُطفأ النور، لا أريد رؤيته...".

ارتجفت وقالت لنفسها وهي شاردة وبلا اقتناع: "إنها النهاية"؛ وتولدت لديها الآن من تلك الرغبة في التدمير التي جاءت بها حتى ذلك السرير رغبة نهمة في الظلام ستعانق فيه عشيقها بعد قليل ؛ كانت تتخيل، ليس بلا اضطراب، ولم تكن تعلم ما إذا كان ذلك لرغبة غريزية في الاستمتاع أو لبرنامجها لإذلال نفسها تماما وأن تلقي بنفسها في غياهب الظلمات وفي المعاشرة تلك الليلة، وكل الانفلاتات الحيوانية التي كانت قد اكتشفت وجودها منذ زمن بعيد دون أن تعرفها ؛ ولكن هذه الخيالات الهائجة لم تكن تصرف انتباهها عن الانتظار: وكانت تكرر لنفسها بين الحين والآخر قائلة: "لماذا لا يأتي ليو؟"... وبعد ذلك، بعد أن حطمتها متاعب هذه الشهوة، كانت ستنام إلى جوار عشيقها ؛ وقد أعجبتها هذه الفكرة، ولا أحد يدري لماذا، وكانت تعتقد بالفعل أنه لابد أن يكون شيئا حلوا وحزينا معا أن تنام في صحبة، جنبا إلى جنب مع الآخر، وربما متعانقين وعريانين ومتحدين في الليل؛ وربما كانت تشعر بالحب تجاه ليو، وكانت تتخيل أنها لن تتحرك وأنها ستحبس أيضا أنفاسها لكي لا توقظه... عندما انفتح باب الحمام مع رنين الزجاج.

وفي مقابل القلق الذي سيطر عليها في النهاية، كان هذا الصوت المفاجئ والمألوف مع ذلك مقبولا بتلك الطريقة كوجود صديق في مكان مجهول أو مخيف.

بذلك الصوت، وبتلك الطريقة، كانت تفتح الأبوب الزجاجية في كل العالم، سواء في منزلها أو في أماكن أخرى. ونسيت فجأة كل برنامجها، وفتحت عيناها، ورأت على الحائط ظل الرجل العريض والتفتت: كان

العشيق ينحني فوقها. وقد استطاعت بالكاد أن تلحظ أنه لم يكن يرتدي أية بيجاما، ولكن نوعا من ملابس النوم الخفيفة، وأنه حلق ذقنه بعناية واستخدم بودرة التواليت وصفف شعره؛ وبعد ذلك وبحركة بسيطة، دون أن يدع تعبيره المتجهم والشارد، رفع الأغطية وانزلق إلى جوارها.

الفصل العاشر

كان أول من نام هو ليو؛ فقد أنهكه انفلات كارلا غير المتوقع حتى وإن كان بلا خبرة. وبعد العناق الأخير، وبما أنهمابقيا لبضع لحظات ساكنين هما الإثنان، وأطرافهما المبللة مختلطة فيما بينهما، وعيونهما مواربة ورأساهما متحدتان على الوسادة فيما يشبه السبات المنهك، أحست الصبية أن عشيقها يسحب ذراعه تدريجيا من خصرها، ويحرر ساقيه من ساقيها ويستدير تجاه الحائط. وقالت لنفسها بصورة مضطربة وهي تنصت للتنفس الهادئ للنائم: " وغدا صباحا؟...، وغدا صباحا؟". وقد كانت تشعر هي الأخرى بأنها في غاية التعب، وذلك الظلام الدامس في الغرفة كان يبدو لها وكأنها غارقة فيه منذ قرن، وكان رأسها يؤلمها، ولم تكن تجرؤ على الحركة؛ ثم فجأة، وعلى الرغم من أنها كان لا يزال لديها الاحساس الواضح بذلك الجسد العاري المقابل لجسدها، وبتلك الملاءات المليئة بحرارة خاصة جديدة تماما بالنسبة لها، وبذلك المناخ الأثيري الذي لم يكن يجعلها تنسى ولو للحظة واحدة منزلها، والغرفة التي كانت موجودة بها؛ وفجأة توقفت كل تلك العناصر غير العادية عن إدهاشها،، كان كما لو أنها قد اكتسبت فجأة الاعتياد الشديد عليها؛ استدارت وسحبت الأغطية ناحيتها ونامت.

وقد رأت حلما على الفور: فقد بدا لها أنها ترى ذلك العشيق الخيالي الذي كانت قد استطاعت أن تصفه جيدا جدا لليو، طويلا، ربما لأنه واقف بينما هي مستلقية، جبهته هادئة، وعيناه متلألئتان في نفس الوقت بالهدوء والرأفة ؛ وهو مستقيم جدا، وغير مهندم في ملبسه وينظر إليها باهتمام مندهش كما لو كان قد دخل الغرفة بالفعل آنذاك ووجدها كما هي بالضبط، ممددة وعارية، هناك على ذلك السرير، بجسدها الذي لم يمسسه أحد آنذاك وهو الآن فضت بكارته، وأيضا، نعم، أيضا متسخ هنا وهناك، على الصدر والبطن والذراعين، من شهوات ليو الأخيرة. وهي لا ترى نفسها، ولكنها تدرك من نظرات الرجل تلك أن أعضاءها منثورة عليها

بفع أو علامات يعلمها الله، وأنها تغيرت أيضا بالنسبة له، وهو الأجنبي، عن كارلا التي كانت قبل هذه العلاقة الغرامية؛ ويظل الإثنان هكذا، في هذه المواقف لبضع لحظات، وينظر كل منهما للآخر، ولا يتحركان، ولكن رؤية ذلك الوجه الهادئ، القاسي والمنتبه، وعذاب هاتين العينين الموجهتين إلى جسدها الذي فضت بكارته (والأسوأ هو أنها لا تستطيع أن ترى نفسها) أصبحت في النهاية غير محتملة، وبحركة غريزية تغطي وجهها بذراعها وتريد البكاء؛ مفاجأة أخرى غير سارة؛ تظل عيناها جافتين، ومهما بذلت من جهد فإن الدموع لا تنذرف، ولم تعد تستطيع البكاء. ولكن ألما هائلا، وأسى مريرا، لا تعرف مصدرهما كانا يوخزانها؛ وهي تشكو وتصرخ، على الأقل هكذا يبدو لها في خداع الحلم، و، على الرغم من بقائها مستلقية على ظهرها (وهذا عذاب آخر: الشعور بأنها مسمرة في ذلك السرير، وأنها لا تستطيع النهوض، والانثناء...)، فإنها تدور بصدرها، وأجنابها العارية ؛ وعلى فترات، بين حركاتها هذه المتشنجة كفراشة متألمة، ترى الرأس الهادئ، هناك، بعيدا جدا، وهاتين العينين لا تتوقفان عن النظر إليها، وتلك الجبهة الصحيحة: وتكرر في نفسها قائلة "البكاء... البكاء"، وتقوم بكل المحاولات لكي تبلل بدمعة واحدة على الأقل جفونها القاحلة، ولكن بلا جدوى... فألمها هذا لا يمكن التعبير عنه، ويظل ثقلا هائلا، في نفسها، يخنقها؛ وفي النهاية لم تعد تحتمل وتمد ذراعيها نحو ذلك الرأس البعيد... ويبدو لها أنها تنادي الرجل بأحلى الأسماء، بالأسماء الجديدة والتلقائية التي تؤثر فيها بعمق، وتعِده بأن تحبه مدى الحياة، دائما (وهذا الشعور بالأبدية يسبب لها مرارة كبيرة، لا تدري لماذا)؛ ولكن بلا جدوى، لأن الرجل يختفي فجأة وهي تسقط من جديد في الظلام؛ وتنفجر عندئذ، برنين متصاعد، مقطع كئيب مثل قرع الجرس: "سان... سان... سان... سان..."، يحدث في نفسها اضطرابا وخوفا فظيعين؛ ثم تصحو فجأة على الاسم الكامل "سانتوري".

كانت نفس الليلة التي نامت فيها تلفها الآن، وكان جسدها كله مبللا بالعرق وكانت تشعر عند جانبها الأيسر بمنطقة رطبة ومتأججة بالحرارة: وسألت نفسها وهي خائفة، قائلة: "أين أنا؟". كانت لحظة واحدة من التوهان لأنها تذكرت على الفور كل ما حدث وأدركت أن تلك

الحرارة كانت منبعثة من جانب ليو العاري الذي كان يتطابق مع جانبها ؛ وبما أنه كان يبدو لها أنها تختنق فقد ألقت الأغطية من على صدرها ونزعت ذراعيها من التداخل المزعج للملاءات ؛ وقد منحتها هذه الحرية وهذا الانتعاش راحة كبيرة؛ وفتحت عينيها تماما لأنها الآن لم تعد لديها رغبة في النوم سواء بسبب الخوف من كابوس آخر أو بسبب العصبية التي كانت تسيطر عليها، وانهمكت تلقائيا في إعادة تذكر الأحداث التي حدثت منذ بداية تلك الليلة.

وكانت ذاكرة الأحداث تعاودها مجزأة فتارة كان يبدو لها أنها ترى نفسها في تلك السيارة المسرعة، تحت المطر، في شوارع المدينة ؛ وتارة في الصالون وهي جالسة على ركبتي عشيقها ؛ وبصورة تلقائية تقريبا كانت تظهر لها من جديد صورة ليو وهو يدخل السرير الذي كانت تنتظره فيه والصورة الأخرى الأكثر غرابة وازعاجا، لهما هما الاثنان وهما عاريان، أحدهما إلى جوار الآخر، ناعسان وذاهلان في ذلك الضوء الباهر في غرفة الحمام المغطاة كلها بالسراميك الأبيض، وهما واقفان انتظارا لذلك الماء الساخن الذي سيغتسلان به. ولكن هذه الذكريات الحديثة جدا كانت تبدو لها بعيدة وكما لو كانت منفصلة عن شخصها، لم تكن تمتلكها ولم تكن تفسرها لنفسها، وكانت تبدو لها مليئة بعدم واقعية لا يمكن قبولها ؛ ومع ذلك لم يكن هناك شك، في أن هذه الحياة القريبة جدا لدرجة أن الأشكال التي كانت تتحرك فيها كانت تبدولها أكبر من الطبيعي، قد عاشتها بالفعل؛ فقد كان يكفي أن تمد يدها تحت الملاءات لكي تلمس الجسد العاري لعشيقها النائم أو تشعل النور لكي تقنع نفسها بأنها موجودة حقا في غرفة ليو وليس في غرفتها: وقالت لنفسها في النهاية مع اضطراب غير عادي: "بعيدة عن منزلي، هنا في سرير عشيقي... ". ولكن إذا كانت ذكريات الأحداث الطبيعية في تلك الليلة تدهشها بالفعل، فإن بعض الذكريات الأخرى لأشياء لم تكن حتى تتوقعها تجاهلتها دائما، كانت تقلب كيانها، ولم تكن تقنع بتحليلها، كانت تبدأ من جديد مرارا وتكرارا في إعادة سردها، وبمعنى أصح كانت تعيد تذوقها... على سبيل المثال الذكرى الدقيقة لبعض الإدراك اللحظي، الذي اكتشفت من خلاله، ولو للحظة واحدة، عندما كان المصباح مضاء، أن

بعض أوضاعهما، هي وعشيقها، تتسم ببشاعة غير لائقة، حتى أنها انطبعت بمعنى أصح في ذهنها بصورة لا تمحى.

ولكن سواء أكان الظلام الذي يلفها، أو كان حقا شعورا بالخوف والحيرة، فإن هذه الذكريات أتعبتها شيئا فشيئا ولم تعد كافية لصرف انتباهها عن وعيها بظروفها الحالية. وقالت لنفسها فجأة: "والآن، ماذا سيحدث لي؟". لم تكن تريد أن تعترف بذلك لنفسها ولكنها كانت تشعر بأنها وحيدة بصورة رهيبة... وها هي كانت مستلقية على ظهرها، في ذلك السرير، وهي منهمكة في أفكارها المنفردة، ومخاوفها، وضعفها ؛ وكان الليل يملأ عينيها المفتوحتين، ولم يكن عشيقها يداعبها على جبهتها، ولم يكن يعيد تصفيف شعرها الشعث، ولم يكن يساعدها في النعاس المؤلم، ولم يكن يدافع عنها، كما لو لم يكن موجودا... : نفَس هادئ ولا شئ أكثر من ذلك، هناك، على يمينها، كان يمكن أن يكون ليو أو شخصا آخر، وكان يذكرها بين الحين والآخر بأنها لم تكن بمفردها.

وجاءتها فجأة رغبة هستيرية للصحبة والمداعبات ؛ وتساءلت قائلة: "لماذا ينام؟، لماذا لا يهتم بها؟"؛ وذلك النفس العميق، هناك إلى جانبها، أفزعها في النهاية دون أن تشعر، ولم يكن يبدو لها أنه نفس عشيقها، ولكن نفس رجل آخر غير معروف وربما يكون أيضا معاديا لها: أي أنه كان هناك في ذلك النفس إيقاع غير مكترث ورتابة تتناقض بصورة بشعة مع آلامها وخيالاتها التي لم تكن تعرف حقا ما إذا كان عليها أن تخاف منها أو تستاء منها ؛ وقد حاولت أن تنساه، ومدت أذنيها، وأصغت للضوضاء القليلة في الشقة، ولبعض التزييق في الأثاث، وبعض الحفيف؛ ثم فتحت عينيها في الظلام لكي ترى شيئا تثبت فيه كل اهتمامها... ولكن كل جهد كان لا يجدي، وكان النفس يفرض نفسه، هادئا، وغير إنساني تقريبا... وقالت لنفسها في النهاية وهي محبطة: "كم سيكون جميلا، لو أنه استيقظ الآن وقال لي أحبك".و كانت تتخيل بالفعل كيف سيحدث كل هذا ؛ ها هو... سيجذبها من جديد إلى جانبه، والخد على الخد، سيهمس في أذنها بالكلمات الحلوة، ولمجرد التفكير كانت تشعر بأنها متأثرة تماما بهذا الأمر الذي واساها تقريبا، عندما جمّد خوف رهيب أوصالها فجأة.

وبدا لها فجأة أن باب الحمام، هناك عند نهاية السرير، يفتح بالتدريج؛ وعند تلك اللحظة، كانت الظلمات بالطبع أقل كثافة عن باقي الغرفة، سواء لأن الزجاج كان يبعث بعض الإضاءة، أو لأن شيش نافذة الحمام كان مفتوحا وكان هناك قليل من الضوء آتيا من الفناء... وهاهو... هناك، لم يكن هناك شك، كان الباب يفتح شيئا فشيئا، وكان يتحرك، كما لو كان هناك شخص يريد الدخول وأخذ يدفعه بحذر من الخارج.

حبس الخوف أنفاسها، وبدأ قلبها في الخفقان في صدرها بشدة؛ وبقيت ساكنة، متجمدة، ومستلقية على ظهرها وعيناها مثبتتان في ذلك الاتجاه؛ وقد مر ببالهاهذا التفكير المجنون الذي لم تصدقه على الفور، في نفس الوقت، على الرغم من التعبير عنه: "إنها ماما التي ستأتي لتفاجئني...". ثم سمع صوت رنين بالباب وكان هذا كثيرا بالنسبة لكارلا: فأطلقت صرخة طويلة، شاكية، وهي مغمضة العينين، بكل ما أوتيت من قوة مع شعور بالتمزق.

كانت هناك بعض الضوضاء ؛ أشعل الضوء، وبدت الغرفة هادئة من جديد، ونهض ليو فوق السرير وهو يغالب النعاس قائلا:

"إيه!... ماذا حدث؟".

تمتمت كارلا قائلة وقد ابيض لونها وهي لاهثة: "الباب، باب الحمام".

ودون أن يقول كلمة واحدة، هبط العشيق من على السرير ورأته هي وهو يفتح الباب، ويختفي في البانيو، ويظهر من جديد:

وصرح هو قائلا: "إنني لا أرى شيئا، ربما كانت الرياح... كنت قد تركت نافذة الحمام مفتوحة... ". عاد إلى السرير، ورفع الأغطية، وتمدد من جديد: وقال: "لا تشغلي بالك بعد ذلك بهذا الأمر ونامي، أحلام سعيدة"، وأطفأ النور.

وكانت هذه الأفعال من الرجل سريعة جدا، وتلك الفترة من الضوء قصيرة جدا، حتى أنها لم يسعفها الوقت لا للكلام ولا حتى التعبير له، بعناق أو نظرة، عن كل الرغبة القصوى في المداعبات والمواساة التي

كانت تحتدم في نفسها في تلك اللحظة؛ وعندئذ بدأت في البكاء، مع عودة الظلام، بعد لحظة من التردد.

كانت الدموع تنهمر سريعة على وجناتها وكانت كل المرارة التي اختزنتها في تلك الليلة تتفجر الآن من من كل جزء في روحها: وكانت تكرر في نفسها قائلة: "لو أحبني لواساني... و لكن لا شئ: لقد أطفأ النور واستدار للناحية الأخرى ". وتلك الوحدة التي كانت قد أدركتها قبل ذلك بالكاد، كانت تبدو لها الآن حتمية؛ وغطت عينيها بذراعها العاري؛ وشعرت بامتعاضة من الألم المر وكانت تكرر في نفسها دون توقف قائلة: "لا يحبني... لا أحد يحبني". كانت تجذب شعرها بأصابعها؛ وكانت وجنتاها قد أصبحتا مبللتين بالدموع ؛ وفي النهاية تغلب عليها التعب الذي كان كامنا فيها ومع بكائها غلبها النعاس.

وعندما استيقظت كان النهار قد بزغ، وقد تبينت ذلك من ذلك الضوء القليل الذي كانت تسمح به فتحات النوافذ لينفذ للظلام الخافت في الغرفة. استيقظت بسهولة، وتعرفت على الفور على المكان الذي كانت موجودة فيه، ولم تندهش لا عندما رأت نفسها ترتدي تلك البيجامة ذات الخطوط الكبيرة التي لم ترد ارتداءها في مساء اليوم السابق، على الرغم من أنها لم تكن تتذكر في تلك اللحظة المحددة من الليل أنها استطاعت ارتداءها، ولا لاحظت، هناك، على الوسادة، تلك البقعة الداكنة والشعثاء، وهي رأس ليو، بمجرد أن نهضت واستندت إلى الحائط واعتادت عيناها الناعستان على الظل المترب في الغرفة. أي أن ذلك النعاس كان قد بدد كل اندهاش ومخاوف الليل ؛ كانت تبدو وكأنها قد اعتادت الاستيقاظ بتلك الطريقة،، في سرير عشيقها وبعد انتهاء العذاب، والاستغراب ونفاذ الصبر؛ وبعد انتهاء ذلك الشعور باللاواقعية الحزينة والمغامرة؛ وظهرها للحائط، وعيناها مفتوحتان في الظل الخانق، كانت كارلا تستنبط من الشبع غير العادي ومن الهدوء، ومن الصبر المفكر الذي كان مستوليا عليها، أنها دخلت حقا حياة جديدة. وقالت لنفسها عند لحظة معينة، ولا تدري ما إذا كان ذلك بخوف أو بضيق: "أمر غريب، كما لو كنت قد أصبحت فجأة أكبر سنا بكثير مما كنت...". وبقيت ساكنة هكذا، وقلقة بصورة مبهمة، لبضع ثوان؛ ثم انحنت وهزت الرجل من كتفه.

ونادت عليه بصوت خافت غريب قائلة: "ليو... "

كان عشيقها قد سحب الملاءات حتى فوق أذنيه، وكان يبدو أنه غارق في سبات عميق، وفي البداية إما أنه لم يسمع أو تظاهر بأنه لا يسمع؛ ومرة أخرى انحنت كارلا وهزته؛ وعندئذ، وصل من ظل الوسادة الصوت الناعس.

قالت أيضا بنغمتها الجديدة المنخفضة والحميمة: "الوقت متأخر، لقد حان وقت عودتي إلى المنزل... ".

ودون أن يتكلم كلمة واحدة ودون أن يحرك باقي جسده، مدّ ليو ذراعه خارج السرير وأشعل المصباح؛ وعاد ذلك الضوء الهادئ الذي كان في الليلة الماضية، وتعرفت كارلا بالكامل على الأثاث، والبابين وتلك الكنبة الصغيرة التي كانت عليها الكومة الصغيرة من ملابسها الداخلية، وهي نفسها جالسة على السرير... : وكانت الساعة الموضوعة على المنضدة الصغيرة تشير إلى الخامسة والنصف.

وكرر ليو بأسف وغضب دون أن يستدير قائلا: "إنها الخامسة والنصف، هل يمكن أن أعرف لماذا أيقظتيني؟".كررت كما قالت من قبل: "إن الوقت متأخر"؛ وترددت، ثم تخطت بحذر جسد عشيقها وجلست على طرف السرير.

ولم يبد أنه تنبه لذلك، ولم يرد عليها ؛ ومن الواضح كما فكرت أنه أغلق عينيه مرة أخرى واستغرق في النوم من جديد؛ وعندئذ استعدت كارلا لارتداء ملابسها من جديد دون أن تستدير ودون أن تعبأ به.

ولكنها كانت قد نزعت لتوها ذلك الزي المنفر بخطوطه العريضة، وكانت تستعد لارتداء القميص وهي واقفة وعارية تماما، عندما شعرت فجأة بذراع يمسك بها من الخلف، من خصرها. كانت الحركة الأولى من الخوف؛ وتركت الثوب يسقط على الأرض، واستدارت بقوة إلى ذلك الجانب. وعندئذ رأت بنفسها، إلى جانبها، رأس عشيقها الأشعث، النائم، الأحمر. وهمس وهو يبرز من السرير؛ وهو يرفع عينيه الهائجتين وغير اليقظتين نحو الصبية وقال وهو يتظاهر بالكلام بصعوبة بسبب نوم عميق

لم ينمه: "كارلا، لماذا ستذهبين مبكرا هكذا؟ تعالي هنا... عودي إلى هنا إلى جوار حبيبك ليو".

نظرت هي إلى ذلك الوجه المثير، هناك، وقد أضاءه نور المصباح الساخن وفجأة انتفخ صدرها بنفاذ صبر لا يمكن تفسيره:

وقالت بصوت عنيد وهي تجتهد لفصل جذعها من الأصابع الخمسة التي كانت ملتصقة به: " إن الوقت متأخر... لقد حان وقت ذهابي ".

ورأت الرجل يضحك وهو يوارب عينيه الصغيرتين الهائجتين، قائلا: "بالنسبة لبعض الأمور لا يكون الوقت متأخرا أبدا"، وفجأة، وبلا مبرر، لأنها كانت تقر داخلها أن عشيقها تراوده بعض الرغبات، بلغ غضبها ذروته: وكررت بشدة قائلة: " دعنى أقول لك": وكان كل رد ليو هو أن مدّ الذراع الآخر أيضا بغلظة محاولا قلبها إلى جانبه؛ وعندئذ حررت نفسها بجذبة عنيفة، وذهبت إلى الكرسي الصغير الموجود أمام السريرو انهمكت في لبس الجورب وهي منحنية، دون أن تعبأ به، ودون أن تقول كلمة واحدة.

وبعد الجورب جاء دور الحمالات ؛ ولم ترفع عينيها القلقتين إلا بعد بضع لحظات ونظرت بتعبير قاس تجاه السرير؛ ولكن ليو كان قد استدار تجاه الحائط وكان يبدو أنه نائم. وقالت هي في نفسها: "أحلام جميلة" ؛ ومرت لحظة؛ وفي نفس الوقت، انقبض قلبها بشعور من الخوف والحيرة، كما لو أن هذا التفكير القصير كان يمكن أن يثيره؛ وبعد ساعات طويلة من النسيان التام، عادت تتردد في رأسها الكلمات القديمة: "الحياة الجديدة": وانحنت، والتقطت التنورة التحتانية: وقالت لنفسها وهي تقبض بعصبية على تلك الخرقة وهي تحدق أمامها: "هل يمكن أن تكون هذه هي الحياة الجديدة؟".

ودون أن تتوقف هذه الفكرة عن الفوران في نفسها انتهت من ارتداء ملابسها ونهضت:

وصاحت في النائم وهي تنحني وتلمس كتفه قائلة: "انهض" "إنك مخطئ... لقد آن وقت الرحيل... ".

وكانت الإجابة: "حسنا". ومع ثقتها في أنها ستجده مرتديا ملابسه ذهبت كارلا إلى الحمام.

وقد صففت شعرها بمشط وفرشاة ليو، وغسلت يديها، وتفحصت باهتمام وجهها الشاحب في المرآة. وقالت في نفسها: "في المنزل سأغتسل كلية... سآخذ حماما... وبعد ذلك... وبعد ذلك سيتعين الذهاب فورا إلى ذلك الموعد، إلى التنس". ولكن على الرغم من هذه الأفكار الهادئة والعملية، فإن هذا السؤال الحزين لم يتوقف عن التردد في الطبقات السفلى من وعيها : "هل من الممكن أن تكون هذه هي الحياة الجديدة؟".

وفي غرفة النوم كانت تنتظرها مفاجأة ؛ ليو لم يكن قد ارتدى ملابسه ولاحتى نهض على الأقل ؛ كان بالضبط في نفس الوضع الذي تركته عليه، وكان يبدو أنه لا يزال نائما.

اقتربت منه وهزّته قائلة: "ليو... الوقت متأخر... يجب أن نذهب... انهض... ".

التفت الرجل، ورفع بالكاد وجهه النائم من على الوسادة ونظر إليها: "إيه؟... ارتديت بالفعل ملابسك؟".

"الوقت متأخر... ".

كرر ليو قائلا كما لو كان لم يفهم: "الوقت متأخر؟ وماذا إذن؟".

"كيف ماذا إذن؟... يجب أن تصحبني إلى المنزل... ".

تثاءب، وشد شعره وبدأ قائلا: "لو علمت ما أشعر به من النعاس"؛ طوال الليل لم تتركيني لحظة واحدة في سلام... : كنت تنادين عليّ... كنت تحدثينني... وكنت توجهين إليّ الركلات... وما أدراني بذلك؟... إنني أموت من النعاس". كان يتحدث ببطء، وهو يجرّ الكلمات، متحاشيا النظر إلى الصبية؛ ولكن كارلا كانت تنظر إليه بانتباه: وقالت لنفسها فجأة، دون غضب وبهدوء: "هذا واضح، ليس فقط لأنه لم ينم، ولكن أيضا وبصفة خاصة لأنني لم أستسلم له منذ قليل وهو يتظاهر الآن بأنه يشعر بالنعاس... ". وانتصبت واقفة وقالت بعذوبة تقريبا: "إذا كنت تريد النوم، يا ليو، فلا داعي للمجاملة... يمكنني أيضا الذهاب وحدي...".

وتمتطع هو طويلا، دون اكتراث قائلا: "ما هذه البلاهة... الآن وقد أيقظتينني سأقوم باصطحابك".

وفكرت وهي تنظر إليه: "يجب أن أبيّن له أنه مخطئ، وأنني... لست مثله". وألحت أيضا بنفس العذوبة قائلة: "و لكن لا، لا... لا أريد إزعاجك؛ أنت تشعر بالنعاس، وهذا صحيح... أفضل الذهاب وحدي".

نظر إليها ليو بشئ من الحيرة وقال في النهاية بحماس مرتخ: "لا شئ وحدك؛ أنت تقولين هكذا الآن... و لكنك لن تتوقفي بعد ذلك عن توبيخي على ذلك... إنني أعرفكن جيدا... لقد قررت وحسمت أمري: سوف أصطحبك". صَمَت، وهز رأسه بقوة، ولكنه لم يتحرك؛ ونظر كل منهما إلى الآخر. وسألت الصبية فجأة: "وماذا لو أمرتك بذلك؟"

"بماذا؟".

"بألا تصطحبني".

فتح ليو عينيه مندهشا ورد بارتياب قائلا: "في هذه الحالة تأخذ المسألة شكلا آخر ". وقالت كارلا وهي تعدل بهدوء حزام الفستان: "حسنا، إنني آمرك بذلك".

مرت لحظة من الصمت، وأخيرا قال الرجل: "في البداية كنت تريدين مني اصطحابك، والآن لا تريدين ذلك... ما هذه الأمزجة المتقلبة؟".

قالت في نفسها وهي تجز على أسنانها: "آه! أنا التي مزاجي متقلب"؛ وجلست على حافة السرير بجوار عشيقها وردت قائلة: " الأمر لا يتعلق بتقلب الأمزجة، ولكنني فكرت في أن اصطحابك هذا يمكن أن ينطوي على خطورة... إن رأونا معا... ثم إن ميكيلي يمكن أن يكون قد نهض... ؛ إذن، فهمت؟ من الأفضل أن أذهب وحدي... وأنا أعرف الطريق، وسأكون خلال عشر دقائق في المنزل... وأنت... يمكنك أن تخلد إلى النوم... ".

صمت الإثنان وكل منهما ينظر إلى الآخر؛ والآن، بعد تلك الرغبة المتوهجة، كان ليو يشعر حقا بنعاس شديد، ولم يكن هناك شئ يضايقه

أكثر من النهوض والذهاب مع كارلا في الطريق، وربما تحت المطر؛ ثم إنه كان لابد أن يخرج السيارة؛ فابتسم لها، ومد يده، وداعبها على وجنتها وقال: "في نهاية المطاف، على الرغم من كل رغباتك المتصلبة فأنت حقا طفلة بارعة جدا... وبالتالي يمكنني أن أتركك تذهبين وحدك فعلا؟... ".

وقالت وهي تنهض: "بالطبع"؛ فقد كانت تلك النبرة من ليو تغضبها ؛ "يمكنك أن تستغني عن ذلك... بل إنني أرجو منك ذلك".

وأضاف ليو، كما لو كان يتحدث إلى نفسه: "على أية حال، لقد رأيتي أنني ألححت عليك حتى آخر لحظة... ، إذا لم أصطحبك فليس هذا لأنني أريد النوم، ولكن كما قلت جيدا أنني يمكن أن أعرضك للخطر... وهكذا بعد ذلك لا تأتي لتقولي لي...". ولكنه توقف عن الكلام؛ ولم تكن كارلا في الغرفة، كانت قد خرجت بالفعل لكي تأخذ القبعة. وفكر ليو: "هذا أفضل، إنه يريحني ويريحها... وهكذا نكون نحن الإثنان مسرورين".

بعد لحظة عادت؛ وكانت تضع القبعة على رأسها، ومعطف المطر، والشمسية؛ لبست قفازا وقد بدا الانشغال على وجهها، وبحثت دون جدوى عن الفردة الأخرى في جميع جيوبها: وأخيرا قالت: "صبرا، لابد أنني فقدته... "، وأضافت دون تعثر وهي تقترب منه: "وبالمناسبة، هل يمكن أن تعطيني بعض النقود من أجل سيارة الأجرة؟... لم يعد معي نقود". كانت سترة ليو معلقة على مقعد غير بعيد عن السرير؛ فمد يده، وأخرج من جيبه حفنة من العملات الفضية:

وقال وهو يقدمها لها: "ها هي".

وبعد أن وضعت النقود في جيبها، لم تستطع كارلا تجنب التفكير قائلة لنفسها: "بدأت الآن في الكسب". واقتربت من السرير، وانحنت، وقالت بحب تقريبا، كما لو كانت تعوّض ذلك التفكير الشرير الذي خطر ببالها: "إلى اللقاء اليوم، يا عزيزي"؛ وقبـل كل منهما الآخر. وصاح فيها ليو قائلا: "اغلقي الباب جيدا"؛ ورآها تخرج بحذر، وانتظر للحظة أن يسمع انغلاق باب المنزل؛ ولكن لم يصل أي صوت لأذنيه؛ وعندئذ أطفأ المصباح واستدار تجاه الحائط واستسلم للنوم.

الفصل الحادي عشر

وفي منام ليو، كانت تدخل وتخرج شخصيات الفجر الباهتة، وشخصيات نوم الصباح، مع الشمس المتلألئة والضوء المتسلل خلال الغرفة المقلوبة من جميع الأنحاء مثل الماء في سفينة مزقة،... و كانت لكارلا والأم وميكيلي حركات لينة الجانب وشائنة، ولكن صورهم كانت تبهت كما لو كان الضوء الخارجي قد أزال لونها... وعلى الرغم من نومه فإن ليو كان يفعل كل جهد للإبقاء عليها ؛ وكان يكرر لنفسه قائلا بلا وعي: "لا يجب أن توقظيني، لا يجب أن توقظيني"؛ وكان هناك صوت شاعري وبعيد، مليء باللوم الخافت، يناديه من مكان بعيد: "ليو، ليو، استيقظ، إنه أنا"؛ وبلا وعي أيضا كان يتوهم أن هذا لم يكن سوى حلم وكان يأمل، وعيناه مغمضتان بعناد، وهو يلتف بقدر المستطاع في الملاءات، كان يأمل، بعد انقشاع تلك الفوضى المؤقتة، في العودة من جديد في حبائل الحلم الكثيفة واللذيذة... ولكن النداءات تكررت بصورة أوضح دائما، وفي النهاية هزته يد من كتفه: وعندئذ فتح عينيه ورأى مارياجراتسيا.

في البداية اعتقد أنه لا يرى جيدا، وأعاد النظر كرّة أخرى، نعم، لم يكن هناك شك، كانت العشيقة بالضبط، مرتدية ثوبا رماديا، والقبعة على رأسها، والفراء حول عنقها، واقفة بجوار السرير؛ وكان ظل الليل قد ترك الغرفة، وكان لابد أن يكون يوما جميلا، وكانت هناك بقع مرحة من الشمس تتلألأ تقريبا في كل مكان على الأثاث المترب والمعتم.

وقال لها في النهاية: "أنت هنا، وكيف استطعت الدخول؟".

ردت ماريا جراتسيا قائلة: "كنت قد جئت لكي أحضر لك تذكرة، ولكنني وجدت الباب مفتوحا ودخلت ".

كان ليو ينظر إليها بدهشة؛ وفكر قائلا: "الباب مفتوح؟، آه بالفعل... ربما كانت كارلا... "؛ وتثاءب، وتمتطع دون اكتراث وهو يقول:

"وجئت كي تقولي لي؟".

جلست الأم على السرير، في ذلك الظل المخطط كله بخيوط الضوءالتي كانت تسمح بدخولها أخشاب الشيش، وشرعت تقول:

"كنت أريد إبلاغك بذلك بالتليفون، ولكن بما أننا لا ندفع الضرائب منذ شهرين، فقد أوقفوا الخط التليفوني عندنا... ومساء أمس وعدتني بأننا سنتقابل غدا... و لكنني غيرت رأيي بعد ذلك... ألا يمكن أن تكون غير مشغول اليوم عصرا؟".

ضم ليو ركبتيه بين ذراعيه وكرر قائلا: "اليوم عصرا؟" لم يكن هذا الاقتراح يضيره في شئ،، وكان يفكر في أنه لو تخلص في نفس ذلك اليوم من تعطيل الأم لكان طوال باقي الأسبوع متفرغا لكارلا؛ ولكن تجنبا للمفاجئات لم يُرد أن يعد بشيء.

وقال: "اسمعي، اليوم سآتي على الغذاء عندكم... وسيمكنني عندئذ أن أقول لك بعض الأشياء... اتفقنا؟".

"اتفقنا".

أعقب ذلك صمت طويل؛ وكانت مارياجراتسيا وهي مرتابة ومستاءة تنظر حولها، وكانت تفحص بانتباه الأثاث المعروف، السرير، وجه العشيق؛ وبدا لها هذا الأخير شاحبا ويشوبه شئ من الاضطراب ؛ وكان هذا الأمر وأنها وجدته لا يزال مستغرقا في النعاس كانا كافيين ليؤكدا لها بعض شكوكها الغيورة، وفكرت قائلة: "لقد أمضيت الليلة مع ليزا، لا شك... وربما كانت ليزا هنا منذ قليل"، واجتاحتها ضغينة حادة، وألقت على العشيق نظرة مليئة بالتوبيخ السام.

وقالت بنبرة لاذعة حلوة: "أنا في مكانك، لن أتصرف كما لو كنت في سنّ العشرين".

سأل ليو مندهشا: "بمعنى؟".

وردت ماريا جراتسيا قائلة: "بمعنى أنك تتقدم في السن ولا تلحظ ذلك... و لا تلحظ حتى أن تصرفات مجنونة مثل تلك التي ربما تكون قد قمت بها هذه الليلة لم يعد بوسعك القيام بها بعد ذلك... انظر لنفسك في

المرآة" وأضافت وهي ترفع صوتها: "انظر من فضلك إلى عينيك، يا لها من عينين، ويا له من قناع كبير، ويا لها من ألوان جميلة... انظر إلى نفسك من فضلك... ".

ردد ليو غاضبا وخاصة من ذلك التلميح المباشر إلى سنه الناضج تقريبا قائلا: "أنا أتقدم في السن؟... وأي تصرفات مجنونة؟... عن أي تصرفات مجنونة تتحدثين؟".

قالت الأم مع حركة بيدها: "إيه، إنني خبيرة بذلك ولكن هل تريد رأيي؟... في خلال عام أو عامين على الأكثر سيحملونك على الكرسي المتحرك... مؤكد، ولن تستطيع حتى المشي بعد ذلك".

رفع ليو كتفيه بغضب قائلا: "إذا كنت قد جئت لكي تقولي لي هذه البلاهات، فمن الأفضل أن ترحلي... ". ونظر إلى الساعة على المنضدة بجوار السرير وقال: "الثانية عشرة!... وأنا الذي ظللت أسمعك في حين أن عندي موعدا بعد نصف ساعة... ارحلي، ارحلي فورا"؛ وقفز لينزل من على السرير، وأدخل قدميه في الشبشب، وذهب إلى النافذة ورفع الشيش؛ وامتلأت الغرفة بالضوء.

وسألت الأم دون أن تتحرك من السرير قائلة: "والروب دي شامب ألا تلبسه؟ ربما أهديته لبعض العشيقات العابرات؟".

لم يجب ليو بشيء وانتقل إلى الحمام؛ ونهضت مارياجراتسيا، وبشئ من الفضول، وبشئ من النشاط شرعت في التجوال في الغرفة. وصاحت عند لحظة معينة قائلة: "و أيضا هديتي الأخرى، تلك الفازة الرائعة من المورانو اختفت... هل أهديت هذه أيضا؟"؛ ومرة أخرى لا إجابة؛ وكان يسمع هناك في الحمام صوت المياه المتدفقة. كان ليو يأخذ دُشا.

ومع إحباطها دون أن تستسلم للهزيمة، واصلت ماريا جراتسيا تفتيشها؛ وكان كل شيء من تلك الغرفة يعيد إلى ذاكرتها ذكريات جميلة، وغالبا ما كانت تتنهد وهي تعقد مقارنة بين البؤس الحالي وتلك الأوقات الجميلة الماضية؛ وقد أعادت إليها رؤيتها لصورتها، الموضوعة على البايوه، شيئا من الثقة، وقالت لنفسها: "في النهاية هو لا يحب غيري، وعندما يشعر بالتعب، عندما يشعر ببعض الضيق، يلجأ دائما إليّ... ليس

هذا سوى برود لحظي... وسيعود إليّ؛ وكانت تمسك فوق صدرها بباقة من زهور البنفسج التي اشترتها قبل قليل من الشارع؛ وبشيء من العرفان، وبفكرة مبهمة في أن تقوم بتصرف لطيف، نزعت عن نفسها تلك الزهور، ووضعتها في فازة صغيرة بالقرب من الصورة ؛ وبعد ذلك دخلت الحمام.

كان ليو واقفا يحلق ذقنه مرتديا الروب دي شامب. قالت له: "إذن سأتركك، و... بالمناسبة... اليوم، عندما سنأتي، تظاهر بأنك لم ترني، كما لو كانت قد وصلتك بالفعل هذه التذكرة... اتفقنا؟... .

وكرر هو دون أن يلتفت إليها قائلا: "اتفقنا".

رحلت ماريا جراتسيا، راضية بذلك؛ وهبطت السلم بسرعة وخرجت؛ وعند ناصية الشارع، صعدت تراما كان ذاهبا نحو وسط المدينة؛ وكانت ليزا تنتظرها ربما منذ عشرين دقيقة في ذلك المحل الذي يبيع القبعات حيث كانتا قد تواعدتا على اللقاء لفحص موديلات باريس الجديدة... كانت الأم تجلس في زاوية بالقرب من النافذة، وكانت تدير ظهرها بقدر المستطاع تجاه الناس في الترام وتنظر إلى الطريق؛ وكانت الأرصفة مزدحمة بجمع غفير نشيط من العاملين من كل نوع والعائدين إلى منازلهم؛ وكانت شمس فبراير الباردة تضئ وجوههم المحمرة من الثلج تحت الثنيات المستخدمة للقبعات الباهتة والمشوهة، وشخوصهن المحبوسة المعطف التي اخضرت مع الزمن؛ كانت شمسا لطيفة وبلا حرارة تنتشر بسخاء على كل تلك الأثمال كما لو كانت تريد مباركتها تقريبا؛ وكانت الحوانيت البراقة يصطف الواحد تلو الآخرمع تلك الكتابات المرسومة بالأحمر والأبيض أو بالأزرق على الفترينات؛ وكانت اللافتات المضيئةالمعلقة على واجهات المباني، الرمادية والمطفأة، تبدو وكأنها ديدان متفحمة ؛ وكان القطار يتقدم ببطء، متعدد الألوان، شعبيا وممتلئا مثل عربة السيرك، وكان يتوقف، ويرنّ... وبين الحين والآخر، تحت نظر الأم، وبحركة سريعة،كانت المقدمة اللامعة والطويلة لإحدى السيارات تتقدم، وكانت تتوقف تقريبا بحثا عن منفذ بكشافاتها الكبيرة، وتقفز إلى الأمام... و كانت هي ترى وراء لوح من الزجاج، سائقا كل ملابسه من الجلد، ثابتا في مكانه، ويداه في القفاز موضوعتان على عجلة

القيادة، وهو يتهادى فوق الوسائد الجلدية، في غاية السرور وعينه شبه المفتوحة هابطة على الناس، وهو شخص بطنه كبير، أو سيدة وجهها رقيق ومطلي بالمكياج، وهي ملتفتفي فرائها المنتفخ... عندئذ كانت الأم تتنهد، ؛ ولم يكن بوسعها أبدا أن تمر بين الناس وهي غير مهندمة في سيارة كبيرة وقوية، كانت سنواتها قد اندثرت وكان شبابها قد توارى في سيارة أحلامها اللامعة؛ وشيئا فشيئا كانت صور حقدها، أولئك الأشخاص العابرين الذين مروا بسرعة السهام في عرباتهم المدمدمة كانوا قد ابتعدوا أيضا عن خيالها وأملها وواصلت مسيرتها مستسلمة، بنوع من الكرامة الممتعضة، في تلك العربة الكبيرة المصنوعة من الحديد والزجاج.

وجدت ليزا جالسة داخل محل بائع القبعات النسائية، الملئ بالمرايا والقبعات الجديدة؛ وكانت هناك أمام المرآة سيدة شابة تنظر لنفسها بخيلاء وهي تمر جيئة وذهابا بحركات نبيلة ومتكلفة؛ وكان يسمع كلام في القاعة الأخرى وأبواب وزجاج يغلق؛ وكانت الأرضية تنبعث منها رائحة الشمع ؛ وكانت الغرفة رمادية وعارية؛ وفي أحد الأركان كانت ترى كومة هرمية من علب الكرتون الأبيض الكبيرة والخفيفة، بعضها مغلق وبعضها مفتوح؛ وفي الركن الآخر المقابل كان قد نما زرع كثيف من القبعات الجديدة، ذات الألوان الطازجة، المتزنة والرقيقة، وكلها مائلة على دعاماتها الخشبية.

وبمجرد أن رأت ليزا الأم نهضت قائلة:

" أنا آسفة جدا، أوه! جدا بالفعل، ولكنني لا أستطيع البقاء معك... فالوقت متأخر، ويجب أن أعود إلى المنزل".

نظرت إليها الأم بارتياب: وقالت لنفسها: "كم هي أنانية إذن، لقد اختارت اختيارها وتريد أن تمنع اختياري".

وقالت بوجه غير حازم: "إذن فإنني سأبقى".

"افعلي ما تريدين" وكانت ليزا تمد لها يدها بالفعل عندما غيرت الأم رأيها:

"لا، سآتي معك: والقبعات سأراها في يوم آخر".

خرجتا سويا إلى الشارع المزدحم، وقالت الأم: "سأصحبك حتى الحدائق، وهكذا سيكون لدينا وقت للحديث". ولم ترد ليزا؛ وسارتا معا، مع التوقف غالبا أمام الفترينات، وتفحص البضاعة، ومقارنة الأسعار؛ وكانت محال الجواهرجية تحزن الأم، وكانت تقول وهي تشير بإصبعها بتنهد إلى عقد من اللآلئ معروض في في علبته: "لقد كان عندي عقد كهذا، والآن لم يعد عندي". كانت ليزا تنظر إليها ولكنها لم تكن تقول شيئا؛ فجواهرها هي أيضا كانت قد ذهبت لجهات بعيدة. وكانت تفكر قائلة "و لكن جواهريأخذها مني زوجي... على الأقل لم أبعها أنا لمواجهة تكاليف المعيشة ". وهكذا رويدا رويدا وصلتا إلى نهاية ذلك الشارع.

كانت الأم قداصطحبت صديقتها لكي تستطيع البوح بشكوكها حول ليو؛ وبعد ذلك خفف الزحام والمحال والصباح المضئ من ضغينتها؛ ولكن عندما رأت ليو نفسه في الميدان واقفا على الرصيف، مع شخص يرتدي بدلة سوداء، وهو يحييها دون أن ينظر إليها ودون أن يقطع محادثته، رافعا قبعته بالكاد فوق رأسه، عاد إليها ذلك التفكير بالتالي أكثر إيلاما من أي وقت مضى.

نظرت إلى ليزا، وقالت في نفسها: "هي لم تكن معه لوقت متأخر عن مساء أمس". كان هذا الافتراض يبدو لها مؤكدا، وقد أقامته على أساس أنه كان لابد أن يبدو واضحا لأي نظرة محايدة أن هناك "شيئا ما" بين هذين الإثنين. كانت تنظر إلى ليزا وتتفحصها، وكانت تجد لها نوعا من الإغراء الجديد، وسعادة جسدية يصعب تحديدها ولكن لا سبيل لإنكارها؛ وقد كان هذا التغير الآن دليلا على الحب، وكانت الأم تخمن ذلك بامتعاض غريب: لم يكن هناك شك، وكان هذا يُرى في الوجه من الملامح البدينة والرقيقة كما عند النساء الشقراوات غالبا: إن ليزا كانت تحب وكانت محبوبة؛ من قِبَل من؟ كانت الأم تفكر قائلة: "من قبل ليو"، وكانت غيرتها وراء صور خيال غير لائق تتزايد، وتقول لنفسها: "ليس لوقت متأخر عن مساء أمس"؛ وكانت تجد في عيون الصديقة المبللة، وفي حساسية فتحات أنفها، تأكيدا على امتعاضها وكانت تتساءل بامتعاض هستيري حقيقي قائلة: "كيف يمكن أن يحب مثل تلك المرأة؟"؛ "فأنا لا أستطيع حتى أن ألمسها، وكلها مليئة بالحرارة، وكلها مليئة

بالحب؛ إنها ليست امرأة، إنها حيوانة". وكانت أصابعها تنكمش من الامتعاض، عند التفكير في أن ليو استطاع أن يداعب ويلمس بيده ذلك الجسد، وذلك الرأس وكل ذلك الشيء الساخن والنابض.

والآن كان يمتد أمام أعينهماطريق مشجر مستقيم واسع وطويل لينقشع في البعد الرمادي، بين صفين من الفيلات المختفية جزئيا في حدائقها؛ وكانت الأشجار، وهي من نوع الدُّلب العملاقة، عارية وكان الجو باردا وساكنا؛ وكان هناك قليل من الناس يسيرون في هذه النزهة المنفردة؛ وبحفيف حريري، وأزيز خفيف، في صمت تقريبا فوق الأسفلت المصنفر كانت تمر السيارات الفارهة التي كانت تحلم بها الأم.

و كانت هذه الأخيرة تروي الاستعدادات للرقصة التي كان يتعين أن تجري في المساء، وكانت تقول:

"إن الفستان الأسباني يتوافق بصورة رائعة من لون بشرتي، وسيكون معي مشط كبير، كما تعلم، مشط من تلك الأمشاط الأندلسية... ونحن مدعوون لمائدة آل بيراردي... وأنت... هل ستأتين أنت؟".

قالت ليزا وهي تغض بصرها: "أنا، أنا للرقص؟... ليس لدي من يصحبني". وصمتت منتظرة بشيء من القلق رد الصديقة؛ وكانت تعتقدأنها كان يجب أن تدعوها لتلك الرقصة؛ فقد كانت تعرف آل بيراردي، وكانت ستضع قناعا بأي طريقة، وكانت ستشرب، وتتسلى... ثم عند عودتها كانت ستطلب من الأم أن تترك لها ميكيلي (وكانت تحب معاملته كغلام)، وكانت ستجد صحبة حتى منزلها، في ساعة متأخرة من الليل، وهي تمزح معه وتستفزه وتثيره ؛ وكانت ستجد صحبة في سيارة مغلقة، أنوارها مطفأة... وكانت المسافة طويلة، وطرق الوصول مظلمة؛ وسيكون أمامهما الوقت للكلام، والصمت، وأن يتفقا في كلمة واحدة، وعند الباب كانت ستدعوه للصعود لشرب كوب صغير من النبيذ أو قدحا من الشاي قبل أن يستأنف السير في تلك الليلة الباردة.

كان هذا البرنامج يعجبها لحتمية الأحداث التي كان لابد أن تحدث: فقد كان من المستحيل أن يرفض ميكيلي الصعود إلى منزلها، مستحيل...

ولكن الأم كانت تتحدث بالفعل؛ وكانت قد فكرت في الإجابة ومثل كل الأشخاص الذين يعتقدون أنهم يمتلكون احتياطيا خطيرا من الخبث، وضعت قليلا جدا منه في كلماتها حتى أنها مرت دون أن يلحظها أحد، وقالت عن قصد:

"أنت لا ينقصك الأصدقاء، اصطحبي واحدا منهم".

ردت ليزا التي كانت تريد أن تُـدعى بأي ثمن: "إن أصدقائي هم أنتم، ليس لي غيركم".

"شكرا، لطيفة جدا".

استطردت ليزا قائلة: "ومن دعاكم أنتم؟ آل بيراردي؟ لكنني أعرفهم إذن...، بالتأكيد أعرفهم... لقد قضينا فترة المصيف سويا".

"آه! هكذا؟".

وسألت ليزا بسذاجة قائلة: "ومن سيصحبكما؟"

ردت الأم وهي توضح ما تقول "ليو سيكون مرة أخرى... وسيقوم آل بيراردي باصطحابنا".

وفكرت ليزا قائلة: "وماذا يهمني من ليو!". وأضافت وقد بدا عليها الشك: "و سيكون بارعا؟"

"في غاية البراعة".

صمتتا لبرهة. واستأنفت ليزا الحديث دون اكتراث، وهي تنظر أمامها قائلة: "إنني أود الذهاب إلى هناك... لكي أرى أيضا آل بيراردي... لم ير أيّ منا الآخر منذ زمن بعيد... ربما لأكثر من عامين".

وأصبحت الأم عصبية وكانت تضرب بطرف الشمسية الصغيرة أحجار الرصيف وهي تقول: "آه!، بيراردي بالذات؟ هم بالذات؟".

قالت ليزا دون أن تنظر إليها، كمن يبحث بين ذكرياته: "نعم، بيبو، ماري، فاني... كلهم بخير؟".

"حسنا جدا... لا تخافي، إن صحتهم ليست عرضة لأي خطر".

صمت جديد. فكرت ليزا وهي تنظر إلى وجه صديقتها الذي احمر قليلا قائلة: "والآن؟ ماذا ينتابها؟ كانت قد تنبهت أخيرا لعصبية الأم وقد استخلصت من هذا أنها لا تؤيد رغباتها.

وفكرت بمرارة قائلة: "يالها من أنانية؛ لقد أدركت من الكلمة الأولى أنني أود الذهاب إلى هناك، ولن تدعوني لكي تفعل لي فقط شيئا كريها". كانت تشعر بشئ من الإحباط؛ وقامت بجهد أخير.

وهمست بصوت مقنع قائلة: "يجب أن أعترف لك يا ماريا جراتسيا، أنني أحب كثيرا الذهاب إلى الرقص... لا أريد أن أزعجك... ولكن ربما تستطيعين اصطحابي لمائدة آل بيراردي؟". انتظرت ورأتها تضحك.

قالت الأم بين قهقهات تلك الضحكة المريرة: "آه! هذه جميلة، وهل يتعين عليّ هذا؟... شكرا جزيلا يا عزيزتي لهذا التفكير الرقيق، شكرا حقا، ولكنني لا أقوم بهذه الخدمات".

بدأت ليزا غاضبة، وقد فهمت أخيرا المعنى الحقيقي لكل تلك السخريات؛ ولكن الأخرى قاطعتها، وسألتها قائلة:

"حسنا، هل تريدين حقا أن أقول لك هذا؟".

"لقد فهمت كل شيء: أنت لم تأتي للرقص من أجلي، ومن أجل آل بيراردي، ولكن من أجل شخص آخر، شخص آخر يهمك".

وماذا يمكن أن يهمك من هذا؟".

قالت الأم وهي تهز رأسها بمرارة: "بالفعل، بالفعل... ماذا يجب أن يهمني من كل هذا؟ لا شئ، لا شئ، لا شئ فعلا؛ في نهاية الأمر أنت على حق؛ ماذا يمكن أن يهمني من أن يسرقونني أو يقتلونني؟ لا شئ، لا شئ، لا شيء أيضا". صمتت برهة لكي تتذوق سموم أفكارها، ثم استأنفت حديثها بعد ذلك: "وقد حدث هذا لأنني طيبة، طيبة أكثر من اللازم... لو كنت وضعتك تحت أقدامي في المرة الأولى"، وقامت الأم بحركة تبين أنها تدهس شيئا، "لما حدث هذا الآن".

"تضعينني تحت أقدامك؟ أنا؟ هل جننت يا ماريا جراتسيا؟ هل جننت؟".

وعلى الرصيف الخاوي، كانت المرأتان تسيران وهما تتشاجران؛ وكانت الأم ترتدي فستانا رماديا، وليزا فستانا بني اللون؛ وكان كلاهما يضع فراء ثعلب حول رقبته، وكان فراء ليزا أسمر مصفر، وفراء الأم فضيا؛ كانتا تسيران وتتشاجران؛ وكانت السيارات اللامعة تمرق، وكانت بعض الأزواج من الشباب الأنيق تمر؛ باللون الرمادي والذهبي: رمادية الصور البعيدة والقريبة للمارة والحدائق العميقة، وراء الأسوار الحديدية، والطريق المهجور، وأشجار الدلب ؛ وكانت ذهبية تلك الشمس الجديدة والباردة، التي لا تزال متماسكة في صقيع الشتاء، وهي تتصبب ضوءا وماء من ثلوجها المنصهرة، وهي مبتسمة وباردة مثل مريض في مرحلة نقاهة، ملفوف في القطن المندوف، تلك الشمس الذهبية، في السحب الزرقاء في سماء فبراير.

كانت الأم مستمرة في حديثها المنفرد.

وكانت ليزا تقول بضحكة عالية ومحتقرة: "طيبة للغاية، طيبة للغاية، أنت؟".

لحظة صمت: استمرت الأم في حديثها مبتعدة عن صديقتها وهي تنظر أمامها كما لو كانت تريد الحديث مع شخص ثالث، قائلة: "ولكن، أنا لا أفهم فعلا كيف يستطيع الإنسان أن يحب بعض النساء... هذا لا أفهمه".

"هذا ما أقوله أنا أيضا".

كانت ليزا شاحبة، وكانت شفتاها ترتعشان؛ لماذا كانت صديقتها تبدو قاسية هكذا وبلا رحمة؟ إنها لم تفعل لها أي شر؛ كانت حزينة لانشغال أم بابنها فقط لتلحق الضرر بغريمتها القديمة؛ ماذا كان يمكن أن يهم مارياجراتسيا في أن تذهب هي للرقص لكي تتقابل مع ميكيلي؟... وبما أن هذه ربما كانت المرة الأولى التي ترى فيها ليزا نفسها متهمة دون وجه حق، فقد كانت ضغينتها كبيرة ووفيرة ؛ وفي مقابل هذه المظالم كان يبدو لها أنها عادت لأيام البراءة، وكانت تشعر بأنها روح وجناحا ملك وهالة شهيد ؛ فقد كانت تحب ميكيلي، وكان ميكيلي يحبها، كيف كان

يمكن أن يكون هناك شخص يجد في قصة بهذا النقاء مادة للتوبيخ والفضيحة؟

واستطردت الأم قائلة: "و مساء أمس، مساء أمس كيف سارت الأمور؟... حسنا هه؟... لم يرد البقاء عندنا، وكان يغالبه النعاس، وهرب بعيدا... وهذا صحيح: لقد كنت تنتظرينه أنت". ثم صمتت برهة: وانطلقت وهي تستدير مرة أخرى قائلة: "هل تعرفين ماذا أقول لك؟ أنك يجب أن تخجلي من نفسك!". ولوت بامتعاض فمها المدهون وهي تنظر لصديقتها من أعلى لأسفل قائلة: "أنت لم تعودي شابة".

وردت ليزا بعذوبة ودون أن ترفع رأسها قائلة: "نحن تقريبا في نفس السن... أنت أكبر سنا مني"

أنكرت الأم بكبرياء قائلة: "لا سيدتي، إنه أمر مختلف... إنني أرملة... ولكنك لا تزالين حتى الآن متزوجة... وزوجك موجود... اخجلي من نفسك! هذا ما يجب أن تفعلينه".

كانتا تمران في تلك اللحظة تحت فيلا نوافذها مغلقة؛ وخلف الفيلا التي كانت كلها محاطة بأشجار عارية، كان من المقرر أن تجري مباراة للتنس ؛ وكانت تسمع الطرقات الرنانة التي يتردد صداها في صمت سماء الظهيرة، مع ضجيج حاد، كما لو أن شيئا قد اصطدم هناك، وراء السماء الزرقاء؛ وإذا كانت الرياح التي تبدد الدخان الأبيض المنبعث من فوهات المداخن تهب من ناحية الطريق فقد كانت تسمع أيضا أصوات اللاعبين المرحة والقوية.

ظلت ليزا لبرهة تنصت وهي شاردة الذهن لذلك الصدى، ثم نظرت لماريا جراتسيا؛ هل كان من الممكن أن يستغرق ذلك الوجه الغاضب والغيور في التفكير... حب الأم؟ وأي نوع من حب الأم هذا الذي كان يغضب إلى ذلك الحد امرأة لم تظهر أبدا رقتها الزائدة مع أبنائها؟ أم أنها كانت بالأحرى غيرة جسدية، غيرة عشيقة؟... ... وفجأة فهمت: كان الشعور الأول شعورا بالارتياح؛ ثم نظرت إلى الأم وعاودها الشك من جديد.

وسألت قائلة: "ماريا جراتسيا، أنت تتحدثين عن... عن ليو أليس كذلك؟". ورأت الصديقة تومئ برأسها،، بتعبير محرج ولا يزال متألما كان يبدو أنه يقول: "لماذا تسألينني؟... أنت تعلمين ذلك... ليس لدي سواه...". ونظرت كل منهما إلى الأخرى؛ كان هناك ارتياح كبير، ونوع من الشفقة المنتصرة في عيون ليزا. وقالت: "يا مسكينتي ماريا جراتسيا " وكان بوسعها تشرح وتبرئ نفسها وتبدد ذلك الخيط من الشك الذي كان على وجه صديقتها فكررت قولها: "مسكينتي ماريا جراتسيا ". والآن كانت الذكريات تعاودها، وكانت ترى من جديد مشهد اليوم السابق، مشهد الشمعة، وليو وكارلا متعانقين: وكانت تفكر قائلة: "إنها يجب أن تكون غيورة من ابنتها ". كانت تشعر بشيء من الشفقة للصديقة التي تاهت في الخطأ، ولكنها كانت تشعر في نفس الوقت بفرحة، بسرور كبير لأنها غير مذنبة بما كانت تتهمها به الأخرى، حتى أنها لم تكن تستطيع الكلام، باحترام أم بشفقة. وأخيرا قالت: "يمكنك أن تطمأني، يمكنك أن تطمأني... لم أر ليو لا أمس ولا... أبدا، ويمكن أن أقسم لك على ذلك، انظري، إلى ما هو أقدس عندي".

ودون أن تتكلم، واصلت الأم التحديق فيها بعينيها الفاحصتين والمرتابتين: وأضافت ليزا وقد استاءت من تلك النظرات قائلة:

"صدقيني، لقد كان سوء تفاهم". طأطأت الأم رأسها وقالت وهي تتعمد الظهور بمظهر الباردة، المتحفظة المعتزة للغاية بنفسها: "ربما يكون من الأفضل أن نفترق؛ فالوقت متأخر". وكان يسمع قرع الطبلة الصغيرة وأصوات اللاعبين بين الحين والآخر... وخطت الأم بضع خطوات إلى الأمام.

وكررت ليزا قولها وهي غير واثقة: "صدقيني، إنه سوء تفاهم". وكانت تنظر حولها، كما لو كانت تبحث عن سند لآرائها. وفي تلك اللحظة كان الطريق مهجورا، وكانت الشمس تزيد من هذه الوحدة وقد أضاءت الرصيف لآخر مرمى البصر. وكانت ليزا تنظر حولها وهي ثابتة ؛ ولكن ماريا جراتسيا على العكس من ذلك كانت تبتعد خطوة بخطوة، وهي تنظر إلى الأرض وهي منهمكة التفكير وشاردة الذهن.و كانت ليزا تود أن تصيح فيها مرة أخرى قائلة: "صديقني ؛ إن ليو يخونك

مع كارلا، مع ابنتك، يا مسكينتي ماريا جراتسيا، وليس معي... ". ولكن ظهر الأم المعقوف قليلا كان ينم عن إصرار عنيد على عدم الالتفات إلى الحقيقة ؛ وقد رأتها ليزا تصغر شيئا فشيئا، ويبهت لونها وهي تمر عبر كل هذه الشمس، وهي تختلط بالظلال الهاربة لبوابات الحدائق العالية؛ وفي النهاية لم تعد سوى بقعة سوداء، هناك في نهاية الطريق.

الفصل الثاني عشر

لماذا كانت ليزا قد اعترفت تقريبا بأنها مذنبة ثم احتجت ببراءتها؟ وقد كان من المستبعد أن تتوه الأم أمام هذا السؤال، الأم لا: بالنسبة لها كان كل شئ واضحا وشفافا ومفهوما تماما؛ وكانت لديها قناعة عميقة بأن ليزا منافقة وكاذبة... لم تكن تعلم لماذا، وقد كان هذا ظاهرا على وجهها وفي كلماتها، وفي مواقفها... كانت قناعة قديمة لابد أنهاترجع لبعض الأحداث المنسية، ولكنها كانت ضرورية جدا للصورة المعنوية التي كانت الأم ترسمها لنفسها عن ليزا،حتى أن إلغاءها كان سيكون بمثابة محو لصورة الصديقة من ذهنها.

إذن ليزا كاذبة ومنافقة، إذن كان كل شيء واضحا. لماذا قالت لها بشفقة تقريبا: "أيتها المسكينة ماريا جراتسيا؟". من الواضح لكي تسخر منا وتستهزئ بها، أو على الأكثر لكي تشفق عليها لعماها ولسذاجتها، وقرونها العملاقة. لماذا أظهرت رغبة شديدة في الذهاب للرقص معها ومع آل بيراردي؟ الأمر واضح: لكي تخدعها بصورة مكيافيلية وتوحي لها أنها لم تكن تنتظر ليو في تلك الليلة. أي أن ليزا، بالزيف المعتاد، كانت قد تخيلت ألف حيلة لخداعها؛ فهل نجحت في ذلك؟ أوه! لا، لم يكن من الممكن أن نقول هذا ؛ كان لابد من شيء آخر لخداعها، ماريا جراتسيا، كان لابد من شئ آخر: كانت تود أن تقول لها بغضب: "تخلصي من الوهم يا عزيزتي"، إنني بلهاء... ولكن إلى هذا الحد لا... لقد مضى الزمن الذي كنت أعتقد فيه أن الجميع طيبون، وأعزاء، ومحبون ومهذبون... الآن احتفظ بعيوني مفتوحة جيدا، ولن أترك نفسي بعد الآن لأقع في الفخ... آه!، لا، يا عزيزتي... مرة واحدة تكفي... إذن فلتوهمي نفسك، يا عزيزتي، لقد فهمت كل شيء... لن تجعليني أشربها، إنني مهذبة، مهذبة جدا، في غاية الذوق". وبينما كانت تفكر، كانت تهز رأسها، باستعلاء شديد، وتبتسم وهي ترسم على وجهها تعبيرا من الاستعلاء المرير والهادئ المازح ؛ وما كان يغضبها أكثر هو فكرة أن

الصديقة كان يمكن أن تعتقد أنها مصابة بالـبلاهة والسذاجة؛ وبينما كانت تسير كانت عيناها تضيق وهي تجز على أسنانها؛ ولم تشعر أنها قاسية هكذا من قبل: ولو كانت ليزا تموت من الظمأ لرفضت أن تعطيها آخر كوب من الماء، ولو كانت جائعة لرفضت أن تعطيها آخر لقمة ؛ ولو أن صديقتها أصبحت فقيرة فجأة، لكان يمكن أن تتوسل إليها على ركبتيها وتقبل يديها، ولم تكن هي ستعطيها ولا حتى شيئا بلميم واحد؛ لا شئ؛ ولو أنها أصبحت على شفا الموت واستدعتها لتزورها على فراشها، لتركتها هي بالطبع لتموت وحدها مثل الكلب، نعم تموت وحدها في سريرها القذر، بوجهها المتجه للحائط، في غرفتها الخاوية؛ وعلاوة على هذا كانت الأم تشعر أيضا بأنها قادرة على مضايقتها وتعذيبها، وجرها من شعرها، وأن تطأها بكعبي حذاء على بطنها وصدرها ووجهها... وكانت ستصبح قادرة على كل شيء؛ ولم تشعر أبدا في حياتها أنها شريرة بصورة كاملة وبشهوانية على هذا النحو.

ولكن... ألم يكن الانتقام الأفضل هو الصفح؟ نعم، ولكن أي صفح؟ الصفح الودود، المحب، الفرح؟ أم الصفح الآخر المحتقر، البارد، الذي يلقى في الوجه مثل الصدقة؟

الثاني؛ كانت ليزا تدمر نفسها، وكانت تستدين وتفتقر، وتصبح بالية الثياب ومتسولة ؛ وكان الجميع يهجرونها؛ ولكنها بعد مرض خطير ظلت هزيلة، ودميمة ورمادية و، من يدري، هذه أمور تحدث، ربما بلهاء ومخبولة، وربما عمياء... وجه هزيل، وعيون بيضاء، وجبهة حائرة تصطدم في الموبيليا وفي الأشخاص... إرادة الله، عقاب السماء، هذه أمور تحدث... وعندئذ كانت تصفح عنها... مهلا، لحظة واحدة، كانت تصفح عنها نعم، ولكن فقط نصف صفح، بازدراء وبرود وذاكرة عنيدة، وهي تهينها ودون أن تتركها تقترب أكثر من اللازم، كما لو كانت تريد أن توحي لها أنها لم تعد حتى جديرة بكراهيتها... وكيف كان يحدث هذا الصفح؟ هكذا... هكذا... كانت أمسية استقبال... وكانت الأوركسترا الصاخبة تعزف إيقاع الرقص... وكانت أزواج الراقصين تمر وتعاود المرور أمام الأبواب الذهبية لصالوناتها... تحت النجف المضاء، أمام البوفيه، في الأركان الحميمة، في المداخل، وحتى فوق الأسطح حيث كان

بوسعهم رؤية القمر البازغ خلف القمم السوداء لأشجار التنوب وقد استندوا إلى الدرابزين الرخامي، وكان يجتمع في كل مكان في بيتها كل صفوة المجتمع؛ وكانت هذه لحظة الذروة، عندما كانت المحادثات والموسيقى تمتزج في ضجيج واحد، وتشتعل الأهواء، وتذبل الورود، ويُهمس في آذان السيدات بعبارات عاطفية... وعندئذ كان لابد أن تأتي خادمة لتهمس لها قائلة: "هناك السيدة ليزا". وكانت هي تنهض على الفور... لا، كانت تجعلها تنتظر قليلا، ثم كانت تخرج معتذرة؛ كانت تسير في الممر الملئ بالمعاطف والقبعات المكومة الواحدة فوق الأخرى؛ فلم يكن هناك كرسي واحد خال، وبين كل هذه الملابس الثرية وجدت ليزا التي بمجرد أن رأتها جاءت تجاهها فاتحة ذراعيها... مهلا، مهلا، يا عزيزتي... وبعد إعادة المسافات بينهما، كانت تستمع بنبل لتلك الأعذار المخادعة وتلك الاحتجاجات المتعلقة بالصداقة... ثم ردت عليها ببرود شديد وتكبر شديد قائلة: "نعم، أسامحك، حسنا... و لكن يجب أن تتحلين بالصبر، وأن تنتظري هنا أو في الطابق الأعلي في الأنتريه... أنت تعلمين أنني أستقبل عددا ما الأشخاص الذين لا أستطيع أن أقدمك لهم... أناس نبلاء، هل تفهمين؟ أرستقراطيون... أناس لا يريدون معرفة أي شخص، أناس منغلقون جدا في دائرتهم... إذن اتفقنا، اصعدي إلى الطابق العلوي وانتظريني...". وطوال المساء الطويل تركتها تنتظر... و أخيرا، في ساعة متأخرة من الليل، تقدمت للتعيسة، المنكمشة في الظل وفي الحزن، بأجمل ابتسامة لديها وأغلى فستان عندها وقالت لها: "أنا آسفة جدا يا ليزا، ولكنني هذا المساء لا أستطيع أن أبقى معك فعلا... تعالي غدا، ربما غدا". وخرجت وقد انفجرت ضاحكة... من كان ينتظرها عند الباب، بالقرب من سيارة فارهة، ثمانية سلندرات، مقدمتها محلاة بالنيكل، وسائقان، وفراشها مبطن بالستان؟ ليو... ورحل الإثنان في جنح الليل، فرحين بعودة ليزا هذه.

وكانت هذه الصور السينمائية الراكضة دون توقف على شاشة ذاكرتها، تواسي الأم؛ وعلى فترات عندما كانت ترفع عينيها، كان المنظر الطبيعي والشمس يقتحمان أفكارها. وعندئذ كانت تلحظ أنها ماريا جراتسيا المعتادة التي تبعد عن تلك الأحلام أكثر من بعدها عن

جزر الهند الغربية، وأنها تسير على قدميها بمفردها تماما في شوارع الضاحية الخاوية؛ وأخيرا وجدت نفسها أمام الفيللا، ودفعت البوابة المواربة ودخلت.

عبرت بسرعة طريق الحديقة؛ وكانت تشعر بالتعب، ولم تكن تدري هل بسبب مشاجرتها تلك مع ليزا أم بسبب ذلك الشعور بالخيلاء الذي كان يصاحبها في كل مرة تستسلم فيها لخيالاتها. وفي الأنتريه وجدت ميكيلي الذي كان يدخن وهو جالس على أحد الكراسي:

وقالت وهي تنزع القبعة بنعومة: "إنني ميتة... أين كارلا؟".

رد ميكيلي قائلا: "بالخارج"؛ فخرجت مارياجراتسيا دون أن تضيف كلمة واحدة.

كان ميكيلي عكر المزاج: وكانت أحداث المساء السابق قد تركت عنده استياء كئيبا ؛ وكان يدرك أنه لابد أن يتغلب دفعة واحدة على عدم اكتراثه وأن يعمل؛ ولا شك في أن العمل كان يوحي له به منطق بعيد عن الصدق؛ حب الإبن، كراهية ضد عشيق والدته، والحب العائلي، كل هذه كانت مشاعر لم يكن يعرفها... ولكن ماذا كانت أهمية ذلك؟ عندما لا يكون الإنسان صادقا لابد من التظاهر، ومن كثرة التظاهر يصدق في النهاية؛ وهذه بداية كل إيمان.

أي أنها قصة مفبركة؟

بالفعل، لا شيء سوى قصة مختلقة وكان ميكيلي يقول في نفسه: " ليزا على سبيل المثال لا أحبها... ولا حتى أرغبها... ولكنني قبلت يدها مساء أمس... واليوم سأذهب إلى منزلها؛ في البداية سأكون في غاية البرود، وبعد ذلك سأثير نفسي... إنه أمر سخيف... ولكنني أعتقد أنني سأصبح عشيقها بهذه الطريقة".

لم يعد يوجد بالنسبة له إيمان، أو صدق، أو مأساوية؛ فكان كل شئ يبدو له من خلال ملله مثيرا للشفقة وسخيفا وزائفا؛ ولكنه كان يدرك صعوبة ومخاطر موقفه؛ كان لابد من أن يهتم بالأمر وأن يتصرف ويتألم

ويهزم ذلك الضعف، وتلك الشفقة، وذلك الزيف، وذلك الشعور بالــسخف ؛ كان لابد أن يكون الإنسان مأساويا وصادقا.

كان يفكر بأسف ساخر قائلا لنفسه: "كيف كان يمكن أن يكون العالم جميلا"، عندما يكون بوسع زوج تعرض للخيانة أن يصرخ في زوجته قائلا لها: زوجة شريرة ؛ ادفعي حياتك ثمنا لذنوبك" وما هو أشد من ذلك، أن يفكر في تلك الكلمات، وبعد ذلك يندفع ويقتل الزوجات والعشاق والأقارب وكل الناس، وأن يظل بلا عقاب وبلا تأنيب ضمير: : عندما يعقب التفكير الفعل: "إنني أكرهك" وطاخ! طعنة خنجر: هاهو العدو أو الصديق الممدد على الأرض في بركة من الدماء؛ عندما لم يكن الإنسان يفكر كثيرا، وكان الدافع الأول دائما هو الدافع الطيب؛ عندما لم تكن الحياة كما هي الآن سخيفة، ولكن تراجيدية، وكان الإنسان يموت حقا، وكان يقتل، وكان الناس تكره وتحب بجدية، وكانت تذرف دموع حقيقية لمصائب حقيقية، وكان كل البشر مصنوعين من لحم وعظام وملتصقين بالواقع مثل التصاق الأشجار بالأرض. وشيئا فشيئا كانت السخرية تتلاشى ويبقى الأسى ؛ وكان هو يود أن يعيش في تلك الحقبة المأساوية والصادقة، وكان يود تجربة ذلك الخوف الكبير الغلاب، وأن يرتفع لمستوى تلك المشاعر اللانهائية... ولكنه ظل في زمانه وفي حياته، على الأرض.

كان يفكر ويدخن؛ وعلى المائدة، كانت العلبة التي تحوي عشر سجائر لا تحوي سوى سيجارة واحدة؛ وكان يجلس منذ ما يقرب من ساعتين في الأنتريه الملئ بضوء الصباح الأبيض؛ كان قد نهض متأخرا وارتدى ملابسه بعناية: الكرافتات، الملابس، القمصان، وكثير من العناية والحرص على أن يرضى ببؤسه عندما يرقى بنفسه لمستوى الجماليات البراقة لصور الموضة الإنجليزية. كان يعجبه الرجال الإنجليز الواقفين بجوار سيارتهم الفاخرة، وتلك المعاطف الواسعة، وتلك الوجوه الناعمة الغارقة في الكوفيات الصوفية الدافئة، والمشهد المألوف والأنيق لبعض البيوت الصغيرة المدفونة تحت أوراق الأشجار المستديرة واللينة مثل السحاب: كانت تجذبه الحركات، وربطات الكرافتات، وثنيات الملابس والكريستال والأصواف.

والآن كان يجلس على الكرسي بطريقة نبيلة وأنيقة؛ وكان يضع ساقا على ساق، والبنطلون مرفوع بأناقة على الشراب المصنوع من الصوف، والرأس المصفف واللامع والمائل قليلا على الكتف، نحو السيجارة التي كانت يده ممسكة بها بين إصبعين بحركة واهنة؛ وعلى وجهه الناعم، المحلوق والبيضاوي كانت انعكاسات السخرية تتعاقب مع حالات من الحزن المفاجئ، مثل الظل والضوء على وجه تمثال؛ كان يدخن ويفكر.

جاءت كارلا من التنس، وصعدت السلم ببطء؛ وكانت ترتدي فانلة متعددة الألوان فوق جونلة بيضاء ومليئة بالثنيات؛ وكانت تحمل على ذراعيها المعطف ومضرب التنس وشبكة الكرات، وكانت تبتسم.

صاحت قائلة: "أين ماما؟"؛ وفي النهاية صعدت السلم وتوقفت أمام ميكيلي وقالت: "لقد قابلت بيبو بيراردي، نحن الاثنتان، أنا وماما، مدعوتان على العشاء؛ ثم سيصحبوننا إلى الرقص؛ فإن كنت تريد يمكنك أن تلحق بنا هناك". صمت؛ كان ميكيلي يدخن ولم يكن يتكلم.

سألت هي وقد أحست بأنه يرمقها بنظره قائلة: "ماذا بك؟ لماذا تنظر إليَّ هكذا؟". كان صوتها العصبي يتردد في الأنتريه الخالي كتحد غريب ملئ بالكآبة والأمل؛ وكانت الحياة الجديدة تبدأ، وكان على الجميع أن يعلموا ذلك؛ ولكن داخل هذه الحيوية العابرة كان يسري ضيق لا يحتمل كان يوهنها ويجعلها ترغب في إغماض عينيها، وثني ذراعيها على شكل صليب والغوص في ظلام نعاس حالك وعميق.

دخلت الأم وكررت كارلا وهي ذاهلة قائلة بصوت أقل مرحا: "هل تعلمين يا ماما، لقد دعانا آل بيراردي على العشاء... و... ثم سيصطحبوننا إلى الرقص".

قالت الأم بلا حماس: "حسنا"؛ كان أنفها أحمر وباردا، وكان جلد الوجه لامعا وخاليا من البودرة ونظرة في غاية البرود بين جفونها التي تدعو للرثاء. وأضافت قائلة: "في هذه الحالة يجب أن نتنكر سريعا".

جلست. وقالت وهي تنظر إلى ميكيلي: "إن لي معك كلام كثير". خرجت كارلا. وكرر ميكيلي قوله وهو يتظاهر بدهشة هائلة: "معي أنا، معي أنا؟ وعن أي شئ؟".

هزت الأم رأسها قائلة: "أنت تعلم هذا أكثر مني... فقد ألقيت بطفاية السجائر مساء أمس على ليو... ولحسن الحظ أصابتني أنا... ولا زلت أحمل علامة ذلك... ". ورفعت يدها وقامت بحركة تعرية كتفها؛ ولكن ابنها أوقفها:

وقال بامتعاض: "لا، لا شكرا... لا داعي لهذه الحركات الاستعراضية التي لا تجدي... فلست أنا ليو". ساد الصمت؛ وقبض وجه الأم، واسودت عيناها؛ وظلت واضعة يدها على صدرها، بحركة مليئة بالكرامة، تشبه صورة للسيدة العذراء وهي تشير إلى قلبها المجروح ؛ وبعد أن كانت هذه الحركة مضحكة أصبحت عميقة تقريبا؛ كان كما لو أن الأم أرادت أن تشير إلى جرح آخر غير الذي أحدثته طفاية السجاير: ماهو؟ لم يكن بوسع ميكيلي أن يقول ذلك، حيث كان الموقف يتبدد وكانت المرأة تتكلم:

فقالت بصوت متغير: "أريد أن أكون طيبة معك، ماذا بك يا ميكيلي، ماذا بك؟".

"ليس بي شيء". كان ضيق الفتى يزداد وكان يفكر في نفسه وهو منفعل ؛ فالصوت الباكي لوالدته جعله يرتعش. وفكر قائلا: "إذا استمرت على هذه النبرة فإنها ستصبح مثيرة للشفقة ومضحكة، مضحكة ومثيرة للشفقة..و سوف يتعين منعها بأي ثمن من شطحاتها الرومانسية... لا أريد أن أراها وهي تبكي، أو تصيح، أو تتوسل... بأي ثمن".

استطردت المرأة قائلة: "ميكيلي، اصنع معروفا لأمك".

فقاطعها الفتى بوجه لطيف قائلا: "ألف معروف".

فقالت هي وقد هدأت قليلا، وهي تخادع نفسها بشأن تلك السخرية: "إذن اعطني دليلا على ذلك... على سبيل المثال، تحلي بشئ من الصداقة تجاه ليو، تظاهر حتى بأنها عندك... انظر، يكفيني هذا".

صمتا لبرهة، وكل منهما ينظر للآخر، وسأل ميكيلي فجأة بوجه متجهم قائلا: "وهو.. هل يشعر بشئ منها تجاهي؟".

قالت الأم بابتسامة شابة، ومؤثرة تتسم بالسذاجة والوهم: "هو؟ إنه يحبك كوالده".

سأل الفتى مندهشا: "آه! حقا!"؛ وقد ثبّطت عزيمته نية طيبة كبيرة، وعدم فهم شديد؛ وفكر في نفسه قائلا: "لا جدوى...، طالما بقينا هكذا، فإن الحياة لا تخصني ولكنها تخصها هي". ويخص أيضا الأم هذا العالم المشوه، الزائف الذي يضرس الأسنان، والمضحك بمرارة؛ ولم يكن هناك مكان بالنسبة له وبالنسبة لبعد نظره.

وقالت الأم أيضا بابتسامتها تلك الواضحة والمنتصرة: "إنه أطيب رجل على وجه الأرض". آه، حسنا، حسنا للغاية! لم يعد هناك ما يقال؛ فالأرض نفسها، التي أهينت، توقفت عن الدوران، ولاذ ميكيلي بالصمت مستسلما.

استطردت الأم قائلة: "غالبا ما يحدثني عنك، وعن مشاغله، وعن آماله... ".

قاطعها الفتى قائلا: "إنني أشكره".

وسألت الأم قائلة: "ألا تصدق؟ انظر... أول أمس فقط كان يعرض عليّ برامجه لكما أنتما الإثنين، أنت وكارلا... و كان عليك أن تسمعه لكي تدرك إلى أي مدى يمكن أن تصل طيبة ذلك الرجل: فقد كان يقول لي 'إنني أعلم جيدا'، وهنا اتخذت الأم وجها آسفا كما لو أنها قامت بتلاوة إحدى الصلوات،" أن ميكيلي لا يحبني كثيرا، ولكن هذا لا يهم... فأنا أحبه مع ذلك... وبعد قليل، بمجرد أن تتزوج كارلا، سوف يتعين عليه هو أيضا أن يبدأ في العمل. إذن اسمع، إذن فإن التوصيات والمساعدات والتشجيع من جانبي لن يغيب عنه' ".سأل ميكيلي مهتما: "هل قال هذا؟": كان ارتيابه يستسلم لهذه الإغراءات مثل امرأة مستهترة تشعر بأكلان في جانبيها وصدرها، كان يستسلم بابتسامة سرور. وقال في نفسه: "و لو كان حقيقيا، لو أن ليو كان يريد حقا مساعدتي لكي أصبح شيئا ما، لكي أصبح... ثريا؟". وبفعل هذا الأمل لمعت في خياله الهائج صورة رغباته وحقده: النساء الراقيات صاحبات الابتسامات الثمينة، والرحلات والفنادق، والحياة المزدحمة المقسمة بين الأعمال والترفيه الشديد... ؛

كان كما يحدث في السينما، أمام العيون المفتوحة للجمهور، عندما تمر على إيقاع الأوركسترا الذي يعكس الانتصار والحنين المدن الراقية وكل ثرواتها، والمناظر الطبيعية البعيدة، والمغامرات وأكثر النساء جمالا وأكثر الرجال عطرا. وعلى الإيقاع المتسارع لقلبه الموهوم، كانت سينما طموحاته تدور بسرعة أكبر... وعلى شاشة خياله كانت الصور تتعاقب، وتتلاحق، وتختلط وتتسابق... كان هذا سباق الآمال الذي يقطع الأنفاس، ويصيب الروح برجفة، ويوهم ويتبدد أخيرا تاركا وراءه الواقع الردئ؛ كما يحدث بالضبط في السينما، عندما تضاء الأنوار وينظر المتفرجون لبعضهم البعض بوجوه حزينة زال عنها الوهم وارتسمت عليها المرارة .

وكرر في نفسه قائلا: "لو كان هذا حقيقيا، لو كان هذا حقيقيا؟".

استطردت الأم قائلة: "هذا ما قاله، وأشياء أخرى كثيرة".

صمتت لبرهة ثم أضافت قائلة: "إنه طيب" وهي تنظر أمامها كما لو كانت قد رأت ليو وطيبته، كل منهما بجوار الآخر، هناك وسط الأنتريه؛ " إنه طيب حقا... من الطبيعي أن تكون له عيوب هو الآخر، ولكن فليلقه بحجر من ليس له عيوب... لا يجب أن نحكم على الناس بالمظاهر: فهو رجل قليل الكلام، خشنا، ولا يقول كل ما يفكر فيه، ويخفي مشاعره، ولكن لابد من معرفته من خلال علاقاته الحميمة... ".

قال ميكيلي في نفسه مسرورا وغاضبا: "و أنت تعرفينه".

و أضافت الأم بابتسامة حنان قائلة: "لكي ندرك إلى أي مدى يمكن أن يكون منفتحا ومرحا وعطوفا... أتذكر أيضا عندما كان يحملكما على ركبتيه، أنت وكارلا: كنتما صغيرين وكان يملأ فمكما وأيديكما بالشيكولاتة... ومع ذلك فإنني كنت أفاجئه عندما كان يلعب معكم، يا ميكيلي، كان يلعب معكم مثل طفل صغير... ".

ابتسم الفتى من الشفقة وسأل لكي يهرب من طوفان تلك الذكريات العائلية التي تدعو للرثاء قائلا: "ولكن قولي لي، هل قال حقا أنه سيساعدني؟".

قالت الأم بشيء من الحيرة: "مؤكد، مؤكد سيساعدك... بمجرد أن تتخرج من الجامعة... فلديه معارف كثيرة، وصداقات كثيرة رفيعة المستوى... ". ورفعت الأم يدها كما لو كانت تشير إلى الذرى التي تجلس عليها تلك المعارف التي يعرفها عشيقها منتفخة ومتباهية... "مؤكد أنه سيساعدك... ".

"آه! سيساعدني؟". ابتسامة سرور تحاول رسمها الشفتان: ذلك الرجل الرائع، ذلك الرجل الممتاز ليو! كانت الأم على حق، وفي نهاية المطاف كان رجلا عمليا، وخشنا، كما هو معروف ولكنه قلب من ذهب... ذات يوم يود أن يذهب إليه، وأن يقول له: "اسمع يا ليو... اكتب لي توصية لفلان الفلاني... هل تعلم تلك الشخصية الكبيرة... ". أو: "من فضلك، يا ليو، هل معك مئة ألف ليرة تقرضني إياها؟". و ليو: "فورا يا ميكيلي... تفضل... ها هي التوصية... ها هو المال... هل تريده نقودا سائلة أو بشيك؟... و، متى تحتاج " وربما أضاف بود وهو يصحبه إلى الباب وهو يربت بيده المشجعة على كتفه، قائلا: "عد مرة ثانية... لأنني وعدت والدتك بمساعدتك في الحياة... في كل مكان ودائما".آه! ليو، ليو، رجل قوي، رجل واثق وطيب!... والآن كانت روحه تنتفخ بالصداقة والحب... ألف ذكرى كانت تعود إليه، ألف طرفة كان ليو يبدو فيها متواضعا، وعمليا وواثقا وكريما، كل شئ مشبع بالمزاج الطيب، والحس السليم والطيبة، وهو شخصية تارة يكون جادا، وتارة مرحا، ولا يكون سخيفا أبدا؛ شخصية خبيثة، شقية، شخصية أبوية ومثالية.

واصلت الأم حديثها منتصرة بالتدريج قائلة: "نعم؛ نعم سيساعدك، ولكن بشرط أن تكون أكثر ذوقا معه... وإلا فإنه يمكن أن يغضب من ذلك... انظر إلى كارلا، على سبيل المثال: لا تتكلم أبدا كلمة زائدة، ولا حركة في غير موضعها... وهو... قد أحبها".

قاطعها ميكيلي بابتسامة قلقة قائلا: "آه، أحبها؟... ".

"بالتأكيد، أحبها لدرجة أنه يفكر دائما فيها وكأنها ابنته... على سبيل المثال أدرك أنه لابد أن يتزوجها... الآن أو أبدا... ويهتم بذلك... لو ترى كم يفكر في ذلك!... وأمس بالذات كان يحدثني عن ذلك أثناء

الرقص... كان يقول لي أن بيبو بيراردي قد يكن طرفا طيبا... ".صاح ميكيلي قائلا: "إنه سيئ جدا!".

واختتمت الأم حديثها قائلة: "إنه سيئ ولكنه لطيف جدا... كما ترى، ويجب أن نبقي صديقنا ليو قريبا منا".

كرر الفتي قائلا لنفسه بارتجافة فرح: "صديقنا ليو".

"وعدم إبعاده عنا بحركات تخلو من الذوق، أو بما هو أسوأ، بقذفه بطفايات السجائر". وبعد أن استسلمت تماما أخذت بيد ميكيلي وسألته: "هل تعدني، هل تعدني بأن تكون أكثر لطفا مع ليو؟". كان صوتها يرتجف من انفعال صادق ومفاجئ، وكان قلبها ينفتح مثل صندوق ملئ بالحب الذي كانت تود، من شدة هذه الرقة، أن تغمر به الجميع، ليو وكارلا وميكيلي وبيبو بيراردي... وكررت قائلة: "هل تعدني بذلك، يا ميكيلينو؟" ؛ كان ذلك التصغير يعني بالنسبة لها الطفولة والطفل ذو العينين الفاتحتين، والسنوات الماضية، وشبابها؛ ميكيلينو كان ابنها، وليس ميكيلي.

وقد رد الفتى الذي استاء من هاتين العينين اللامعتين من الانفعال قائلا: "نعم بالطبع، نعم أعدك بذلك". ولكنه كان يدرك الآن متأخرا جدا أنه قد تاه، مع كل بعد نظره، وسط انفعال الأم، كما لو كان في غابة خالية من النور.

دخلت كارلا وسألت قائلة: "ماذا تفعلان؟ لقد كنت أعتقد أنكما على الغذاء بالفعل".

قال ميكيلي وقد ندم بالفعل على اقتراحه: "لا شئ: لقد كنا نتحدث...".

وشرحت الأم بطلاقة قائلة: "بالفعل، لقد كنت أقول له أنه يجب أن يكون أكثر لطفا مع ليو... ألا تعتقدين أنني على حق يا كارلا؟... إنه يقدم لنا عددامن الخدمات، وهو صديق قديم للبيت، ويمكن أن أقول أنه رآكما تكبران... ولا يجب أن نعامله كشخص مثل كل الآخرين".

ودون أن تتحرك، وهي منتصبة على قدميها وسط الأنتريه، نظرت كارلا إلى أمها؛ وعندئذ، وللمرة الأولى، عندما رأتها عمياء ولا حول لها ولا قوة على هذا النحو، أدركت أنها خانتها وقالت في نفسها: "ماذا يمكن أن تقولين، لو عرفت الحقيقة؟".

وأخيرا ردت بصوت عميق، وهي توارب عينيها: "إنني أعتقد أن الإنسان يجب أن يكون لطيفا مع الجميع".

صاحت الأم سعيدة قائلة: : "ها هي كارلا أيضا تفكر مثلي... تعالي هنا يا كارلا"، وأضافت بحنان مفاجئ: "تعالي هنا، اظهري نفسك". وقد جذبتها، وأجلستها على ذراع كرسيها، ومررت يدها على تلك الوجنات، وقالت: "يا بنيتي، يبدو أنك شاحبة قليلا... هل نمت جيدا؟".

"جيدا للغاية".

قالت الأم بسذاجة: "أنا لا، لقد رأيت حلما رهيبا... كان يبدو لي أن رجلا بدينا جدا يجلس في أحد الأركان... و أنا أتنزه جيئة وذهابا، وأنا أفكر في أمور كثيرة، وأخيرا أقترب منه وأسأله عن الساعة... و هو لا يرد... وأظن أنه أصم، وأوشك على الابتعاد عنه، عندما أرى أن عينيه غائرتان في اللحم حتى أنه لا يرى... جفناه منتفخان، وجبهته تلامس خديه، وألمح بالكاد شيئا فاتحا ينظر ويتحرك بين ثنيتين من الدهن... أي شئ رهيب... ومع شعوري بالشفقة، أسأله ماذا عنده ويرد عليّ بأنه من شدة البدانة لن يتمكن من الرؤية في النهاية... وأقول له 'عليك أن تأكل أقل'، أو شيئا من هذا القبيل وهو لا يرد كما فعل من قبل... وعندئذ أعتقد أنه يجب أن نفتح له عينيه بأي طريقة، ' حتى يتمكن من الرؤية ' هكذا أقول لنفسي ولا أدري لماذا وأمد له يدي لكي أفتح كل هذا الدهن الذي يسد بصره، عندما يبدأ الجليد في التساقط... . ويسقط الجليد كثيفا وعنيفا جدا حتى أنني لم أعد أرى بعد فترة وجيزة؛ وأصبح يملأ عيناي وأذناي وشعري؛ ولا أفعل شيئا سوى التعثر والسقوط والنهوض وأشعر ببرد تصطك معه أسناني... وأخيرا أستيقظ وألاحظ أن الرياح فتحت النافذة... أليس هذا غريبا؟ يقولون أن الأحلام يمكن أن تكون تفسيرات... أريد أن أعرف فعلا ما معنى هذا ".

علق ميكيلي قائلا: "إنه حلم شتوي... و، ماذا لو ذهبنا للطعام؟".

نهضوا وألحت الأم قائلة: "في الحقيقة، يا كارلا، أنت شاحبة جدا... ربما أجهدت نفسك في التنس؟".

"لا يا ماما".

نزلوا في صمت.

وجلسوا هم الثلاثة في غرفة السفرة الباردة، حول المائدة الكبيرة؛ وأكلوا دون أن ينظر أي منهم للآخر، بحركات باردة وخاضعة وكأنهم قساوسة يحتفلون بإحدى الشعائر؛ لم يتكلموا؛ وهذا الصمت الذي كان يقطعه بالكاد الاصطدام الخفيف للمعالق بالسطانيات، خلال ضوء النهار، المنعكس على الستائر البيضاء، كان يذكر بضجيج الأدوات الجراحية الذي تقشعر له الأبدان، في السلطانيات، أثناء العمليات الجراحية؛ كان هذا الصمت البارد بلا حميمية يضايق الأم الإجتماعية واللبقة.

وقد صاحت عند لحظة معينة مبتسمة: "ياله من صمت. لقد مرّ ملاك من هنا... قولوا الحقيقة، أليس حقيقيا أننا نشعر بافتقاد ليو؟

همس ميكيلي وهو منهمك في التفكير قائلا: "بالفعل، ليو ".

رفعت كارلا رأسها: وكانت تود أن تسأل قائلة: " هل تشعرين الآن بافتقاده، وماذا بعد ذلك؟ ماذا ستفعلين بعد ذلك، عندما لن ترينه بعد ذلك؟". كانت تشعر بأنها خفيفة ومضطربة، كمن يوشك على السفر وتجلس للمرة الأخيرة على مائدة الأسرة، وهي تأكل بسرعة وتفكر في الرحلة الوشيكة... ولكن الأم كانت تبدو لها ثابتة دائما في مكانها، متحجرة في ذلك الموقف وفي تلك الكلمة المعبرة عن الأسف: "تشعر بافتقاد ليو" التي كانت ستقولها أيضا بعد عشر، أو بعد عشرين عاما، وكانت ستجلس كل يوم هناك في صدر المائدة، وهي تفكر في أسى في العشيق الضائع.

قالت الأم كما لو أن أحدا شكك في كلماتها: " الحقيقة هي أنه عندما يأتي ليو يبدو أننا أكثر مرحا... فأمس على سبيل المثال... ما هو الشئ الذي لم يقله؟... ما هو الشئ الذي لم يفعله؟... لقد كان نبعا لا ينفد".

قال ميكيلي بابتسامة ازدراء: "إذا كنت تفتقدينه فعلا كثيرا، وإذا كنت لا تستطيعين الاستغناء عنه فعلا، حسنا، ادعيه كل يوم... بل إننا يمكن نعينه بالمعاش".

كررت الأم غاضبة، وقد توقعت هذه السخرية قائلة: "ما هذا الهراء، إنني لم أقل أنني لا أستطيع العيش بدونه، لا... ". وكان ميكيلي يود أن يقاطعها قائلا: " ولكن هذه هي الحقيقة".

"... ولكنني أحب فقط صحبته لأنه مرح، ومحبوب، ومُسلي... هذا كل ما في الأمر".ثم صمتت وهي تأكل، ثم قالت في النهاية: "لنتحدث في شئ آخر. كارلا، من أرسل إليك الدعوة: بيبو أم الآخرون؟".

"بيبو".

"آه! كان في التنس... وبقي لوقت طويل معك؟".

"نصف ساعة".

كررت الأم وقد خاب أملها قائلة: "نصف ساعة فقط؟ وفي أي شيء تحدثتما؟".

ردت كارلا وهي تضع الشوكة قائلة: "ليس في شيء معين"، فقد كنا نشاهد المباراة".

صمت؛ رفعت الخادمة الأطباق وجاءت بأطباق أخرى.

كررت الأم بإلحاح قائلة: "و... كيف يبدو لك؟".

ردت كارلا بصورة مبهمة قائلة: "همم... هكذا".

سألت الأم ميكيلي قائلة: "وكيف يبدو لك أنت؟".

"قبيح ولكنه خفيف الظل" كانت هذه هي الإجابة بنفس كلماته التي قالها قبل ذلك ببضع دقائق؛ ونظرت هي حولها مسرورة كما لو كانت تريد أن تسمع أيضا رأي شخص آخر، وقالت:

"إنه شاب ذكي ومثقف، وقد سافر كثيرا، ويعرف أناسا كثيرين... أعتقد" ثم أضافت بخبث مبتذل قائلة: " أعتقد أنه لا يستطيع مقاومة جاذبيتك، يا كارلا".

"آه! هكذا؟".

استطردت الأم وهي تتابع منطق منطق أفكاره قائلة: "لابد أنهم أثرياء، أثرياء جدا... ".

وكان ميكيلي يود أن يختتم حديثه بتهكم قائلا: "ولهذا قد يكون زواجا طيبا". ولكنه صمت وهو ينظر بهدوء، وبفضول لكل هذه الأخطاء كما لو أنهم لم يمسوه قط، وكان هو مشاهدا بعيدا وغريبا.

أضافت الأم بمبالغة واضحة قائلة: "إن لديهم خمس سيارات".

ونطق ميكيلي بهدوء، دون أن يرفع رأسه: "عشر: عشر سيارات ".

وصححت كارلا بهدوء قائلة: "لا، ليس عندهم سوى ثلاث سيارات: واحدة لبيبو، وواحدة للأب، والصغيرة للبنات".

دخلت الخادمة بطبق ثان، أنقذ الموقف المترنح للأم:

وواصلت حديثها وهي تخدم نفسها قائلة: "لقد قالت لي السيدة بيراردي أنها تنفق فقط على ملابس ماري وفاني ثمانين ألف ليرة في العام".

وهنا أيضا كانت هناك مبالغة خفيفة واضحة، ولكن ميكيلي لم يبرزها؛ وما الفائدة من وراء ذلك؟ فبعض الأمور لا علاج لها.

وقد اعترفت كارلا بلا حسد، ولكن كما لو كانت توضح استنتاجا لفقر ملابسها، قائلة: "إن لديهم ملابس جديدة"؛ وقد سيطر عليها ضيق صادق: ضباب أم غلالة خفيفة ناعمة؟ ذلك البياض الشبحي، ذلك الشبح الأبيض، ذلك الوهن الأبيض الذي كان يتدفق إلى داخل الغرفة من النوافذ المحتجبة وراء الستائر، كان يقبض بيد هائلة ومنتفخة من السحب على قلبها المرتجف؛ وعند كل ضغطة كان السحاب الرخو يحدث صفيرا، وكانت عيناها تمتلئان بالضباب، وكان كل شئ حولها يكتسي باللون الأبيض، ببياض كثيف وبراق وكانت الأصوات المنفردة لوالدتها وميكيلي تتفكك فيه ممتدة في أصوات ممدودة، مثل جرامافون تدور عليه اسطوانة ببطء. وعندئذ كانت تعود تلقائيا بعض حركات الليلة الماضية: فمن ذلك الضباب الذي كان يبتلع على الفور وجهها وجسدها، كانت يد

ليو تمتد وتداعب نهديها الكبيرين الحساسين، وبطنها الضيقة؛ وعلى الرغم من سكونها، فقد كان يبدو لها أنها ترتجف من ذلك ؛ ثم كان الضباب ينقشع وفي واقع، أكثر بلاستيكية وأكثر صلابة بعد ذلك الاسترخاء، كانت تظهر لها والدتها وميكيلي، والخادمة التي كانت تقدم لها الطبق.

رفضت بحركة لينة:

وسألت الأم قائلة: " كيف لا تأكل كارلا؟".

"هكذا... ". لم تكن تشعر بالجوع، بين كل تلك الأشياء الجائعة في حياتها؛ فهذه الغرفة التي كان يجب أن تتغذى فيها في الحقيقة، كانت قد تغذت بها: فكل تلك الجمادات كانت قد امتصت يوما بعد يوم حيويتها بعناد أقوى من محاولاتها الفاشلة للتحرر: ففي خشب الموبيليا الداكن المنتفخ كانت تتدفق أفضل دمائها؛ وفي ذلك البياض الأبدي للهواء كان قد ذاب بياض لحمها، وفي المرآة القديمة هناك، في مواجهة مكانها، كانت قد بقيت حبيسة صورة صباها.

ألحت الأم قائلة: "هكذا، هذا ليس تفسيرا"و كانت تأكل بنهم، وهي تنظر إلى اللقمة قبل أن تدخلها في فمها، وأضافت وهي مستمرة في سيرتها الذاتية التي لا تنتهي، قائلة: "الأب يكسب كثيرا".

قال ميكيلي وهو يسكب الخمر: "إنه رجل صناعة: أقطان خام ومشغولة، وأقطان مطبوعة".

"آه! رجل صناعة! رجل ذكي ونشيط، وقد بني مستقبله من لا شئ، وبنى نفسه بنفسه". شربت الأم، وو جففت شفتيها وفي النهاية حدقت في ميكيلي بتعبير غريب وفاتر من الشبع، وهي تقول:

"إنه يحمل وسام فارس".

سأل ميكيلي مندهشا: "آه! حقيقي؟، بيراردي يحمل وسام فارس؟ ولماذا؟".

قالت الأم التي لم تكن قد فهمت شيئا: "وماذا تريد مني أن أعرف؛ ربما أسدى بعض الخدمات للدولة... ".

ألح ميكيلي بمنتهى الجدية قائلا: "ولكن كيف؟ وأين؟ وبأي طريقة؟"

قالت الأم وهي تحني رأسها: "آه! أنا لا أعرف هذا "؛ وتناولت الطعام؛ ثم رفعت مرة أخرى عينيها غير المتسامحتين وكررت بتحفظ بارد وهي مستغرقة في التفكير قائلة: "نعم"، وأضافت فجأة: "فارس... كارلا، كنت أراقبك أول أمس بينما كنت ترقصين مع بيبو... وقد بديت لي باردة، ومتصلبة... كنت ترقصين كإنسان آلي... وبالفعل في الدورات التالية لم يَدْعُك بعد".

ردت كارلا بشيء من الحيوية قائلة: "أنا لم أكن باردة، بل كان هو الأكثر سخونة... : فقد كان يحادثني بأحاديث غير لائقة... وعندئذ قلت له أن يصمت ورقصنا في صمت... ".

هزت الأم رأسها غير مصدقة وقالت مع ابتسامة ثاقبة: "كفى، كفى... ما هذا الهراء الذي قاله؟... البلاهات المعتادة التي يقولها الشباب للآنسات... وأضافت قائلة: بالأحرى، يا كارلا، أنا أعتقد أنك قد اتخذت موقفا ضده".

دخلت الخادمة بالفاكهة؛ وانتظرت الصبية خروجها، وأخذت تفاحة، ونظرت إليها، وقالت دون أن ترفع رأسها، بصوت هادئ:

" في البداية قال لي بعض المجاملات حول جمالك".

فقاطعتها الأم وهي مغتبطة قائلة: "حول جمالي!... "

"نعم... وبعد ذلك سأل حول ما إذا كان يمكنني الذهاب إلى مكتبه...، وقد سألته ماذا يدرس، ورد عليّ بأنه يكرس نفسه بصفة خاصة للعري الأنثوي".

تدخلت الأم قائلة: "حسنا، وما العيب في ذلك؟ طالما أنه رسام... ".

"انتظري... عندئذ أسأله بسذاجة ما إذا كان يرسم أم يصمم... ويضحك هو، وبصوته ذلك، أتعرفين؟ المفتعل، يقول لي: ' يا آنسة، إنني لا أستطيع أن أمسك حتى بقلم رصاص في يدي'... وعندئذ أسأله أنا: ' آوه! وماذا إذن' ؛ فيضحك مرة أخرى، ويقول لي: ' تعالي، تعالي مع ذلك... أما فيما يتعلق بعُريك، فيمكنك أن تثقي بأنه سيستخدم في شيء

ما... وفي نفس الوقت ينظر إليّ، كيف أقول ذلك؟ وهو يغمز لي بعينه...". وهنا قاطعت كارلا روايتها، وحدقت بجدية مضحكة في والدتها المندهشة وفجأة، وبصورة مضحكة، غمزت لها: "... هكذا... وتسأليني ما إذا كنت أنا سأذهب... أنا سأرد عليه بـــ "لا" قاطعة... وهو... هو يصيح مستغربا: "لا تقول لي أن هذه هي المرة الأولى...". هل فهمتي؟ كان يعتقد أنني معتادةعلى... على الذهاب إلى المراسم؛ بالطبع لم أرد حتى عليه وانتهى كل شئ عند هذا الحد... ".

أعقب ذلك صمت مؤثر؛ فقد كانت الأم الجديرة جدا بذلك والمضحكة شيئا ما، كما لو أن بيبو شخصيا لم يحترمها، في تلك اللحظة بالذات، بعد أن جرحها أو ما هو أسوأ صدمها بطريقة بددت أحد مواقفها المليئة بالكرامة، كانت تجسد الاستياء والدهشة. وكان ميكيلي شارد الذهن ينظر لكارلا: فقد فاجأته تلك القصة في أشد لحظات لامبالاته؛ كان يود أن يقنع نفسه بخسة بيبو، والإهانة التي لحقت بأخته، ولكنه لم ينجح في ذلك؛ فقد كان كل هذا يفلت من تفحصه، ويبقى غريبا وبعيدا عن عينيه... كان كما لو أنه أراد الاستياء لمصير لوكريتسيا، الشابة، الجميلة والطيبة، والقديمة جدا التي اغتصبها تاركوينيو المنحل وكان يقول في نفسه: "إنه أمر جسيم"، وفي نفس الوقت لم يكن يلاحظ أنه لا يعرف في أي شئ بالتحديد تكمن هذه الجسامة .

وأخيرا بدا أن الأم وجدت من جديد استخدام الكلمة؛ فلـــوَت بامتعاض فمها ونطقت بهذه الإهانة العنيفة:

"سافل!".

أضافت كارلا دون أن ترفع رأسها قائلة: "إن المسألة، يا ماما، هي أن كثيرا من الناس يتحدثون بالسوء عني".

كان هدوؤها كبيرا: فقد كانت تعتقد أن الألسنة السيئة سرعان ما ستنتصر ؛ وأنها ستهرب مع ليو، أو سينكشف أمرها بلا علاج؛ فقد كان يحدث دائما هكذا؛ وبين هذه الأفكار المتعلقة بالاستسلام والفضيحة كان يبدو أن أي إيمان بحياة جديدة قد انطفأ.

وأضافت بحزن قائلة: "وإلا، يا ماما، فلماذا تحدث بيبو بهذه الطريقة؟".

لم يكن ميكيلي يرفع عينيه عن شقيقته، وكانت تبدو له حزينة ومسالمة... ولكنه لم يكن يستطيع الذهاب لأبعد من ذلك الاستنتاج المنفعل، وكان يقول في نفسه: "سنرى"، وفي نفس الوقت كان يدرك كل سخافة هذا السؤال: سنرى... ألا يجب أن أستاء؟ كان يشعر بأنه بارد ومتأمل ؛ وكان يتفحص كارلا؛ كانت تبدو له مغرية، وكان يبدو له أنه يدرك شبق بيبو أكثر من استياء الصبية: وفكر بخسة سطحية قائلا لنفسه: "إنها فتاة جميلة؛ وبيبو ليس ذوقه سئ بالطبع... فقد رمقها جيدا... ثم من يدري، فقد لا تكون هذه حقا المرة الأولى، وأن يكون بيبو على حق... ". وبخيال هاو وبالغ البرود كان يتخيل شقيقته بين ذراعي شخص ما: هكذا... وقد تعرت من ملابسها، شعثاء، وقد وضعت ساقا على ساق وانكمشت أمام صدره، شبه عارية؛ أو جالسة بحرية على ركبتيه... محتمل جدا... فقد كانت امرأة هي الأخرى... و لابد أنها شعرت بالشبق هي الأخرى... و لها ميولها... و قد اكتمل نضج جسدها للغاية، فلم لا يحدث هذا في طبعها؟... كان يذكر أنه رآها ذات يوم بطريق الخطأ، وهي تخرج من الحمّام: فقد بقي لديه الانطباع عن ظهر طويل أبيض أحدب تحت الرأس الكبيرة الخاملة والمبللة، وشيء ما يشبه غدة ثقيلة وباهتة، وكانت الوقفة المنحنية للمستحمة تجعله يتدلي للأمام تحت الإبط الأسمر وفكر محدثا نفسه وهو ينسحب: "سوزان في الحمام"؛ والآن بيبو... إه إه، ذلك المدعو بيبو... لم يكن ذوقه سيئا على أي حال.

وبين هذه السخريات كان يصمت: وها هو، فجأة، لاحظ أنه كان يجب أن يتكلم ؛ فقد أدرك أنه كان عليه أن يعبر عن استياء مناسب وصادق، وهو ما كانت تفرضه بصورة ما تلك الظروف الحزينة؛ وإلا، كما هو الحال دائما، كان سيقع في تلك اللامبالاة المميتة التي كانت تمنعه من العمل والعيش مثل كل الناس؛ فقد لعب بما فيه الكفاية بتخيلاته؛ والآن كان لابد أن يحاول أن يكون مأساويا وصادقا مرة واحدة: وقال محدثا نفسه: "الآن أو أبدا".

نظر إلى والدته: وكرر قائلا: "سافل حقا"، وشعر بأنه يتجمد من صوته، الذي كان باردا ومبتذلا كما لو كان يريد أن يقول "صباح الخير" أو "كم الساعة الآن". وعندئذ ضرب بقبضته على المائدة، وصرخ قائلا باندفاع حاد وظاهري قائلا: "ولكنني أنا أيضا قادر على أن أذهب إلى بيته وأن أكيل له الصفعات". رفع عينيه ورأى نفسه في مرآة فنسيا المعلقة على الحائط المقابل: هل كانت صورته أم صورة شخص آخرتلك الصورة ذات العينين المنافقتين، التي كانت تنظر له من أسفل لأعلى كما لو كانت تريد أن تقول له "لا... لست قادرا "؟

لم يبد أن الأم قد لاحظت هذا البوح بالاستياء الأخوي:

وكانت تكرر قائلة: "الجميع يعرفون من هم، أناس أصبحوا أثرياء... أثرياء ولا شيء أكثر من ذلك".

ولكن كارلا كانت قد سمعتها والتفتت.

وقالت: "أشكرك كثيرا، ولكنني قمت بتوضيبه أنا... من الأفضل أن تتركي الأمر لي".

وقد زاد هذا الهدوء من الحاجة إلى الغضب عند ميكيلي، فصاح قائلا وقد لاحظ بارتياح أنه أكثر صدقا: "تتركي الأمر لي! ألا تعتقدين أن كلمتين مني سيجعلانه يفهم بصورة أفضل أنه أخطأ بفظاظة؟".

كررت كارلا وهي تراقبه بانتباه قائلة: ""أرجوك، دعني أتصرف". كانت المرة الأولى التي يحدث أن ترى فيها ميكيلي بمظهر الأخ المنتقم غير المعتاد، وبدا لها مضحكا ومبالغا كممثل رديء من الأقاليم. وفكرت وهي مضطربة: "وماذا لو عرف أنني سلمت نفسي لليو، ماذا سيفعل؟" نظرت إليه: كان ميكيلي صامتا الآن، منحنيا على الطبق برأسه اللامعة والمصففة؛ كان صامتا، وكان يبدو أنه يفكر وكان يكوّر الخبز بأصابعه؛ ولم يكن هناك شئ يكشف عن نواياه العنيفة. وكررت هي لنفسها: "ماذا يمكن أن يفعل؟" وكان هناك ضيق خفيف ينبهها إلى أن هناك بعض الزيف في ذلك التصرف، في تلك القبضة على المائدة، وفي تلك الكلمات التي قالها أخوها، لم تكن تدري لماذا... وعندما رفع ميكيلي عينيه بدا لها أنها تلمح فيهما سرا حزينا ومخجلا؛ فارتعدت؛ والآن كان الشبح الناصع

يمسك من جديد بقلبها المرتعد؛ وكان كل شيء يصبح أبيض من جديد؛ وفي الضباب كانت الأم تتكلم.

كان الغذاء قد انتهى: وسألت كارلا وهي تشعل سيجارة: "واليوم ماذا ستفعلين يا ماما؟".انتظرت الإجابة بشيء من القلق: وفكرت: "بشرط ألا تقترحين عليّ أن أصحبك". كانت تريد أن تقضي العصر في منزل عشيقها، وكانت تدرك الآن أنها لن تستطيع الاستغناء عنه؛ وكانت العادة قد حلت محل الرغبة في حياة جديدة، وكانت تشعر بنفاذ الصبر النهم والمؤلم للعودة إلى تلك الغرفة، وأن تجد نفسها من جديد مع ذلك الرجل.

وقالت الأم بنبرة باردة ومتعالية: "أنا؟، لا أعرف... أعتقد أنني سأذهب للتسوق". وصمتت برهة وقد وجهت نظرها لطرف السيجارة المشتعلة، وسألت:

"وأنت؟"؛ كان قلبها الناضج وخائب الأمل يخفق: فذلك اليوم كان سيصبح يومها؛ وكان عشيقها سيعود إليها وإلى حبها القديم ولكنه الأكيد، كما حدث في مرات أخرى (و كانت هذه التجربة تملأها بالأمل وكانت تواسيها كثيرا) بعد الأخطاء العابرة.

وردت كارلا بنفس تلك النبرة الباردة التي كانت الأم قد استخدمتها قائلة: "إنني مدعوة لتناول الشاي عند كارلِتا". وصمتت الاثنتان وقد غض كل منهما بصره كما لو كان يريد أن يخفِي نظراته المنتصرة والراضية بتواضع ؛ وقد شاع نفس التعبير من الارتياح والهدوءعلى الوجهين، الوجه الناضج للأم، والوجه الصبياني للإبنة ؛ فكان في قلب كليهما صورة العشيق المشترك وكانت روح كل منهما، في تلك اللحظة، تنحني نحوه بلطف كما لو كانت تريد أن تقول له بفرحة مكتومة ومسرورة: "ها هي... كما ترى... قد اكتملت القصة.. ولا أحد، يا عزيزي... لا أحد سيزعجنا".

نهضتا وخرجتا من الغرفة: وقد دخلت الصالون الأم أولا وهي ترتجف وتفرك يديها الباردتين، ثم صاحت على الفور بصوت مندهش: "أوه! هنا ميروميتشي". وذهبت تجاهه وصافحته.

وسألت: "هل تنتظر منذ وقت طويل؟". ودخلت كارلا بدورها، وصاحت هي الأخرى بصوت ووجه مندهشين بسرور: "أوه! هنا ليو". وأخيرا جاء ميكيلي: ألقى بالتحية بحركة منه، وتوقف لإشعال سيجارة، وخرج من جديد.

سألت الأم وهي تجلس وتفرك يديها بقوة أكبر، كما لو كانت تعبر عن سرورها، فقالت: "حسنا، حسنا... أي رياح طيبة جاءت بك إلى هنا؟".

رد ليو باستظراف قديم قائلا: "ليست الرياح على وجه التحديد ولكنها سيارتي"، وضحكت المرأتان ضحكة قلبية وعصبية لأناس شبعوا ويستمعون بعد الغذاء عن طيب خاطر للفكاهات البلهاء، في حميمية صالون مريح وبارد.

وأضاف بجدية أكبر، وهو ينظر لوالدته قائلا: "لقد تسلمت خطابك المتعلق بالأعمال وكنت أريد الاتصال بك تليفونيا... ولكنني علمت بهذا العطل... ".

واختتمت الأم الحديث قائلة: "وجئت إلى هنا"؛ والتفتت نحو كارلا وقالت: "اسمعي، اطلبي منهم إعداد أربعة أقداح من القهوة بدلا من ثلاثة".

نهضت كارلا، وخرجت غاضة بصرها.

وقالت الأم بابتسامة متملقة، متخذة موقفا أكثر ودية: "والآن، قل لي... هل فكرت في الإجابة التي كان عليك أن تقولها لي؟".

رد ليوو هو ينظر بانتباه للطرف المشتعل من سيجاره: "نعم".

سألت الأم ملمحة وقلقة، وهي تنهض على الفور: "ماذا هناك؟ماذا هناك يا لولو؟". وبوجه قلق، ورقيق وهائج، كمن يريد أن ينتزع بعض الأسرار وفي نفس الوقت يريد القيام بحركة حميمة، اقتربت من ظهره، ووضعت ذراعيها حول رقبته وانحنت برأسها حتى لامست وجنتها وجنة عشيقها وكررت: "ماذا هناك؟". وقد شعر ليو بالضيق فمال برأسه جانبا ورد قائلا: "لا شئ"، وهو ينظر دائما إلى السيجار؛ فأخذت المرأة يده

ومررتها على وجهها، وهي تدعك فيها، مثل كلب وفيّ، أنفها البارد وفمها الطري. وسألته بصوت خفيض، قبل أن ينهي هو عبارته: "هل تحبني؟"؛ ثم غيرت على الفور نبرة صوتها وأصبحت على الفور سريعة كما لو كانت قد أدركت خطورة هذه العاطفية.

وأضافت: "سآتي اليوم، ولكنك ستكون عاقلا، عاقلا جدا". كانت تكرر بلا وعي نفس الكلمات التي قالتها في المرة الأولى التي دعاها فيها ليو بذريعة واهية إلى منزله. كانت قد قالت أيضا حينها: "عاقل جدا"، بابتسامتها البراقة وهي تدخل مدخل شقة عشيقها؛ كانت قد مضت خمسة عشر عاما؛ وذلك التعقل الذي دعت إليه بنفاق كان قد وصل في النهاية؛ وكان ليو، العاقل جدا، يحاول التخلص من عناقها الآثم.

وأضافت وهي تقبل باهتمام تلك اليد الخاملة: "سنكون مؤدبين ؛ سنكون أطفالا مؤدبين". وعضّت إبهامها عن قصد ومرت بلسانها على شفتيها، وكررت بصوت وتعبير نهم، وهي تتذوق العادة المريحة التي كانت في هذه الجملة الشرطية؛ فقد كانت تقولها برجفة من الفرحة وكانت تضيف إليها حركة إصبع محذر وتعبيرا كان يحاول أن يكون طفوليا، في كل مرة كانت تدعو فيها عشيقها إلى جوارها بعد أن تكون قد تمددت كلها بيضاء وبدينة فوق ملاءة السرير الصفراء؛ وكانت هي ترد بمرح بنفس الحركة المحمومة والمحذرة قائلة: "سنكون أطفالا مؤدبين"؛ وبعد ذلك، كان يبدأ حبهما الشبق والمعقد.

ولكن ليو هز رأسه، وهمس بلا حرج: "يجب أن أقول لك يا مارياجراتسيا، أننا لا نستطيع أن نتقابل...: إنني على موعد عمل، عاجل للغاية... من المستحيل أن نتقابل". وأحنى رأسه وهو ينظر إلى السيجار؛ فارتسم على وجه المرأة تعبير خائب الأمل، وغبي ومتألم وكأنه يد أطبقت على وجهها؛ ولكنها ظلت على موقفها المتسم بالرقة:

وقالت بإلحاح وهي مترددة: "إن هذا يعني أنني لا أستطيع رؤيتك اليوم".

"بالفعل".

انحل العناق، وارتفعت الأيدي من جديد لتتوقف عند الكتفين؛ واكتسى وجه الأم بالصرامة، وهمست وهي تضع قوة غير عادية في صوتها الخافت: "أنا لا"، وأضافت: "ولكن العاهرات مثل ليزا نعم... بالنسبة لتلك النسوة كل شئ ممكن... ويمكن أيضا إلغاء الأعمال العاجلة للغاية... إن الجو يصبح جميلا... ونهتاج... ونغلي... إغل، يا لولو، إغل أنت أيضا". واقتربت منه وبطرف أصابعها قرصته في ذراعه وهي تجزّ على أسنانها.

رفع ليو كتفيه بقوة، ودعك الجزء الذي تعرض للقرص، ولكنه لم يتكلم؛ وكان يتأمل الطرف المتأرجح لقدمه، تارة بعين وتارة بالعين الأخرى، وكان يبدو مستغرقا جدا في هذا الانشغال.

وقالت وهي تحدق فيه: "ولكن هل تعلم ماذا أقول لك"؛ وأضافت في كبرياء، منتصبة القامة وقد تجهم وجهها، بحركة حكيمة من يدها قائلة: "أنك على حق... ليس مرة واحدة، بل ألف مرة... أنني أنا الغبية، أنا البلهاء، أنا التي لا تستطيع العيش... ولكن دع الأمر لي... : فكل المشكلات ستظهر على السطح... وغدا سترى". وابتعدت قليلا لكي تلاحظ أثر تهديدها هذا: ولا أثر واحد.؛ ودخلت كارلا وهي تحمل صينية القهوة، وقالت: "لقد خرج ميكيلي، وليو سيشرب قهوة ميكيلي". ملأت الفناجين، وقدمتها، وجلست؛ وشرب الثلاثة في صمت.

قالت الأم وهي تضع الفنجان الفارغ: "هناك خبر سيفرحك،: هذا الصباح قابلت صديقتك ليزا... ".

قاطعها ليو وهو يضحك قائلا: "صديقتي؟، صديقتي؟ ثم لماذا؟ ومنذ متى؟".

قالت الأم بتعبير رقيق وغبي: "إن اللبيب بالإشارة يفهم"، وأضافت دون أن تتنبه إلى أنها تكذب قائلة: "وقد كلفتني بأن أبعث إليك بخالص تحياتها القلبية، الودية والغالية".

رد ليو دون أن يبتسم قائلا: "أشكرك كثيرا، ولكنني لا أفهم، يا سيدتي العزيزة، ماذا يعني كل هذا".

قالت الأم، وهي أكثر رقة وكما لو كانت تستبعد كارلا من هذا الفهم: "لا تخف... إنها تفهمني جيدا جدا؛ جيدا أكثر من اللازم... وأرجوك، لا تضيع أيا من مواعيدك... فستكون هذه خسارة حقيقية". وكان صوتها وشفتاها ترتعشان؛ وقد رفع ليو كتفيه دون أن يرد.

سألت كارلا وهي تنثني بصلابة إلى الأمام بكل جذعها: "ما هو الأمر بالضبط؟"؛ كان هناك اضطراب غير متعقل يسرع من نبضات قلبها، وكانت تتنفس بصعوبة، وكانت تود أن تنهض وتترك أولئك الأشخاص، وأن تخرج من ذلك الصالون، ومن ذلك الجو.

شرحت الأم وهي تجتهد لكي تبدو لبقة، وهي تلعب بعصبية بعقدها من اللآلئ الصناعية فقالت: "إن الأمر يتعلق بأعمال"... وأضافت بصوت أعلى وهي تنظر في الهواء وهي تسرع باللعب بالعقد : "فصديقنا ليو رجل أعمال... وهو مشغول للغاية... رجل أعمال قلّ أمثاله... الجميع يعرفون ذلك... أوه! أوه!...". ضحكت وهي ترتعش بكل جسمها وانتزعت العقد بقوة؛ وسمعت رنات حادة، هناك، فوق الأرضية: كانت اللآلئ الأولى تتساقط: وهي جالسة بتصلب، وجذعها منتصب ويداها مستندتان على ذراعي الأريكة، وقد تركت الأم العقد ينحل واللآلئ تتدحرج فوق صدرها لتتجمع في تجويف حجرها؛ كانت جديرة جدا بمكانتها، ومسرحية ومأساوية، مع تفاهتها الفطرية. وبعد ذلك فجأة، بمجرد أن قطعت الخيط، انخرطت في البكاء؛ ومن العينين المرسومتين سالت دمعتان غير نقيتين على وجهها المغطى ببودرة كثيفة فخلفتا عليه آثارا رطبة، وأعقبتهما اثنتان أخريان... ومن رقبتها استمرت اللآلئ في السقوط في حجرها المرتعش؛ مثل الدموع؛ وكان كل موقفها جامدا، مع ثنيات كبيرة، كما لو كانت تمثالا؛ وتلك الأشياء التي كانت تتساقط، الدموع واللآلئ، كانت تتداخل مع الجمود المتماثل للوجه والجسد، وكلاهما منكمش، ومرتعش ومتألم.

كان ليو قد قال محدثا نفسه وهو يشهد قطع العُقد: "لتذهبن إلى الجحيم النساء العصبيات". والآن وعشيقته تبكي، كان يشعر بحرج كريه يضايقه: فكان يقول لنفسه وهو يحاول أن يثبت نظره كما فعل من قبل في الطرف المتأرجح لقدمه؛ وفي نفس الوقت كانت كارلا قد نهضت.

وسألت: "لماذا؟، ماذا حدث؟" كان صوتها باردا، وكان يرتسم على وجهها تعبير من الضيق؛ وقد شعر ليو بانطباع بأن الصبية أيضا قد استاءت من كل ذلك النحيب: وكرر قوله لنفسه: "لتذهب الدموع إلى الجحيم". وفي نفس الوقت، وبحركة من يدها ورأسها كانت الأم تبعد عن نفسها ابنتها، كما لو كانت لا تريد أن تفسد موقفها المتصلب والمسرحي من الألم.

في هذه اللحظة دخل ميكيلي: كان مستعدا للخروج: القبعة والقفازات والمعطف، وقال لوالدته: هناك امرأة تريدك، ومعها علبة... أعتقد أنها الخياطة...". ولكنه توقف فجأة عندما رأى ذلك البكاء، وسأل:

"ماذا هناك".

ردت الأم قائلة: "لا شيء... لا شيء"؛ ونهضت بسرعة تاركة اللآلئ لتسقط على الأرضية، ونفــت في صخب وأضافت قائلة: "سآتي فورا"، وخرجت وقد احمر وجهها وانحنت قليلا كمن يريد أن يخبئ شيئا.

وألحّ ميكيلي وهو ينظر إلى ليو في فضول قائلا: "ماذا حدث؟"؛ فرفع هذا الأخير كتفيه ورد قائلا: "لا شيء، لقد قطعت العُقد... ثم انخرطت في البكاء".

كان هناك صمت؛ وكانت كارلا صامتة، وهي واقفة بالقرب من أريكة أمها الخالية؛ وكان ليو غاضا بصره؛ ساكنا وسط الصالون، وكان ميكيلي يحدق في الرجل بعينين غير حازمتين ومحرجتين؛ ولم يكن يشعر بأي شفقة على أمه، ولا كراهية ضد ليو؛ وكان يشعر بأنه كمّ زائد وغير مفيد وقد شعر للحظة برغبة عنيفة في الرد، والسؤال والمشاجرة والاحتجاج... وبعد ذلك، مع شعور حاد بالذل والضيق، فكر في نهاية المطاف في أن كل هذا لم يكن يعنيه:

وقال فجأة: "افعلوا ما تريدون، إنني ذاهب". وخرج. وأمر ليو كارلا قبل أن تغلق الباب قائلا: "تعالي هنا يا كارلا، هنا... بجواري".

وسألت الصبية، وهي تقترب: "هل نمت جيدا؟"

"جيدا جدا".

ومد هو ذراعيه، وأحاط بهما خصرها وجذبها، وأضاف بصوت عميق: "بعد ذلك ستأتين معي، ستقولين بعض الأشياء... صديقة، زيارة... وستأتين معي". وضمّها إليه، ونزل بيديه إلى أسفل، حيث كان الفخذان الكبيران العضليان يلتحمان بالإليتين المستديرتين بخط واضح، يرى تحت ثنيات الثوب، وأضاف لكي يقول شيئا: "وهذا الصباح؟؛ هل سار كل شيء على ما يرام؟".

ردت وهي تنظر دون أن تدري ما إذا كان باشمئزاز أم بخوف من رأس ذلك الرجل الجالس تحتها، والذي كان يتحدث دون أن يرفع جبهته المنخفضة، ودون أن ينزع عينيه عن بطنها، كما لو كان الحوار قد دار بينه وبين بطنها ولم يهمه سوى هذا الجزء الوحيد وغير النبيل من جسدها؛ فقالت: "كل شيء على ما يرام، لم يلحظ أحد شيئا".

فرد هو دون أن يغير موقفه، كما لو كان يتحدث لنفسه؛ واهتز أخيرا من سكونه هذا، ورفع عينيه، وأجلس الصبية على ركبتيه، وسألها وهو ينظر لها بتعبير غبي ومتبلد، قائلا: "ألا تخافين من أن يأتي شخص ما؟".

رفعت كارلا كتفيها وقالت بصوت واضح ملأ فمها باللعاب:

"والآن ماذا يمكن أن يهمني؟".

وألحّ ليو وهو يتسلى قائلا: "ولكن سنرى... إذا دخلت أمك في هذه اللحظة، ماذا ستفعلين؟".

"سأقول كل الحقيقة".

"وبعد ذلك؟".

قالت هي بصوت غير واثق، مع شعورها المؤلم بأنها تكذب بالنسبة لحقيقة عميقة، وهي تلعب بربطة كرافتة الرجل: "بعد ذلك سأذهب معك... سأذهب للبقاء معك... ".

وبعد إطرائه من هذه الجدية التي كان يسيء فهم أسبابها، ابتسم ليو ونطق وهو يعانقها: "أنت طفلة غالية".

قبّل كل منهما الآخر ثم انفصلا.

استطرد الرجل قائلا: "إن لدينا الوقت للبقاء معا من الثالثة حتى السابعة"؛ وهذا التوقع لم يكن يثير حماسه؛ فعلى الرغم من هياجه، كان يدرك بصورة غامضة، وهو يضم ذلك الجسد الشاب الكبير، أن قواه ستكون دائما غير كافية لتلبية نهمه الأهوج. أكان شعورا كريها ومحددا بعدم القدرة، كما نقول؟ بالعجز: كان كما لو كانوا قد قدموا له براميل تفيض بالنبيذ، وموائد هائلة انحنت تحت ثقل أشهى الأطعمة والشقق المكتظة بأجمل نساء العالم الممدة والمتراكمة كل منهن فوق الأخرى كحيوانات كثيرة. وفكر بسخرية قائلا: "من الثالثة حتى السابعة، ماذا سأستطيع أن أفعل؟". ونظر إلى نفسه فوق كتف كارلا في مرآة: جبهة صلعاء، وجه ثقيل وأحمر، ووجنتان أكثر انتفاخا منهما احمرارا، حيث كانت اللحية غير المحلوقة تعكس لونا مزرقا معدنيا: النضج. واختتم حديثه بإحساس حيّ بالواقع قائلا: "إنني لا أعبأ بذلك، عندما ينفذ ما عندي سأقول لك ذلك". وبين هذه الأفكار كان يمرر في شرود يده على عنق كارلا وصاح قائلا: "كم أنت ساخنة".

كانت هي صامتة، وهي تنظر بانتباه لوجه عشيقها الأحمر والصارم: وسألته في النهاية قائلة: "لماذا بكت أمي؟"

"لأنني قلت لها أنني لا أستطيع استقبالها اليوم".

سألت الصبية بلطف: "وهل ستفعل معي أنا أيضا ذات يوم نفس الشئ، يا ليو؟".

"لماذا؟". إن ما كان يهم الرجل ويسليه أكثر في تلك اللحظة هو المداعبات التي كانت تسمح بها كارلا، بشئ من المتعة، وعدم الاكتراث، بل والأكثر من ذلك، الكرامة الحزينة المرتسمة على وجهها وفي أحاديثها؛ وفكر قائلا لنفسه: "كما لو كان جسدها لا يخصّها".

مرت بضع لحظات من الصمت: ثم رفع ليو عينيه نحو عيني الصبية وسألها قائلا: "فيم تفكرين؟".

فردت هي بشيء من الزيف المتعمد قائلة: "في اليوم الذي ستقول لي فيه أنا كذلك أنك لا تستطيع أن تستقبلني".

رد ليو وقد طأطأ رأسه من جديد وعاد إلى مداعباته المدروسة قائلا: "هراء، ما دخلك أنت مع والدتك؟".

استمرت كارلا في حديثها قائلة: "الآن تقول هكذا... و لكن بعد ذلك؟" لم تكن هي تعرف لماذا تتكلم بهذه الطريقة؛ وفي الحقيقة لم يكن يهمها كثيرا أن تخمن ما إذا كان عشيقها سيهجرها أم لا، بقدر ما كانت واثقة من أن مصيرها لن يكون مماثلا لمصير والدتها؛ فكان ذلك السؤال يعني"هل يمكن أن تكون لي حياة مختلفة عن حياة والدتها؟".

لم يرد الرجل؛ فقد كان يمسك بالجونلة وسأل وهو يشير بإصبعه لساقها، قائلا: "وهنا ماذا يوجد؟".

"رباط الجورب". وأحنت هي رأسها حتى اصطدمت جبهتها بجبهة عشيقها الصلبة، وسألت قائلة: "و... هل تحبني؟".

فنظر إليها ليو متعجبا: وأضافت هي بسرعة قائلة:

"أريد أن أقول أن والدتي لم تحبها أبدا، ولكنك أحببتني، أليس كذلك؟".

ومَضَ عقل ليو فقال لنفسه:

"إنها غيورة من ماريا جراتسيا... فهمت... غيورة... غيورة من والدتها". وابتسم متفاخرا بذكائه، وقد أطراه هذا التنافس فقال: "و لكن لا تخافي... ولا تفكري حتى في ذلك... فقد انتهى الأمر مع والدتك، هل تفهمين؟ انتهى!".

"ليس هذا... ". وكانت كارلا تجتهد بالفعل لشرح شعورها الغامض، عندما انفتح باب الصالون. وهمست وهي تحرر نفسها قائلة: "دعني، ها هي والدتي".

وحررت نفسها بحركة واحدة، وانزلقت على الأرض.

ودخلت الأم وهي مشغولة وهادئة، وفي يدها صُرّة:

وسألت قائلة: "ماذا تفعلين؟".

ردت الصبية قائلة: "أجمع"؛ وكانت تجمع باستعجال اللآلئ الساقطة، مطأطأة الرأس وشعرها منسدل؛ وكان ليو ينظر بتسلية إلى الإليتين العاليتين، الساكنتين، المستديرتين فوق الظهر المقوس ورأسها الغائبة تقريبا:

قالت الأم: "لم تكن الخياطة؛ كانت سيدة تبيع الأقمشة والوسائد... وقد اشتريت منها واحدة".

سألت كارلا وهي تجتهد للوصول إلى لؤلؤة تدحرجت تحت الأريكة قائلة: "من ماذا؟".

شرحت الأم قائلة: "وسادة". وأضافت وهي تشير إليها: "انظري، ها هي واحدة منها... هناك... في ذلك الركن". وكانت تتظاهر بأنها غير مكترثة بليو وكان من الواضح أنها وضعت الماكياج من جديد على وجهها.

قالت كارلا: "لقد رأيتها"؛ وكانت تجمع اللآلئ وهي منحنية؛ ولكن من أين جاءها هذا الاحتياج للانحناء، والزحف والاختباء، ويدها مليئة باللآلئ وعيناها متسعتان وثابتتان وحزينتان؟ لم تكن تدري؛ ونهضت وقد احمرت قليلا وقلبت اللآلئ داخل منفضة السجائر.

وقالت: "انظروا".

فتحت الأم الصرّة وكشفت عن مشترياتها: كانت قماشة مربعة من الحرير الأزرق طرزت عليها صورة التنين الصيني المعتاد، بفمه الذي يخرج منه اللهب، وذيله المنتصب، بألوان براقة، من الأحمر والأخضر والذهبي.

قال ليو: "جميل".

وسألت الأم ابنتها متظاهرة بتجاهل رأي عشيقها قائلة: "كيف تبدو لك؟".

قالت كارلا بشيء من الفظاظة: "تبدو لي على الأقل غير مفيدة، فمنزلنا مليء بهذه الأشياء..لا أدري كيف يمكنك وضعها".

ردت الأم بتواضع قائلة: "في المدخل".

وخففت كارلا من حدتها بشفقة سريعة قائلة: "عموما، ليست قبيحة إطلاقا".

وسألت الأخرى بابتسامة ضعيفة ومتعاطفة قائلة: "هل تعتقدين هذا؟".

خطت كارلا بضع خطوات نحو الباب قائلة: "سأذهب لارتداء ملابسي. ليو انتظرني... سنخرج سويا".

وصاحت الأم وهي تنظر إلى الساعة وتجري وراءها قائلة: "إن الوقت مبكر".

وردت الصبية وهي في وسط الصالون قائلة: "لا يهم".

ردت الأم: "لا، لا... ". وخرجت الاثنتان في ضوضاء من الأبواب المطروقة والمغلقة، وهما تتحدثان، وتصيحان، وتلوحان بأذرعهما، مثل طائرين كبيرين مفزوعين.

وبعد أن أصبح ليو وحيدا، ألقى سيجاره المطفأ، وفرد ذراعيه وساقيه، وتثاءب، وأخذ في النهاية من جيبه مبردا وبدأ في تنظيف أظافره؛ وكان في انشغاله هذا عندما فاجأته كارلا بعد ذلك بعشر دقائق:

وقالت وهي تدخل أصابعها في القفاز: "إذن يا ليو، هل نريد الخروج؟".

رد ليو قائلا: "All right" ؛ ونهض، وسار وراء الصبية؛ وفي الممر انهمك في غرائبه المضحكة بصورة خطيرة:

وسأل وهو ينحني: "هل يمكنني أن أحصل على سرور وشرف صحبتك، يا آنسة؟".

قالت كارلا وقد احمرت قليلا وهي تبتسم رغما عنها: "موافقة". وخرجا وهما يضحكان وكل منهما يصطدم بالآخر، ويقفزان بسرعة وبخفة غزلانية على درجات السلم الرخامية التي اصفرّت من الأمطار الأخيرة: ووسط الميدان كانت هناك سيارة ليو، المنخفضة وسط الإطارات الكبيرة، ممددة تحت الشمس.

ومع الكثير من الضحكات والكثير من المزاح اقترب الاثنان من السيارة اللامعة؛ وصعدا بحركات قليلة؛ ليو أولا ثم كارلا؛ وجلسا.

وسأل الرجل بانتباه وهو يضغط على زرار التشغيل قائلا: "ألم ننس شيئا؟". وفي ذلك الجو البارد والصافي كانت أحزانه ومخاوفه قد تبددت؛ وكانت وهي جالسة إلى جانب ليو تستمتع بالسماء الزرقاء، والطبيعة المغسولة، والسيارة اللامعة.

انطلقت السيارة ومرقت بسرعة بين جذوع الأشجار العارية في الطريق؛ وضربت الشمس، والفروع المتدلية، والرياح بصور متفاوتة هذين الرأسين الساكنين، وقد ارتسم على وجهيهما نفس الاستغراب الطفولي، ونفس الشباب البراق ؛ فكانا غريبين على هذا العذو، وكان يبدو أنهما ينظران لنفسيهما في زجاج السيارة الأمامي حيث كانت تتعكس، فوق التداخل المتغير للبستان والسماء، ملامح قليلة من صورتيهما: العيون والأفواه، ووجنَات كارلا الصبيانية، وقبعة ليو وهما منفصلان ومعلقان في الفراغ كسراب لتفاهم مستحيل.

الفصل الثالث عشر

كان ميكيلي قد خرج لزيارة ليزا؛ وطوال الصباح كانت فكرة هذا اللقاء قد اختبأت وراء كل فكرة من أفكاره، لتخلق إحساسا بالضيق وهو بين أصدقائه كالذي يثيره حدث معروف للجميع ولا يجرؤ أحد على أن يكون أول المتحدثين عنه؛ وطوال الصباح لم يبرح ذلك التذكر الطبقات الدنيا من ضميره، تذكر تقبيل اليد في اليوم السابق في الظلام ليخلق حول أفكاره جوا عارضا ومحبطا: فقد كان يتصور في جو من الكآبة أن المسألة الأساسية لم تكن في ذلك الوقت تتمثل في الانشغال بموضوع أو بآخر، وإنما تتمثل في معرفة ما إذا كان يتحتم عليه العودة إلى ليزا أم لا، وأن الشيء المهم لم يكن يتمثل في القراءة أو الكتابة أو الحديث أو العيش بأي شكل من الأشكال، وإنما في حب ليزا؛ وأخيرا، وبعد الغداء، خرج بحجة التنزه.

وهنا تجلى له على الفور سبب هذا الخروج، فنظر إلى السماء التي بدأت تمتلئ بالسحب البيضاء الصغيرة، بالرغم من صفائها منذ دقائق قليلة. وبعد أن أغلق باب الحديقة خلفه أخذ يفكر: "من الواضح أنني لست خارجا من أجل التنزه أو لتناول القهوة.. لا.. لابد من الاقتناع بذلك: إنني خارج من أجل الذهاب إلى ليزا". وبدا له أنه يشعر بقوة شديدة وهو يواجه تصرفاته الخسيسة، وأنه يتقبل بشجاعة وبشكل ما أوضاعا لا يمكن لأي إرادة أن تغيرها؛ فلن تجدي تلك المكابرة المتلكفة، وذلك الكبرياء الصبياني الذي جعله للحظة يعتقد أن هناك خيانة جديدة من جانب ليزا مع حبيبها القديم، ثم جثمت هذه الفكرة على عقله لترغمه على المضي قدما في هذا الاتجاه الخاطئ. الآن يدرك أن هذه الانحناءة الساخرة على عتبة الباب أمام ليزا غير المهندمة، اللاهثة، لم تكن وليدة أي إحساس حقيقي: كان بوسعه الدخول بنفس السهولة، والجلوس والمسامرة، أو قبول الأمر الواقع ببساطة، أو أن يأخذ ليزا، ينتزعها من أحضان ليو؛ ولكن ما حدث أنه، وعلى طريقة الممثل الذي عليه أن يرتجل دوره، اختار ذلك السلوك الساخر كأنسب سلوك، أو الأكثر طبيعية

أو الأكثر شيوعا في مثل تلك الظروف: بعض الكلمات، ثم انحناءة وبعد ذلك الانصراف؛ ولكن بعد ذلك وفى الطريق، لا غيرة ولا ألم: فقط بعض الشعور بالامتعاض اللامتسامح تجاه تلك اللامبالاة التي يتسم بها، والتي تجعله يغيير أفكاره وتصرفاته كل يوم، كما يغيير الناس ملابسهم.

كانت أهمية هذه الزيارة بالنسبة له واضحة جدا وشديدة: فقد كانت هي آخر دليل على إخلاصه، بعد فشله إما سيظل في هذه الحالة من الشك والبحث، وإما سيسير في الطريق المعاكس، طريق الجميع، حيث التصرفات لا يدعمها أي إيمان أو صدق، حيث تتكاتف كلها فيما بينها وتتراكم في طبقات قوية فوق الروح المنسية فتخنقها؛ ولكن لو نجحت التجربة كان سيتغير كل شيء: فسوف يجد هو واقعه الفعلي كما يعثر الفنان على مصدر إلهامه في أوقاته السعيدة؛ وكانت هي ستبدأ حياة جديدة، الحياة الحقيقية، الحياة الوحيدة الممكنة.

انعطف في شارع أكبر ووجد نفسه أمام الإشارة التي يتوقف عندها الترام المتجه إلى الحي الذي تسكن فيه ليزا. هل عليه أن ينتظره أم لا؟ نظر في ساعته: كان الوقت مبكرا، فمن الأفضل أن يذهب سيرا على الأقدام. واصل السير مع أفكاره؛ وبمراجعة الموقف من جديد، وجد أن هناك افتراضان: إما أن ينجح في مبادئه الخاصة بالصدق، وإما أن يكيف نفسه على العيش مثل الآخرين.

الافتراض الأول كان واضحا؛ كان الأمر يتمثل في الانعزال مع نفسه ومع بعض أفكاره وبعض مشاعره التي يحسها بالفعل ومع بعض الأشخاص القلائل الذين يحبهم، هذا إن وجدوا، وأن يبدأ من جديد على هذه الأسس الصلبة بالرغم من بساطتها، حياة تتسم بالوفاء لمبادئه الخاصة بالصدق. أما الافتراض الثاني، فهو الآتي: لن يتغير شيء إلا داخل نفسه المهزومة؛ فهو سوف يعالج الوضع على أفضل ما يكون مثلما يحدث لبيت خرب يتم إصلاحه بشكل عشوائي، لعدم وجود الأموال اللازمة لبناء بيت جديد: ويدع أسرته تنهار أو ينفق ليو عليهم، وسينتهي به الأمر (بالرغم من أنه يحز جدا في نفسه أن يتقبل هذا الحل) بأن يمارس خسته مع ليزا؛ فمن ذا الذي لا يترك من الدناءات والخسة

والزيف في كل ركن من أركان الوجود، وكأنه يتركها في أركان بيت كبير مهجور؟ وداعا لحياة الصدق والنقاء: سيصبح عشيقا لليزا.

والفيلا؟ والرهنية؟ بخصوص هذا الأمر سيصل إلى اتفاق مع ليو وقال فى نفسه: "أنت سوف تعطينا النقود التي تجعلنا نعيش أنا وأسرتي، وأنا في المقابل سأعطيك..." ولكن في الواقع ماذا تبقى ولم يأخذه ليو بالفعل؟ ... لنرى، لحظة...: آه، تتبقى ليزا... فقد حاول ليو معها دون جدوى أن يعيد أواصر العلاقة القديمة... ليزا، فعلا، أكيد.. إذن: "أنت تعطيني المال... وأنا أعطيك ليزا..."

وبدا له أنه يرى الطريقة التي سيتم بها هذا الأمر الأخير.

ذات ليلة، بعد وقت طويل من التردد، كان سيتحدث إلى المرأة؛ وهي كانت ستعترض. وحينئذ كان سيترجاها قائلا: "افعلي ذلك من أجلي؛ إذا كنت تحبيني فعليك أن تفعلي". وفي النهاية كانت ستستسلم للأمر، ربما، من يدري؟ لن يحزنها كثيرا في واقع الأمر أن تعود إلى الصداقة القديمة. وكانت سترد عليه دون أن ترميه بنظرة احتقار قائلة: "وليكن، دعه يأتي... ولكن لا تعتقد أنني أفعل ذلك من أجل أسرتك... ولكن من أجلك أنت فقط". وكان هو سيقوم باحتضانها، ويشكرها بحرارة، ثم ينصرف إلى الصالة لاستدعاء ليو، ويقول له: "اذهب...فأن ليزا تنتظرك". وكان سيصحبه من يده، وسيلقي به بين أحضان المرأة؛ وأين سيعطيه النقود؟ هنا، في منزل ليزا، أمام أعين المرأة، أم في مكان آخر؟ في مكان آخر. وكان سينصرف بهدوء، ويغلق وراءه الباب، وهو يتمنى لهما ليلة سعيدة؛ كان سيذهب بدوره للانتظار في الصالة؛ يالها من ليلة طويلة لا تنتهي تلك التي سيقضيها وهو جالس في الصالة، يستمع للأصوات الصادرة من الحجرة المجاورة، حيث يرقدان معا على الفراش؛ وهو نائم ويستيقظ فجأة من وقت لآخر ليجد أمامه ذلك البالطو المعلق على الشماعة، ليذكره بوجود الرجل مع محبوبته؛ يا لها من ليلة لا تنتهي! وقبل الفجر كان ليو سينصرف دون أن يشكره، ودون أن ينظر في وجهه، ليسمح له بالكاد أن يساعده في ارتداء البالطو؛ كان سيفسح له المكان في السرير غير المهندم والمتسخ، بجوار ليزا وهي شبه عارية، غارقة في نعاس وفي غموض المتعة المجهدة، مثل النشوى الثقيلة. ولن تكون هذه هي المرة الأولى ولا

الأخيرة؛ سيعود ليو، غالبا، كلما احتاج هو إلى نقود... وقد توصل إلى هذه الخلاصة و قال لنفسه هو شارد: "هذا أيضا، قد يكون أحد الحلول". ولكنه كان يشعر بشدة التعب كما لو كانت كل تلك الخيالات هي أحداث حقيقية وقعت بالفعل. وإذا كان ليو لا يريد ليزا، أو هي لا تريد ليو؟ إذن... إذن... لم يتبق سوى كارلا لكي تنقذ الموقف... تمام... أيضا كارلا كانت مصدر ثروة... بما إنه كان من الضروري العيش بهذه الطريقة، من الأفضل السير في هذا الطريق لنهايته. إذن تتبقى كارلا... لتزويجها، نعم تزويجها لليو... سيكون زواج مصلحة، زواج مال، مثل تلك الزيجات الكثيرة التي نراها، وهي الزيجات التي تنجح بشكل أفضل؛ الحب سيأتي فيما بعد... وحتى إن لم يأت، لن يكون هناك مشكلة كبيرة... يمكن لكارلا أن تفرج عن نفسها بطرق أخرى عديدة، فليس ليو هو الوحيد في هذا العالم... تمام... ولكن... ولكن... ماذا يفعل لو أن ليو رفض أن يعطيه المال إلا بشرط أن يتخذها عشيقة؟

هنا فكر ميكيلي وقال يحدث نفسه: "إنه يمكن أن يفعل ذلك، يمكن جدا". ثم توقف للحظة: بدا له أن رأسه تدور؛ كان يشعر بإرهاق وضيق يجثمان عليه بلا أمل: كان قلبه يرتعد؛ ولكنه واصل سيره وأفكاره غير عابئ وقال لنفسه "إلى الأمام... إلى الأمام .." وفي جو من الكآبة تملكته الدهشة من قدرته على اكتشاف دائما أشكال جديدة من الانحطاط؛ ومتى سيصل إلى النهاية؟ "لابد من السير في الطريق إلى آخره". ابتسم بشيء من الفتور... إذن لو أن ليو لا يريد الزواج... هذا أيضا افتراض محتمل... في هذه الحالة كان سيتم عقد اتفاق آخر بين الطرفين المتعاقدين... ليو كان سيعطي نقوده ونظرا لجمال كارلا وشبابها الذي لم يخدشه أحد، فسوف يطلب منه مبلغ أكبر بمرتين أو ثلاث من المبلغ الذي كان سيكفي بالنسبة لليزا الناضجة، الفاسدة... فلكل بضاعة ثمنها... اماهو في المقابل سيأخذ على عاتقه، بالتأكيد، في هذا الجو، تسهيل الأمور لدى أخته فإنه يمكن الوصول أيضا إلى هذا المنعطف، إنها مهمة صعبة؛ فأن كارلا لابد وأن لديها مبادئ أو ربما، تحب شخصا آخر، من يدري؟؛ صعب جدا... هناك طريقتان يجب أخذهما في الاعتبارالأولى: أن يعترف لها بكل شئ مرة واحدة، وأن يتذرع ببعض الحجج ، شرف

العائلة، البؤس، وكسب المعركة في الحال، وذلك بالضغط الشديد والمفاجأة؛ أو التمهيد البطئ لدى الفتاة، لجعلها تفهم شيئا فشيئا، والظن على أذنيها، اليوم كلمة، وغدا كلمة أخرى، حتى يمكنها أن تخمن من خلال تلميحات مكررة ومستمرة ما هو المطلوب منها... أي هاتين الطريقتين هي الأفضل؟... الثانية، بلا شك... جعلها تفهم بعض الأشياء، أسهل من قولها لها... وبعد ذلك، في جو من الضجر، بعد إعدادها جيدا، من خلال التلميحات والإشارات، ومن خلال الإغراءات، فإن كارلا الوحيدة، ضعيفة الارادة، سترضخ في النهاية وتستسلم... ثم فكر: "هذا يحدث لكثير من البنات، فلماذا لا يحدث لها؟". وببصر زائغ، وهو يتقدم خطوة خطوة، ناظرا إلى الأرض، بدا له أنه يستطيع أن يتخيل كيف سيحدث هذا التغرير... ذات يوم كئيب، مثل اليوم، يوم ميت، دافئ، تغيب عنه الشمس يوم خامل... مثل اليوم سيأتي ليو، وسيدعوهما، هو وأخته، إلى جولة بالسيارة... وبمجرد عرض الدعوة سيتم قبولها على الفور... وبعد الجولة أين سيذهبون لتناول الشاي؟... إلى منزل ليو، نعم، في منزل ليو، حيث لن تمانع كارلا في الذهاب، وهي مطمئنة لوجود أخيها... سينزل ثلاثتهم أمام الباب، وسيصعدون معا السلالم، ببطء، الفتاة في المقدمة، ثم الرجلان... وعلى عتبة الباب، بينما كارلا تخلع قبعتها أمام المرآة في المدخل، سيكون الرجلان قد تصافحا كنوع من تأكيد الاتفاق... وبعد رؤية المنزل وإعجابهم به، ها هم الثلاثة في الضوء الخافت الذي يسبق الغروب، في الصالون الصغير عند ليو، ثلاثتهم بأفكارهم المتباينة، ووجوههم الجامدة. بعد ذلك كانت كارلا سوف تقدم الشاي وهي واقفة، لآخر مرة، وكان الرجلان الجالسان سيتلقيان من هذه الأيدي المشروب والبسكويت الجاف والسكر واللبن؛ ومن هذا الفم الجميل ابتسامة تخلو من الشك، ومن هاتين العينين نظرات صافية... الثلاثة جالسون بجوار النافذة لأن السماء كانت ستصبح أكثر خفوتا وكان الظل سيكون قد بدأ يغمر أرضية الغرفة، وكان الثلاثة سيشربون ويأكلون... كانوا سيتحدثون أيضا، في هذا الصمت الذي يسبق الغروب في البيت؛ الرجلان وقد نظر كل منهما في عيني الآخر، والبنت تبتسم، غير فاطنة، وتمرح بصوت عال... وبعد الشاي، في لحظة الصمت هذه والشبع الحالم الذي يعقب كل رغبة مشبعة، كان سينظر إلى ليو، وليو سيبادله

النظرة... وبعد ذلك، وبحركة سريعة، كانت عينا الرجل ستقعان على رأس كارلا الرقيقة وهي منحنية قليلا وعلى الباب... وكان هو سيفهم، وسينهض في بطء: "أنا ذاهب لإحضار السجائر" كان سيقول ذلك، وبخطوات تنم عن ثقة غريبة، وبهامة مرتفعة، سيخرج تاركا الاثنين معا، أخته والرجل، هيئتان سوداوان ساكنتان، أمام الشباك الذي تغشاه السماء الرمادية.

سوف يذهب إلى الصالة، سوف يرتدي معطفه: سينصرف وهو يغلق الباب بحذر... وسوف تمر ساعات هذا اليوم، وكأنها لا تنتهي، ساعة بعد ساعة، بدون كارلا، بدون ليو، بدون أي شخص، في الشارع، أو في قهوة صغيرة، في إحدى دور السينما. وفي المساء سوف يعود إلى الفيلا، وسيجد كارلا، وربما ليو أيضا، على مائدة الأسرة، وسوف يتفحص هذين الوجهين، دون أن يخمن، من خلال أي نظرة، أي إشارة، ما حدث في هذا المنزل بين الجدران الأربعة، بعد انصرافه...: هل محاولة للهروب في الشقة المظلمة، في جلبة وطقطقة الكراسي المقلوبة، وأبواب تفتح وتغلق؟ هل صراع قصير في الظل داخل الصالون الصغير، أمام الشباك عند الشفق؟ أم استسلام مميت أمام السقوط المحتوم، الذي تمت مقاومته لوقت طويل، وأخيرا تم القبول به؟

إنه لن يعرف أبدا؛ بالرغم من ذلك اليوم وكل الأيام الأخرى التي سوف يتكرر فيها هذا الحدث المتعجل الآثم، وستستمر حياتهم، بحكم العادة والظروف، كما كانت... سوء فهم وزيف جديد، وهكذا إلى الأمام... أو أن هذه الأحداث المخجلة، مثل الديدان في جسم ضخم متحلل، كانت ذات يوم ستكشف عن نفسها على شكل انفجار من الأنانية، لتودي إلى الانهيار النهائي... وهما سيكونان عرايا، الواحد أمام الآخر... حينئذ ستكون النهاية، النهاية الحقيقية...

بدا له وكأنه يختنق؛ توقف، ونظر أمامه، دون أن يرى واجهة المحل المواجه. الآن، الآن كان قد وصل فعلا إلى نهاية مستقبله: ليس هناك ما يراه بعد ذلك، لا براءة كارلا، ولا حبه لليزا، ولا شجاعته، لم يعد هناك بعد ذلك شيء يقدمه لليو مقابل أمواله. بعد هذه الخيالات، التي لم تعد أكثر انحدارا من الواقع الذي ينحدر عليه وجوده، ومن الجفاف الذي

يغص في حلقه ويحز في نفسه، كان يريد أن يصرخ ويبكي؛ كان يشعر بالتعب والضيق الشديد كما لو كان بالفعل قد ترك كارلا منذ دقائق قليلة في منزل ليو، والآن، هناك في الشقة المغلقة، يتم هذا الحدث الشائن، بتلك الحركات، والصراع، والهروب، والاحتضان؛ بتلك الألوان، بتلك الهيئات، الأذرع الممدودة، الصدر العاري، الجسد المنزوي تحت البقعة الكئيبة المنحنية لجسد أخر، والعينان مغلقتان ومستباحتان، وقد بدت له عبر ومضات في سماء خيالاته المحمومة. كان يتملكه كثير من الضجر، كثير من الاشمئزاز، كثير من التعب، وتجتاحه رغبة فطرية في الاغتسال منه، لا يدري لماذا، ويشعر بحاجة ملحة إلى مياه طاهرة، كما لو كان هدير مياه الاغتسال استطاع أن يجري في ثنايا روحه... الجداول الهادرة بين الأعشاب، الشلالات البيضاء الحية الساقطة باستمرار من أعلى المنحدر، المساقط الباردة فوق مجاريها المبطنة بالحصى وقد خرجت منها سحب البخار، تلك الجداول المائية التي تزحف من أعلى الجبل عندما يبدا الجليد في الذوبان، فتسلك سبلا خفية وتلتقي عند الوادي؛ كل المياه الباردة، أمام رغبته العارمة، كانت تبدو له غير كافية.

استأنف السير: الآن يفهم أن جملة واحدة وهي: "لحسن الحظ ليست هذه سوى أفكار"، لن تكفي لتطهيره: كان يدرك، من روحه المضطربة، ومن حلقه المر، أنه عاش هذه الخيالات؛ مستحيل أن يرى كارلا ثانية بعيون أخوية، أو أن ينسى أنه تخيلها في تلك الصور الفاجرة التي تنتسب عادة إلى السيدات الضائعات؛ لقد فات الآوان للعودة إلى الرؤى الهادئة: لقد كان التفكير بمثابة حياة.

ولكنه كان قد رأى، كان قد شعر بما كان سيحدث، إذا لم يتغلب على لامبالاته: بلا إيمان، بلا حب، وحيدا، فلكي ينتصر كان لابد إما أن يعيش بصدق ظروفه التي لا تحتمل وطبقا لنظم تقليدية، أو أن يخرج منها للأبد؛ كان عليه أن يكره ليو، وأن يحب ليزا، وأن يشعر بالضجر والشفقة على أمه، وأن يشعر بالعطف تجاه كارلا: كلها مشاعر لم يكن يعرفها؛ أو كان عليه أن يذهب إلى مكان آخر للبحث عن أهله، عن أماكنه، عن ذلك الفردوس حيث كل شيء، الإشارات، الكلمات، المشاعر، يكون لها ارتباط سريع بالواقع التي نتجت عنه.

هذا الفردوس من اليقين ومن الحقيقة كان قد بدا له، قبل عامين، كأنه يراه في دموع امرأة مبتذلة قابلها في الشارع واصطحبها معه إلى حجرة في فندق. كانت قصيرة وسطحية، وجسدها يثير الضحك لعدم التناسق بين النتوءات غير المتناسقة للصدر والردفين، والنحافة المنحوتة للظهر، حتى أنها وهي عارية تبدو كأنها تمشي منحنية إلى الأمام لتتباهى بنتوءاتها البارزة، مثلما يتباهي طاووس بذيله. تناقض آخر كان يتمثل في أنها كانت تقدم مفاتنها الوردية الشاحبة هذه، ملفوفة في شاش أسود بائس (تلفه بالعرض كمن يتنكر في الكرنفال)، خرق سوداء بالية ارتدتها على عجل، كما أسرت له على سلم الفندق، وببساطة اللامبالاة التي تتعلق بأمر طبيعي، دون مسحة حزن على وفاة أمها التي توفيت قبل أسبوع واحد. ولكن هذا الحدث الحزين الذي تركها، حسب تعبيرها، وحيدة في هذا العالم، لا يمنعها من البحث كل يوم عن أنيس لوحدتها: فلابد للمرء أن يعيش أيضا. وداخل الغرفة قامت بتمثيل مشهد الحياء، بحيوية، وبنوع من التلقائية الحية: كانت الغرفة صغيرة ومتواضعة: وكانت هي قد تركت الأشياء مبعثرة على الأرض، مثل هارب يتخلص من مما يحمله قطعة قطعة حتى يستطيع الجري بشكل أسرع، القطع الخفيفة من ملابسها، والشاش الأسود، والجونلة، وقميص النوم، والملابس الداخلية؛ ثم لجأت بعد ذلك، وهي ترتدي الجوارب فقط، إلى الركن الأكثر دفئا والأكثر خفوتا، بالقرب من المدفأة. وخرجت منه بعد محايلات عديدة وبحركات غريبة من صدرها وبأردافها التي تبعث على الاعتقاد أنها في كل خطوة تؤدي انحناءة الخنوع؛ خرجت من مكمنها بحجج عديدة، وهي تغطي ما أمكنها بيديها؛ ودخلت الفراش بحذر، وبابتسامة غامضة ولطيفة توحي بتقديم متع راقية... ولكن بعد ذلك، عند محاولة ميكيلي إرغامها على أداء بعض المهارات الاحترافية، قابلته بالرفض وفي النهاية، نظرا لإصراره، انفجرت في البكاء بالدموع؛ لا هو بكاء محتشم، ولا هو مؤلم ودرامي؛ ولا حتى من ذلك النوع الذي يحدث فيه انفجار هستيري يصحبه صياح وعويل... لا، وإنما نوع من البكاء الطفولي، بقطرات كبيرة من الدموع وشحتفة عنيفة تهز الجسد كله وبشكل خاص هذين النهدين الخفيفين الرخويين مثل راكبين بريئين اضطرهما جواد جامح إلى الاهتزاز الشديد الشاق. وكان هو ينظر إليها باندهاش، دون أن يفهم هذا

الانتقال السريع من الفرح إلى الألم... وأخيرا، بعد أسئلة كثيرة، بدا له أنه يفهم أنه في اللحظة التي كان يطلب فيها منها أن تظهر له كل خبراتها المهنية، في هذه الرأس القريبة جدا وفي الوقت نفسه البعيدة جدا عن رأسه، كانت فكرة موت أمها أكثر قوة وإلحاحا لدرجة أدت إلى هذا الانفجار في البكاء. وبعد هذه التوضيحات المتضاربة بصوت حزين خافت، وبينما الشاب ينظر إليها مندهشا وهو مائل عليها دون أن ينطق، إذ بها تنفخ أنفها، وقد جففت دموعها بطرف الملاءة، وعادت هادئة، مرحة، بل وجادة كما لو كانت تريد أن تعتذر عن ألمها في هذا الوقت غير المناسب. وقد سار كل شيء على ما يرام، وبعد ساعة ترك كل منهما الآخر عند باب الفندق، وذهب كل منهما في طريقه، ولم يرى أي منهما الآخر بعد ذلك أبدا.

والآن يعود إلى ذاكرته هذا البكاء كمثال للحياة شديدة التداخل والصدق؛ تلك الدموع المنسابة على ذلك الوجه بعد تجميله، المنهمرة في تلك اللحظة، خرجت من العالم السري لهذه الحياة مثل العضلات تظهر بسهولة تحت الجلد بمجرد شد الجسم. كانت روحا متكاملة برذائلها وفضائلها، تجمع بين خصائص من كل الأشياء الحقيقية والثابتة لتشارك في إظهار حقيقة عميقة وبسيطة في كل لحظة. أما هو فلم يكن كذلك؛ شاشة بيضاء مسطحة، كانت الأتراح والأفراح تمر مثل الظلال التي لا تترك أثرا، على لا مبالاته، وما هي إلا انعكاس، وكما لو كان خواؤه هذا يصل أيضا إلى العالم الخارجي، كان كل شيء حوله بلا وزن، بلا قيمة، خاو مثل لعبة الظلال والأضواء: هذه الأشباح التي كان من المفروض أن تجسد أفراد أسرته بشكل تقليدي، أخته وأمه، أو المرأة التي يحبها، ليزا، وبسبب الازدواج الذي كان يمكن أن يستمر إلى ما لا نهاية، كان ينتج عنها أشخاص آخرون، حسب الظروف وتبعا لخياله. وهكذا كان يمكن أن يرى في كارلا فتاة غير شريفة، ويرى في أمه امرأة غبية مثيرة للضحك، وفي ليزا امرأة سيئة السمعة؛ ناهيك عن ليو الذي يتغير تماما من ساعة إلى أخرى، من خلال أحاديث الآخرين وانطباعاتة الموضوعية جدا، لدرجة أنه إذا كان شعوره نحوه في البداية هو الكراهية، فإنه بعد فترة وجيزة كان يشعر نحوه بالحب.

ربما كانت تكفي بادرة صدق، بادرة إيمان، لإيقاف هذا الزخم وإعادة هذه القيم إلى وضعها الطبيعي؛ ونتيجة لذلك كانت زيارته لليزا تكتسب في نظره أهمية قصوى؛ فلو استطاع أن يحبها، كان كل شيء سيصبح ممكنا: أن يكره ليو وكل شيء آخر.

رفع عينيه إلى أعلى، ولاحظ أنه تجاوز الشارع الذي تسكن فيه المرأة: فعاد إلى الوراء. الآن أصبحت نفسه الشريرة تؤرقه وتسأله: "وإذا استطعت بالفعل أن تضع الأمور في نصابها، هل تعتقد أنك ستكون في موقف أفضل؟ هل تعتقد فعلا أن تحولك إلى أخ حقيقي، أو ابن حقيقي، أو عاشق حقيقي، أو أي رجل حقيقي، أناني ومنطقي مثل كثير آخرين، يمثل تقدما أمام ظروفك الحالية؟ هل تعتقد ذلك فعلا؟ هل أنت متأكد من ذلك؟" وكلها أسئلة بلا إجابة. وتستطرد روح الشك سائلة: "ألا تعتقد أن الطريق المليء بالشكوك والشرور الذي تسير فيه الآن يمكن أن يحملك بعيدا جدا؟ آلا تعتقد أنه من النذالة أن تصبح مثل الآخرين؟" ثم فكر في إحساس يجمع بين السخرية واليأس: "إلى ماذا يمكن إذن... إلى ماذا يمكن أن يفضي بك الصدق؟". كان ينظر أمامه، بعيون جامدة، وقد خانته صورته المعكوسة في زجاج المحل؛ وفجأة بدا له أنه يفهم إلى ماذا يمكن تفضي به: وسط الفترينة، وكانت فترينة محل عطور، بين البريق اللامع لقارورات الكولونيا الرخيصة، على قمة كومة من الصابون الوردي والأخضر، دمية إعلانات تجذب انتباه المارة؛ كان شخصا مرسوما بالألوان الحية ومقصوصا من الكرتون ومرسوما حسب نموذج إنساني أكثر منه خيالي، كان له وجه جامد، غبي وواقعي وعينان كبيرتان عسليتان مليئتان بالإيمان الناصع الذي لا يتزعزع؛ كان يرتدي جاكتا منزلياً أنيقا، لابد أنه قد استيقظ لتوه من النوم، ودون أن يمل أبدا، دون أن تغادره أبدا ابتسامته، وبحركة استعراضية كان يمرر ويمرر شفرة موسى على شريحة من الجلد؛ لقد كان يحدها. لا يمكن أن يكون هناك أية علاقة بين هذا الحدث العادي الذي يقوم به وبين الارتياح الذي يظهر على وجهه الوردي، ولكن هذه اللامعقولية بالتحديد هي التي تعكس قوة الإعلان؛ هذه السعادة المبالغ فيها لم تكن تريد أن تبرز غباء الرجل، بالرغم من حدة الموسى؛ لم تكن تريد إظهار ميزة امتلاك ذكاء متواضع

وإنما ميزة الحلاقة بشفرة جيدة؛ ولكنها كان لها تأثير آخر على ميكيلي الذي كان غارقا في أفكاره.

لقد بدا له أنه يرى نفسه وصدقه؛ لقد بدا له أنه يتلقى من هذه الدمية المبتسمة الإجابة على سؤاله: "ماذا يفيد المرء أن يكون مؤمنا؟" كانت إجابة تبعث على الخوف: فكانت الدمية تعني "يفيد في أن يكون لديك شفرة، وسعادة مثل سعادتي، مثل سعادة الآخرين، من مصدر متواضع، غبي ولكنها بالغة... ثم إن المهم أنها تحلق". كانت هذه هي نفس الإجابة التي كان سيرد بها عليه شخص من الأشخاص العديدين المحترمين: "افعل مثلي... وسوف تصبح مثلي". واضعا شخصه الغبي، العبيط، السوقي، كمثال، كهدف يراد الوصول إليه على قمة تلال أفكاره ودناءاته. "هذا هو ما يفيده" هكذا كانت تسر إليه نفسه الشريرة "يفيد في أن يصبح المرء دمية غبية ووردية مثل هذه الدمية". كان ينظر مندهشا إلى اللعبة التي كانت تتحرك باستمرار بهزات أوتوماتيكية، واحد، اثنان، ثلاثة، وهي تحد الشفرة، وكان يريد أن يضربها في وجهها ويحطم تلك الابتسامة المشعة.

"يجب أن تبكي" هكذا كان يفكر "تبكي بالدموع". ولكن الدمية كانت تبتسم وتحد الشفرة.

انفصل بصعوبة عن هذا المشهد المثير (وبالفعل كان هناك شيء مجنون يذهب بالألباب في هذه الحركة المستمرة)، وتوجه إلى الشارع التي تسكن فيه ليزا؛ كانت هناك عبارات غبية ومجنونة تقفز في رأسه، وهو يقول: "هاهي ليزا، وهاهي لعبتك المسكينة ذات الموسى".

الفصل الرابع عشر

كانت الطرقة المظلمة مشبعة برائحة المطبخ، تلك الرائحة التي يبدو كأنه قد شمها في مرات سابقة، في بيوت أخرى مماثلة؛ ليزا نفسها، كان واضحا أنها فرغت من تناول الطعام لتوها، والسيجارة بين شفتيها وكان يبدو عليها الاضطراب والاندهاش، ربما كان ذلك ناتجا عن كثرة النبيذ الذي احتسته، فتحت ليزاله الباب قائلة: "من هنا.. من هنا" دون أن ترد على تحيته، وقادته إلى الصالون الصغير الداخلي، وأثناء سيرها كانت تغلق أبوابا مفتوحة تكشف إما عن حجرة نوم بملاءات غير مرتبة وجو مكتوم، وإما عن مطبخ مليء بالأواني، وإما عن الصالون المعروف، وقد غطاه التراب وأصبح لونه داكنا. قالت وهي تدخل الصالون الداخلي: "الجلوس هنا سيكون أفضل". كانت هذه الحجرة ضوؤها أبيض يغشى البصر يأتي من النافذتين اللتين تغطيهما ستائر رقيقة؛ لابد أن السحب قد انقشعت إلى حد ما في تلك اللحظة؛ فقد كان هناك انعكاس من الضوء الأبيض الذي يغشي العين خلف زجاج النوافذ.

جلسا سويا على الأريكة وسألته ليزا وهي تمد له علبة السجائر المليئة: "حسنا، كيف حالك؟". فأخذ منها واحدة دون أن يرفع عينيه، وهو مازال يحتفظ بوجهه العابس وحدث نفسه يقول: "ربما من الأفضل البدء فورا" واسترق النظر إلى المرأة. كانت ليزا ترتدي قميصا ابيض قديم يميل إلى الصفرة وجونلة رمادية قماشها مهترئ وقد تكرمشت من كثرة ارتدائها؛ وتتدلى من رقبتها رابطة عنق زاهية، ليست جديدة تماما ومعقودة بشكل سيئ، وكان يزين معصميها أزرار من الصدف مرسوم عليها صورة كلب... ولكن في تناقض مع هذا المظهر الرجالي، كان صدرها الكبير يكاد يشق القميص وكان لحمها الوردي الأبيض يتفجر من شفافية القماش من بين الحمالتين البيضاوتين غير الراقيتين للقميص الداخلي.

ورد أخيرا: "الأحوال سيئة".

صاحت ليزا"سيئة؟". وكان التوتر الذي لا يدري سببه أهو من أثر النبيذ الذي شربته أم لأسباب أخرى يؤدي إلى تسريع ضربات قلبها، ويسبب لها اضطراب في التنفس وبين الفينة والأخرى كان يدفع الدم بقوة إلى وجهها المتوتر والمضطرب: "لماذا؟". قالت وهي تنظر إلى ميكيلي وترجو أن يتذكر حركة تقبيل يدها بالأمس في ظلمة الصالون، واجاب: "لا أدري".، ثم وضع السيجارة وحملق في ليزا لبرهة ثما استطرد قائلا: "لقد فكرت في اشياء عديدة.. فهل أذكرها لك؟". ورأى المرأة تأتي بحركة قوية تنم عن الإيجاب "تكلم!" وتتجه بوجهها وجسدها كمن يريد الاصغاء باهتمام، وربما أيضا، بشعور من الحب: "يا ترى ماذا تظن أنني سأقول لها"، هكذا فكر بسخرية، "ربما أنني أحبها.. هيه! فعلا، إنها لا تنتظر سوى ذلك...". أخذ السيجارة مرة أخرى وبدأ يقول: "يجب أن أقول لك أنني أجد نفسي في موقف غريب ازاءكم جميعا".

"ازاء من؟"

"أنتم جميعا...: أنت، وليو، وأمي، وأختي...".

فحملقت فيه بنظرات نافذة سألته وهي تمسك بإحدي يديه فى حركة عفوية.: "ازائى أنا أيضا؟" ثم نظر كل منهما إلى الآخر، وبعد ذلك رد عليها قائلا: "وازاءك أنت أيضا" وضغط فى حركة آلية على أصابع المرأة. ثم استطرد قائلا: "تجاه كل فرد منكم، ربما علي أن أشعر بشعور معين، وأقول ربما لأني شيئا فشيئا أدركت أن الظروف دائما كانت تفرض شعورا واحدا... مثل الذهاب إلى جنازة أو الذهاب إلى عرس: في كلتا الحالتين فإن الشعور بالفرح أو الألم هو شعور إجباري مثل ملابس الحفل...: فلا يمكن للمرء أن يضحك وهو يسير خلف نعش أو أن يبكي في اللحظة التي يتبادل فيها العروسان الدبل... سيكون ذلك شيء مخزي، بل أسوأ، غير إنساني...".

"وبعد ذلك؟" سالته ليزا بشغف، عندما رأته مترددا وصوته يتقطع.

فرد عليها قائلا: "وبعد ذلك، كفى". كان يشعر بالملل والحزن وفكر وهو ينظر في وجه ليزا: "إذا كنت تنتظرين أن أتحدث عنك!". وأضاف وصوته يرتعد كمن يريد أن يتحاشى اعتراضا يحمل لون العتاب، قائلا:

"فقط أنا لا أستطيع التظاهر... لذلك، أتفهمين، بسبب الأحاسيس والأفعال والكلام المزيف أصبحت حياتي كلها تشبه المسرحية... أنا لا أستطيع التظاهر... أتفهمين؟ ثم صمت للحظة، وكانت ليزا تتأمله وقد بدت عليها الصدمة. ثم أضاف وهو مضطرب، بلا شجاعة، وقد شعر بصوته فجأة يدوي غير مسموع في صمت الغرفة قائلا: "وبعد ذلك، كل هذا لا يهمك ولا يمكنك أن تفهمينه... يمكنني أن أحدثك يوما بكامله وربما لا تفهمينني..."

وأطرق برأسه؛ وعندئذ شعر أخيرا بصدى صوت المرأة الذي يبدو موحيا وودودا في غلاف من الزيف وهي تقول:

"سوف أفهمك، يا عزيزي ميكيلي، يا مسكين.. أنا متأكدة أنني سوف أفهمك". وبدا له أنه يسمع تلك النبرة التي كانت ستصبح نبرة صوته هو لو أنه أراد أن يعبر عن حبه لليزا وفكر في سخرية مريرة: "انظر، انظر، كلانا في نفس الظروف". شعر بيد تمسح على شعره، فراوده شعور بالشفقة يشوبها شئ من التقزز تجاه نفسه وتجاه المرأة وقال في نفسه: "يا لك من مسكينة، اتريدين أن تعلمينني أنا كيف تتم المسرحية؟". ولكنه رفع عينيه، والتقت عيناه بنظرات ووجه شديد الرقة لدرجة أفزعته: "هل حان الوقت إذن؟" خطر بباله هذا السؤال وهو في حالة اضطراب، مثل المريض وقد تخيل مراحل استعدادات طويلة، ولكن بمجرد أن رقد على سرير المستشفى، ها هو يرى فورا مشرط الجراح يلمع أما عينيه. كان ينظر إلى وجه المرأة: شفاه منفرجة، متوسلة، وعيون مضطربة ووجنات حمراء، وكان يدرك وهو يتراجع شيئا فشيئا أمام هذا التوسل، أن الحياة مرة أخرى تفرض على لامبالاته تصرفا مزيفا؛ ثم شعر باصابع ليزا تضغط برفق على أصابعه وكأنها تدعوه إلى اتخاذ قراره، فانحنى وقبلها في فمها.

عناق طويل؛ ثم سحب عابرة جعلت الظلام يحل محل الضياء الذي كان منذ دقيقة واحدة يغمر الصالون الداخلي، وفقدت الجدران ألوانها واصبحت باردة.. وعلى الأريكة، بين النافذتين، هاهما الاثنان وقد التصق فم كل منهما بالآخر، واستدارا بجذعيهما قليلا بالقدر الذي يسمح لهما بالقبلة، وهما ساكنان جامدان. لولا هذه الشفاه النهمة التائهة، فإن

سلوكهم السوي كان سيقودهم إلى التفكير في محادثة بدلا من العناق: كان ميكيلي يحتفظ بزراعيه ممتدتان إلى جنبه وكانت نظراته تقع بخمول على الحائط المقابل؛ وكانت ليزا وقد أمسكت يداها بيدي الرجل، تهز رأسها من آن لآخر كشخص يتناول الشراب فيتوقف من حين لآخر ثم يتجدد نهمه فيعاود من جديد؛ وفي النهاية انفصلا وأخذ كل منهما ينظر إلى الآخر.

"والآن" فكر ميكيلي وهو يحدق تائها في وجه المرأة الذي يظهر عليه الاضطراب والإثارة والقلق؛ "والآن؟". رأى التعبير عن العرفان يظهر في احمرار خدي ليزا المشتعلين، وفي شفتيها المضمومتين في تأمل ورجاء، كصلاة دينية لا ينقصها سوى حركة السعف المنفرج كإشارة إلى الرحمة تملأ عينيها؛ ثم مدت يدها ومررتها بين شعره وهي تهمهم بكلمة "عزيزي.." في صوت مرتعد مزيف.

وخفض عينيه؛ كانت ليزا جالسة في توازن صعب على ساقيها، ودون أن تظهر شيئا وهي مستمرة في المسح على رأسه، كانت تقترب منه وهي تزحف بصعوبة على الأريكة: ونتيجة لهذه الحركة كانت الجونلة المشدودة تكشف رويدا رويدا عن فخذ سمين عبر الجورب المرتخي الملفوف. وهنا أصاب ميكيلي إحساس بالضجر والغضب الشديدين، لا يدري ان كان مصدرهما إحساسه بعدم الاحترام لأنه انقاد لهذا العناق، أو للتناقض القائم على النفاق بين هذه المداعبات والكلام الرقيق وبين هذا العري الفاضح، الذي كشفت عنه هذه الحركة الخانعة. وفكر متقززا "من تظن أن أكون؟": وتلاشى ذلك القدر البسيط من الرغبة الشهوانية التى ولدها داخله هذا العناق؛ فتراجع للخلف وبينما هو يحملق في ليزا وبحركة غير معتادة هب واقفا على قدميه وقال وهو يهز رأسه.

"لا...لا، هذا لا يصح...".

نظرت إليه ليزا في دهشة، واستهجان دون أن تغطي ساقها العارية أو تهدأ إثارتها. وسالته: "أي شيء لا يصح؟؛ وكان برود ميكيلي يزيدها احمرارا واضطرابا: "يا لك من فتى غبي" هكذا كانت تفكر في حنق "كنا قد بدأنا بشكل طيب.. والآن ها هو.. ها هو ينهض". ورأته يهز رأسه

مرة أخرى قائلا: "لا يصح". حينئذ اقتربت وبحركة مضطربة أمسكت بيده قائلة: "تعال..." وهي تحاول أن تجذبه إلى جانبها، "تعال هنا... اجلس هنا... قل لي ما الذي لا يصح".

تردد قليلا، ثم جلس وقال فيصوت يشوبه الملل وهو ينظر باهتمام إلى شيء خلف رأس ليزا ويتظاهر بتجاهل المداعبة العصبية من يد المرأة وعيناها قد بدا عليهما التأثر؛: "لقد قلت لك ما الذي لا يصح... لقد قلت لك أنني أجد نفسي أمامك مثلما أجدني أمام الآخرين..."

"وماذا يعني هذا؟".

"نعم... مثلما لا أستطيع أن أكره ليو...".

"الآن، حتى بعد كل ما قلته لك؟...".

نظر ميكيلي إلى المرأة بشيء من الخجل وقال: "لابد أن أقول لك أن ما قلتيه عن أمي، تظاهرت بأنني لا أعرفه... ولكنني كنت أعلمه من قبل..."

"كنت تعلمه من قبل؟".

"منذ عشر سنوات على الأقل". وانحنى لكى يلتقط قاطعة الورق التى كانت قد سقطت من فوق المنضدة، وفجأة شعر بحاجة هستيرية إلى الحقيقة: "وهكذا، كما أنني لا أستطيع أن أكره ليو، الذي يمكن أن أروي لك بالتفصيل قصة علاقاته مع أمي... فإنني لا أستطيع أيضا أن أحبك: لنفس السبب... اللامبالاة، أيضا اللامبالاة.. إذن" واستطرد في غضب قائلا: "بدلا من أن أتظاهر بأنني أشتاق لحضنك، أموت رغبة فيك، وأن أصرح لكي بمشاعري... وبما أنني لست قادرا على ذلك... فإنني أفضل ألا أفعل شيئا من ذلك...". ثم صمت ونظر إلى ليزا: فرآها حائرة ومحبطة لدرجة أشعرته بالشفقة تجاهها:

"حاولي أن تفهميني" أضاف قائلا في أسى، "كيف يمكنني أن أفعل شيئا لا أحسه...؟".

"حاول...".

هز رأسه قائلا: "لا فائدة... سيكون الأمر مثلما أذهب إلى ليو وأقول له: (اسمع يا عزيزي، أنا لا أكرهك، بل إنني أستلطفك جدا، أنت صديق حميم لي، إنني آسف جدا ولكن ليس أمامي خيار آخر، لابد أن أصفعك صفعة): وعلى الفور ضرب طاخ...".

"لكن الحب يأتي بعد ذلك..." قالت ليزا في إصرار بصوت خفيض، وبعدم حياء وهو ما بدا لميكيلي غير معقول؛ "بعدما يتم التعارف جيدا..".

"إننا نعرف بعضنا أكثر من اللازم".

وهنا أمتقع لون ليزا، فلم يصدها أحد من قبل بهذه القسوة؛ وتملكها الخوف من أن "مراهقها" على وشك أن يهرب منها للأبد، وللحظة راودتها فكرة أن ترتمى عند قدميه وأن تتوسل إليه مثل إله، ولكنها عادت تقول: "إنك لست جادا في حديثك".

"بل أكثر من جاد".

واقتربت منه، وأخذت بيده، وقلبها يخفق، وقلق غير معتاد يزيد من احمرار وجنتيها وقالت في إصرار بصوت متردد وهي تمسح على يده؛: "لا تكن شريرا" "لنرى... ألا تشعر بشيء.... ألا تشعر بشيء على الإطلاق تجاه حبيبتك ليزا؟... قل لي، أليس صحيحا أنك ستقدم لي هذا المعروف؟" قالت ذلك وهي تطبع قبلة حول عنق الفتى؛ "ميكيلي، أليس صحيحا أنك تشعر ببعض الحب تجاهي؟".واضطرم وجه المرأة من شدة الاحمرار ، والإثارة الملتهبة؛ كان صوتها رقيقا حنونا... وقد اتجهت بكل جسمها نحو ميكيلي وكانت ركبتيها تلامسان ساق الفتى؛ فهز هذا الأخير رأسه قال مكررا: "أفهميني" ؛ وكانت تتملكه ثورة عارمة ضد هذه الشهوة الغاشمة: "ماذا سيكون مصير حبك هذا، لو أنا تصرفت معك دون اهتمام بمشاعري كما هو الحال مع النساء الساقطات، إذاأخذتك... وطرحتك فوق الأريكة دون أية مقدمات؟... افهميني..."

قالت وهى تضحك ضحكة غبية مزيفة "ولكننا لم نصل بعد إلى حد... طرحي على الأريكة..." ثم ترددت قليلا، وبعدها فى حركة رخوة لا تقاوم ألقت بذراعيها حول عنقه، تاركة نفسها في الوقت ذاته تقع للخلف فوق الأريكة. نجحت حركتها الأولى هذه؛ ولم يقاوم ميكيلي الذي

أخذ على حين غرة وأنكفأ إلى الأمام؛ ولكنه عند رؤية وجه ليزا الذي علاه الاحمرار وتملكته الشهوة، وحاجبيها المعقودين في إشارة آمرة فوق عينين زائغتين، وهذا العنق الممدود، وعندما شعر بثقل كل هذا الجسم على عنقه، تملكه إحساس بالغضب والضجر الشديد؛ ورفع رأسه، ووضع كفه على ذلك الوجه المتسلط والمتوسل وبدفعة واحدة تخلص من العناق وهب واقفا.

قال حانقا، وهو يهندم رابطة عنقه بشكل آلي "إذا كان لديك بالفعل رغبة جامحة...عودي إذن... عودي إلى ليو...".

تظاهرت ليزا، وهي منكفئة على الاريكة ووجهها بين كفيها، بالشعور بالألم والخزي وهو ما لم تكن تشعر بهما في الواقع؛ ولكن ما أن سمعت اسم عشيقها القديم حتى وجدها تنهض وعينيها لامعتين وبإشارة اتهام من يدها قائلة:

"ليو؟...هل قلت ليو؟... أنني أعود إلى ليو؟" وصاحت دون أن تعبأ بشعرها غير المرتب وملابسها المبعثرة. "وإذا لم أكن مخطئة، أنت قلت أيضا أنك لا تستطيع أن تكره ليو، أليس كذلك؟ على الرغم من كل ما تعرفه؟"

قال وهو ينظر إليها متلعثما ومضطربا بسبب ثورتها المفاجئة: "نعم ... نعم... وما العلاقة؟"

قالت وهى تبتسم أبتسامة قصيرة وعصبية: "أنا أعلم... أنا أعلم...". ثم صمتت للحظة وهي تبتلع لعابها ونفاد صبرها: "أتعلم ماذا أقول لك؟"وعادت تهب وحملقت فيه بعينيها اللامعتين: "إن هناك سبب واحد وجيه يجعلك تكره ليو ويجعلني لا أعود إليه..."

قال ميكيلي مترددا بعدما ازعجته هذه اليد التي تحمل الاتهام: "أمي" ؛ ولكنه رأى ليزا تنفجر في ضحكة حافلة بالاحتقار:

"أمك... إنها بالفعل أمك، وليس غيرها!..." قالت بين ثنايا ضحكتها المريرة. "ولكن يا عزيزي ميكيلي يا مسكين، أمك منذ فترة أصبحت خارج المنافسة... منذ فترة طويلة..."

نظر إليها؛ وبدا له حينئذ أنه يرى تلك الصورة الانتقامية من موقع عال جدا، علو ناتج عن الشفقة التي يشعر بها أكثر من كونها ناتجة عن نقائه الشخصي، وفي بؤس أدنى وأعمى من بؤسة؛ كان يود لو انحنى ليصفف ذلك الشعر غير المرتب وأن يخرس إشارة الاتهام هذه؛ ولكن لم يسعفه الوقت:

"لا..." استمرت هي في حديثها وهي مازالت تحملق فيه بعينيها التي كانتا تبدوان وكأنهما تريان فيما وراء الصالون، فيما وراء المنزل، صور ذاكرته؛ "لا يا عزيزي، شخص آخر غير أمك... خمّن... خمّن". وعلت وجهها ابتسامة صغيرة عصبية ورتبت شعرها وملابسها، واعتدلت أكثر في جلستها.

وسارع قائلا:. "أنتِ"

"أنا؟".

وأتت بإشارة كمن وقعت عليه صاعقة. "أنا... ولكن يا عزيزي ميكيلي يا مسكين، قلت لك من قبل أنه ليس هناك سببا وجيها يجعلني أعود إلى ليو... وهذا السبب هل تعرف ما هو؟". كان هناك اسم على شفتيها كانت على وشك أن تنطق به ولكنها أمسكت عنه. ثم قالت وهي تهز رأسها: "لا، لا... من الأفضل ألا أقول شيئا". وبعد أن انتهى انفعالها الصادق، عادت ليزا إلى زيفها المعتاد الذي من خلاله، وكأنها في لعبة دقيقة رابحة، كانت تجد سلواها في بؤسه هو. "لا أريد أن تحدث أشياء خطيرة بسببي أنا...". ثم أشعلت سيجارة، واطرقت برأسها إلى أسفل محملقة في السجادة كمن عزم على أن يزيد فى الكلام.

وهنا عاجلها ميكيلي بالرد قائلا: "اسمعي يا ليزا، قولي لى ما تردين قوله... لأنه من الواضح أنك فى غاية الشوق لذكره... هيا انتهي...".

اقترب منها، وامسك يدهه شعرها وقلب رأسها للخلف... وحينئذ بدا له وهو ينظر في هاتين العينين أنه يكتشف في نظرتها القاسية الغبية خطأ متجمدا لا يمكن إزالته؛ وهنا شعر بنفس الشفقة المقززة التي شعر بها من قبل وقال لنفسه وهو يترك رأسها: "لو كنت أحببتها ... ربما ما كانت لتصبح هكذا..." ثم عاد وجلس: "يا لها من طريقة" كانت ليزا تكرر هذا

وهي مضطربة، وبصوت خفيض ومكابر وهي ترتب شعرها؛ "يا لها من طريقة". كان ميكيلي ينظر إليها وهو يفكر: "ليس الذنب ذنبهم، الذنب ذنبي أنا... إنهم في حاجة إلى مشاعري... وأنا ليس عندي مشاعر".

سألته قائلة: "أتريد فعلا أن تعرف كل شيء؟".

"نعم... وبسرعة..."

لحظة صمت ثم بدأت ليزا تقول في تردد: "أنك قلت أنك تريد أن تكره ليو ولكنك لا تستطيع؟".

فرد عليها قائلا "نعم" ثم أضاف متلعثما: "وقلت أيضا إنني أود لو أن أحبك ولكننى لا استطيع...".

وأتت باشارة جافة من يدها وقالت في برود: "لا تحفل بي"؛ وظلت لبرهة تفكر كمن يستجمع ذكرياته قبل أن يحكي: "القصة بسيطة" وبدأت تحكي أخيرا وقد أنزلت عينيها وأخذت تنظر إلى يديها. "بالأمس.. أتتذكر؟ جاء كل من ليو وأمك وأختك إلى المرقص... كان النور مقطوعا وكنا نبحث عن شموع... ثم جذبتني أمك إلى حجرتها لتريني فستانها الجديد الذي أحضرته من باريس...: إنه فستان جميل، ولكنه به عيب صغير عند الخصر... وفجأة، ولا أدري ما السبب، فكرت في الخروج... فتحت الباب، وتقدمت خطوة للأمام... خمّن من رأيت في الطرقة؟".

نظر إليها ميكيلي: فقد كانت قد سردت القصة كلها بصوت بارد معتدل دون أن تكف لحظة واحدة عن تأمل يديها؛ وكان هو يصغى إليها شاردا دون اهتمام، كما لو كانت قصة عادية؛ ولكنه تذكر فجأة أن كل هذه المقدمات لا تتعلق بأحد غير ليو؛ فكل هذا اللف والدوران كان يضيق حول ذلك الاسم؛ وتملكه قلق غريب عدائي وحاد بحيث كادت انفاسه تختنق

وقال بسرعة: "ليو...".

اجابت ليزا وهي تهز رماد سيجارتها فى هدوء واصرار "نعم، ليو...ليو وكارلا... وكانا متعانقين".

وتبادلا النظر. وقف ميكيلي بلا حراك وبلا دهشة، ولكن بذلك الذهول الصامت الذي يجعله يرى الأشياء مزدوجة وتتضاعف الرؤية أمامه مرتين أو ثلاثة مثل الزجاج المعيب؛ وبقيت ليزا يشوبها الفضول والخوف المقرون بالكبرياء المضحك، كمن يعلم أنه سدد ضربة قوية، أو قال كلاما فى الصميم.

وسألها ميكيلى أخيرا: "متعانقان كيف؟"

وردت المرأة بقسوة، وهي غاضبة من عدم الفهم هذا وكأنها حيوان جريح ولكنه غير مستسلم للموت: "متعانقان... متعانقان ... مثلما يفعل الجميع...: هي على ركبتيه، وفمها في فمه... يعني متعانقان".

وساد الصمت؛ كان ميكيلي ينظر بلا حركة إلى السجادة الوردية، وكانت مثل باقي الصالون متآكلة الأطراف؛ وعلى السجادة كانت تقبع قدما ليزا المضمومتان؛ وبعيدا عنها قليلا كانت توجد الأريكة: "متعانقان" كان يكرر ذلك بينه وبين نفسه، "متعانقان...: شيء عظيم"؛ كان يود لو صرخ قائلا: "هذا أمر مدهش" وهو سعيد ومندهش من أمر غير متوقع. لم يكن يشعر بالإهانة ولا حتى بالاشمئزاز؛ بل كان اهتمام شديد يدفعه للحصول على إيضاحات، لمعرفة المزيد.

هذه الحالة النفسية استمرت لثوان قليلة؛ وبعد ذلك بينما هو يستعد لإلقاء بعض الأسئلة، أدرك فجأة، وبنوع من الفزع، أنه مرة أخرى خال من المشاعر التي كان من المفترض أن يثيرها داخله هذا الأمر المحزن؛ ليو وكارلا متعانقان لا يثير فيه سوى الفضول المادي، لنسميه هكذا؛ هذا الانهيار الجديد لا يؤثر فيه، وها هي تفشل محاولتة المستميتة وغير المتوقعة في الصدق؛ هذان المتعانقان كانا يبدوان له مثلهما مثل أي اثنين آخرين معروفين أو مجهولين، ولم تهمه شخصيتهما فى أى شئ بشكل خاص. وقال لنفسه:"لنرى فالأمر يتعلق بكارلا، أختي... رأتها ليزا تعانق ذلك الرجل، عشيق أمي... أليس هذا أمرا فظيعا؟ أليس شيئا مقززا؟... أليس هذا نوعا من زنا المحارم؟". غير أن كارلا وليو وعناقهما وارتكابهما المحارم يظلان بعيدين عن إشاراته التي تنم عن التألم والامتعاض؛ إنه لا يستطيع أن يلمسهما.

نظر إلى المرأة، وفهم من عينيها، ومن كل تصرفاتها، أنها كانت تنتظر باستمتاع شديد وبفضول مشهدا عظيما من الغضب الأسري القائم على الفضيلة: "غضب... غيظ... كره" فكر بانفعال؛ "كل كنوز العالم في مقابل قليل من الكره الصادق". ولكن روحه بقيت خاملة، مثل الرصاص؛ لا غيظ ولا كره: كارلا باكية، عارية، ضائعة، وليو بنهمه الدموي، ذلك الخزي، ذلك الاشمئزاز، لا شيء يهزه.

حيئذ واتته فكرة يائسة؛ بما أن المحاولة الأخيرة فشلت ولم يفلح أي حافز أكثر عنفا في إثارة روحه الميتة، أليس من الأفضل أن يقرر مرة واحدة أن يتظاهر بكل شيء، الحب، الكراهية، الامتعاض، التظاهر بلا اعتدال، بكبرياء، بل بعظمة، كمن لديه من العظمة ما يفيض عن حاجته؟... فكرة مجنونة وقال لنفسه: "إنها النهاية"، وبدا له في الحقيقة أنه يتراجع للأبد عن هذا الارتياح بعيد المنال في المنابع الطبيعية الصافية والدائمة للحياة؛ "النهاية... ولكن شيء ما لابد أن يحدث... شيء ما سوف يحدث".

نهض واقفا وقال: "لا" وبدأ يسير ذهابا ومجيئا في الصالون، مثلما يصح لرجل مستاء ومهموما؛ "هذا كثير... لا، مستحيل الاستمرار. بهذا الشكل... لقد طفح الكيل...". كان يشعر بأنه بارد ومحل سخرية؛ وبدا له أن صوته ليس قاطعا؛ فقرر أن يغيره وساد الصمت ثم قال ميكيلى بينما ليزا تنظر إليه وهي منحنية وجامدة في مكانها لا تتكلم،: "ليو يعتقد أن كلِ شيء مسموح له...ولكنه مخطئ...". ثم قال لنفسه"لا، هذا ضعيف جداً" ولم يتوقف عن الذهاب والمجيء؛ "يجب أن أقول شيئا أقوى من ذلك... إنني الأخ المطعون في شرفه من جانب عشيق أمه الذي اعتدى على شرف أخته (كل هذا الكلام عن الشرف والاسرة كان يثير داخله تأثيرا مضحكا، كما لو كان شيئا عفا عليه الزمن): لابد أن أجد شيئا أكثر قوة... وربما أيضا مبالغا فيه إذا لزم الأمر...". ولكنه في خضم هذا الزيف المثير للسخرية، كان يزداد إرهاقه الحزين: كان يود لو ترك هذه المسرحية وركع أمام ليزا مثلما يركع المرء أمام المرأة التي يحبها، وأن يقول الحقيقة كلها: "ليزا، أنا لست صادقا: أنا لا يهمني من أمر أختي شيء، لا يهمنى أمر أي شخص... ليزا، ماذا عليّ أن أفعل؟". ولكن ليزا

ليست هي المرأة التي يحبها ولم تكن لتفهم ذلك؛ إنها مثلها مثل الآخرين كانت تريد منه سلوكا ضروريا وطبيعيا.

وسألته المرأة: "ماذا أنت فاعل؟...".

توقف ونظر إليها وهو يحاول بصعوبة أن يتغلب على نظرة عينيه الهادئتين وأن يبدو اكثر انفعالا: "ماذا سأفعل؟ ماذا سأفعل؟... ماذا سأفعل؟" كرر السؤال بسرعة؛ "إن الأمر واضح... ما يجب على أن أفعله...: أن أذهب إلى هذا الملعون وأقبض على رقبته". وبدا له أن ليزا قد اندهشت من عنفه هذا:

"متى؟" سألته وهي تحملق فيه بحدة بين سحابة الدخان التي تخرج من بين شفتيها.

"متى؟... غدا... بل اليوم... حالا". تناول سيجارة من على الطاولة، وأشعلها؛و رأى ليزا تنظر إليه من أعلا رأسه إلى اخمص قدميه، بنظرة سريعة متشككة ثم سألته:

"وماذا ستقول له؟".

رد عليها بإشارة من يده :"آه! سأتحدث معه ببرود، ببرود شديد". كان ينظر أمامه بعينين عابستين، كمن يرى مصيره، الآن يستطيع تمثيل دوره بشكل أفضل. "كلمات قليلة... وسيُفهم أن الأمر لا يحتمل المزاح...". نظرة أخرى من ليز ثم قال لنفسه: "كم أنا غبي" .

ثم أضاف قائلا في رغبة منه في أن يصبح أكثر انفعالا وأن يقنع نفسه والمرأة: "ولكن ما يشعرني أكثر بالامتعاض ... إنه الزيف الذي يتسم به ليو... خسته... فلو أنه كان بالفعل أحب أختي... فإن ذلك لن يعفيه من الذنب ولكنه سيفسر الأمر بعض الشيء... ولكن لا... أنا متأكد أنه لا يحبها، إن ذلك من طبعه، إنها أعجبته، وجدها جميلة، ويريد أن يستمتع معها... هذا كل ما في الأمر... الآن، بصرف النظر أنه من الخسة استغلال عدم خبرة فتاة صغيرة، فإنه أكثر خسة ثلاثة أضعاف ذلك الرجل الذي يفعل ذلك بعقل بارد وفي الظروف التي يتواجد فيها أمام كارلا وأمامنا جميعا!... لا يمكن أن يكون أكثر...: "بحث عن الكلمة

الأكثر تعبيرا لكي يصف سلوك ليو: "أكثر قذارة... ثم إنني قلت ذلك: قد يكون مفهوما لو أنه فعل ذلك مدفوعا من مشاعره... مدفوعا من أحاسيسه... ولكن الواقع أنه لا يوجد حب، هنا، لا توجد أحاسيس، لا توجد عاطفة... ليس هناك شيء آخر غير الشهوة والزيف المقيت، المقزز، ذلك الرياء الذي يحاكي المشاعر الصافية والمثالية... فلا يمكن عذره ولا فهمه... فقط إدانته". أطلق ميكيلي الكلمات الأخيرة بقوة غريبة وعميقة أدهشته هو نفسه فقد كان في البداية يقولها في تردد ثم بعد ذلك بثقة أكثر.و أضاف بعد برهة: "أما فيما يتعلق بكارلا... فهي لا ذنب لها... إنها تركت ذلك الرجل يغرر بها...".

ساد الصمت؛ وكانت ليزا جالسة على الأريكة، بلا حراك، ورأسها بين يديها تحملق في الفتي وقالت في النهاية بنبرة تؤكد كلامه: "بلا شك... أن الرياء هو عيب خطير وقميء".

"بل قميء جدا". ثم نهض وذهب نحو النافذة؛ كانت الشمس قد اختفت، وكانت هناك مجموعة من السحب الكثيفة المنخفضة الرمادية عالقة فوق المدينة. تسكن ليزا في الدور الأول، ولكن المنزل كان قائما على ما يشبه التل، وكان منظر أسطح المنازل يمتد أمام النافذة؛ مداخن، أراميد، تراسات، غرف السطح، شرفات، كل هذا المنظر تحت السماء الرمادية كان له لون رطب كئيب يتفاوت بين الأصفر والبرتقالي، الذي كان يظهره زجاج النافذة المعيب مع بعض البقع والتشوهات كمشهد باهت وغير منتظم؛ وهناك بعيدا كان الدخان الذي يصعد من كل منزل يختلط بالسحب ويشكل نوعا من الضباب الذي كانت تفقد فيه تلك الحدود غير المنتظمة للاسقف وغابة المداخن معالمها، فتتقارب وتتداخل.

كانت تنمو تحت النافذة خيصلات من العشب على تلك القراميد بلونها الذي يميل إلى الحمرة. كان ميكيلي يتأمل هذا المنظر؛ وكانت هذه هي المرة الأولى التي يتنبه إليه ولم يكن يستطيع الانفصال عنه؛ كل هذه الأسقف كانت تترك لديه انطباعا عميقا وقال لنفسه: "آه لو تم نزع الغطاء عنها ... لنرى ما يحدث داخل هذه البيوت...". فى تلك اللحظة مر بسرعة قط أسود من حجرة سطح إلى أخرى؛ تابعه بعينيه للحظة وقال وهو ينظر إلى السماء الرمادية وإلى الفضاء البعيد المشبع بالرطوبة:

"سوف ينهمر المطر" ثم ارتعد واستدارو ظهر أمامه الصالون بلونه الشاحب، وهناك، فوق أريكتها البالية، كانت ليزا مهمومة وساكنة؛ اقترب منها وقال لنفسه وهو يستند بصعوبة على واقعه المزيف: "لابد أن اتظاهر... أريد... أريد أن أنام.... ولكن لابد من التظاهر". لم تكن هناك أية علاقة بين "التظاهر" و"النوم"، ولكن هذه الكلمة الأخيرة كانت قد جاءته بشكل عفوي كتعبير عن هذا التعب القاتل الذي يشعر به.

وسألها في حدة "كم الساعة الآن؟... هل الوقت مناسب لكي أذهب إلى ليو؟".

تحركت قليلا ليزا في خمول وببطء ونظرت في الساعة التي كانت في معصمها:

قالت وهي تتفحص الفتى فى اهتمام "الرابعة" ؛ ساد الصمت؛ ثم أضافت قائلة: "ربما يكون من الأفضل أن تتصل به لتعلم ما إذا كان بالبيت".ونهض ميكيلى واتجه نحو الباب.

كان الظلام حالكا في الممر؛ فضغطت ليزا على المفتاح فظهر ضوء أصفر خافت يهبط على الحوائط الداكنة؛ كان التليفون معلقا بجوار باب الصالون، على ارتفاع قامة المرء؛ وتحت التليفون كان هناك الدليل؛ تصفحته ليزا بسرعة، وأدارت ذراع التليفون عدة مرات:

سألت ليزا في ريبة متوجهة إلى ميكيلي."ولكن هل ستذهب؟"

"أمازال لديك شك؟" رد هو بحرارة؛ ومع ذلك بدت له عينا المرأة وقد امتلأتا بالشك الخبيث الشرير.

"لا... إطلاقا" قالت ثم استدارت لتدير الذراع من جديد.

كان جرس التليفون يدق؛ وكانت ليزا تصرخ وهي واقفة على أصابع قدميها بصوت غليظ "آلووو... ألووو....". وكانت تنتظر صامتة صاغية بانتباه للحظة، ثم تعيد الكرّة. وكان هو يتأمل الممر؛ دولابان، رف خال، كراسي.... كانت ليزا تدير ظهرها له، وكانت بلوزتها التي يغطيها الضوء الأصفر تظهر أكثر مما كانت في الصالون من امتلاء جسدها ذي اللون الوردي والأبيض في ظهرها الذي تضغط عليه الحمالاتان الداكنتان

لقميصها الداخلي؛ وكان جنباها وقد اخفاهما الظل يبدوان أقل عرضا وساقاها أقل اعوجاجا...: كل ذلك لاحظة بعيون منذهلة...واخذ يردد "ها أنا في بيت ليزا... في الممر...يجب التظاهر... دون راحة ولو لدقيقة واحدة... التظاهر". ودون أن يدري ماذا تفعل المرأة اقترب منها وأمسك بخصرها و سألها بصوت رقيق مزيف، وهو يقترب بشفتيه من رقبتها: "وماذا بعد... ماذا بعد، أمازلت غاضبة مني؟". كان شخص ما يتحدث في التليفون؛ ضربت ليزا الرقم والتفتت: "لا تفكر فيّ أنا" قالت بنفس نظرتها الفاحصة السابقة "بل فكر في أختك وفي ليو...".

قال فى تردد "لقد فكرت بالفعل" ولكنه تركها واستند على الحائط.وفكر بواقعية: "التظاهر...ى ولكن إلى متى؟". هذه النظرة الثانية تكفيه؛ من الواضح أن ليزا تشك في صدق شعوره بالامتعاض؛ ماذا يفعل لإقناعها؟

الآن هي تتكلم: "مع من؟" هكذا كان يقول لنفسه مكررا "من؟... السيد... السيد ميروميرشي؟... آه! عفوا، لقد أخطأت". وضعت السماعة والتفتت إليه وقالت فى جفاء: "إنه بالمنزل، من المحتمل أنك لو ذهبت الآن ستجده". نظر كل منهما للآخر وقال ميكيلي لنفسه وهو يتفحصها بريبة : "إنها لا تصدقني".

أضافت ليزا قائلة "إذن اذهب إليه".

أتى الفتي بإشارة من يده، إشارة صبيانية حذرة يمكن أن يكون معناها "مهلا... لا داعي للعجلة" ثم نهض وقال مكررا: "سأذهب... نعم سأذهب".

قالت المرأة بصوت حاد: "يمكنك أيضا ألا تذهب ... وأن تتظاهر بأنك لم تعرف شيئا... أنا شخصيا لا يمهنى أن تذهب أو لا تذهب".

وفي المدخل ساعدته على ارتداء البالطو وناولته القبعة:

قال : "إذن ... سأعود غدا لأعطيك تقريري".

"حسنا... إلى اللقاء غدا".

"ولكن ميكيلي كان ذاهبا على غير إرادته؛ كان يدرك أن ليزا لم تصدق كلمة واحدة مما قاله؛ كان يود لو أقسم، وأتى بتصرفات خطيرة، وقال عبارات قوية: لإقناعها؛ تردد ثم قال أخيرا وهو يمسك باليد التي مدتها له ليزا "أنا متأكد أنك لا تصدقين كراهيتي تجاه ليو، وغضبي".

ساد الصمت ثم ردت هي ببساطة: "بالفعل، أنا لا أصدق"

"لماذا".

"هكذا".

وعاد الصمت من جديد. ثم سألها ميكيلي: "ولو أنني اثبت لك ذلك بالأفعال؟".

"أي أفعال؟".

تردد من جديد... ورأى عيني ليزا تعبران عن تسلط قائم على الشك وقال مكررا: "فعلا أي أفعال؟".. وتملكه شئ من الخوف من عدم القدرة على تحديد العمل الذي يمكن أن يقنع بصدقه ليزا؛ ثم انتقل إلى التفكير في عدوه، وفجأة كمن عثر على شيء كان يبحث عنه منذ وقت طويل دون أن يدري، ها هو قد اهتدى إليه: فقد رأى أن خير دليل هو أن يقتل ليو، وأعجبته الفكرة، ليس لتنفيذها، ولكن لقوة تأثيرها على نفس ليزا.

وقال فى هدوء: "على سبيل المثال... هل ستصدقينني لو أنني قتلت ليو؟... لو قتلته؟...". اجتاح ليزا شعور بالخوف فى بادئ الأمر وابتسم ميكيلى، راضيا لما أحدثه كلامه من تأثير، وقال: "نعم... لو قتلته...".

ولكن عادت ليزا لهدوئها حين رأت وجهه الهادئ، وعينيه الخاليتين من أى غضب وقالت وهى تبتسم فى سخرية: "نعم... سوف اصدقك ولكن يكفي الطريقة التي تتكلم بها ليدرك المرء أنك لن تفعل ما تقول...".

ساد الصمت وقال لنفسه في غيظ لأنه افقد كلامه التأثير إلى هذا الحد : "الطريقة... أي طريقة؟... هل هناك أيضا طريقة ليقول المرء بها أنه يريد أن يقتل شخصاما؟". واسدل الستار وانتهت المسرحية؛ لم يتبقى سوى الانصراف:

قال فى إصرار "اذن، ألا تعتقدين أنني قادر على قتل ليو؟" ؛ وهنا رأى المرأة تنفجر في الضحك، ليست متأكدة تماما، ولكنها من المؤكد أنها غير مذعورة:

قالت فى فرح وإشفاق "أنا نعم... ياعزيزي ميكيلي يا مسكين... إنها أشياء تقال... ولكن شتان ما بين القول والفعل... ثم إنني قلت لك: يكفي النظر إلى وجهك لكي يدرك المرء أنه ليس لديك آية نية... وعلاوة على ذلك" أضافت وكأنها تحاول أن تتغلب على آخر لمحة من شكوكها "لو أنك كنت جادا فيما تقول، ما كنت لادعك تتصرف هكذا، هيا اخرج من هنا...". وفتحت الباب ومدت يدها قائلة: "أسرع وإلا فلن تستطيع حتى أن ترى ليو".

توقف ميكيلى خارج الباب وعاد يقول هو يبتسم ابتسامة مرة، مثل لازمة تكرارية: "وإذا قتلته؟"

اجابت بابتسامة ساخرة جد: "سأصدقك حينئذ".

وأغلقت الباب.

الفصل الخامس عشر

كان ضوء أبيض يهبط من السقف الزجاجي على السلم، وكان الباب مغلقا، وساد صمت وقال ميكيلي وهو ينصرف: "لا أحد يصدقني ... لن يصدقني أحد أبدا". نزل ببطء عدة درجات؛ كان يجسم عليه إحساس بالضيق الخفيف والقلق، ومهما بذل من جهد لم يكن يستطيع أن يخرج من حالة الاضطراب التي تسيطر على عقله.

لحظة بعد لحظة كانت صور وأحداث حياته البائسة؛ التغرير بكارلا، عدم تصديق ليزا، أمه، ليو، تبدو له في تجليات مفاجئة كشرائح مختلفة من نفس المنظر تكشفها ومضات عاصفة ليلية ، وقال لنفسه "لا أحد يصدقني" ثم اضاف مباشرة: "كارلا استسلمت لليو"؛ وبشعور من المهانة كان يتمثل أمامه وجه ليزا الساخر، هناك، في كوة الباب، أو بشكل أكثر كآبة كان يتخيل كارلا بملابسها المبعثرة وشبة عارية بين أحضان عشيقها... وإذا ما حاول أن يجمع بين هذه التخيلات، وبين هذه الأحداث وأن يتملك منها مثل محرك العرائس الذي يمكنه أن يقبض بيده على خيوط كل العرائس، وإذا ما حاول أن ينظر إلى الأمور ببرود، ودون انفعال، وإلى العقدة بكل تداخلاتها التي وجد نفسه بينها، وشعر بأنه يترنح ويحس بالاختناق: فأفكاره الضعيفة لم تكن تكفي لتحتوي الحقيقة المرة، وعيناه لم تكن تكفي لرؤية مشهد حياته هذا بكل أبعاده ومن كل اتجاه.

حاول أن يعقل الأمور، وأن يرتب أفكاره وراح يفكر ويقول: "لنرى...لنرى... المشكلة لها وجهان...: وجه داخلي، وآخر خارجي... داخلي وهو لامبالاتي، عدم إيماني وعدم صدقي... وخارجي، يتمثل في كل الأحداث التي لا أستطيع مواجتها... وكلا الوجهين لا يمكن تحملهما".ورفع عينيه كما لو كان يريد رؤية هذين الوجهين لمشكلته. فكر مرة أخرى بعدم رضاء وقال؛ "لا... الذنب ذنبي أنا... فانا لا أستطيع أن أقبل على الحياة". وراح ينزل السلم؛ والذنب ذنب كارلا أيضا كان يود لو يسألها: "كارلا... لماذا فعلت هذا؟". وذنب أمه أيضا؛ الجميع أخطأ: ومن

المستحيل إكتشاف أصل المشكلة، السبب الأولي؛ الجميع كانوا مذنبين... كان يبدوا له أنه يراهم، جميعا، هناك، أمام المدخل، مستندين إلى الحائط...وقال يحدث نفسه: "إنكم تعساء إنني أشعر بالشفقة عليكم... كلكم... حتى أنتي يا أمي، بغيرتك المضحكة، وأنت أيضا يا ليو، بمظهرك الذي ينم عن الانتصار...". كان يبدو له أنه يراه، أنه يأخذ بيده: "أنت بالذات تثير في نفسي الشفقة...، نعم أنت...: أنت تعتقد أنك الأقوى... ها! ها! يا لك من مسكين يا ليو". كان يود لو قال له هذا الكلام، لعدوه، بهدوء، هكذا... وكان يتملكه إحساس بالنشوى؛ فيقلب رأسه للخلف: "يا لكم من مساكين، ما أنتم سوى تعساء... يا لكم من مساكين... الآن انتظروا... سترون ما سوف يحدث لكم...". ولكن على الباب تنبه إلى أن القبعة ماتزال بيده؛ هذا الخمول، وهذا الشرود، كانا كافيان لجعله ينهار من عليائه؛ ويتملكه إحساس بالغضب والقلق لا يمكن وصفهما فكروقال لنفسه : "المشكلة فيّ أنا، ما هو إلاّ كلام... التعيس هو أنا" ؛ ومن جديد وجد نفسه على الأرض، اسفل المنزل؛ فوضع القبعة على رأسه وخرج.

كانت البيوت ميتة، وأشجار الدلب صامتة، والنهار ساكنا؛ كانت السماء الحجرية تثقل الأسقف المنحنية؛ لم يكن هناك لا ضوء ولا ظل طوال الطريق، فقط تعطش شديد للعاصفة. وقال لنفسه "الآن أذهب إلى ليو" وأثارت هذه الفكرة في داخله إحساس غامر بالسعادة وراح يقول مكررا: "آه، أنت لا تعتقدين أنني يمكنني أن أقتل ليو...أنت لا تصدقيني... وإذا قتلته؟". كان يسير بسرعة، واضعا قوة كبيرة في خطواته، ومعطيا لكيانه كله حزما وثقة لا يقاومان؛ كانت عبارات غريبة تتراقص في رأسه الخالية على إيقاع هذا السير: "لنذهب يا ليزا، لنذهب سويا لنقتل ليو... بعد ذلك نسويه... نسويه على نار هادئة". أو: "ليو، ليو يا حبيبي، ليو يا جميل، يا عزيزي، دعني أقتلك مثل الكلب الصغير". كان ينظر أمامه ويبتسم ابتسامة باردة ويائسة: "أيضا بالنسبة لك يا ليو انتهى الأمر، هذه الوظيفة الجميلة... هذا المستقبل المضيء... يا خسارة... إنني أنا أول من يبكي... ولكن ماذا تريد أن تفعل؟ بالنسبة لك أنت أيضا انتهى الأمر". كان يود لو يغني: "إنتهت... إنتهت... الحياه

الجميلة"، على غرار بعض الاغاني المشهورة والحزينة؛ كان يسير بسرعة وبخطوات جامدة ومستقيمة كجندي يتجه نحو المعركة.

كان طريقا متواضعا وثانويا؛ يظهر فيه الآن هنا وهناك بعض المحلات الصغيرة الخاصة، بعض الواجهات الزجاجية البائسة؛ فرأى محل ورود يعرض تيجان جنائزية؛ ومطبعة مفروشة بالكروت الشخصية من كل نوع محل نجار وحلاق وقال لنفسه: "ها هو...ها أنت قد اكتملت الخدمة لك يا ليو، أولا سأطلب لك صندوق الأموات الرائع هذا، ثم سأشتري لك هذا التاج الجميل وسأضع عليه الكارت الشخصي الخاص بي... والحلاق... الحلاق سيحلق لك بعناية شديدة..." وعلى بعد خطوات من محل الحلاق كان هناك بيت كالح الشكل، وبابه غائر مثل باب الدير؛ تجاوزه بعد ما القي نظرة على مدخله الخالي، ولمح محلا آخر؛ كانت واجهته الزجاجية من ناحيته، ثم بعد ذلك يأتي الباب. في البداية لم يدر أي محل هذا: فكان لمعان الزجاج عند الزاوية يحجب الأشياء، خطى خطوة أخرى وحينئذ ظهرت له اليافطة "أسلحة" مكتوبة بالحروف البيضاء وعلى خلفية بنية اللون حامل لبنادق الصيد وراح يقول "وهنا سأشتري مسدسا" ولكنه لم يتقدم وتردد أمام الباب، ثم فتح ودخل.

قال على الفور بصوت عال وهو يستند إلى طاولة المحل "أريد مسدسا" ،. لقد قطع الشوط الأكبر، وتملكه إحساس كبير بالخوف من أن يفهم بائع السلاح نواياه؛ فاتخذ مظهرا باردا، وصبورا، وظلت عيناه إلى أسفل ويداه ثابتتين؛ لم يكن يرى من البائع سوى جذعه بملابسه السوداء وهو يتحرك ببطء وبطريقة مهنية بين الطاولة والأرفف. ورأى تحت زجاج الطاولة مجموعة لامعة من السكاكين المعروضة على بطانة حمراء، بعضها بسيط، وبعضها معقد ومليء بالأنصال، وبعضها مفتوحة على شكل مروحة، وبعضها مقفولة ومليئة. ورفع عينيه: كان المحل الصغير المعتم مغطى بالأرفف الزجاجية؛ بعضها به حوامل عليها بنادق والبعض الآخر به أطواق للكلاب، وبعيدا، لاحظ فوق الطاولة جزءا خشبيا معشق به طلقات من الرصاص مرتبة حسب حجمها؛ كانت تبدو وكأنها الشمس بصحبة كل كواكبها. وكان البائع رجلا مرهقا ونحيفا تسلل الشيب إلى شعره، بطيء الحركة، ناعس العينان،وكان يعرض فوق

الطاولة مسدسات مختلفة واحدا تلو الآخر، وبمجرد أن يضع واحدا منها يذكر سعره بصوت ثابت لا يتغير: مائة، سبعون، مائتان وخمسون، خمسة وتسعون؛ بعضها كان مسطحا أسود اللون، وبعضها لامع وضخم، بعضها يعمل اليا، والبعض الآخر بخزينة دوارة.وقال ميكيلى يحدث نفسه فى سخرية وهو ينظر إلى مسدس ضخم الجزء السفلي منه مطوي، يشبه الرشاش معلق على الحائط " نحتاج هذا... لليو ": كان يشعر بالهدوء في أفكاره، والتلقائية في حركاته، أنزل عينيه، واختار بحزم الأرخص ثمنا وقال بصوت واضح: "سأشترى هذا...وخازنة". كانت حافظة النقود في يده وقال لنفسه وهو يضع النقود على الطاولة "معي نقود تكفي بالكاد"ورن صوت معدني بعده أخذ اللفافة ووضعها في جيبه وخرج.

عاد و قال لنفسه: " أذهب الأن إلى ليو". الآن يبدو الفضاء الرمادي الساكن وكأنه يتحول من آن لآخر إلى دموع عابرة؛ على ناصية الطريق كان هناك ورشة ميكانيكا للإصلاح وعلى عتبة الباب كان هناك رجل يرتدي زي العمال المتسخ ويقوم بفك إطار دراجة؛ كان الجو حارا؛ ولا يسمع صوت واحد هناك، وكانت دموع السماء تشوه عند مرورها البيوت ذات الأدوار الستة، ها هي، إنه يراها تلتوي، وتنحني في مرونة بكل نوافذها، ولكنها لا تترك أثرا على حصى الرصيف؛ رغاء كبير أصفر هنا وهناك ولكن لا دمعة واحدة؛ هل هى تهيؤات يا ترى؟

انعطف ميكيلى ودخل شارع له أهمية أكثر، كان سيقطعه كله وسيعبر الميدان ويصل إلى الشارع الذى يسكن فيه ليو؛ لم يكن هناك داع للعجلة؛ كان يسير على مهل، مثل أى متسكع وهو يراقب الناس ولافتات السينما وواجهات المحلات، وكان المسدس ثقيلا في جيبه. توقف أمام أحد المحلات، وحل اللفافة ببطء وأمسك بمقبض السلاح، كان له ملمس بارد غريب؛ الزناد؛ ضغطة خفيفة وينتهي كل شيء بالنسبة لليو، طلقة، طلقتان، ثلاث طلقات؛ وبعد ذلك، ها هي الماسورة وها هي الذخيرة... ضغط على أسنانه، ثم على مقبض المسدس... ها هو، ها هو، كان يبدو له أنه يرى كيف سيحدث كل ذلك: كان سيصعد ذلك السلم، ويدخل في ذلك الصالون؛ وينتظر بالسلاح في يده؛ وأخيرا سيسأله ليو: "ماذا يحدث يا ميكيلي؟". وسيرد عليه وهو يطلق النار على الفور "ها هو ما يحدث"،

سيكتفي باطلاق رصاصة لتستقر في جسده، في أي جزء، وسيسقط ليو على الأرض. كان من الممكن أن يصوب الرصاصة على رأسه؛ سينحني عليه، وليو ممدا هناك على الأرض، ويداه مثنية على السجادة، ووجهه مقلوب ولاهث؛ كان سيضع ماسورة المسدس وسط صدغه بالضبط، إحساس غريب، ستتحرك رأسه ، أو ستتجه العينان إليه في ذهول وحينئذ سيطلق عليه الرصاص مرة أخرى، ويسمع الجلبة، ويتصاعد الدخان، بعد ذلك عليه أن يخرج دون أن ينظر خلفه، يخرج من تلك الحجرة الصغيرة حيث يرقد الرجل تحت صفحة النوافذ البيضاء، بملابسه الأنيقة، وهو مقتول وذراعاه ممدودتان على الأرض، ويهبط السلالم قبل أن يلحق به أي فرد من السكان ويدخل في الشارع، الناس، الحركة، هناك، بين جدران الحجرة الصغيرة الأربعة ، القتيل ممدد؛ كان سيبحث عن شرطي (أين هي هذه الأقسام التي يذهب المرء ليسلم نفسه فيها؟)، رجل شرطة واقف وسط تقاطع، كان سيلمسه من كتفه ببطء؛ وهذا الأخير كان سيلتفت معتقدا أنه شخص من المارة يريد الاستفسار عن شيء: "لو سمحت" هكذا كان سيقول هو بهدوء "اقبض علي... لقد قتلت رجلا"، كان الآخر سينظر إليه دون أن يفهم وكان هو سيكرر كلامه: "أنا قتلت شخصا، اقبض علي"؛ وحول هذا الكلام كان الناس سيتحركون في كل اتجاه، السيارات كانت ستستمر في السير... وفي النهاية كان سيصحبه غير مصدق وغير متفهم للأمر، كان سيصحبه دون أن يمسكه من قفاه ودون أن يضع الحديد في يده إلى أقرب قسم شرطة، حجرة مليئة بالاتربة، سجل؛ حراس؛ رائحة بالية وباردة لدخان السيجار؛ المكتب، المأمور بزيه المهندم، ضخم، سوقي، الاستجواب، لقد ذهب مرة للإبلاغ عن سرقة؛ لابد أن تسير الأمور هكذا.

ابتعد عن واجهة هذا المحل، وسار إلى الأمام: وبعد ذلك سيحاكمونه، ستتحدث كل الصحف عن جريمته هذه، عناوين ضخمة، متابعات طويلة، صور له وللقتيل وللضابط "المحافظ" على الأمن العام الذي قبض عليه، وللحجرة التي وقع فيها الحادث وبالطبع سيكون هناك علامة صليب على المنطقة التي عثر فيها على الجثة. اهتمام كبير؛ ويوم المحاكمة ستكون قاعة المحكمة مزدحمة بالجمهور؛ سيدات أنيقات في

الصف الأول؛ أناس مثقفون؛ مثل المسرح؛ انتظار؛ سيدخل القاضي، يبدو وكأنه يراه، وقور وهادئ وشارد سيتحدث إليه مثلما يتحدث معلم في المدرسة إلى أحد التلاميذ، من أعلى عرشه المترب، وهو يحني راسه نحوه، ويحملق فيه دون قسوة تحت حاجبيه البيضاويين، إنه يبدو وكأنه يسمعه:

"أيها المتهم، ما أقوالك؟".

وعند هذه الدعوة إلى الكلام كان سيهب واقفا؛ وقد تركزت عليه كل العيون؛ كان سيروي جريمته؛ وكانت السيدات الجالسات على راحتهن بين الجمهور سيتابعن بانتباه شديد كل كلمة تخرج من فمه، ليس دون أن يقمن من آن لآخر بحركة عشوائية مثل ترتيب خصلة شعر شاردة أو وضع ساق فوق أخرى من التعب؛ سيكون من الممكن سماع صوت الذبابة وهي تطير؛ في هذا الصمت سيتحدث هو؛ بصدق؛ كل كلمة منه مليئة بهذه الحقيقة المؤلمة سيغلفها دائما بجو خاص مثل سمكة السيبيا التي تلف نفسها بظلمات حبرها عندما يهاجمها أحد. وشيئا فشيئا بينما يعترف بعدم صدقه، وعدم إيمانه، وبعدم جديته، سيبدو له أن القاضي العجوز قد اقترب منه قليلا وهبط حتى وصل إليه؛ والقاعة الرمادية ستخلو في هدوء: لن يبقى سواهما، القاضي وهو، على الأرض المتربة أمام هذه الحوائط الباهتة والمقاعد الخالية، وهو سيستمر في الكلام حتى يختم حديثه قائلا: "هذا كل ما في الأمر، لقد قتلت ليو دون كراهية، بعقل بارد... بلا صدق...". وبنفس اللامبالاة كان من الممكن أن أقول له: "أهنئك، أختي بنت جميلة...". "هذه هي جريمتي الحقيقية... لقد أرتكبت جريمة اللامبالاة...". وساد الصمت، كان سينظر إليه القاضي بفضول كمن ينظر إلى كائن غريب؛ وأخيرا يسمع صوت كراسي تتحرك، صوت صاخب جدا، مثل الصدى الذي يتردد تحت أروقة الكنائس؛ وسيترك القاضي مقعده، وسيأتي نحوه ببساطة، على أرضية المحكمة المتربة: صغير الحجم، قصير، كبير القدمين، وملابسه السوداء تصل إلى كعبيه، وكأنه يريد إخفاء بعض التشوهات، ربما بسبب الجلوس الكثير على مقعد القضاء، تيبست ساقاه، فهو صغير الحجم، قصير، ورأسه كبير ووديع:

كان سينبطح عند قدمي القاضي العجوز ويقول "أيها القاضي... أيها القاضي...". وكان سيسمع القاضى يقول بعد لحظة من الصمت، "أنت مبرأ من جريمتك ... ولكن مدان بسبب عدم صدقك وعدم إيمانك... مدان بسبب الحياة". حكم قاس؛ وعندما سيرفع رأسه، كان سيدرك فجأة أنه من جديد داخل المحكمة المزدحمة، أمام القاضي الشارد، بين حارسين مسلحين، حلم داخل حلم، أشباح.

كان الواقع سيحدث بشكل مختلف؛ سيوكلون له محام مشهور؛ سيثنون على صورته كأخ وكابن تعرض في البداية للمعاناة والإذلال، ثم بعد ذلك كمنتقم، وأثناء المحاكمة ربما أيضا كانوا سيصفقون له، سيتم استعراض الشهود، وستأتي ليزا غير مهندمة مهملة في مظهرها، وستروي بصوتها المزيف كيف اكتشفت العلاقة بين ليو وكارلا، انطباع عميق؛ وكانت ستروي كيف أنه أخبرها بنيته قتل ليو، ولكنها لم تصدقه.

ولماذا لم تصدقينه؟ بسبب النغمة التي كان يتحدث بها.

وهل كان ميكيلي يعلم بموضوع أمه؟ نعم، كان يعلم.

كيف كان سلوك القتيل في منزل عشيقته؟ سلوك صاحب المنزل.

منذ كم من الوقت كانت مستمرة هذه العلاقة مع الأم؟ منذ خمسة عشر عاما.

ومع الإبنة؟ على قدر معرفتها، منذ أيام قليلة.

هل الإبنة كانت على علم بالعلاقة مع أمها؟ نعم، كانت على علم.

ما هي العلاقة التي كانت قائمة بين المتهم والقتيل؟ علاقة صداقة.

علاقة عمل؟ نعم أيضا.

ما نوع العمل؟ لا تتذكر بالضبط، تعتقد أنه رهن للفيلا.

هل صحيح أن المتهم قال عن القتيل إنه سبب الخراب الذي حل بهم؟ "نعم صحيح".

ما هو السبب الذي جعلها تكشف لميكيلي عن علاقة أخته؟ أسباب عاطفية تجاه الشاب، وصداقة تجاه الأسرة.

ماهي تصرفات القتيل تجاه كارلا حتى ذلك الوقت؟ تصرفات الأب: فقد رآها وهي طفلة، بضفائرها على كتفيها وسيقانها العارية.

هل كارلا لها سمعة الفتاة الشريفة، الجادة أم لا؟ لا... فقد كان يتم الحكم عليها حكما قاسيا بشكل عام.

هل تعتقد في شعور بالحب من جانب الرجل؟ لا.

ومن جانب كارلا؟ أيضا لا.

هل تعتقد أن القتيل كان لديه النية في الزواج من كارلا؟ لا، على قدر علمها.

هل صحيح أن القتيل لم يكن يخفي على الأولاد علاقاته مع الأم؟ صحيح.

وأن الخلافات كانت كثيرة بين العشيقين؟ نعم.

لماذا؟ الأم كانت غيورة.

من من؟ من الجميع.

هل الأم كانت تشك في ابنتها؟ لا، بل إنها أسرت لها أكثر من مرة أن عشيقها يشعر تجاهها بشعور أبوي خالص.

سؤال أخير: هل كانت تعتقد قبل ذلك أن هذا الشاب يمكن أن يرتكب مثل هذه الجريمة؟ لا.

لماذا؟ لأنه ضعيف جدا.

كانت أمه ستأتي ... بملابس الحداد وتتزين، وفي قمة الاحتشام، قلقة... كانت ستتخطى حاجز الشهود، وستتجه مباشرة نحو القاضي وكأنه شخص تعرفه، وعندما يتم استجوابها ستحكي قصة طويلة تعود بها إلى البدايات البعيدة؛ بصوت مؤثر وحركات مزيفة وكل هذه الخمار السوداء في حركة مستمرة وكأنها في حفلة تنكرية. وعند استجوابها بدهاء من جانب المحامين الذين سينقضون على هذه الفريسة مثلما تنقض أسماك القرش بأسنانها المعقوفة على حوت رخو، ستؤكد الأم من جديد

على ارتباطها بالقتيل وعند سؤالها إذا ما كان هذا الأخير قد جردها من ثروتها، كانت سترد بالنفي.

وعن التغرير بكارلا ماذا تعرفين؟ نوع من الجنون، ولكن من كان منكم بلا خطيئة فليقذف أول حجر.

سيعلق محامي ميكيلي بسخرية: "فلنسميه جنون" ؛ جدل ونقاش بين الجانبين وتدخل حاد من جانب الرئيس.

وهل تعتقد هي أن ليو كان سيصلح هذا الجنون بالزواج من كارلا؟ تردد...: لا... لم تكن متأكدة.

إثارة: وهل كانت هي ستتأقلم على هذا الوضع، وهذا الرجل في المنزل، كعشيق لها وعشيق لابنتها؟ حرج، لا، ولكن ليو كان قد فكر في الأمر وقرر أن يزوج كارلا.

ضحكات. تعليقات ساخرة.

هل صحيح أن القتيل كان سيجهز الفتاة بجهاز عالي القيمة؟ نعم صحيح.

وسيعلق محامي الدفاع قائلا "وفي المقابل؟" "احتفظ لنفسه بالحق في الليلة الأولى". لغط من جديد؛ صفير من الحضور... كان الجمهور سينحاز إليه، تهديد من الرئيس بإخلاء القاعة... هذا ما يحدث دائما.

هل صحيح أن مناقشات حادة حدثت بين القتيل وميكيلي؟ نعم صحيح.

وأن ميكيلي ذات ليلة كان قد قذف ليو بمنفضة السجائر؟ نعم، ولكن المنفضة جاءت في ظهرها هي.

والسبب؟ كان ميكيلي يعتقد خطأ أن القتيل كان يريد استغلال الرهن للاستيلاء على أمواله.

وكيف تصرف القتيل عندئذ؟ بأبوة... كشخص أكبر.

هل صحيح أنه كانت هناك خلافات مستمرة بينها وبين القتيل؟ لا، كان بينهما اتفاق تام.

ولكن الشاهدة ليزا أوحت بخلاف ذلك؟ طبعا، فهي لها أسبابها لتسوء سمعة القتيل.

وما هي؟ ياه، سبب واحد ولكنه كاف: كانت عشيقته قبل ذلك.

إثارة... سيعلق محامي ميكيلي قائلا "يبدو لي أنه لم تفلت منه واحدة".

متى؟ قبلها.

في أقوالها بالمحضر كانت قد اتهمت ليزا بأنها حرضت على الجريمة، والآن؟ الآن تكرر الاتهام.

دوافع ليزا؟ دافع الغيرة والحقد.

وتتهمها أيضا بأنها أرادت إفساد ميكيلي؟ بالتأكيد... إنها امرأة عاهرة بلا حياء، عديمة الحياء.

تأثر... الرئيس يدعو إلى استخدام لغة أكثر اعتدالا... وثورة من الأم.

نعم ... إنها امرأة عاهرة، تريد لو قالت ذلك بأعلى صوتها، امرأة عاهرة ومجرمة.

تدخل الرئيس من جديد.

وهل كان صحيحا أنه أمام برود عشيقها شكت هي في ليزا بدلا من ابنتها؟ نعم لأنها لاحظت منذ فترة أن ليزا كانت تغازل الرجل.

إذن، في رأيها أن ليزا هي المجرم الرئيسي؟ بالتأكيد، هي التي حرضت على الجريمة، حرضت ميكيلي، هي التي فعلت كل شيء.

وفي رأيها هل كان القتيل محقا في التغرير بابنتها؟ لا، ولكن تعلمون مدى ضعف الإنسان، ثم إن الذنب لم يكن ذنب القتيل بمفرده.

وميكيلي؟ ميكيلي كان مسكين وغير مسؤول، كان أداة في يد ليزا؛ كان أضعف من أن يتصرف بمفرده.

وسيأتى دورآخر سيدة في حياته من السيدات الثلاث أنها كارلا؛ لقد أصبحت نحيفة بعض الشيء، شاحبة، امرأة؛ ستتقدم، وسط فضول محموم من الجمهور، لا خجلانة ولا مغرورة ... ترتدي فستانا فاتحا، فالوقت صباحا، إضافة إلى جوارب وقبعة ذات لون فاتح؛ والفراء على كتفيها ... ربما مرسوم، أنيقة بالتأكيد... وسينظر إليها القاضي العجوز بلا قسوة، مثلما نظر إليه هو... وكانت ستأتي لتستند على الحاجز، وستتحدث ببطء وسط فضول الجمهور، وانتظار نهم للتفاصيل الحساسة... تشويق شديد ... ولكن بعد الإسرار بكلمات قليلة، سيأمر الرئيس بإخلاء القاعة وتكملة المحاكمة فى جلسة مغلقة... خيبة أمل لدى الجمهور... همسات... صافرات... والقاعة ستصبح خالية شيئا فشيئا... ها هي كارلا، بمفردها، تلك البقعة الملونة بين كل أدوات العدالة السوداء والرمادية... وسيستمر الاستجواب.

هل صحيح أنها في الفترة الأخيرة ارتبطت بعلاقة حميمية مع القتيل؟ نعم، صحيح.

هل كانت تعلم عن موضوع أمها؟ بالتأكيد، منذ الطفولة.

منذ الطفولة كيف؟ نعم، عندما كانت طفلة رأتهما ذات يوم يتعانقان أمام المرآة.

هل كانت تعلم أن القتيل لم يكن يستطيع أو يريد أن يتزوجها؟ نعم، كانت تعلم.

هل كانت تعلم أن القتيل كان قد وضع يده على ثروتهم؟ هذا أيضا كانت تعلمه.

وبالرغم من كل هذه المعلومات سلمت نفسها له؟ نعم.

لماذا؟ هكذا.

كيف تصرف القتيل معها، كرجل محب أم كرجل شهواني؟ كرجل شهواني.

إذن لم يكن يحبها؟ فعلا، لم يكن يحبها.

كيف عبر لها عن هذه الشهوة؟ ذات يوم جاء إلى المنزل وكانت بمفردها تشعر بالملل وتقرأ...تحدث معها وشيئا فشيئا وصلا إلى نوع من الإثارة الحميمية، وبعد ذلك قبلها ودعاها إلى منزله.

وهل ذهبت إلى منزله؟ نعم في اليوم التالي.

وماذا حدث في هذا اللقاء؟ كل شيء.

وهل عادت بعد ذلك إلى منزله؟ نعم، كل يوم.

هل صحيح أن ليزا قد فاجأتهما في احتفال راقص في الصالة الداخلية وهي جالسة على ساقي عشيقها وفي عناق معه؟ نعم...من الممكن.

ألم تكن خائفة من أن تكتشف الأم أمرها؟ لا.

ألم تكن تعتقد أنها تدمر نفسها وهي ترتبط بهذا الرجل؟ لا.

لماذا؟ هكذا.

هل كانت أمها تخفي عليها علاقتها مع القتيل؟ لا، بل كانت تحكي ذلك لها.

هل القتيل تحدث معها عن أمها؟ نعم.

كيف؟ مستخدما أسوء الكلمات.

ماذا كان يقول لها؟ أنها عجوز وغبية وأنه لم يعد يحبها.

طبقا لما قالته أمها، أن القتيل بالرغم من هذه العلاقة معها، كان يستعد لتجهيزها وتزويجها: هل هذا صحيح؟ لا، ليس صحيحا.

كيف علمت ذلك؟ لأن القتيل كان قد اقترح عليها أن تترك اسرتها وأن تذهب لتعيش في شقة صغيرة حيث كان بإمكانه زيارتها كلما أراد ذلك.

وهل كانت ستقبل؟ ربما.

ألم تكن تعتقد أن ميكيلي سيعترض على هذا الأمر؟ لا.

لماذا؟ لأنه كان يقول إن ميكيلي بقليل من المال سيهدأ.

وأمها؟ أمها كانت ستصرخ ولكنها بعد ذلك كانت ستهدأ هي أيضا.

هل كانت تعلم عن المشاحنات السابقة بين القتيل وميكيلي؟ نعم، ذات ليلة كان القتيل قد هدد ميكيلي بأنه سيشد أذنيه.

وميكيلي؟ ميكيلي قذفه بمنفضة السجائر ولكنها جاءت في أمه.

هل أخوها عبر لها عن نيته في قتل ليو؟ أبدا.

كيف كان سلوك ميكيلي داخل الأسرة؟ سلوك اللامبالي والضعيف.

كانت كارلا ستتصرف هى أيضا ، ولكنها ستأتي أولا لتحيته ،وبدا له كأنه يراها... وهي تشعر بالحرج وجادة وعيناها ما بين متوسلة ومشفقة... كانت ستسأله عن حاله، وكانا سيتصافحان وبعد ذلك تنصرف بخطوات هزلية بكعبها العالي وفستانها القصير؛ ومن خلال مشيتها التي تنم عن تواضع حذر بلا ثقة، وحركة خصرها الرخو، وكل تفاصيل جسدها، كان سيتخيل حياة جديدة يساعده على توقعها ذلك الحداد غير المهندم وغير المحتشم لأمه.

كانت النساء الثلاث ستختفين من حياته، الأخت والأم والعشيقة، كل منهن في طريقها وكانت المحاكمة ستستمر وبعد ذلك بعدة أيام كان سيتكلم المدعي العام. كلام قوي؛ وبعد أن يكون قد اجتهد في رسم المناخ الفاسد والمفسد الذي وقعت فيه الجريمة بألوان قاتمة، وبالرغم من مراعاة الرأفة مع ميكيلي فإنه كان سيؤيد تماما توافر سبق الإصرار.

"نعم، حضرات القضاة" كان سيقول هكذا متعجبا وهو يضرب بقبضته على الطاولة، "إنها جريمة مع سبق الإصرار؛ فميكيلي علم من ليزا بخبر التغرير بأخته وانصرف وهو يشير مازحا، حسب شهادة الشاهدة، إلى أنه من الممكن أن يقتل المغرر... إذن فكل شيء كان مبيتا، وقد اصدر حكمه على ليو. إن ميكيلي لم يذهب إلى ليو ليطلب منه تفسيرا وإنما لقتله، سواء كان كلام ليزا صحيحا أو غير صحيح. بين هذا التصريح والجريمة مرت حوالي ساعتين، ماذا فعل ميكيلي في هذه الفترة؟ إنه بمجرد الخروج من منزل تلك المرأة، في نفس الشارع الذي تسكن فيه، هاهو يندفع مثل المجنون إلى محل لبيع الأسلحة ويشترى

مسدسا بسبعين ليرة، وبعد ذلك، يهيم على وجهه في المدينة، ويسير مع نفسه ومع نواياه الدموية الانتقامية كسفينة وسط العواصف، أترونه، بهذا المسدس في جيبه، وهو يتوقف أمام المحلات ويشاهد واجهاتها، ثم يسير ويقطع أكثر من مرة الشارع الذي يسكن فيه ليو، وفي النهاية ترونه أمام هذا الباب، يتردد، ثم يدخل ويصعد السلم... ها هو في صالون عدوه، وهذا الأخير يأتي نحوه بشوشا ودودا، مرحبا به وهو يبتسم... تلك الابتسامة، أيها السادة القضاة، ابتسامة رجل مقبل على الموت وهو لا يدري!... وهو يمد له يده... حينئذ يطلق ميكيلي النار... ويسقط الرجل... فينحني وببرود يجهز عليه بطلقة في جبهته تحديدا... وبعد ذلك، وبهدوء المجرم المحترف، يغلق الباب وراءه ويذهب ليسلم نفسه..." كان المتحدث سيحلل رغبة ميكيلي الشديدة والأصيلة في قتل ليو، بالرغم من علمه أن "كارلا، كما يتضح من شهادة الشهود، لم تكن تلك الفتاة الطاهرة، الكاملة، العذراء كما يعتقد، بل هي على العكس من ذلك، وبالتالي فإن التغرير بمعنى الكلمة لم يتوفر". هياج في القاعة "إن كارلا" هكذا سيصفها المتحدث "هي واحدة من تلك الفتيات اللاتي لم يعرفن البراءة في حياتهن: اليوم مع رجل ، وغدا مع آخر، إنها صورة مظلمة من عصرنا الفاسد". كان سيصر على أنه في جميع الاحتمالات لم يكن ليو هو الذي غازل الفتاة، ولكن العكس هو الصحيح، وهذا ناتج عن صراع غير سوي ومريض بين الأم وابنتها. "أيها السادة القضاة" هكذا كان سيختتم كلامه؛ "ليس لأحد الحق في القيام بدور العدالة الإنسانية، ولا حتى العدالة الإلهية... وهذا هو ما فعله ميكيلي... حيث اصدر حكمه على عدوه ونفذ الحكم... هذه الرغبة الإجرامية الباردة في القتل هي جريمته الحقيقية: ليس انفعالا عاطفيا، أيها السادة القضاة، وليس انفعالا ناتجا عن الغضب الإيجابي، ولكنه إعداد وتنفيذ لمخطط دموي مبيت النية منذ فترة... تذكروا ذلك، تذكروا أن ميكيلي كان يعتبر ليو ميتا وهو على قيد الحياة و لم يكن مكانه بين البشر قد أصبح بعد قبرا". "وأنت يا ميكيلي" كان سيتوجه إلى المتهم بالكلام قائلا "تقبل هذا الحكم كتكفير وتطهير لك... يمكنك بعدهما العودة إلى أسرتك وإلى البشر".

عندئذ قال الفتى يحدث نفسه: "ما السبب يا ترى في أن المحامين في مرافعاتهم يعتقدون بوجوب مخاطبة المتهمين بصيغة أنت". هز رأسه وهو يفكر في سخرية: "أنت مخطئ أيها المدعي العام ... أنت مخطئ... فلا تكفير ولا تطهير، ولا حتى أسرة... إنما لا مبالاة، لا مبالاة ... فقط لا مبالاة". وابتسم في شرود. ومن كان سيتحدث بعد المدعي؟ محاميه؛ كانت ستنهض هذه الشخصية اللامعة، هذه الشخصية الجديدة ديموستين، وكان سيرسم الشخصيات المضطربة لهذه القضية واحدة واحدة، وكان سيرسمه هو أيضا بألوان قاتمة ببيئته وأفراد أسرته: الأم كامرأة بلا حياء، وليو كرجل انتهازي ويمارس زنا المحارم، وليزا كأنثى نمامة واستغلالية، وهو وكارلا ضحيتان أبناء رجل سكير ("فالأب دائما في حالة سكر" هذا ما خطر بباله)، وقد نشأ بلا حب الوالدين، وبلا دين، وبلا أخلاق.

سيصرخ المتحدث قائلا "أيها السادة القضاة... كان في البداية عشيقا لليزا، ثم عشيقا للأم... ثم يصبح ليو أيضا عشيقا للإبنة، للإبنة، أيها السادة القضاة..." كان سيكرر بصوت يغلب عليه الشفقة والانفعال "الإبنة التي عرفها طفلة بريئة، بضفائرها على كتفيها وسيقانها العارية، وحملها على ركبتيه، والتي كما يمكن أن نقول رباها لنفسه ولرغباته الدنيئة... فقد كان هذا المنزل هو منزل محظياته... ولم يكتف بذلك فوضع يده الجشعة على ثروة الأسرة...". وبعد أن يجمع جرائم ليو مثل أحجار مبنى منهار، كان المتحدث سيبرز عدالة هذه الجريمة، منفجرا في صوت مسترسل؛ وبالفعل بدا له وكأنه يراه... سيسيرون... هذا المدافع عنه... أحمر الوجه ... منفعل التعابير... وقد تطاير شعره في الهواء ... وضربات قبضته على الطاولة، وبدا له وكأنه يسمعه: "هل ستدينون ميكيلي لأنه انتقم لشرف أسرته الذي تم تدنيسه واستباحته؟..." حينئذ رفع ميكيلي رأسه ليدرك أنه في الشارع الذي يسكن فيه ليو.

وهنا شعر بضيق قاتل بارد يجمد الدم في عروقه وقال: "ها نحن قد وصلنا". هذا هو الشارع الذي يبحث عنه... بيوت جديدة، بيضاء... حدائق مازالت خالية... وهنا وهناك مباني مليئة بالسقالات... وأرصفة لم تكتمل بعد، لابد أن الريف ليس بعيدا عن هنا... المارة قليلون؛ لا أحد

يلتفت لينظر إليه، لا أحد يلاحظه.وقال لنفسه: "ولكني ذاهب لأقتل رجلا"... جملة غريبة. ودس يده في جيبه، وتحسس المسدس؛ إن قتل ليو معناه أن يقتله حقا، وأن يشطبه من أعداد الأحياء وأن يريق دمه. وفكر وقال بحميه "لابد من قتله ... قتله... هكذا... دون جلبة أو صخب ... هكذا... نعم سأصوب نحو صدره... وسيسقط... يسقط على الأرض... ثم انحني فوقه وأجهز عليه ببطء ودون صخب".

بدا له المشهد طويلا جدا بينما كان من المفترض أن يكون خاطفا، غير مترابط في تحركاته... صامت ... وسيطر عليه شعور مميت بالقلق. وقال يحدث نفسه: "يجب أن أقتله... إذن نعم ... كل شيء سيسير كما ينبغي".

كانت السماء ملبدة بالغيوم ... والمارة قليلون... سيارة ... فيلات ... حدائق... المسدس في جيبه... الزناد... كعب المسدس.

توقف لحظة لكي يرى رقم البيت. حينئذ أفزعه هدوءه ، فكروقال فى زعر "إذا استمريت بهذا الهدوء فلن يتم شيء... يجب أن أكون ناقما غاضبا...". كان رقم ٨٣ لايزال بعيدا فاستأنف سيره وهو يقول: "لابد أن أشحن نفسي... لنرى... لنرى الأسباب التي تجعلنى اكره ليو... أمي... أختي... التى كانت لا تزال طاهرة حتى أيام قلائل... وهى الآن في نفس الفراش... عارية... ضائعة... بين ذراعى ليو... فقد تمكن منها... أختي... تمكن منها... أختي... تمكن منها منها... أختي... أختي... عاملها كامرأة عاهرة... ممددة في نفس الفراش القذر... هذا شئ فظيع، فظيع... عارية بين هذين الذراعين... إن روحي ترتجف فقط بمجرد التفكير في ذلك...انها تتعرض لدناءة هذا الرجل... أختي... هذا الشئ فظيع". مرر يده على رقبته، فقد كان يشعر بجفاف حلقه وقال يائسا: "فلتذهب أختي إلى الجحيم" . ووجد نفسه في نفس هدوئه السابق... فكل هذه الخيالات لم تهزه، ونظر إلى باب أحد البيوت... لقد وصل إلى رقم خمسة وسبعين... وتملكه خوف شديد من عدم القدرة على التنفيذ، فوضع يده في جيبه وقبض بعصبية على المسدس: "فليذهبوا جميعا إلى الجحيم... وما أهمية الاسباب... لقد قررت أن أقتله وسوف أقتله". أسرع الخطا... البيوت تمر، واحد تلو الآخر، أسرع، أسرع... لابد من قتله

وسيقتله... هذا هو كل ما في الأمر. وراح ينظر إلى أرقام البيوت ... رقم خمسة وسبعون ... ستة وسبعون ... ثم شارع... سبعة وسبعون... ثمانية وسبعون؛ وفجأة أخذ يجري، والمسدس يرتطم بفخذه، ورأى على الرصيف طفلة عمرها حوالي عشر سنوات تأتي نحوه وهي تمسك في يدها طفلا أصغر منها؛ وظن أنه سيتقاطع معهما الطريق ولكنه وصل إلى باب منزل ليو قبلهما، ودخل وهو نادم على أنه لم يتقابل معهما. وقال وهو يصعد السلم: "والآن... أنه ليكون أمرا جميلا شيء إذا لم أجده فى المنزل".

صعد قلبتي سلم بسرعة، وعلى الباسطة الثانية وجد على باب عدوه يافطة نحاسية مكتوب عليها: الفارس ليو ميرومتشي.

لم يقرع الجرس ... كان يريد أن يدخل وهو هادئ النفس ولكنه كان ينهج... انتظر ساكنا... لا يتحرك أمام ذلك الباب المغلق حتى يسترد أنفاسه وضربات قلبه، ولكنها لم تهدأ. كان قلبه ينبض ويقفذ في صدره في صخب، وكانت رئتاه ترتفعان رغما عنه في تنفس مؤلم. وقال فى سخط وعصبية: "أيها القلب، أيها النفس...حتى أنتما تقفان ضدي؟" ثم ضغط بيده على جنبه و حاول أن يتمالك نفسه... كم يلزم من الوقت حتى يكون جسده مستعدا مثل روحه؟ أخذ يعد من واحد إلى ستين بشكل مضحك، وهو ساكن أمام هذا الباب الذي يخيم حوله الصمت... وراح يعد من جديد... وأخيرا... أوقف العد وهو يشعر بالتعب وقرع الجرس.

سمع الجرس يدوي في الشقة الخالية...وساد الصمت والسكون: "إنه ليس بالمنزل" وفكر فى سرور وارتياح كبيرين: "سأقرع الجرس مرة أخرى للتأكد... وبعد ذلك سأنصرف". وبالفعل بينما كان يهم للضغط من جديد على الزر، كان يتخيل أنه سيعود إلى النزول إلى الشارع، ويهيم في المدينة حرا شاردا. كان قد نسي نواياه في الانتقام، عندما دوّت خطوات ثقيلة على الأرض، خلف الباب ثم انفتح الباب وظهر ليو.

كان يرتدي ثوب النوم، وكان شعره شعثا وصدره عاري ونظر إلى الفتى من قمة رأسه إلى أخمص قدميه وقال فى تعجب بوجه وصوت ناعسين، دون أن يدعوه للدخول "أنت هنا؟... ماذا تريد؟".

تبادلا النظر. وميكيلي يريد أن يصرخ قائلا:"ماذا أريد؟ أنك تعلم جيدا ما أريد أيها الوغد". ولكنه تمالك نفسه ورد عليه بصوت خفيض فقد أصبح الآن مقطوع النفس:"لا شيء... أريد أن أتحدث إليك فحسب".

رفع ليو عينيه؛ وظهر على وجهه تعبير وقح وغبي وقال وهو يتصنع الدهشة: "ما أجمل هذا ...تريد أن تتحدث إلي؟... إلي؟... وفي مثل هذه الساعة؟" ؛ وكان مازال واقفا وسط فتحة الباب: "وماذا تريد أن تقول؟... " وأردف يقول وهو يغلق الباب: " اسمع، اسمع يا عزيزي ... أليس من الأفضل أن تأتى فى يوم آخر؟ فأننى كنت نائما... ولست فى حالة تسمح لى بالأصغاء إليك... تعال غدا على سبيل المثال".

وراح يغلق الباب. وقال ميكيلي يحدث نفسه: "ليس صحيحا أنك كنت نائما" وفجاة بزغت له هذه الفكرة: " إن كارلا هنا... في خجرته"، وبدا له أنه يراها عارية جالسة على حافة السرير، تستمع بفضول إلى هذا الحوار بين العشيق وهذا الزائر الغريب، فدفع الباب ودخل وهو يقول فى صوت جامد مضطرب: "كلا ... كلا... بل يجب أن أتحدث إليك اليوم... والآن".

وقال الآخر فى تردد كمن بدأ يفقد صبره: "وليكن" . فدخل ميكيلي وهو يحدث نفسه وقد تملكه اضطراب شديد: "إن كارلا هنا."

وعاد يقول فى مشقة وقد وضع يده على كتف ليو بينما الآخر يغلق الباب: "اعترف... قل الحقيقة ... أنني افسدت عليك حوارا عذبا... أن معك شخصا بالداخل، أليس كذلك؟... آه، أه!... فتاة جميلة...".

ورأى الرجل يلتفت إليه ويظهر عليه علامات استغراب تصحبها ابتسامة كريهة تنم عن زهو مستتر ويقول: "لا يوجد أحد على الإطلاق... كنت نائما". أدرك ميكيلى أنه أصاب الهدف، فوضع يده في جيبه وأمسك المسدس.

وعاد ليو يقول دون أن يلتفت إليه وهو يتقدمه إلى غرفة الانتظار "كنت نائما بالفعل ... كنت نائما... نوما عميقا... وكنت أحلم أحلاما جميلة"

"آه، صحيح؟".

"صحيح... وأنت جئت وايقظتني".

قال ميكيلي يحدث نفسه: " هل اطلق عليه النار في ظهره؟...كلا... " وأخرج المسدس من جيبه وصوبه نحو ليو وهو يحتفظ بيده إلى جانبه... سوف يطلق عليه النار بمجرد أن يلتفت إليه.

وتقدمه ليو داخل الغرفة، وقترب من المنضدة وأشعل سيجارة، وهو يلتف في ثوب النوم مثل المصارعين وساقاه متباعدتان وشعره مبعثر ورأسه الكبيرة منحنيه على عود الثقاب غير المرئي، كان يبدو وكأنه رجل واثق من نفسه ومن حياته، ثم استدار إليه، وعندئذ رفع ميكيلي يده وأطلق عليه النار بكل حقد وكراهية.

ولكن لم يحدث أى دخان ولا أى دوى، أما ليو فقد تملكه الذعر عندما رأى المسدس وارتمى خلف المقعد وهو يزوم، وبعد ذلك صوت الزناد الجاف. قال الفتى لنفسه "ربما انحشرت" ، ورأى ليو يصرخ قائلا "أنت مجنون!" ثم يرفع مقعدا في الهواء كاشفا بذلك عن كل جسده ... فتقدم للأمام وأطلق النار مرة أخرى ولكن لم يصدر منه سوى صوت الزناد الجاف. وأدرك أخيرا وقال في فزع "إن المسدس ليس به طلقات... والرصاصات في جيبي". ووثب جانبا، ليتجنب المقعد الذى يهدده به ليو، واسرع إلى الركن المقابل ورأسه تدور، وكان حلقه يجف وقلبه يخفق وقال لنفسه: "طلقة ... طلقة واحدة فقط". فتش في جيبه وأمسك بأصابعه المرتبكة بعض الطلقات، ورفع رأسه، وهو يحاول بيده المضطربة أن يفتح الخازنة ويضع فيها الطلقات؛ ولكن ليو لاحظ ما يفعله وقذفه بالمقعد فأصابه في يده وفى ركبته إصابة قوية اسقطت المسدس على الأرض؛ فأغمض عينيه من الألم، ثم تملكه غضب شديد، فانقض على ليو وحاول أن يخنقه، غير أنه تلقى ضربات من اليمين ومن اليسار، ثم ضربات أخرى عنيفة حتى إنه سقط على الأريكة بعد أن ارتطم بكرسي وانقلب، فانقض عليه الآخر وأمسكه من معصميه.

ساد صمت، وتبادلا النظر وحاول ميكيلي جاهدا أن يخلص نفسه وهو يلهث وقد اضطرم وجهه وهو مضغوط بشكل مؤلم في الأريكة،

ولكن ليو رد عليه بأن لوى معصميه، محاولة آخرى، ولي من جديد، وفي النهاية انتصر الألم والغضب على الفتى، وبدا له في غموض أن الحياة لم تقس عليه في يوم من الأيام كما قست فى هذه اللحظة، وبينما هو مضغوط بشدة شعر بالحنين إلى بعض الهدهدات الأمومية البعيدة جدا؛ واغرورقت عيناه بالدموع؛ فأرخى عضلاته التي تؤلمه، وترك نفسه. نظر الرجل إليه لبرهة: كان ثوب النوم مفتوحا و صدره العاري كثيف الشعر يرتفع مع النفس الذي يخرج من حين لآخر من منخاريه المتوهجين على هيئة نفخة كنفخ الضواري: وأخذ ينظر وينظر وكل جسده يعبر عن غضب ثائر يكبحه بالكاد.

في النهاية قال الرجل بقوة وهو يهز رأسة: "أنت مجنون!" ثم اخلى سبيله.

نهض ميكيلي وهو يفرك معصميه لفرط المه: ورأى ليو واقفا، لا يتحرك فى وسط الغرفة والمقعد مقلوبا وهناك، في الركن، ذلك الشيء الأسود، مسدسه... في الواقع كل شيء قد انتهى... كل شيء قد تم... ولكنه لم يستطع أن يفهم... لم يكن يدري إذا ما كان عليه أن يتظاهر بالسخط أم بالخوف... وراح ينظر إلى ليو وهو لا يكف عن فرك معصميه فى حركة آلية.

قال الرجل آخيرا وهو يلتفت ناحية الباب: "والآن ... الآن، بحق السماء، انصرف من هنا". كان يود أن يبادر بأي تصرف عنيف ولكنه تمالك نفسه. وأضاف قائلا: "هذا التصرف الأحمق ... سوف اتناقش فيه مع أمك".

ولكن ميكيلي لم يتحرك وراح يفكر: "إنه لا يعاتبنى ولا يعبر عن غضبه، إنما يريد أن يتعجل انصرافي ... لأنه يخشى أن أكتشف وجود كارلا... أن كارلا بالداخل... في الحجرة المجاورة". ونظر إلى الباب الثاني وكاد يشعر بالدهشة لأنه كان يشبه جميع الأبواب الأخرى، ولم يفصح بأي شكل من الأشكال عن وجود أخته من خلفه،على سبيل المثال من خلال ظهور طرف قميص نومها محشورا في الباب أثناء غلقه بسرعة.

وأخيرا سأل بصوت واضح "أين كارلا؟" ؛ فاعتلا وجه الرجل شيء من الدهشة: ولكنه كان شيئا عابرا:

قال ليو مكررا بشكل طبيعي للغاية: "كارلا؟ ...وأنى لى أن اعلم؟ قد تكون في البيت، أو في الشارع". واقترب منه، وأمسك بذراعه: "هل ستخرج من هنا أم لا؟"

قال الفتى وقد شحب وجهه وهو ينظر إليه، دون أن يحاول التخلص من قبضته. "صه ... لا تظن أنك تخيفني... سأنصرف عندما يحلو لى ذلك".

عاد ليو يقول في صوت أعلى"هل ستنصرف من هنا أم لا؟" واتى بحركة لكى يجذب ميكيلي نحو الباب، ولكن الآخر قاومه وهو يضغط بقدميه على الأرض ويقول في صوت عال:

"اظن أن كارلا موجودة بالداخل، في حجرتك". ثم دفعه قائلا: "اتركني وشأني"؛ ولكن ليو لم يخل سبيله.

وعاد يقول فى شيء من الزهو."بل ستنصرف من هنا ... أننى هنا في بيتي أفعل ما أشاء وما يروق لي... ستخرج من هنا بالذوق". ودفعه من كتفيه ولم يستطع ميكيلي الالتفات.

قال بصوت عال وهو يشعر بأن الأرض تنهار من تحت قدميه:"أنت وقح!" "وقح...".

قال ليو مرددا وهو يدفعه: "نعم أنا وقح... كما تريد ... ولكنك ستخرج من هنا".

وفي هذه اللحظة انفتح الباب ودخلت كارلا.

لم تكن ترتدي سترة، وإنما كانت ترتدي جونلة قصيرة وبلوزة من الصوف بني اللون، لابد وأنها ارتدت ملابسها للتو، وعلى عجل، لان شعرها كان منكوشا، ووجهها شاحبا، ومظهرها يجمع بين عدم الزينة والإرهاق، كذلك المظهر الذى تتسم به السيدات اللاتي لم يستطعن أو لم يردن التزين. أغلقت الباب خلفها وتوجهت مباشرة بنظرتها الجامدة إلى منتصف الغرفة وهي تقول:

"لقد سمعت جلبة فأتيت".

بعد لحظات من الدهشة ترك ليو ميكيلي واسرع إليها وأخذ يهزها من ذراعها قائلا:"كيف هذا؟ ... كيف؟ قولت لك ابقي هناك وأتيت على الرغم من ذلك... كيف؟... من أكون أنا في اعتقادك... إنكما لمجنونين أنتما الاثنان!... كيف؟". لم يكن يستطيع الكلام من شدة الغضب، ثم بدا كأنه يتمالك نفسه عندما قال: "حسنا، بما إنكِ أتيت، حسنا، ها هو أخوك... ميكيلي الذي يطلق النار على الناس... كلميه أنت، افعلي فيه ما شئت...: أنا سوف أنسحب من الموضوع...". وتركها كمن لا يريد أن يزعجه أحد، ومضى فيجلس بجوار النافذة.

نظر ميكيلي إلى كارلا؛ أين ذهب سخطه الفاضل الذي تصور أنه لابد أن يشعر به في تلك اللحظة؟ ذهب إلى أي مكان آخر؛ كما أن فكرة التغرير نفسها لم تكن لتأتي إليه لو لم يقم ليو بالإمساك بذراع الفتاة بتلك القسوة، ولو لم تظهر كارلا بهذا القدر من الإهمال في ملابسها التى ارتدتها على عجل، وفكر: "يعلم الله كيف كان حالي عندما أتيت إلى هنا" وراح يبحث فى أسى عن أثار الخطيئة... في هذا الوجه الشاحب والعيون التي تحيط بها الهالات، المستباحة، والشفاه الباهتة من كثرة الاستعمال، والتعبير المضطرب الثمل، كل شيء يؤكد شكوكه؛ ولكن ها هو الجسد، الجسد المستباح، الملتهب، الذي تعرض للالتواء ألف مرة تحت قوة الشهوة، هذا الجسد لا يفصح عن شيء، أنه كما كان في الماضي، ولكن كانت حافة الصدر تولد لديه إحساسا غريبا بأنه لم يعد ذلك الشيء البريء الذي اعتاد على اعتباره عضوا منعزلا، ومنفصلا عن الاعضاء الخفية الأخرى، وإنما يبدو طرفا مدنسا يمكن من خلاله تخمين الجسد العاري بأكمله.

وقال أخيرا فى عناء "أهنئك من كل قلبي ... ولكن لم يكن من الضروري أن تكلفي نفسك عناء ارتداء الملابس... كان يمكنك أن تخرجي مثل ليو... فى ثوب النوم". وأشار إلى الرجل بإصبعه، وهنا أشاح هذا الأخير بإشارة غاضبة فانكشف صدره.

ساد صمت ثم قالت كارلا فجأة في توسل وتأثر: "يا ميكيلي، لا تتحدث بهذه الطريقة" ؛ "دعني افسر لك...".

اقترب ميكيلي من المنضدة واستند عليها وقال: "ليس هناك ما تفسرينه ...لا أدري إذا كنت تحبينه أم لا" وراح يواصل حديثه كما لو كان الآخر ليس موجودا، هناك بجوار النافذة، "ولكنك بالتأكيد، ارتكبت خطأ جسيما في حق نفسك... أنت تعلمين ماذا يمثل بالنسبة لأمك، وأي رجل هو، ومع ذلك سلمت له نفسك... ومع ذلك فأنا متأكد من أنك لا تحبينه...".

قالت مؤكدة دون أن ترفع عينيها "أنني لا أحبه ... ولكن هناك سببا آخر...".

قال ليو مكررا كلامها، وهو ينظر إليهما ، الأخ وأخته، بشيء من الاحتقار المازح "آه، هناك سبب آخر!" . الآن هدأ الغضب ولم يعد يتبقى سوى انتظار ما تسفر عنه الأحداث. فكرليو وقال: "سأقول لك أنا السبب" ، وخطر بباله ذلك السلوك الشهواني الذي كانت فيه كارلا منذ عشر دقائق مضت، "إنها الرغبة يا عزيزتي، الاحتياج الذي كنت تشعرين به...".

أكمل ميكيلي قائلا: "ولا أنت تعلمين لماذا فعلت ذلك"، كان يبدو له، وهو منفعل، أنه يقرأ في خطيئة أخته كمن يقرأ في كتاب مفتوح، "ولا تستطعين أن تقولي السبب".

قالت كارلا محتجة وهي ترفع عينينها "لا، أنا أعرف".

"إذن قولي".

نظرت كارلا إلى ميكيلي ثم إلى ليو وهي مضطربة وودت لو قالت: "لكي أعيش حياة جديدة". ولكنها لم تسعفها شجاعتها، فقد رأت أن هذا السبب البعيد الذي تنطوي عليه سريرتها، وبعد أن رأت أن شيئا لم يتغير سوى في جسدها الذي تمكن منه، كان يبدو لها سببا مضحكا وتافها، منعها من الكشف عنه ذلك الخجل والخوف من ألا يصدقها أو أن يسخر منها، فصمتت وطأطأت رأسها.

وعندئذ واصل ميكيلي كلامه فى انتصار "سأقوله لك أنا، هذا السبب" ، بالرغم من أن الغضب كان يتفجر بداخله بسبب الدور الذي كان عليه أن يلعبه (كان يفكر:ماذا اكون؟ هل أنا رب أسرة؟): "لقد تملكتك لحظة ضعف... لحظة ملل، لم تحاولي أن تبحثى أبعد عن ليو وقبلته على الفور كما كنت ستقبلين أي شخص آخر تلتقي به... استسلمت له دون أن تعرفى لماذا، لا شئ الا لكى تفعلى شيئا ما".

ردت قائلة "نعم... لكى افعل شيئا ما".

وقال ليو لنفسه فى سخرية"وهل ما فعلتيه تسمينه شيئا؟".

كان يشعر بانعدام الشفقة تجاه الاثنين: وكان يبدو له أنه من غير المعقول والمضحك أن ميكيلي، ذلك الفتى الغبي الذي حاول أن يطلق عليه النارولكنه نسي أن يحشو خازنة المسدس، وهذه العاهرة كارلا التي كانت حتى دقائق قليلة مضت عارية بين أحضانه وفي فراشه، والتي كان قد لبى لها كل ما تريد، كلاهما يعتلي عرش القضاة، ويتحلى بأجنحة الملائكة وهالات القديسين، ويرتدي ثوب الطاهرين تاركا إياه في السفالة والوحل كان يود لو صرخ وقال: "ولكن أفعلا لي معروفا ... وانزعا هذه الوجوه المزيفة، وهذا الكلام الخطير... سمّيا الأشياء بأسمائها... لا تنسيا نفسكما". ولكنه تمالك نفسه، وهو يتطلع في فضول إلى ما سوف ينتهي إليه هذا المشهد الأخوي.

وراح ميكيلي يواصل كلامه قائلا: "وبعد ذلك أدركت أنك لم تفعلي شيئا... خرجت من موقف مستحيل لتبحثي عن وضع آخر ليس أقل كآبة ومللا... هذا ما آلت إليه الأمور...". وصمت قليلا وهو ينظر إلى كارلا؛ وحيئذ، عندما رآها شاخصة هناك أمامه، صامتة وعنيدة، لا كما تقف المرأة المذنبة ولكن كشخص يستمع إلى عتاب عادي فى احترام، وربما أيضا في خضوع، ولكن بالتأكيد بلا مبالاة، ونظرا لأنه في الوقت نفسه كان يشعر بالابتعاد عن الحقيقة والاختفاء وراء الأكاذيب التي يضطره إليها ذلك الخمول الذي يسيطر على روحه، تملكه شعور بالغصة الكئيبة والألم المهين وقال لنفسه: "إنه امر غامض... لاشيء غير الغموض...". أنزل عينيه وراح يقول فى صوت دفين متردد: "الآن علينا أن نبدأ من

جديد... إن الملل ونفاد الصبر هما اللذان دفعانا إلى أخطائنا... إنك لا تحبين هذا الرجل، وأنا لا أكرهه... ومع ذلك فقد جعلنا منه محور تصرفاتنا المتناقضة...". كان قلبه يرتجف، وبسبب ما كان يشعر به من ضيق وعجز كان يود لو صرخ بأعلى صوته: "لابد أن يبدأ كل شيء من جديد" قال بمرارة "ستكون حياة جديدة".

"حياة جديدة؟". اقتربت كارلا من النافذة وقد تخلت عنها شجاعتها، وكانت قطرات المطر الأولى ترسم خطوطا على الزجاج الذي يغطيه التراب.، وظلت تنظر لبرهة في ذهول. "حياة جديدة؟" إذن لم يتغير شيء بالفعل؟ هذه المغامرة القذرة التي قامت بها ليست سوى مغامرة قذرة؟ وبدا لها وكأنها تختنق.

قالت بصوت واضح، دون أن تلتفت إليه: "كلا ...لا أعتقد أن هناك حياة جديدة ممكنة".

ثم قالت وهي تشير بإشارة ساخرة إلى العشيق القابع، هناك، على مقعده: "لقد ذهبت معه ... لقد فعلت ذلك، أتفهم؟ من أجل هذه الحياة الجديدة... أما الآن فأنا أدرك أن شيء لم يتغير...: من الأفضل إذن عدم القيام بمحاولات أخرى... والبقاء على هذا الحال".

بدأ ميكيلي يتحدث بصوت يتسم باللامبالاة ويقول: "لا... لا" ؛ الآن وقد اضطر إلى النزول من إحساسه المنفعل إلى حالة أخته الخاصة ، بدأ يدرك فى خوف أن ذلك القدر القليل أيضا من الإيمان يتخلى عنه "لا... لاشيء تغير لأنك لا تحبين ليو... لقد كان خطأ لا فائدة له...ولكى يعيش المرء ويغير حياته، لابد له من الالتزام بالصدق..."و بدا له فجأة أمرا غير عادي وغبيا أن كل الحالات تتلاقى في حالته مثلما يحدث لأولئك المرضى الذي ينسبون للجميع نفس مرضهم، وخشي أن يتصف بالأنانية، ولا يرى سوى نفسه، وألا يفهم كارلا. ثم أضاف وقد تخلت عنه شجاعته: "هذا ما اعتقد على الأقل ... أعتقد أنك لابد أن تنفصلي عن هذا الرجل الذي لا تحبينه... سنبيع الفيلا ونسدد له دينه، وإذا تبقى شيئا خير وبركة... سنترك هذه الحفلات، وهؤلاء الناس، وهذا الوسط، وكل هذه الأشياء التي أصبحت لا تطاق... سننتقل لنعيش في منزل صغيرقليل

الحجرات... ستكون هذه حياة جديدة". ولكن كانت تنقصه، وهو يدرك ذلك، الحرارة والصوت القوي، والحزم والنغمة التي تتسم بالثقة والعطف، لقد كان يشعر باللامبالاة والتعب.

حولت كارلا نظرتها بعيدا عن هذه العيون الخالية من الإيمان والأوهام ووجهتها نحو النافذة وقالت في النهاية كما لوكانت تحدث نفسها: " هذا مستحيل".

وساد صمت. وكان حديث كلام الفتى قد جمّد الدم في عروق ليو وسط سخريته الحارة اللاذعة وقال لنفسه: "يبيع الفيلا... إنه مجنون" فعلا، إذا باعوا الفيلا فسوف تتبخر الصفقة ، أنهم إذا ما عرضوها للبيع فسوف يقيّمونها: حينئذ ستظهر قيمتها الحقيقية، أنه سكن رحب يقع في أرقى أحياء المدينة، ويحيط به حديقة شاسعة يمكن بيعها مجزأة لاقامة مباني جديدة... حنيئذ ستفشل الصفقة. ونظر إلى كارلا ثم إلى ميكيلي وقال لنفسه: "إنها كارثة ... وأي حياة جديدة"؛ وفجاة خطرت بباله فكرة قرر تنفيذها على الفور مثل تلك الأدوية التي يجب تناولها دون نقاش.

فقال في صوت عال "لحظة... لحظة... فأنا أيضا هنا". ونهض وأبعد ميكيلي عن طريقه بحركة من يده وأمسك بذراع عشيقته وأرغمها على الجلوس قائلا: "إجلسي هنا". وأطاعته الفتاة بوداعة بدت فظيعة في عيني ميكيلي الذي قال في يأس لنفسه: "لن يحدث شيء على الإطلاق".

وجلس ليو بدوره أمام كارلا وبدأ كلامه في طلاقة وبتحديد كما يفعل في كل صفقاته قائلا:"من المؤكد... من المؤكد أننا لم نحسن التصرف... لقد ارتكبنا بعض الأخطاء... لقد فكرت في ذلك وانتما تتحدثان... فكرت في الأمر يا كارلا... الآن ... ما رأيك لو عرضت عليك تصحيحا لهذا الوضع... لو عرضت عليك أن نتزوج؟". كانت ترتسم على شفتيه السميكتين ابتسامة تجمع بين المنتصر والمقنع، كان واثقا من نفسه: "مارأيك، هه؟" عاد ليسألها وهو يمسك بيدها فوق المنضدة.

حاولت كارلا أن تسحبها ولكنها لم تفلح وراحت تكرر عبارته وهي تبتسم أبتسامة حزينة: "نتزوج؟ ... نتزوج أنا وانت؟".

قال ليو بإصرار "نعم ... نتزوج أنا وانت... ما الغريب في ذلك؟".

هزت الفتاة رأسها... ففكرة الزواج كانت تسبب لها الامتعاض، فأن أمها ستكون معها بالمنزل ... وهى عشيقة زوجها الغيورة ... لقد فات الاوان وأن كانت لاتدري لماذا فات الاوان لكى تتزوج... فكل منهما يعرف الآخر بما فيه الكفاية ليصبحا زوجين... من الأفضل أن ينفصلا ... الانفصال... أولعل من الاوفق أن يبقيا هكذا... عشيقين... وبدا لها أن أي وضع خسيس ومثير للشفقة أفضل لها من فكرة الزواج هكذا فكرت مع أول احساس بالامتعاض ومع أول شعور تلقائي بالدفاع عن فكرة الزواج النقية والبعيدة هذه... كانت تفكر ولكنها لم تجد الكلمات، كأن ابتسامة عشيقها ونظراته قد فتنتها. وبعد ذلك شعرت بيدين توضعان على كتفيها... أنها يد ميكيلي. قال لها فى صوت منخفض: "لا...قولي له لا"، ولكن صوته لم يكن منخفضا بالقدرالذي لا يسمح لليو بأن يسمعه.

وعندئذ ترك هذا الأخير يد كارلا وهب واقفا صرخ في غضب: "هل من الممكن أن تقدم لي معروفا وتترك أختك وشأنها؟... أنها هي التي ستتزوج وليس أنت... دعها تفكر... دعها ترد حسب مصلحتها... بل إنه من الأفضل أن تبتعد قليلا عنا وتتركنا بمفردنا، أنا وكارلا... ثم نستدعيك عندما ننتهي من حديثنا".

رد عليه ميكيلي متحديا "هدئ من نفسك... أنا سأبقى هنا" ، فأشار الآخر بإشارة تنم عن نفاد الصبر ولكنه لم يرد.

وقال لكارلا وهو يعاود الجلوس "إذن ... فكري في الأمر". ثم ضغط من جديد على يدها وقال: "فكري في الأمر...أنا لست عريسا سيئا... أن لدي ثروة ومركزمستقر ومعروف ومحل تقديرالجميع... فكري في الأمر..". وصمت لبرهة ثم أضاف: "لا اعتقد انك ستجدين زوجا وانت في مثل ظروفك هذه؟"

سألته وهي تنظر إليه "في ظروفي هذه... كيف؟".

قال ليو وقد مط شفتيه:"هكذا ... فأنك لاتملكين قرشا واحدا... ولابد أن أقول لك، فإن وضعك أصبح مشينا".

قاطعته بصوت ناعم قائلة "وضعى أصبح مشينا... كيف؟"..

قال ليو مكررا "مشينا ... كل أصدقائك هؤلاء لا يعاملونك كفتاة لها احترامها... واضح... سينالون غرضهم منك ولكن أحد منهم لن يفكر فى الزواج منك... فهم ظرفاء طالما الأمر لم يتعد كونه تسالي..."

ساد صمت، وتبادلا النظرات، وودت كارلا لو صرخت بأعلى صوتها وتقول: "أنتما السبب ... أنت وأمي السبب في كوني هكذا"، ولكنها تمالكت نفسها واطرقت رأسها.

واستطرد ليويقول: "أما أنا ... سوف أضع كل شيء في نصابه... ليس فيما يتعلق بك فقط، وانما فيما يتعلق بأسرتك أيضا... سنأخذ أمك للإقامة معنا... وميكيلي سوف يعمل... ربما أجد أنا عملا له، سأجد له وظيفة". وبعد كل وعد جديد كان ينظر باهتمام إلى كارلا، مثل قاطع الأشجار الذي ينظر بعد كل ضربة بلطة إلى جذع الشجرة ليرى ما إذا كانت أوشكت على السقوط أما لا؛ ولكن كارلا كانت تتأمل النافذة التي غمرتها الأمطار بشدة في تلك اللحظة دون أن ترد.

اجتاح الغرفة ظل رطب وراح ميكيلي يقطع الغرفة جيئة وذهابا وهو يفكر: "يجد وظيفة لى... أعمل" كان يكرر ذلك وهو مضطرب؛ لا شك أن ليو يتحدث بجدية... وكل ما يقوله... سينفذه... سيساعده على كسب المال... في مقابل صدقه المبهم يقدم الرجل وعودا قوية... ماذا يختار؟... إنه إغراء قوي... أموال، معارف، نساء، وربما سفر، وربما بذخ، حياة مستقرة على كل حال، مستقيمة، واضحة، مليئة بالنجاحات، بالعمل، بالحفلات، بالكلام الصادق... كل ذلك مقابل زواج كارلا... هذا لا يعنى أنه سيبيع أخته، فأنه لا يؤمن بهذه الكلمات العظيمة المفزعة، لا يؤمن لا بالشرف ولا بالواجب... كان يشعر باللامبالاة، مثلما كان دائما، متأمل لا مبالي.

فكروقال أخيرا وكأنه مضطر. "لن أقول لها شيئا ... سأتركها تقرر هي بنفسها... فإذا قبلت خير وبركة وإذا رفضت خير وبركة أيضا". ولكن إحساسا خفيفا بالضيق كان يشعره بخسة أفكاره هذه، فرفع عينيه، ونظر تجاه النافذ، كان الرأسان في هذا الضوء الخافت يرتسمان

بوضوح، في هيئة سوداء على خلفية الزجاج الرمادي ... لابد أن المطر سيهطل... ثم عاود السير، وكان يتوقف من حين إلى آخر، وينظر: أين رأى هاتين الهيئتين السوداوين على خلفية الشباك من قبل؟ كان يتملكه حزن عصبي عندما كان يراقبهما وراح يحدث نفسه ويقول:

"هكذا ... هكذا... أنا أقطع هذا الظلام جيئة وذهابا... وهما جالسان، هناك، بجوار النافذة، أنا أسير... وهما يتحدثان... نحن منفصلون... بعيدون... لماذا نحن هكذا؟ كما لو كان كل منا وحيدا في الحياة، كما لو كنا لا نرى بعضنا". واغرورقت عيناه بالدموع ... أين رآهما من قبل؟

وسمع ليو يقول: "إذا كنت مترددة بسبب أمك، فأطمئني... أؤكد لك أن كل شيء بيني وبينها قد انتهى منذ زمن".

ساد صمت، وهزت كارلا رأسها قائلة: "لا، ليس بسبب أمي، ليس هذا هو السبب"

قال ليو "ربما بسبب ليزا".

"آه! لا".

قال متعجبا "أوه! إذن؟ ... لماذا ترفضين؟... لا أرى سببا يجعلك ترفضين" وأضاف وهو يبتسم ويضغط على يد الفتاة: "ليس بالتأكيد...لأسباب عاطفية".

ونظرت إليه ،وشعرت بشيء من الفطنة الحزينة تسيطر عليها الأن بعد دفعة رفضها الاولى وقالت لنفسها: "فعلا، لماذا أرفض طلبه ليدي بعدما أعطيته كل شئ ؟". ولكن عادت القسوة إلى داخلها من جديد... إنها لا تصدق وعود ليو... لا وراحت تفكر: "إن كلا منا لا يحب الآخر... سيكون زواجا فاشلا"؛ ولكن وعود ميكيلي تبدو لها وعودا صبيانية وعادت تفكر: "الحياة لا تتغير... لن تتغير أبدا... إن ليو محق... من الأفضل أن نتزوج". وكانت بالفعل على وشك أن تتراجع، وتوافق على كلامه وابتسمت ابتسامة تجمع بين المهانة والخجل، كانت تتخيل بالفعل أن زوج المستقبل قد لف يده حول خصرها وقبلها على جبهتها، وكانت تتخيل مشهدا جميلا مؤثرا، عندما ارتفع صوت ميكيلي

في نهاية الغرفة قائلا: "استحلفك بالله يا كارلا، استحلفك بالله، قولي له لا". والتفت كل منهما، كان ميكيلى واقفا وسط الغرفة يبدو وكأنه يشعر بالخجل بسبب هذا التوسل المنفعل، بينما هب ليو واقفا وضرب بقبضته على الطاولة قائلا بصوت عال: "هل لك أن تقلع عن هذا، هل لك أن تقلع عن التدخل في الأمور التي لا تعنيك؟".

تقدم ميكيلي خطوة للأمام قائلا: "إنها أختي".

قال ليو مكررا: "إنها أختك ... وبعد ذلك؟ أليست هي حرة في اختيار الزوج الذي تريد؟". وعاد ليجلس من جديد ويقول لكارلا: "صدقيني أنا، يا كارلا ... لا تسمعي لنصائح أخيك... فهو لا يدرى ما يقول ".

ولكن الفتاة أشارت له بيدها أن يصمت ووجهت سؤالها إلى الفتى: "لماذا؟ ... يجب أن أقول له لا؟".

رأته يتردد ويقول: "إنك لا تحبينه".

"ليس هذا بسبب كاف... فالحب يمكن الاستغناء عنه".

"هناك أيضا أمنا...".

قالت كارلا وهي ترفع كتفيها "آه! أنها ... أنها لا تسبب قلقا".

ساد صمت، وبعد برهة قال ميكيلي فى إصرار و صوت مرتعد: "كارلا ... عليك أن ترفضيه لمجرد أنني أطلب منك ذلك... لو تزوجت ليو، هه... سيحل الخراب التام...". فكرت وهي تنظر إلى الفتى "بالتأكيد لن يكون شيئا جميلا". ولكن بعد نشوة الحلم بالحياة الجديدة امتلكها إحساس حزين وبائس بالحاجة إلى الواقع.

سألته فى صوت حاد: "وفي المقابل ... ما الذي سأحصل عليه؟".

نظر إليها قائلا: "ما الذي ستحصلين عليه؟ ... مالذي ستحصلين عليه؟... ستكونين حرة... حرة في اختيار حياة جديدة". كانت عينا كارلا هادئة وخالية من أى تعبير، وخدودها سوداء، وكتلة من شعرها المبعثر تحيط بوجهها.

ساد صمت ثم استطرد يقول بعدما شعر بغموض كلامه: "لا تظنين أنني أقول كلام زائف ... أنا أيضا في نفس وضعك بشكل أو بآخر... أعلم أن هناك صعوبات كثيرة... ولكننا سنصل في النهاية... سنصل إلى الحياة الجديدة". رأى كارلا تهز رأسها دون أن ترفع نظرها عن النافذة، كان يود لو صرخ فيها ويقول. "اجعلي لديك إيمانا"، وكان ليو يبتسم وهو واثق من نفسه وقال: "هذا كلام فقط ... الحياة ليست لا جديدة ولا قديمة، الحياة هي الحياة".

في النهاية انتفضت وتحولت إلى عشيقها وسألته في زهو مفتعل: "أتريد أن نتزوج حقا يا ليو؟".

رد عليها بحدة "بالتأكيد".

قالت في إصرار: "الا تخشى أن يفشل هذا الزواج؟". ثم أضافت في هدوء "فأنا مثلا ... على قناعة من أنك سوف تخونني".

فكر ليو وهو يحملق في تلك الرأس اليانعة التي يلتهمها الظلام: "بل أنت التي ستخونني، يا عاهرتي"، كان يود لو ناولها ضربة خفيفة، هناك، على ثدييها المنتفخين، ضربة مزاح ومرح ساخر، لأنه من آن لآخر يبدو له وكأنه يراها على ماكانت عليه منذ دقائق قليلة، عارية بيضاء، بتلك الحركات البهيمية التي تنم عن عدم الخبرة قال لنفسه: "أتزوج من عاهرة"، ثم مد يده وقال في احتشام: "أقسم لك أننى سأكون مخلصا لك دائما".

هنا تدخّل ميكيلي قائلا: "كارلا... قولي له لا". واقترب منها، ووضع يده على كتفها. "قولي له لا... والسبب... سوف تعلمينه فيما بعد".

كانت كارلا تنظر إلى النافذة، ورأسها المستديرة تبدو غير متناسقة مع تلك الأكتاف النحيفة، كان الليل قد أقبل، لم يعد سوى فلول الضياء، وذلك الذى يشبه الإشعاع يتراجع على زجاج النافذة المبتل، وكان المطر يهطل، وظلام البيت قد أدركهم: لم يكن يرى سوى الوجوه المنحوتة، كأن شيئا يبتلعها، والأيدي الممدودة على الطاولة.

وأخيرا قالت : "حان الوقت لكى ننصرف" وهبت واقفة.

سألها ليو "وما ردك؟"، ونهض هو الآخر، وسار يتحسس الحائط، ثم أضاء النور، وللحظة في هذا الضوء تبادل الجميع النظر بعيون يغشاها الضوء، وكأنهم مندهشون من رؤية بعضهم البعض، كارلا وميكيلي، الواحد بجانب الآخر بجوار النافذة، وليو بجوار الباب. ولأول مرة لاحظ الرجل نوعا من الشبه بين الأخ وأخته: نفس التعبير المتردد، نفس حركة اليد الخائفة، ولكن وجه كارلا كان مرهقا فقط، هاهي، تمرر يدها على عينيها بلونهما البنفسجي، بينما يظهر على ميكيلي حزن متوتر وخيالي؛ كانا واقفين بجوار بعضهما أمام فتحة النافذة وبدايان وكأنهما خائفان منه.

قالت الفتاة بعد لحظة :"ردى؟ ... غدا، ياليو... غدا...: يجب أن أتحدث مع أمي". والتفتت إلى أخيها، ووضعت يدها على صدره قائلة: "ميكيلي، انتظرني هنا"، وأضافت وهي تنظر إليه باهتمام: "سأذهب لأحضر قبعتي وأعود". مرت ما بين الفتى والمنضدة، فى حركة سريعة رشيقة، ومرت أمام عشيقها، وفتحت الباب على اليمين، ولم تغلقه، وبعد ذلك أضيء نور الغرفة، ورأى ميكيلي دولابا بمرآة، وبساط، وكانت كارلا تروح وتأتي، في البداية قامت بإنارة المصباح فوق المرآة كشخص يعرف المكان وصففت شعرها بعناية، ثم خرجت وعادت بالسترة والقبعة، ارتدتهما بخيلاء، ثم اختفت من جديد، ثم جاءت بحقيبة يدها ووضعت مساحيق التجميل... بينما لم يتحرك الرجلان ولم يكلم أحدهما الآخر أثناء هذه الاستعدادات، ظل ليو عند الباب، بثوب النوم هذا، المربوط عند الخصر، القصير والملئ بالثنيات، بساقيه المتباعدتين، وصدره العاري، وعيناه ورأسه إلى أسفل كما لو كان يفكر تفكيرا عميقا؛ وعلى جبهته الصلعاء كان شعره المنثور الخفيف يشبه سحابة صغيرة رمادية؛ وكانت يداه متشابكتين عند ظهره ومن آن لآخر، ودون أن يرفع رأسه، كان يشب على أطراف أصابع قدميه ثم ينزل بثقل على كعبيه.أما ميكيلي فلم يبتعد عن النافذة، من هناك، كان يراقب بعيون شاردة حركات أخته المألوفة السريعة أمام المرآة. كان يبدو له أن جوا ثقيلا وفاسدا يملأ الحجرة المجاورة، لابد أنها غير مرتبة ونجسة، ملاءات مقلوبة، ملابس ملقاة على المقاعد، وسائد واقعة، عطور، روائح تبغ ونعاس... ووسط

هذا الجو، وهذه الفوضى، كانت كارلا تتحرك بحرية، تكاد تكون مبتهجة، بساقيها الرشيقتين هاتين.... كانت مبعثرة الشعر، مرهقة، شاحبة... الآن هاهي جاهزة للخروج، ترتدى قبعتها وقد لبستها جيدا حتى عينيها، ووجهها تغطيه المساحيق، نضرة، وردية، شفاه ملونة، خصلتان معقوفتان على خديها، هاهي تترك هذه المرآة المتربة، وهذا الهواء الملوث، وهذا الحائط، وهذا المقعد، وتأتي نحوه.

قالت فى هدوء "هيا بنا" ، ومدت يدها إلى ليو قائلة: "إلى اللقاء يا ليو".

وقال هامسا وهو يقبل أطراف أصابعها :"إذن الرد سيكون بنعم، أليس كذلك؟" ، كان يشعر بالسعادة والثقة، ونظرت كارلا إليه ولم ترد، خرج الثلاثة إلى الردهة، أولا الفتاة وبعدها الرجلان، كان ليو يدور حول عشيقته وهو يشعر بالرضا وكاد يكون منشرحا وهمس يقول لها: "سنتزوج... سنتزوج". بينما كان ميكيلي في الركن المقابل يرتدي المعطف، كان يود أن يراها تبتسم، أو حتى تلقي له بنظرة، أو إشارة تنم عن موافقة ممكنة، ولكن كارلا كانت غير مرنة وشاردة كما لو كانت لم تسمع ولم تر. وعادت وقالت: "إلى اللقاء يا ليو" وخرجت. وراح ليو يراقبهما من خلال فتحة الباب الموارب لفترة وجيزة، وهما يهبطان السلم، دون أن يتحدث أي منهما مع الآخر، ودون أن يلتفتا وراءهما، وقد تبعهما على الحائط ظلهما المنبعج، غير واضح المعالم، أخيرا أغلق الباب وعاد إلى الصالون. رأى على الأرض مسدس ميكيلي، التقطه،و نظر شاردا في الهواء وهو يقدر ثقله، وتذكر أن لديه دعوة للرقص في الجراند أوتيل، وتذكر أيضا أن الأم قد قررت الذهاب إلى هناك: فكر وقال لنفسه"ستكون فرصة جيدة لتأكيد فكرة الزواج عند كارلا"، ومع شعوره بالرضاء التام ذهب ووقف أمام المرآة في حجرة النوم، وتطلع إلى نفسه وقال فى صوت عالي: "هيا، أنت تسير في الطريق الصحيح"، وود لو ضرب نفسه ضربة علي بطنه وقال: "حتى بعد الزواج ستكون ليو المعتاد". ثم انتقل إلى الحمام وبدأ يغتسل.

الفصل السادس عشر

عندما وصلا إلى عتبة الباب الخارجي لاحظا أن السماء تمطر دون عنف، ولكن بغزارة شديدة مثل إناء مثقوب، وكان صوت المطر يملأ الظلام، وطبقة رمادية من الماء تلمع على أرض الطريق، ميازيب، ومياه تنساب، ومجاري مائية، والأمطار الغزيرة القديمة التى مضى عليها أسبوعان تنساب من كل مكان و تتدفق دون نقاء بعد أن اختمرت على صفح السحب، وتحت هذا الطوفان كانت البيوت قائمة سوداء، وأعمدة الإنارة غارقة، وكذلك الأرصفة بدت كأنها أرصفة الموانيء البحرية التي يغوص نصفها في المياه.

كانا يسيران بسرعة وهما منحنيان تحت المطر، بجوار الجدران، وهما حريصان على الاحتماء بالمظلة الوحيدة التي معهما؛ وعند أحد المنعطفات فاجأتهم سيارة عامة خالية بشعاع مصابيحها المضاءة، فصعدا وانطلقت بهما.

وجلس كل منهما بجوار الآخر في الظلام، لم ينظر أي منهما للآخر، ولم يتحدثا معا، وراحت رجات السيارة تقفزهما وتجعلهما يصطدمان بعضهما ببعض كدميتين لا حياة فيهما، أعضاؤهما من الخشب، وعيناهما مفتوحتان وجامدتان. كان ميكيلي ممددا يستند على ظهر الكرسي وبدا عليه أنه مستغرق فى التفكير، أما كارلا فكانت منحنية قليلا تحاول أن تتابع الطريق؛ ولكنها لم تفلح، فقد كان الزجاج مبتلا ويعتمه بخار بارد، من المستحيل رؤية أي شيء. بدا لها وكأنها محبوسة خارج العالم، بمفردها مع أخيها في هذا الصندوق المظلم الذى يأخذها إلى مكان مجهول بسرعة شديدة، إلى أين؟ هكذا ينتهى يومها وحياتها القديمة: بسؤال من المستحيل الإجابة عليه: إلى أين المسير فى النهار أو فى الليل، وسط الظلام تحت الأمطار أو في وضح النور؟ لا أحد يعرف، وتملكهاالخوف! أرادت أن تقرب غايتها، وأن تصغر عالمها، وأن ترى وجودها كله كغرفة صغيرة. و فكرت "سأتزوج ليو". حملقت بعينيها في

زجاج النافذة المواجه، وبدا لها انها ترى صورا مضيئة تطل وترتسم على هذا السطح الأملس المعتم، أو زجاج البيت، في الليالي الممطرة، أو زجاج قطار، بليغ وممل، بوميضه الغامض، ونوافذ مفتوحة على ريف الأحلام السوداء: ها هي ... ها هي... تبزغ من هذا الظل السلالم المشمسة لإحدى الكنائس، وهي تلتف في ثوب أبيض و طرحة العرس الطويلة، ووجهها منحنى قليلا، لأبد أنه يوم مشمس، وقد تعلقت بذراع رفيقها، و يخرج خلفهما، متجردين من هذا الظلام، المشاركون في موكب العرس، واحد تلو الآخر: أمها وكانت بعيدة جدا، يبدو أنها كانت تبكي ولكن دون أن يظهر عليها، وفى يدها باقة مستديرة ولامعة من الورد، وميكيلي خافض رأسه كما لو كان يبحث عن مواضع قدميه؛ وليزا في ثوب ربيعي رائع، ومدعوون آخرون كثيرون لم تميز ملامحهم، السيدات بالملابس البيضاء، والرجال بالملابس السوداء، منتشرون، ومحتشدون وراءهم؛ بعضهم مازال نصفه في الظلام والبعض الآخر في كامل النور، الجميع في غاية الأناقة، و يمكن تمييز ثنيات سراويل الرجال الدقيقة، وقد حمل كل واحد منهم بين يديه بوقا لامعا متلئلئا؛ وكذلك باقات الزهور الملونة المستديرة فى أيدى السيدات زهرة زهرة... يخرج الجميع من باب الكنيسة الخفى، ويهبط خلف العروسين، والسلالم كلها مشمسة، وبعد ذلك، تبدأ فجأة موسيقى بطيئة، دينية، يبدو أنها تتبع خطوات الزفة خطوة خطوة؛ هل هو أورج أم أجراس؟ يبدو لها أنها تسمع نغمات النصر التي تصاحبهما، كانت نغمات مهيبة، ولكن يملأها حزن مرير واضح كما لو كانت بملابسها هذه وتعلقها بذراع زوجها ليست ذاهبة إلى الفرحة، وإنما إلى تضحية يقابلها جحود، إلى حياة مليئة بألام و مصاعب منقطعة النظير...

واهتزت، فهناك يد تمسك يدها :أنها يد ميكيلي، وراح ظل الزجاج يتسع فى سرعة وينتشرعلى أشكال موكب العرس الصغيرة المضيئة، كظل شريط تصوير احرقته أشعة الشمس، كانت السيارة قد أبطأت من سرعتها، وتوقفت، كانت تنتظر، ثابتة، لعبور شارع مزدحم، السماء تمطر،يسمع حفيف أشجار، أجراس، أبواق، أصوات، أنوار، وجوه،

وأخيرا تحركت السيارة وانطلقت. والتفتت إلى أخيها وسألته: "حسناً... ماذا تقول؟"

رأته يشير بيده فى حركة عشوائية عصبية قائلا فى مشقة: "إن لم أكن مخطئا ... إن لم أكن مخطئا فإني لم أقل لك لماذاعليك أن ترفضي الزواج من ليو".

قالت وهي تنظر إليه: "لا"..

مال الفتى إلى الأمام وسرعان ما بدأ الكلام دون توقف : "إليك... إليك السبب... اليوم، وقبل أن أذهب إلى ليزا... بالمناسبة هي التي كشفت لي عن كل شيء، عنك وعن ليو...".

"آه! هي إذن".

"نعم، على ما يبدو أنها فاجأتكم بالأمس في الطرقة... ولكن ما علينا... بالأمس، قبل أن أذهب إلى ليزا، ولا أتذكر كيف، فكرت في أحوالنا، في ظروفنا التي هي في الواقع سيئة للغاية... وشيئا فشيئًا امعنت كثيرا في التفكير، لدرجة أنني... فقدت ... ماذا اقول؟ ... فقدت صوابي، ووجدتنى أفكر في الآتي:' لقد افلسنا ولا علاج لذلك وفي غضون سنة، لو استمر الوضع هكذا، سيحل بنا الخراب... ولتلافي هذه الكارثة أليس من الأفضل تقديم بعض التضحيات أو المساومات؟ ورأيت أن الشخص الوحيد الذي يمكن التعويل عليه في هذه الحالة هو ليو... فكرت إذن ودون أدراك نظرا لطبيعة هذا الرجل، أنه زير نساء كما تعرفين، ومن أجل امرأة تروق له يدفع كل ما يملك أليس من مصلحتنا أن اتعهد أن أقدم له أختى مقابل أمواله ... هل تفهمين؟ انت يا كارلا... ليصطحبها إلى بيته؟".

سألته وهي تلتفت وتنظر إليه باهتمام: "هل خطر لك ذلك؟" وفي هذه اللحظة أضاء نور المصباح وجه ميكيلي لبرهة ... ورأت عينيه مفتوحتين متسعتين وعلى وجهه الأبيض الذي يومئ بالإيجاب، مهانة غريبة ومقززة... فأطرقت برأسها ... وغص قلبها المرتجف فى حزن أليم ... كانت السيارة تجري ... وميكيلي يتحدث:

"نعم ... فكرت في ذلك... ويبدو أنني أرى المشهد... أتعلمين؟" وأتي بحركة من يده وكأنه أراد أن يمسك بشيء "كان يبدو لي وكأنني أرى ما آل إليه حالنا نحن الثلاثة، أنا وأنت وليو في منزل هذا الأخير... فعندما أكون مضطربا يبدو لي أني أرى الأشياء التي أفكر فيها... وكيف كنا سنتناول الشاي في الصالون عند ليو، ثم أنسحب فى هدوء، حسب الاتفاق المسبق، وأتركك وحدك مع ليو..."

همهمت في فزع "إنه شيء فظيع"، ولكن ميكيلي لم يسمعها واستأنف الحديث وقال:

"أتفهمين...؟ عندما رأيتكما منذ قليل جالسين وجها لوجه، أمام نافذة الغرفة، وسمعت ليو يعرض عليك الزواج... بدا لي أنني أري المشهد الذي تخيلته... وهذا أمر يحدث للجميع...: يخرج المرء إلى الشارع، ويفكر في أشخاص بعينهم في أوضاع بعينها، وبالفعل يجدهم... ولكن في حالتي كانت هناك حسبة أخرى إضافية، حسبة أموال ليو. "هكذا" قلت لنفسي "كل شيء حدث كما توقعت ... كما لو أنني قلت بالفعل لليو: اسمع يا ليو... أن كارلا، أختي... فتاة جميلة... يانعة... "لا تغضبي... هكذا كنت أتخيل كلامي معه".

همهمت دون أن تلتفت إليه: "لن أغضب ...أكمل".

قال ميكيلي مكررا: "فتاة جميلة يانعة ... ستعطيني أموالا، موالا كثيرة، تتحمل أعباء أسرتي، وأنا في المقابل... في المقابل سأتخلى لك عن أختي... فافعل بها ما تشاء...".

صاحت فى حزن وغضب: ولكن ماذا تظن ...ماذا تظن أن أكون أنا؟ اتحسبنى جمادا؟ أو حيوانا؟"

ورد عليها ميكيلي وهو يبتسم نصف ابتسامة تعبيرا عن الانتصار كلا، ولكنني كنت أعلم أنك في حالة ملل... ماذا أقول؟ ، كنت في حالة ملائمة، وأنك ستقبلين بسهولة..."

تمتمت: "أكنت تعلم هذا؟"

واستمر ميكيلي في حديثه دون أن يرد على سؤالها: "ولن تقاومين... لم يعد للأمر أهمية...: وسأشعردائما بالندم على ذلك...: عندما أراكما، هناك، متزوجين، وعندما نعيش بهذه الأموال، سأشعربالألم لأننى اجرمت فى حقك جرما حقيقيا... أتفهمين؟... اتفهمين؟..." وراح يكرر سؤاله وقد تملكه الغضب، وهو يمسك بذراعها: "أتفهمين؟... فقد يفكر المرء في عمل شريروحشي، ولكنه لا يفعله... ثم يحدث كل شيء كما فكر فيه، ولكن ليس تماما، إلى حد معين، بحيث يستطيع أن يمنع حدوثه... حينئذ ماذا يجب أن يفعل ؟ سيحاول أن يعترض ... أن يمنع حدوث ذلك الشيء الفظيع... وإن لم يفعله، فإنه يشعر كأنه شريك فيه من البداية وحتى النهاية، أي كأنني سلمتك إلى ليو من أجل أمواله، وأحضرتك بالفعل إلى منزله... أتفهمين الآن؟ فإذا تزوجتيه سأشعر بأنني ساعدتكما على هذا الارتباط، واشتركت معكما في ذلك الجرم، كأنني من ناحية دفعت بك إلى أحضان ليو ومن ناحية أخرى قبضت الثمن من ماله... أتفهمين؟... أتفهمين الآن؟...". وهنا قفزت للسيارة فرطمتهما ببعضهما وشعرا بمقت...وساد صمت، واسرعت السيارة تجري.

سألها الفتى في النهاية فى صوت متأثر خزيان، وهو ينحني إلى الأمام، بجوار أخته: "هل ستسامحيني... هل ستسامحيني يا كارلا؟..".

كانت صامتة وتنظر أمامها، وابتسمت ابتسامة مصطنعة جافة ثم أجابته:

"ليس هناك مايستدعى أن أسامحك عليه ... أنت لم تسئ إلي... فما الذي أسامحك عليه؟".ساد صمت ثم قالت فى غضب وفي صوت باكي، دون أن ترفع عينيها عن زجاج السيارة: "ليس هناك ما يستدعى أن أسامح عليه أحد... لا أحد... لا أريد سوى أن يتركني الجميع وشأني". واغرورقت عيناها بالدموع، فالجميع مذنبون ولا أحد مذنب، فقد أرهقها كثرة البحث فى ذاتها وفى الآخرين ، لم تكن تريد أن تصفح ولا أن تدين، فالحياة هى الحياة، ومن الأفضل قبولها كما هي، بدلا من الحكم عليها، وليتركوها فى سلام.

بدا لميكيلي أن في هذه الكلمات إدانة مؤكدة له وقال فى دهشة: "أنا لم أفعل شيئا" وشعر بأنه أصبح هرم، وأنه عاش كثيرا في ذلك اليوم فقط وانتابه شعور بالخوف وقال: "إنها الحقيقة... أنا لم أفعل شيئا... لا شيء سوى أنه دار بخلدي..." ... لم أحب ليزا... لم أقتل ليو... لم أفعل شيء سوى التفكير... هذا هو خطئي". ثم انحنى وأمسك بيد الفتاة وسألها فى شغف:

"ولكنك سترفضينه... أليس كذلك؟ ... قولي لي إنك سترفضينه...".

ساد صمت ثم اجابت في النهاية: "سأتزوجه" ، وساد صمت من جديد ثم استطردت تقول فى صوت حزين قاس: "ماذا سيحدث لي لو لم أتزوجه ... ماذا سأصبح...؟ فكر في الأمر قليلا... في هذه الظروف التى أعيشها...". وأتت باشارة لتستعرض حالها، فتاة عارية، ضائعة، فقيرة: "سيكون من الجنون أن ارفض، لم يعد أمامي سوى الزواج منه...".

وصمتت، وهى تنظر أمامها كما كانت تفعل.

كانت نبرتها الجافة هى سبب اقناع ميكيلي أكثر من أي سبب آخر وراح يفكر وهو ينظر إلى وجنات كارلا الصبيانية، التي يضيئها كشاف السيارة ؛: "كل شيء قد انتهى ...إنها امرأة". شعر بالهزيمة وعاد ليسألها من جديد كطفل لم يقتنع تماما بما قيل له: "هكذا يا كارلا ... ستتزوجينه؟".

قالت مكررة دون أن تلتفت :"نعم ... سأتزوجه".

كانت السيارة تقترب من النهاية، والشوارع تتسع، وينعدم الناس فيها، لم تعد هناك بيوت، ولكن فيلات بالوان فاتحة وحدائق معتمة بللها المطر الغزير، ومصابيح قليلة في الطرقات وأرصفة كبيرة خواء. كانت كارلا تتابع بعناية سرعة السيارة وكانت أفكارها تتلاطم في عقلها المضطرب والمرهق بنفس السرعة، كانت السيارة هي حياتها، المنطلقة هائمة على وجهها في الظلام. وراحت تفكر ... نعم ...ستتزوج ليو... وتعيش معه فى فراش واحد، يتناولان طعامهما معا ويخرجان معا، يقومان برحلات، ويشتركان فى الامهما وأفراحهما... وسيصبح لها بيت

جميل، شقة جميلة في حي راقي من المدينة... وترى شخصا يدخل إلى الصالون المفروش بأثاث فاخر وذوق رفيع، إنها سيدة صديقة لها، تقدمت نحوها... وهاهما تتناولان الشاي معا، ثم تخرجان، وهاهى سيارتها تنتظرأمام الباب، تصعدان فيها و تنطلقان... سيطلقون عليها مدام... مدام ميرومتشى، أمر غريب، مدام ميروميتشي... وهاهى ترى نفسها الان أكثر طولا، وأكبر حجما، ساقيها ازدادتا سمنة، وخاصريها ازدادا عرضا، فالزواج يؤدي إلى السمنة،... والمجوهرات في رقبتها وفي أصابعها ومعصاميها... وتبدو أكثر صرامة وأكثر برودا، رائعة ولكنها باردة، كما لو كانت تخفى سرا خلف هاتين العينين الجامدتين، ولكي تحتفظ به قتلت كل الاحاسيس في داخلها. وبسلوكها هذا، وبملبسها الأنيق، ها هي تدخل البهو المزدحم لأحد الفنادق... يتبعها زوجها، ليو، وقد ازداد صلعة قليلا، وازداد سمنة قليلا، ولكنه لم يتغير كثيرا،وهاهما يجلسان، ويتناولان الشاي، ويرقصان، وكثير من الناس ينظرون إليها ويقولون في انفسهم: " إنها جميلة، ... امرأة جميلة ولكنها شريرة... فهي لا تبتسم أبدا... عيناها جامدتان بالفعل... تبدو كالتمثال... من يدري فيما تفكر". وآخرون واقفون، هناك عند أعمدة البهو، يتهامسون فيما بينهم ويقولون: "إنها تزوجت عشيق أمها... رجل يكبرها سنا... إنها لا تحبه ولابد أن لها عشيقا بالتأكيد". الجميع يتهامسون، يفكرون، ينظرون إليها... وهي تجلس بجوار زوجها هذا، وقد وضعت ساقا على ساق، وراحت تدخن سيجارة... وتحرك سيقانها... ثوبها قصير، وفتحة الصدر واسعة... والجميع ينظرون إليها فى اشتهاء كما لو كانوا يريدون قضمها؛ وهي ترد عليهم بنظرات تملأها اللامبالاة. غرفة مدام ميروميتشي... فهى متأخرة بسبب زيارة الزامية ... الأن تجري نحو عشيقها، ترتمى فى أحضانه لتتخلص من جمودها الذى يشبه جمود التمثال، فهؤلاء النسوة اللائي يتصفن بالجمود يكن الأكثر تأججا، وقد عادت طفلة صغيرة، تبكي وتضحك وتتلعثم، كما لو كانت سجينة أطلق سراحها وترى النور من جديد...كانت فرحتها بيضاء اللون، وكذلك الغرفة بأكملها بيضاء اللون، وهي بين أحضان عشيقها لا يلطخها شيء... لقد عاد إليها نقاؤها. وبعد ذلك، عندما تحين اللحظة، بعد أن تشعر بالتعب والسعادة، تعود إلى بيت الزوجية وترسم من جديد على

وجهها البرود المعهود... هكذا تستمر حياتها لسنوات... الكثيرون يحسدونها... إنها غنية، تستمتع، تسافر، لها عشيق، ماذا تريد أكثر من هذا؟ فكل ما يمكن أن تشتهيه امرأة لديها هي...

وتوقفت السيارة ... ونزلا منها...كان المطر قد توقف، والجو باردا ومليئا بالغيوم؛ والرياح الباردة تهز دون توقف أوراق النباتات في الحدائق المعتمة. قفزت كارلا برشاقة بركة المياه اتى كانت بين الرصيف والشارع، ووقفت تحت عمود إنارة... تنتظر أخيها حتى ينتهي من دفع الأجرة... عندئذ لاحظت شيئا طويلا أسود اللون واقفاعند حافة الطريق، كحوت كبير جاء به الغرين. إنها سيارة ضخمة، غطاء محركها يضوى، وقد غلب النوم سائقها وهو قابع على كرسيه بقبعته المدلاة على عينيه. دار بخلدها فى دهشة "إنها سيارة عائلة بيراردي"، وفجأة تذكرت تلك الدعوة لحضور حفلة الرقص التنكرية.

قالت لأخيها الذي كان يتقدم منها وهو يعبر بحذر برك المياه التى تكونت فى حفرالطريق: "أنظر يا ميكيلي ... انها سيارة عائلة بيراردي".

قال وهو يلقى نظرة سريعة إلى السيارة: "هذا صحيح ... لابد أنهم جاءوا ليصطحبونا إلى الحفل".

دخلا إلى الحديقة وعبراها في صمت، وهما ينظران فى حذر أين يضعان أقدامهما... وسمعا صوت الحصى الذي يمشيان عليه... رطوبة... أشكال خيالية كئيبة على صفحة السماء الملبدة... حفيف شديد للأشجار الكبيرة... إحساس بالهدنة... فلم يعد يهطل المطر.

وفي بهو المنزل الدافئ المضيء خلع ميكيلي معطفه وقبعته.

قال أخيرا لأخته التي كانت تنتظرة على عتبة الباب: "كارلا متى ستتحدثين مع أمك عن هذا الزواج؟".

نظرت إليه وأجابت في هدوء: "غدا".

وانتقلا إلى الممر... وتناهت إلى سمعهما أصوات وضحكات من الصالون... اقتربت الفتاة من الستارة التي كانت تخفي ذلك الباب، وأزاحتها فى حذر، وراحت تتجسس للحظة.

ـــ وهي تلتفت: "إنهم جميعا هنا...الثلاثة... بيبو وماري وفاني".

وصعدا السلم...واستقبلتهما في الصالون أمهما وليزا، كانت الأم قد تنكرت في زي إسبانية، كان وجهها رخو ومثير للشفقة وقد غطته طبقة سميكة من مساحيق التجميل، ووجناتاها مشتعلتان مزروعتان بالشامات، وشفتاها قرمزية اللون، وعيناها واهنتان غارقتان في صبغة سوداء، ورداؤها الأسباني الاسود الطويل كان يتموج حولها مع كل هزة لخصرها، بين ثنياته الوفرة الرخوة، ومن فوق المشط المصنوع من عظام السلحفاء الذى تضعه فى شعرها لتتزين، تتدلي طرحة انيقة مطرزة أطرافها بخيوط دقيقة لتهبط على كتفيها السمينين وذراعيها العريضين المرتجفين العاريين، وكانت تمسك فى يدها مروحة من ريش النعام، وتبتسم ببلاهة، كأنها تخشى من أن تخل بتوازن تسريحتها في أي حركة تأتي بها... كانت تسير ورأسها مستقيمة صلبة وبجوارها وقفت ليزا، كالنهار بجوار الليل، بدت شقراء، بيضاء كلون الدقيق، ترتدى ملابس ذات ألوان فاتحة.

بمجرد أن رأت الأم كارلا وميكيلي اقتربت منهما وصاحت قبل أن ينتهيا من صعود الدرج: "لقد تأخرنا... عائلة بيراردي ينتظرون منذ أكثر من ربع ساعة".

كانت راضية سعيدة... فقد قضت ليزا معها طوال فترة العصرية... فادركت أن عشيقها قد قال لها الحقيقة وأنه لم يخنها؛ وفى غمرة سعادتها تعاملت بكل لطف مع صديقتها، واطلعتها على كثير من أسرارها، وفكرت للحظة أن تدعوها لحضور حفل الليلة ... ولكنها عدلت عن ذلك بسبب أنانيتها من جهة، ولأن عائلة بيراردي لا يعرفون ليزا جيدا وربما يشعرون بالغضب بسبب حريتها من جهة أخرى. وقالت لكارلا التي وقفت تتأملها دون أن تتحرك: "اسرعى... اسرعى يا كارلا هيا ارتدي ثيابك التنكرية...".

سألتها الفتاة فى صوت متشكك وعميق، دون أن ترفع عينيها عن الأرض: "هل لابد أن أتنكر؟".

ضحكت الأم وقالت وهي تتمايل بطرحتها الإسبانية المموجة: "انتبهى يا كارلا... فيما تفكرين؟... أتريدين الذهاب إلى الحفلة دون أن تتنكري؟". وأمسكت بذراع ابنتها وهي تقول: "هيا... هيا... وإلا سنتأخر".

وبحركة آلية خلعت كارلا قبعتها... وتبعت أمها وهي تهز رأسها الضخمة الشعثاء، كان الثوب الأسباني يتموج في أناقة عند منطقة الأرداف البارزة الملفوفة... وكانت كارلا تنظر إليها ورأتها كما هي، لم تتغير ولن تتغير، وكأن شيئا لم يحدث في نهاية ذلك اليوم. وقالت تحدث نفسها: "ولكن... لابد من أن اخبرها بهذا الزواج". وانصرفا معا من الصالون تشد إحداهما الأخرى.

بقيت ليزا وميكيلي بمفردهما، فمنذ اللحظة الأولى كانت المرأة تتابع من مكانها في ركن الغرفة... فى فضول شديد مضطرب... كلا الاثنين... الأخ وأخته، وهما يصلان معا، الآن... وبعد أن انتظرت بلا جدوى أن يبدأ الفتى الكلام، اقتربت منه وسألته دون أن تخفي اهتمامها الشديد:

"حسنا ... أخبرني... كيف سارت الأمور؟".

فالتفت ونظر إليها مكررا كلامها فى بطء: "كيف سارت ... كيف سارت؟... سارت بشكل سيئ... لقد أطلقت عليه النار".

قالت ليزا في فزع مبالغ فيه، وهي تنظر إليه: "يا الهى! ... وهل جرحته؟"

"بل إننى لم المسه".

وجذبته إلى الأريكة فى انفعال وجلست بجواره وقالت: "تعال هنا... اجلس... واخبرنى بما حدث ...".

ولكن ميكيلي أشار إليها بحركة تدل على تعب ونفاد صبره: "ليس الآن... فيما بعد". ونظر إلى هذا اللحم الوردي الأبيض، وإلى هذا الصدر اليانع... وتملكته رغبة متعطشة في أن ينسى بؤسه ولو للحظة واحدة ... ثم سألها بعد أن كف عن تفحصها "هل تذهبين إلى الحفلة؟".

"لا".

قال مترددا: "إذن ... إذن، بما أنني أنا أيضا لن أذهب، فسوف آتي لتناول طعام العشاء فى بيتك.... وأحكي لك كل شيء".

رآها توافق بحماس وتقول: "حسنا، حسنا جدا... سنتناول العشاء معا". وابتسم في مرارة.

فكروقال لنفسه ثائرا وراضيا "هذه المرة ... لا تخافي ... لا تخشي شيئا، فلن أصدك".

كان يؤرقه شعور بالامتعاض الكئيب، لم تكن أفكاره سوى صحراء جرداء... لا إيمان ولا أمل يمكن أن يستريح في ظله ويستعيد عافيته... إن الزيف والخسة التى تمتلىء بهما نفسه كان يراهما في الآخرين... دائما... وكان يستحيل عليه أن ينتزع من عينيه تلك النظرة اليائسة، غير النقية التي تحول بينه وبين الحياة ... قليل من الصدق ... كان يردد لنفسه... متشبثا بفكرته القديمة الثابتة: "قليل من الإيمان... وكنت سأقتل ليو... ولكن سأكون الآن صافيا كنقطة ماء".

شعر باختناق... ونظر إلى ليزا، فقد بدا عليها السرور. ود لو أن يصرخ فيها: "كيف تعيشين؟ ... هل بصدق؟ هل بإيمان؟ اخبريني كيف تستطيعين الحياة". كانت أفكاره مضطربة، ومتناقضة وقال لنفسه وقد عاد يائسا فجأة إلى الواقع: "كذلك... ربما يرجع هذا إلى أعصابي المهزوزة... ولعل المسألة ليست سوى مسألة مال أو وقت أو ظروف". ولكن بقدر ما كان يحاول أن يقلل مشكلته أو يبسّطها، بقدر ما كانت تبدو له صعبة ومفزعة. وود لو أن يبكي: "من المستحيل الاستمرار هكذا". كانت الحياة تحيط به من كل جانب، متشابكة قاتمة كالغابة: لا ضوء يلوح في الأفق: "مستحيل".

عادت الأم وكارلا وقد تنكرت الأخيرة في ثياب بييرو أحد اقنعة كوميديا الفن، وكان يخفي وجهها قناع صغير من الساتان الأسود، وتضع حول رقبتها عقد ضخم يتأرجح ، وترتدى سترة وسروال وحذاء من الحرير الأبيض وأزرار سوداء ضخمة، وتسيرعلى أطراف

أصابعها،ووضعت قبعتها على رأسها بالعرض قليلا، ابتسمت ابتسامة غامضة:

سألت الأم: "كيف نبدوا لكما؟".

قالت ليزا: "جميل جدا... جميل جدا ... هيا استمتعا".

قالت الفتاة وقد انفجرت في الضحك: "هذا ما سوف نفعله"، كانت تشعر وهي متنكرة بأنها فتاة أخرى، أكثر مرحا، وأكثر خفة... واقتربت من أخيها، وضربته ضربة خفيفة على كتفه بالمروحة وقالت فى صوت منخفض. "غدا سوف نتحدث معا"، لقد تركت اعترافاته لها في السيارة انطباعا مؤلما لديها، وبدا لها أن ميكيلي راح يدمر الحياة؛ "بينما كل شيء بسيط جدا"،هكذا كانت تفكر وهي ترتدي سروال بييرو أمام المرآة: "والدليل على ذلك أنني بالرغم مما حدث ها أنا ارتدى ثيابا تتكرية وأذهب إلى الحفل". كانت تود لو صرخت في ميكيلي قائلة: "إن كل شيء بسيط جدا"، وراحت تفكر له عن عمل ... عن وظيفة ... وظيفة ما... عن طريق ليو، بمجرد أن يتزوجا... ولكن جذبتها أمها قائلة:

"هيا ... هيا لنذهب... أن عائلة بيراردي ينتظروننا".

هبطتا السلم جنبا إلى جنب، البييرو الأبيض والأسباني الأسود؛ وعند المستراح أوقفت الأم ابنتها وهمست في أذنها قائلة:

"تذكري... كوني... ماذا إقول؟...كونى لطيفة مع بيبو... فقد عاودت التفكير في الأمر... ربما يحبك... أنه زوج جيد".

ردت كارلا فى نبرة جادة : "لا تخفي".

وهبطتا قلبة السلم الثانية. كانت الأم تبتسم الآن في رضاء. كانت تفكر فى أن عشيقها سيأتي إلى الحفل أيضا ، وراحت تستمتع سلفا بسهرة ممتعة.

***

ألبرتو مورافيا

ألبرتو مورافيا كاتب إيطالي ولد في روما سنة 1907 م وتوفى في 26 سبتمبر سنة 1990 في مدينة روما التي عاش فيها جل حياته. يعتبر من أشهر كتاب إيطاليا في القرن العشرين، وهو يكتب بالإيطالية ويتكلم اللغتين الإنجليزية والفرنسية.

ولد في عائلة ثريّة من الطّبقة الوسطى. أبوه اليهوديّ كارلو كان رساما ومهندسا وأمه الكاثوليكيّة كانت تدعى تيريزا ليجيانا. لم ينه ألبرتو دراسته لانّه أصيب بالسلّ الذي أقعده في الفراش لخمس سنوات ممّا جعله يحب المطالعة. في سنة 1929 كتب مورافيا أوّل مؤلفاته Gli Indifferenti ثمّ بدأ حياته المهنيّة ككاتب في مجلّة 900 حيث نشر أوّل قصصه القصيرة.

سنة 1967 سافر ألبرتو مورافيا إلى الصين واليابان وكوريا الجنوبية، وفي سنة 1972 زار إفريقيا حيث كتب (A quale tribù appar-tieni) (إلى أي قبيلة تنتمي؟) ونشرت في نفس السّنة ثم في سنة 1982 زار هيروشيما في اليابان.

سنة 1990 وجد ألبرتو مورافيا ميتاً في حمام بيته في روما في نفس السنة نشرت سيرته الذاتية (Vita di Moravia) (حياة مورافيا).

أ.د. سهيمة سليم صالح

أستاذ مساعد بقسم اللغة الإيطالية
- كلية الالسن - جامعة عين شمس .
حصلت على دكتوراه الألسن فى اللغة الإيطالية وآدابها عام 1990 بتقدير مع مرتبة الشرف الأولى.
لها دراسات منشورة فى الأدب الإيطالى وتقوم بالإشراف على العديد من رسائل الماجستير والدكتوراه .

قامت بالاشتراك فى ترجمة موسوعة المرأة العالمية،وكذلك الاشتراك فى ترجمة كتاب "تاريخ مسلمى صقلية" للكاتب ميكيلى امارى 2004.
حصلت على دورات تابعة لمشروع تنمية قدرات أعضاء هيئة التدريس والقيادات بجامعة عين شمس .ودورات تابعة لمركز ضمان الجودة و الاعتماد
عضو بوحدة ضمان الجودة بالكلية

ت . العمل
0222627214
0224036340

profsuhaima@yahoo.it

تصميم الغلاف: أحمد كامل
دار شرقيات